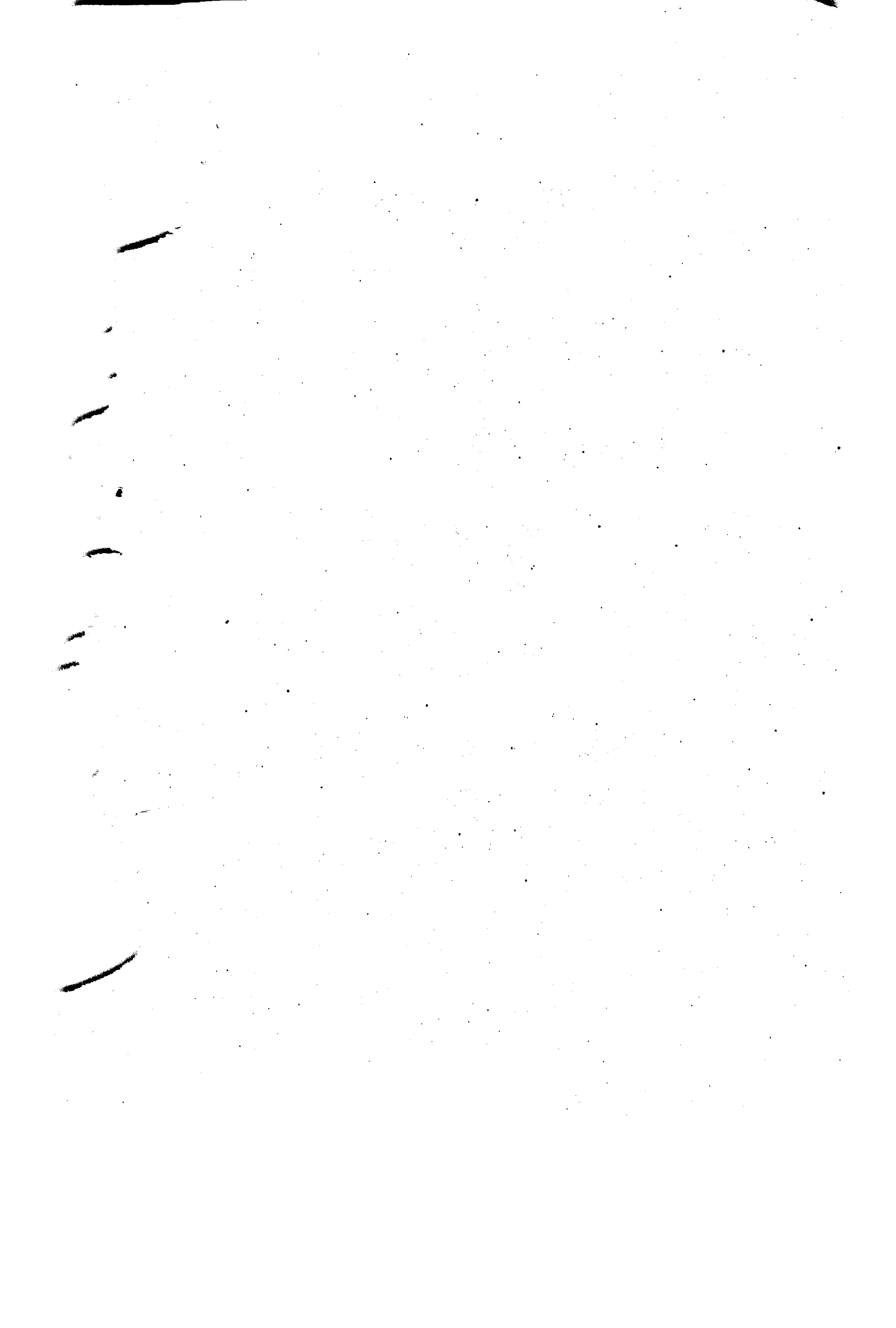
جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا
قسم العقيدة والفلسفة

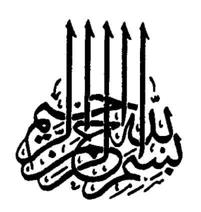
الجهود الفكرية لتصحيح الطريق لدى الصوفية

دراسة تحليلية

للدكتور
عبدالمنعم السيد عبدالوارث البرلسي
مدرس بقسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧م





﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن
تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران آية ١٧٩

شكر وتقدير

الشكر أولاً لواهب النعم، الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وهو الذي أعانني على معالجة هذا الموضوع، وأرجو منه سبحانه أن يقبلني ويعفو عني ويرحمني .

وإلى أستاذي الجليل الذي أنعم الله به علي لإشرافه على هذه الرسالة المقدمة لنيل درجة العالمية الدكتوراه، والذي كان له الفضل الكبير في اختيار هذا البحث وفي إتمامه بهذه الصورة

الأستاذ الدكتور / عبد الله يوسف الشاذلي .

جزاك الله خيراً على توجيهاتك الرشيدة ، وبارك الله فيك وجعلك عوناً لكل خير

الإهداء

* إلى من شرفنا الله - عز وجل - بالانتساب إليه وجعلنا من أمته .
* إلى نور الوجود سيدنا محمد ﷺ . إلى روحه الطاهرة .
* ثم إلى روح أبي الطاهرة ، طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، ورفع درجاته في عليين ، وأسكنه مساكن المقربين ، وأنزله منازل الصديقين والمحسنين .
* إلى ريحانة القلب ، ونور العين ، إلى من صنعني الله على عينيها ، فكانت لي مشعل الهداية في دنيا الغواية ، أمي بارك الله فيها وأمتعها بموفور الصحة والسعادة
* إلى بناتي سحر ، وفاطمة الزهراء ، وخديجة ، وإلى زوجتي ، وإخوتي ، وإلى كل أخ كريم أمدني بأي معلومة ، أو أعانني بمساعدة ، وإلى أمة المسلمين أجمعين .

أسأل الله العظيم أن يجزي الجميع عني خير الجزاء

المقدمة



المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو الحي الذي لا يموت وهو على كل شيء قدير .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه ، اللهم صلي وسلم عليك سيدي يا رسول الله وعلى آلك وصحبك ومن اهتدى بهديك واستن بسنتك إلى يوم الدين وبعد .

فقد تدفق التصوف الإسلامي من ينابيع الزهد التي سادت المجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجري (١) ، يدعو إلى الاتصال بالله ،

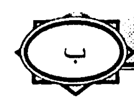
---

(١) اختلف العلماء حول الوقت الذي ظهر فيه مصطلح التصوف واتجهوا في ذلك اتجاهات ثلاثة :

الاتجاه الأول : يرى أصحابه أن هذا الاسم كان يعرف قبل الإسلام وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح ، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على ما ذكره محمد بن إسحاق من أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف " . انظر اللمع للطوسي : ص ٤٢ - ٤٣ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، ط (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م) .

الاتجاه الثاني : يرى أصحابه أن هذا الاسم ظهر في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ويعتمد أصحابه على قول الحسن البصري ١١٠ هـ : " رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي " . انظر اللمع : ص ٤٢ .

الاتجاه الثالث : وهو اتجاه الغالبية من العلماء ، ويرى أصحابه ومنهم القشيري والسهروردي وغيرهم من العلماء أن الكلمة اشتهرت في نهاية القرن الثاني الهجري ، فالقشيري يقول في الرسالة : " واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة " ، ويقول السهروردي =



وإلى معرفة الذات العلية بالشهود والعيان ، وإلى تصفية وتهذيب النفس والروح والقلب ، وإلى الأخلاق الحميدة ، وإلى الزهد عما في أيدي الخلائق ، وإلى لزوم العبادة والإكثار منها .

وقد قام التصوف منذ نشأته " على أساس سني ، وقد سادته روح الجماعة الواحدة في الأصل والسلوك ... وقد ظلت تلك الحركة الأصيلة تمثل الغالبية العظمى من السالكين أرباب المقصد الحسن والعقيدة السلفية والسلوك المستقيم " (١)

وبعد مرور فترة من الزمان ، دخل التصوف بعض الأدعياء وأدخلوا فيه ما ليس منه ، وقصروه على الرسوم والمظاهر ، ونادوا ببعض العقائد الفاسدة ، ومالوا به إلى الوجهة الفلسفية ، وقد أغضب هذا كله أهل التصوف الحق ، وقاموا بجهود كثيرة في مواجهة هذا الدخيل ، وهؤلاء الأدعياء .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تبين الجهد الذي قام به أهل التصوف الحق في تنقية التصوف وتصحيحه ، والعودة به إلى حظيرة الإسلام حتى يقوم بدوره الذي قام من أجله .

أسباب اختيار الموضوع :

وأما عن أسباب اختيار الموضوع فترجع إلى ما يلي :

[١] أنني قد لاحظت أن الصوفية قد اهتموا اهتماما بالغا بتصحيح الطريق الصوفي مما لحق به ، ومع هذا فقد وجدت أن الباحثين لم يهتموا ببيان هذه الجهود بالرغم من اهتمامهم بجهود غير الصوفية التصحيحية .

- : " وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة " . انظر الرسالة للقشيري : ص ٣٨٩ ، تحقيق معروف زريق ، وعلي عبد الحميد قطب أبو الخير ، دار أبو الخير ، ط ٢ (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م) ، وعوارف المعارف للسهروردي : ص ٦٧ ضمن المجلد الخامس من إحياء علوم الدين للغزالي ، دار الحديث ، خلف الجامع الأزهر ، ط بدون تاريخ .

(١) د / عبد الله الشاذلي : التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٢ ص ٣٣١ ، دار الهداية للطباعة والنشر ، ط بدون تاريخ .

[٢] كما أنني لاحظت أن الصوفية في معالجتهم لهذا الأمر قد نهجوا منهجا يتسم بالحيدة والدقة والأمانة ، ويعتمد على النقل المرتبط بالعقل ، كما يعتمد على التجربة الذوقية مما يجعل هذا النهج جدير بالدراسة والبحث للوقوف على طبيعته وخصائصه .

منهج البحث :

وأما عن منهج البحث في هذا الموضوع فهو المنهج التاريخي من خلال عرض نصوص الصوفية حول القضايا التي قاموا بتصحيحها على مر العصور ، وكذلك المنهج التحليلي الذي يقوم على تحليل النصوص بطريقة موجزة مؤيدة بالكتاب والسنة ، وغيرهما من المناهج الأخرى عند الحاجة إليها .

خطة البحث

المقدمة وتشتمل على ما يلي :

[١] أهمية الموضوع وأسباب اختياره

[٢] منهج البحث . [٣] خطة البحث .

التمهيد : وتشتمل على ما يلي :

التعريف بالمفردات .

[١] التعريف بالجهود والتصحيح .

[٢] التعريف بالطريق . [٣] التعريف بالتصوف والصوفية .

الباب الأول : سمات التصحيح

الفصل الأول : عوامل التصحيح .

الفصل الثاني : مصادر التقويم .

الفصل الثالث : الخصائص التصحيحية .

الباب الثاني : جهود تصحيح العقيدة

الفصل الأول : تنقية العقيدة في مجال الإلهيات .

الثاني : تنقية العقيدة في مجال النبوات والسمعيات .

الباب الثالث : جهودهم التصحيحة في المجال النفسي

الفصل الأول : طريقة القوم في توجيه النفس .

الثاني : تركيز التصحيح على الاستقامة ظاهرا وباطنا

الباب الرابع : جهود التقويم للعملية التربوية .

الفصل الأول : التوجيهات الخاصة بالمربيين .

الفصل الثاني : لفت الأنظار إلى تقويم المريدين .

الخاتمة : وتشتمل على ما يلي :

[١] أهم النتائج والتوصيات . [٢] ثبت بالمراجع والفهارس.

وختاما نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، فإن كنت قد وفقت فمن الله عز وجل ، وإن كانت الأخرى فإن الحسنات يذهبن السيئات وحسبي أني اجتهدت قدر طاقتي وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

التمهيد

التمهيد :

سوف يتناول الباحث في هذا التمهيد التعريف بالمصطلحات الواردة في عنوان البحث ، ومع أن تلك عادة جارية لا جديد فيها وأن المفردات تبدوا واضحة لكن ذكرها وتعريفاتها يلقي ضوءا كاشفا عما جمله البحث برمته .

ونبدأ التعريفات بالترتيب الموجود في العنوان دون تقديم أو تأخير :

التعريف بكلمة جهود في اللغة والاصطلاح :

أولاً : في اللغة :

جاءت الكلمة في اللغة بمعنى المبالغة في استفراغ الوسع والطاقة من قول أو فعل [١] .

فقد جاء في مختار الصحاح : " الجهد : بفتح الجيم وضمها الطاقة والوسع " وقرئ بهما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ .

والجَهْد : بالفتح المشقة ، يقال : جَهَدَ دابته وأجهدها إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها ، وجَهَدَ الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ ... ، وجاهد في سبيل الله مُجَاهدة وجهادا ، والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع ، والمجهود ... " [٢] .

وقد جاء ذلك المعنى في القرآن الكريم فقال تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣] .

ثانيا : في الاصطلاح :

عرف الفلاسفة الجهد بأنه ضرب من الفعل يتغلب به الكائن الحي الواعي

---

(١) الزبيدي : تاج العروس جـ ٢ ص ٣٢٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ط بدون تاريخ .

(٢) الرازي : مختار الصحاح ص ١١٤ ، عني بترتيبه محمود خاطر بك ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ط ٤ (١٣٣٥ هـ - ١٩١٦ م) .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

ما يعترض طريقه من عقبات خارجة أو داخلة [١] .

ويعرفه علماء النفس فيقولون : الجهد عبارة " عن كل نشاط يبذله الكائن الواعي جسميا أو عقليا ويهدف إلى الغاية " [٢] .

مدلول كلمة فكرية :

أولا : في اللغة :

وردت كلمة فَكّر في اللغة بمعنى أعمل عقله في الشيء فيقال : فكر في الشيء فكرا وفَكرا ... أعمل النظر فيه وتأمله ... والفكر : تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني و " لي في الأمر فكر " أي نظر ورؤية و " مالي فيه فِكْرٌ " أي حاجة . والفكري والفكره بالكسر فيهما : إعمال الخاطر في الشيء والأخيرة قليلة وهما اسمٌ من الافتكار مثل العبرة والاعتبار و الفكير والفيكر كسكير وخيدر الكثير التفكر " [٣]

ثانيا : في الاصطلاح .

عرف العلماء الفكر في الاصطلاح بأنه إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها ، ويطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية ، وهو مرادف للنظر العقلي والتأمل [٤] .

ويطلق الفكر عند الفلاسفة ويراد به " حركة النفس في المعقولات سواء كانت بطلب أو غير طلب أو كانت من المطالب إلى المبادئ ، أو من المبادئ إلى المطالب " [٥] .

---

(١) د / جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـ ١ ص ٤٢٢ ، دار الكتاب اللبناني ط ١٩٥٢م .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) سعيد الخوري . أقرب الموارد جـ ٢ ص ٩٣٨ – ٩٣٩ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ط (١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م) ، وانظر مختار الصحاح : ص ٥٠٩ .

(٤) المعجم الفلسفي لجميل صليبا جـ ٢ ص ١٥٤

(٥) المرجع السابق نفسه .

وعرفه ابن سينا قائلا : " الفكر ... ما يكون عند إجماع الإنسان أن ينتقل من أمور حاضرة في ذهنه متصورة أو مصدقا بها تصديقا عمليا أو ظنيا أو وضعا وتسليما إلى أمور غير حاضرة فيه " (١) .

ويعرفه د / جميل صليبا فيقول : " الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات أو يطلق على المعقولات نفسها :

فإذا أطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية وهي النظر والتأمل .

وإذا أطلق على المعقولات دل على الموضوع الذي تفكر فيه النفس ، وهو مرادف للفكرة : ومنه الفكر الديني ، والفكر السياسي ، والفكري المنسوب إلى الفكر ، تقول الحياة الفكرية والعمل الفكري " (٢) .

مفهوم كلمة تصحيح :

أولا : الكلمة في اللغة :

وردت كلمة تصحيح في اللغة بمعنى : الإصلاح وإزالة الأخطاء والعيب فيقال : " صح الشيء صحة : برئ من كل عيب أو ريب فهو صحيح ... و " أزال خطأه ، أو عيبه " (٣) ، و" صح الشيء جعله صحيحا ، وصححت الكتاب والحساب تصحيحا إذا كان سقيما فأصلحت خطأه " (٤) ، و" أصح الله فلانا صححه وأزال مرضه " (٥) .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٣) انظر مختار الصحاح : ص ٣٥٦ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب جـ ٣ ص ٣٣٩ ، دار المعارف السعودية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ط بدون تاريخ .

(٥) تاج العروس : جـ ٢ ص ١٧٧ .

ثانيا : في الاصطلاح :

لم يبتعد تعريف التصحيح في الاصطلاح عن تعريفه في اللغة ، فالتصحيح عند أهل الاصطلاح يعني تصويب ما وقع في الشيء من أخطأ وإزالة ما به من آفات .

فقد جاء في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : " والتصحيح هو تفعيل من الصحة التي هي ضد السقيم فيكون المعنى إزالة السقّم من السقيم ، وعند المحدثين هو كتابه صح على كلام يحتمل الشك ... ، وهو عند أهل الفرائض هو أن يؤخذ السهام من أقل عدد يمكن إلى وجه لا يقع الكسر على واحد من الورثة بمنزلة السقم فتعالجه بالطريق المذكور المعروف عندهم فأنت بمنزلة الدواء ، والحاصل إزالة الكسر الواقعة بين السهام والرءوس " (١) .

معنى الطريق في اللغة والاصطلاح .

أولا : في اللغة :

الطريق في اللغة " السبيل يذكر ويؤنث تقول الطريق الأعظم والطريق العظمى ، والجمع أطرقه وطرق ... " (٢) .

ويطلق الطريق في اللغة أيضا على المذهب فقد جاء في لسان العرب : " الطريق ما بين السكتين من النخل ، قال أبو حنيفة يقال بالفارسية " الرشوان والطريقة السيرة وطريقة الرجل مذهبه " (٣) .

قال الزبيدي : " قال الراغب : استعير عن الطريق كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محمود كان أو مذموم " (٤) .

---

(١) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم جـ ١ ص ٤١٩ ، تحقيق د / على دحروج ، مكتبة لنان ناشرون ، ط ١ (١٩٩٦ م) ، وانظر التعريفات للجرجاني : ص ٦٨ ، تحقيق د / عبد المنعم الحنفي ، دار الرشاد ، ط بدون تاريخ .

(٢) مختار الصحاح : ص ٣٩١ .

(٣) لسان العرب : جـ ١٢ ص ٩٠ .

(٤) تاج العروس : جـ ١ ص ٤٣٠ .

ثانيا : الطريق في الاصطلاح :

تطلق لفظة الطريق عند الصوفية ويراد بها " السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مشتملة على الأعمال والرياضات والعقائد المخصوصة بها وعلى الأحكام الشرعية " (١) .

أو هي : " السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات " (٢) .

وهي من الكلمات التي تطور معناها بمرور الزمان ، فقد كانت تطلق عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ويراد بها : مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التي يتمسك بها طائفة الصوفية " (٣) .

وتذكر أيضا بمعنى " منهج الإرشاد النفسي والخلقي الذي يربي به الشيخ مريده " (٤) .

وفي القرن الخامس الهجري أصبحت كلمة الطريق " عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية المختلفة التي بدأت تنشأ من ذلك الحين ... وأصبحت تدل أكثر ما تدل على منهج نظري مثالي ... من شأنه أنه يدبر كل سلوك وذلك برسم طريق لسفر النفس إلى الله تسلكه خلال منازل نفسية مختلفة هي المقامات والأحوال ، وهي التطبيق العملي الحرفي للشريعة ... وقد تطورت إلى أن أصبحت تدل على المعاشرة القائمة على الرعاية الإسلامية العادية وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة لكي

---

(١) هامش اصطلاحات الصوفية للكاشاني : ص ٨٤ ، تحقيق د / عبد الخالق محمود ، دار المعارف ط ٢١ (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) .

(٢) التعريفات : ص ١٦ ، والمعجم الفلسفي : ٢ ص ٢٢ .

(٣) د / عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر ص ٢٤ ، دار المعارف ، ط ٣ (١٩٨٦ م) .

(٤) المرجع السابق نفسه .

يصبح الإنسان مريدا " [١] .

وتتمثل ملامح الطريق الصوفي في ثلاثة أشياء : شيخ ، ومريد ، وعهد بينهما.
ويقوم الطريق الصوفي على دعائم ثلاث هي :
١ – مجموعة العقائد . ٢ – والآداب . ٣ – والأخلاق [٢] .

وقد اهتم الصوفية بهذه الدعائم اهتماما بالغاً ، وجاهدوا في سبيل الحفاظ عليها نقية صحيحة وهو ما سوف يبينه الباحث ويبرزه من خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وعليه ومن خلال ما سبق فإننا نعني من " الجهود الفكرية لتصحيح الطريق لدى الصوفية " ما بذله القوم من عمل عقلي لإزالة ما ألم بالطريق من أخطاء .

التعريف بالتصوف والصوفية :

جرت عادة العلماء عند حديثهم عن الصوفية والتصوف أن يدور الحديث حول اشتقاق الكلمة ، وحول تعريف التصوف والصوفي وسيرا على ما درج عليه العلماء سوف يتناول الباحث ذلك بصورة مختصرة ، وذلك لكثرة حديث العلماء عنها .

اشتقاق كلمة التصوف :

اختلف العلماء حول الكلمة هل هي مشتقة أو جامدة وافترقوا إلى فريقين :

الفريق الأول القائلون بالاشتقاق :

ذهب أصحاب هذا الفريق إلى أن الكلمة مشتقة ولكنهم اختلفوا في الأصل الذي اشتقت منه ، وجاءت أقوالهم على النحو التالي .

اشتقاق الكلمة من الصف :

يذهب البعض إلى أن الكلمة مشتقة من الصف وذلك لأن الصوفية "

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : جـ ١٥ ص ١٧٢ ، دار المعرفة – بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ .

(٢) الطرق الصوفية في مصر : ص ٣١ .

بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بين يديه بسرائرهم في منزلة الصف الأول " [١] .

وبالرغم من صحة هذا القول من الناحية المعنوية إلا أنه خاطئ من الناحية اللغوية لأن اللغة " لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف " [٢] ، إذ النسبة إلى الصف هي صفي لا صوفي " [٣] .

اشتقاق الكلمة من الصفاء :

يذهب البعض إلى أن الكلمة مشتقة من الصفاء ، وقد تحزب لهذا الرأي عدد غير قليل من أبناء الطريق نظراً لمناسبته في المعنى مع غاية التصفية والتحلية التي ينشدها السالكون عموما .

وممن ذهب إلى ذلك إبراهيم الخواص فقد كان يقول : " الصوفي اشتق اسمه من الصفاء فصفا ونأى " [٤] ، وأبو الفتح السبتي حيث قال : " تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من التصوف :

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافي فصوفي حتى لقب الصوفي " [٥]

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٢٧٩ .

(٣) د / فتحي الزغبي : دراسات في التصوف الإسلامي جـ ١ ص ١٧ ، ط ١ (١٤١٨ هـ) ، وانظر الصوفية والفقراء لابن تيمية : ص ١١ ، مكتبة المدني - جدة ، ط بدون تاريخ ، وانظر الحياة الروحية في الإسلام : د / محمد مصطفى حلمي ص ١٠٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ م .

(٤) البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٨ ، المكتبة السلفية – المدينة المنورة ، ط بدون تاريخ ، وانظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٢ ، وانظر كشف المحجوب للهجويري : جـ ١ ص ٢٢٧ ، ترجمة / إسعاد قنديل ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ط ١٩٨٤ م .

وبالرغم من وجاهة هذا الرأي وصحته من الناحية المعنوية فإنه " فاسد من الناحية اللفظية ، إذ هو على الرغم من انطوائه على معنى الصفاء الذي يتهيأ لقلب الصوفي ، فإنه لا يتمشى بحال مع أبسط قواعد الاشتقاق اللغوي ، لأن النسبة إلى الصفاء هي صفوي ، ... لا صوفي " (١) .

اشتقاق الكلمة من الصُّفَّة :

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الكلمة نسبة إلى الصُّفَّة " لقرب أوصاف الصوفية منهم " (٢) .

وأهل الصفة " رجال كانوا يسكنون صفة مسجد رسول الله ﷺ ولا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، ويعملون نهارا في رضخ النوى ، ويشتغلون ليلاً بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته ، فلما تشابه رسمهم في الاجتماع والتألف والصحبة ، وتشابهت أحوالهم في الغربة والهجرة والفقر والجوع ودنوا من صفات أهل الصفة نسبوا إليهم " (٣) .

وبالرغم من صحة هذا الرأي " من حيث المعنى ، لأن الصوفية يشاكل حالهم أولئك لكونهم متآلفين متحابين لله وفي الله كأصحاب الصفة " (٤) ، فإنه مرفوض من الناحية اللغوية وذلك لأن النسبة إلى الصفة صُفّي لا صوفي (٥) .

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام : ص ١٠٥ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٧٩ .

(٢) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٦ ، تحقيق / محمد أمين النواوي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط ٣ (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٣ ، وانظر اللمع للطوسي : ص ٤٧

(٤) عوارف المعارف : ص ٦٥ .

(٥) انظر الرسالة القشيرية : ص ٢٧٩ ، والصوفية والفقراء : ص ١١ ، والحياة الروحية في الإسلام : ص ١٠٦ ، ودراسات في التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ٢٣ .

اشتقاق الكلمة من (سوفيا) اليونانية :

ذهب بعض العلماء إلى أن كلمة التصوف مأخوذة من كلمة سوفيا اليونانية ، ومن أقدم من ذهب إلى ذلك من العلماء البيروني ، فقد أرجع الكلمة إلى سوفيا اليونانية للتشابه بين أفكار بعض الصوفية وبين النظريات الفلسفية كالقول بوحدة الوجود والاتحاد [١] ، وقد رفض كثير من العلماء هذا الرأي واعتمدوا في ذلك على مجموعة من الأمور :

[١] عدم صحة اشتقاق التصوف من هذه الكلمة حيث لم يرد اشتقاق الكلمة من هذا لا عن طريق السماع ولا القياس ولا عند الشواذ ولكن يقال في النسبة إلى " سوفيا " سوف بالسين لا بالصاد لأن العرب يترجمون الحرف " S " بالسين لا بالصاد .

[٢] أن كلمة " سوفوس وسافيس " غير معروفتين في اللغة الآرمية وبالتالي فلا تكونان معروفتين في العربية والذي نقل إلى العرب هو العلم بمدلول الكلمات (سوفسطيس) و (فيلوسوفوس) ، والمقطوع به أن النقل كان بعد ظهور كلمة صوفي حيث ظهرت الكلمة قبل المائتين من الهجرة .

[٣] أن كلمة سوفيا يوم نقلت إلى العرب كانت تعني عند أربابها العلوم الطبيعية والطب وجميع فروع العلم بما في ذلك الحكمة الفلسفية لا الروحانية .

[٤] أن الأفكار التي اعتمد عليها البيروني في إرجاع التصوف إلى " سوف " لم تظهر بين الصوفية بصورة فلسفية إلا بعد ظهور كلمة صوفي بما يزيد عن خمسة قرون .

[٥] أن الكلمة لو كانت من أصل يوناني لنبه الصوفية إلى ذلك ولنص

---

(١) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة ص ٢٤ – ٢٥ ، تقديم د / محمد على مكي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة " سلسلة الذخائر ١٠٩ ، ط ٢٠٠٣ م ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

المؤلفون العرب على هذا الاشتقاق وذكروه ضمن ما ذكروا مما دخل العربيه من ألفاظ أعجمية خاصة وأنهم ما كانوا يأنفون من ذكر الألفاظ المتعربة والتي نراها أحيانا في القرآن ذاته مثل كلمة " قوارير " وغيرها (١) .

اشتقاق الكلمة من صوفةَ " الغوث بن مر " :

من العلماء من حاول إرجاع الكلمة إلى رجل كان يقال له صوفةَ وهو الغوث بن مر ، وصاحب هذا القول هو ابن الجوزي فقد قال : " كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام فيقال مسلم ومؤمن ، ثم حدث زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفةَ واسمه الغوث بن مر فنسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية " (٢) ..

ويذكر السبب الذي من أجله سمي الغوث بصوفةَ فيقول : " قال محمد بن السائب الكلبي : إنما سمي الغوث بن مر صوفه لأنه ما كان يعيش لأمه ولد ، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل صوفةَ ولولده من بعده " (٣) .

وقد أبطل ابن تيمية هذا الرأي فقال : " وقيل نسبة إلى صوفةَ بن بشر بن أدّ بن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النساك ، وهذا إن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضا " (٤)

---

(١) انظر التصوف الصوفي الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ص ٢٩٥ ، وتاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري : د / عبد الرحمن ص ١٠ – ١١ ، وكالة المطبوعات الكويت ، ط ٢ (١٩٧٨ م) ، ودراسات في التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ١٦٣ ، دار ابن خلدون ، ط بدون تاريخ

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٤ .

(٤) الصوفية والفقراء ص ١٢

ويبني قوله هذا على مجموعة من الأمور منها :

١ – أن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك .

٢ – ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى .

٣ – ولأن غالبية من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية ولا وجود لها في الإسلام [١] .

٤ – يضاف إلى ما ذكره ابن تيمية ما ذكره أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي ، وغادة عدرة من أن ابن الجوزي كان يقصد من ذلك " إرجاع التصوف إلى الجاهلية بدلا من الإسلام لموافقة ذلك لهواه المعادي لكثير من آراء القوم " [٢]

اشتقاق الكلمة من الصوف :

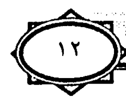
يرى أصحاب هذا الرأي أن التصوف مشتق من الصوف نسبة إلى لبس الصوف ، وأصحاب هذا الرأي هم أغلب العلماء ، فمن الصوفية الطوسي ٣٧٨هـ والكلاباذي ٣٨٠ هـ ، والسهروردي ٦٣٨ هـ ، واليافعي ٧٦٨ هـ ، ومن غير الصوفية ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، وابن خلدون ، وممن ذهب إلى ذلك في العصر الحديث د / محمد مصطفى حلمي ، ود / عبد الحليم محمود ، ود / عبد الرحمن بدوي ، ود / عبد الله الشاذلي [٣] .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٤ ، وانظر مقدمة صفوة التصوف للمقدسي : غادة عدرة ص ٨٠ – ٨١ ، دار المنتخب العربي – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م) .

(٣) انظر اللمع للطوسي : ص ٤٠ ، والتعرف : ص ٢٧ ، وعوارف المعارف : ص ٦٥ ، ونشر المحاسن الغالية لليافعي : ص ٣٩٨ ، تحقيق إبراهيم عطوه عوض ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ٢ (١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م) ، والصوفية والفقراء : ص ١٢ ، ومقدمة ابن خلدون : ص ٣٢٨ ، دار ابن خلدون ، ط بدون تاريخ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : =



ويرجع هؤلاء العلماء أسباب اختيارهم لهذا الرأي إلى مجموعة من الأسباب :

الأول : ارتداء غالبية الصوفية للصوف :

يعد ارتداء الصوفية للصوف السبب الأول الذي أدى إلى اختيار هؤلاء العلماء هذا الرأي يقول الكلاباذي " فمن لبسهم وزيهم سموا صوفية " (١) ، ويرجع ارتداء الصوفية للصوف إلى أن لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام فعن عبادة بن الصامت قال : " خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم وعليه جبة رومية من صوف " (٢)

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن المغيرة بن شعبة أنه قال " كنت مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر فقال أمعك ماء ، قلت : نعم ، فنزل عن راحلته وعليه جبة من صوف " (٣) .

وعن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ توضأ فقلب جبة صوف كانت عليه فمسح بها وجهه " (٤) .

- د / عبد الحليم محمود ص ٣٤ ، دار المعارف ، ط بدون تاريخ ، وتاريخ التصوف الإسلامي : ص ٨ ، والحياة الروحية في الإسلام : ص ١٠٧ – ١٠٨ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٦ .

(١) التعرف : ص ٢٧ ، وعوارف المعارف : ص ٦٥ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٣٦٦ – ٣٦٧ ، كتاب اللباس ، باب لبس الصوف ، حديث رقم [٣٥٦٣] ، تحقيق / صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م) .

(٣) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٢٦ ، كتاب : اللباس ، باب : جبة الصوف في الغزو ، دار نهر النيل للطباعة والنشر والتوزيع ، ط بدون تاريخ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٣٦٧ ، كتاب اللباس ، باب لبس الصوف حديث رقم [٣٥٦٤] .

وقال الحسن البصري : " كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى " (١) .

ويرجع أيضا إلى تفضيل كثير من الصحابة له ، فقد وصفهم أبو هريرة فقال : " كان لباسهم الصوف حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه المطر " (٢) .

وقال الحسن البصري : " لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف " (٣) .

ولأن لبس الصوف علامة على التواضع ، كما أنه أرفق وأرخص ويسهل شراؤه على المتقللين والمتجردين (٤) .

السبب الثاني : أن الحق سبحانه وتعالى نسب أصحاب عيسى عليه السلام إلى ظاهر اللبسة فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ (٥)(٦)وكانوا قوما يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين فكذلك الصوفية (٧) .

السبب الثالث : أن هذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص (٨) .

---

(١) التعرف : ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٨ – ٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٩ .

(٤) انظر عوارف المعارف : ص ٦٥ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٩٨ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٥) سورة المائدة آية ١١٢

(٦) اللمع للطوسي : ص ٤١ ، والحياة الروحية في الإسلام : ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٧) عوارف المعارف : ص ٦٥ .

(٨) المرجع السابق : ص ٦٦ .

السبب الرابع : أن الصوفية لو نسبوا إلى غير الصوف تضمن ذلك دعوى وإذا نسبوا إلى الصوف لم يتضمن ذلك دعوى وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم (١) .

السبب الخامس : أن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من امرهم ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن والحكم بالظاهر أوفق واولى

السبب السادس : أن حقيقة اشتقاق الكلمة من الصوف و سببه إليه لم يستطع إنكارها أحد ، ولم يقدر على إبطالها حتى أولئك الذين يرون أن كلمة صوفي منسوبة إلى الصفاء (٣) .

الجمع بين الآراء :

مع تعدد هذه الآراء فإن بعضا من العلماء حاول الجمع بينهم ، وممن حاول ذلك من العلماء الكلاباذي فقال : " وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر ، فإن المعاني متفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وإن أضفيت إلى الصف أو الصفة كانت صَفّية أو صُفية ، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية ، وزيادتها في لفظ الصَّفية والصُّفية إنما كانت من تداول الألسن ، وإن جعل مأخذه من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة " (٤) .

ويذكر أن " جميع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس حظوظها ، وصفاء المعاملات ،

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٦ ، والحياة الروحية في الإسلام ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٤) التعرف : ص ٣١ – ٣٢ .

وصفوة الأسرار ، وانشراح الصدور ، وصفة السباق " (١) .

ومن حاول ذلك أيضا أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي فقال : " إنه بأدنى تأمل يمكن أن يذوب الخلاف وأن تجتمع الفروض المتناثرة عند نظرة أساسها أن التسمية حددت أولا بظاهر اللبسة ثم توسع في معناها لتشمل الجوانب الباطنية وكأن التسمية في بداية اطلاقها بالرسم لاعتبار الزي ثم نظر الصوفية فيما بعد إلى سرهم وصفاء باطنهم وأرادوا أن يكون اسمهم شاملا لظاهرهم وباطنهم فأبرز كل صوفي صفة خاصة من الصفات الباطنية وأولاها اهتماما كبيرا ، ولفت كل صاحب ذوق أو حال أو مقال نظر الآخر لما يراه مهما في نظره فتعددت النظرات الخاصة والفروض الهامة مع عدم إنكار الأصل الأول الذي نسبت إليه الكلمة ابتداء ، وبهذا الفهم تصبح كلمة صوفي شاملة لمعاني الظاهر ولمعاني الباطن من الصفاء والصف الأول والصفة والصُّفة وغيرها من الفروض الخاصة التي تطرقت بالكلمة من السمت والهيئة إلى الصفة والسر ، وبذا استقام أصل الاشتقاق الموافق للغة وتمشت معه الفروض وقربت المآخذ " (٢) .

ويذكر أستاذنا أ . د / عبد الله أن أبا الحسين النوري قد تنبه إلى ذلك فجمع في تعريفه بين الظاهر والباطن فيقول : " ونستمع إلى أبي الحسين النوري وهو يضع أيدينا على مفتاح التوفيق إذ يقول : سميت الصوفية بهذا الاسم لاشتمالها عند الخلق بظاهر العابدين وانقطاعها إلى الحق بمراتب الواجدين (٣) (٤) .

وكذلك يرى أن أبا علي الروزباري " جمع في الاسم بين الظاهر والباطن فيصرح بأن الصوفي من لبس الصوف على الصفا " ولبس الصوف إشارة إلى

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٩٩ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٢٩٦ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٩

النسبة الظاهرة ، وقوله على الصفا تنبيه منه على الاهتمام بالباطن وتوسع في معنى اللفظة لتشمل ما ظهر وما استتر [١] .

ويذهب أستاذنا إلى أن التسمية بهذا المفهوم لها أصل في الشرع ونظائر في بعض العبادات حيث نراها تطلق على الرسم ويطلب من العابد القيام بمقتضى تلك التسمية في الظاهر ولكنه لا يجمع حقيقة الشعيرة ولا ينال ثوابها عند الله إلا بالتواضع في هذا الأصل ليشمل الصفات الجوانية والنفسية هي الأخرى [٢] . وقد ضرب المثل على ذلك بكثير من النماذج نكتفي بالنموذج الأول منها :

فيقول : " وذلك كالصوم فإنه في اللغة الإمساك ، ثم انتقل من هذا المعنى إلى المعنى الشرعي ليصبح الإمساك عن شهوتي البطن والفرج ، وهي أمور ظاهرة ثم انتقلت لتشمل جميع الجوانب النفسية الظاهرة والباطنة والتي يتحقق بها العبد بقوله سبحانه " الصوم لي وأنا أجزي به " وبدونها لا يكون للصائم من صيامه إلا الجوع والعطش كما قال رسول الله ﷺ " [٣] .

الفريق الثاني : القائلون بعدم الاشتقاق :

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الكلمة غير مشتقة ومن هؤلاء الإمام القشيري ٤٦٥ هـ فقد كان يقول : " هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال رجل صوفي وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة : المتصوفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب " [٤] .

ومن هؤلاء أيضا الإمام الهجويري ٤٦٩ هـ فقد قال : " واشتقاق هذا

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٠٠ ، واللمع للطوسي : ص ٢٩٦ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٠١ .

(٣) المرجع السابق نفسه

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٢٧٩ .

الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أي معنى لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه ، وهم يشتقون الشيء من شيء مجانس له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشتق الشيء من ضده " (١) .

إبطال هذا الرأي :

أبطل هذا الرأي كثير من العلماء وذهبوا إلى أن الإمام القشيري والهجويري قد جانبهما الصواب حين قالا بأن الكلمة لا يشهد لها من حيث العربية اشتقاق أو قياس ، وأن قولهم هذا " يدحضه الرأي القائل بأن الصوفي نسبة إلى الصوف ، لأن لباس الصوف كان يكثر في الزهاد فضلا عما في ذلك من وجه سائغ في الاشتقاق ، ومن أنه هو الذي ذهب إليه كبار العلماء من الصوفية وغير الصوفية ، أمثال السراج الطوسي صاحب اللمع ، وزكريا الأنصاري شارح الرسالة القشيرية ، وابن تيمية وابن خلدون (٢) .

ومما يؤكد بطلان هذا الرأي أيضا أن الإمام القشيري نفسه صرف الكلمة واستخرجها وقاسها على تقمص فقال : " فأما قول من قال : إنه من الصوفي ، وتصّوف إذ لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا به " (٣) .

ويرى أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أنه إذا " ثبت صحة اشتقاق اللفظة من الجذر صوف بطل ادعاء القشيري ... كما يبطل زعم الهجويري " (٤) .

كما يرى أننا ما دمنا قد وقفنا على صحة الاشتقاق من الأصل صوف فإنه

---

(١) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) الحياة الروحية في الإسلام : ص ١٠٥ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٣) الرسالة : ص ٢٧٩ ، ودراسات في التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ٦٩ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٩٨ .

لا يصح لنا العدول عنه إلى الجمود [١] .

تعريف التصوف :

اختلف الصوفية في وضع تعريف محدد للتصوف وذلك لأن كل واحد منهم عبر عما وقع له ، ومع اختلافهم في تعريفه فإن معظم التعريفات تدور حول مجموعة من الاتجاهات :

الاتجاه الأول التصوف والزهد :

اتجه كثير من الصوفية في تعريفهم للتصوف إلى الربط بينه وبين الزهد في الدنيا ، فمعروف الكرخي ٢٠٠ هـ عرفه فقال : " إنه الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق " [٢] .

وقال سمنون ٢٩٠ هـ : " التصوف أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيئا " [٣]

وعرفه النوري ٢٩٥ هـ فقال : " الصوفي الذي لا يَملك ولا يُملك " [٤]

وقال الجنيد ٢٩٧ هـ : " التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله العزوف عن الدنيا " [٥] .

وعرفه رويم ٣٠٣ هـ بأنه " التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار " [٦]

ومع تعريف الصوفية للتصوف بأنه الزهد في الدنيا فيرى كثير من العلماء

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الرسالة : ص ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٣٣ .

(٥) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٤٦ ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ .

(٦) الرسالة القشيرية : ص ٢٨٢ .

أن هذه التعاريف لا تعبر تعبيرا دقيقا عن التصوف ، وفي هذا يقول د / عبد الحليم محمود : " وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهدا أن يكون التصوف هو الزهد " (١) .

الاتجاه الثاني : الاتجاه النفسي :

جعل الصوفية النفس محورا لتعريفاتهم لاعتقادهم أنه شيء من الإنسان وأنه مصدر الشر فيه بعد الشيطان أو قبله ، ولذلك تناولوا النفس من جانبين :

الأول : جانب تخليها عن الرذائل :

الصوفية دائموا الدعوة إلى تنقية النفس " من العيوب والشوائب بقهرها أو مجاهدتها وإخماد شهواتها وإذلال كبريائها وغرورها ومنعها من حظها " (٢) وقد جاءت بعض التعريفات دالة على ذلك : فقد عرف التستري ٢٨٣ هـ الصوفي بأنه " من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر " (٣) .

وعرف النوري ٢٩٥ هـ الصوفية فقال : " قوم صفت قلوبهم من كدورات البشر وآفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا " (٤) .

وقال الإمام الجنيد ٢٩٧ هـ : التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية

---

(١) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٤٠ ، وانظر الصوفية والمجتمع : د / يحيى ربيع ص : ١٩ ، ط ١ (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) بدون دار طبع .

(٢) د / عبد الفتاح أحمد الفاوي محمود : مقدمة أصول الملامتية ، وغلطات الصوفية للسلمي ص ٣٤ ، ط (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٣) التعرف : ص ٣٢ .

(٤) مقدمة أصول الملامتية : ص ٣٤

ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية " (١) .

ويلاحظ أن هذه التعريفات تشير في مجموعها إلى محاربة النفس وترك حظوظها ويجمع ذلك كله قول أحدهم : " التصوف هو ذبح النفس بسيوف المخالفة ، فالنفس عند الصوفية عدو لا يصح التهاون لحظة في محاربته وتجب مقاومته حتى لا يذبح " (٢) .

الثاني : جانب تحلي النفس بالفضائل :

تدور تعريفات هذا الجانب حول تحلي النفس بالفضائل وتعريفاته هي نفس تعريفات الجانب الأخلاقي ، وهو ما سوف نوضحه في الاتجاه الأخلاقي .

الاتجاه الثالث : التصوف والعبادة :

اتجه بعض آخر من الصوفية إلى الربط بين كثرة العبادة والتصوف ، فإذا وجدوا رجلا كثير العبادة قالوا عنه بأنه صوفي ومن هؤلاء : أبو حفص النيسابوري ٢٧٠ هـ فقد عرف التصوف فقال : " التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول " (٣) .

وعرفه عمرو بن عثمان المكي ٢٩١ هـ فقال : " التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت " (٤) .

وسئل أبو بكر محمد بن داود الدقي ٣٥٠ هـ " عن الفرق بين الفقر

---

(١) التعرف : ص ٣٢ .

(٢) مقدمة أصول الملامتية : ص ٣٤ .

(٣) السلمي : طبقات الصوفية ص ٢٨ ، يسره ورتبه / أحمد الشرباصي ، مطابع الشعب ، ط ١٣٨٠ هـ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٦٣ .

والتصوف فقيل له : ما علامة الصوفي ؟ فقال أن يكون مشغولا بكل ما هو أولى به من غيره " (١) .

ومع ربط التصوف بالعبادة في هذه التعريفات فإن كثيرا من العلماء يرى أنها لا تعبر تعبيرا دقيقا عن التصوف وذلك أننا نجد " أشخاصا كثيرين يقيمون الصلاة المفروضة ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من الصوفية " (٢) .

الاتجاه الرابع : التصوف والأخلاق :

اتجه بعض آخر من الصوفية في تعريف التصوف إلى الربط بينه وبين الأخلاق الطيبة ، فقد عرفه أبو سعيد الخراز ٢٢٧ هـ فقال : " التصوف خلق وليس إنابة " (٣)

وعرفه الجريري ٣١١ هـ فقال : " التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني " (٤) .

وعرفه محمد بن علي القصاب فقال : " أخلاق كريمه ظهرت في زمن كريم مع قوم كرام " (٥) .

ومع أن الاتجاه في تعريف التصوف بأنه خلق شائع في الشرق والغرب ، وشائع في الزمن القديم والحديث فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقا لأمرين :

الأول : أن تعريف التصوف بالجانب الأخلاقي ليس جامعا لأن له جوانب

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٦٣ .

(٢) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٤٠ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٦٣ .

(٤) الرسالة السابقة : ص ٢٨٠ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

أخرى ، كما أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ذكروا هم أنفسهم تعاريف أخرى ، وهذا يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه (١) .

الثاني : أن تعريف التصوف بالجاني الأخلاقي ليس مانعا ، ذلك أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو في الجانب الأخلاقي واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهبا وشعارا لوجدناهم مثاليين أخلاقيا ولكنهم ليسوا صوفية (٢) .

ومع أن تعريف التصوف بالجانب الأخلاقي ليس جامعا ولا مانعاً لكننا نقول " إنه من الطبيعي أن تكون الأخلاق الكريمة أساسا من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ثمرتها التصوف ، ومن الطبيعي أيضا أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس والثمرة ، فهي إذا ملازمة للتصوف وللصوفي ملازمة تامة لا تتخلى عنه ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها التصوف " (٣) .

الاتجاه الخامس : التصوف والكرامة :

مال بعض آخر من العلماء إلى الربط بين التصوف خوارق العادات " ويعتقدون أن من ظهرت على يديه بعض خواريق العادات فهو متصوف لا محالة ، بل إن هذا الباب يغتر به الجهلة من الناس وربما أدى بهم إلى الاقتداء والاتباع دون تريث ، بل إذا صدرت من أصحاب الخوارق مخالفات للشرع الحنيف دافع عنها أتباعه من الجهلة وأولوها تأويلات فاسدة " (٤) .

(١) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٣٩ ، د / يحيى هاشم : أصول التصوف الإسلامي : ص ١٨ ، ط (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م) ، بدون دار طبع .

(٢) أصول التصوف الإسلامي : ص ١٨ - ١٩ .

(٣) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) الصوفية والمجتمع : ص ٢١ .

ويذكر د / عبد الحليم محمود أن الذين " يربطون بين التصوف من جانب والكرامات من جانب آخر كثيرون " (١) ، ومع هذا فإنه يبين أن " التصوف ليس كرمات ولا خوارق العادات إنه شيء يتجاوز الكرامات ويتجاوز خوارق العادات ... " (٢) ، وذلك لأن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعدونها من الأشياء اليسيرة التي تبعث السرور في قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى بها تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف قدما ثابتا ولا درجات ممتازة (٣) .

الاتجاه السادس : تعريفات متعددة الجوانب :

هناك تعريفات تضم جهات عديدة مما سبق منها :

قول الإمام الجنيد رحمه الله ٢٩٧ هـ : التصوف مبني على ثمان خصال السخاء ، والرضا ، والصبر ، والإيثارة ، والغربة ، ولبس الصوف ، والسياحة ، والفقر (٤) .

وقال محمد بن خفيف ٣٧١ هـ : " التصوف تصفية القلوب ، ومفارقة أخلاق الطبيعة ، وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية ، ومنازلة صفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، والنصح لجميع الأمة ، واتباع النبي ﷺ في الشريعة " (٥) .

وقال بعض الصوفية : " التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع " (٦) .

---

(١) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٤٢ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٣٥ .
(٥) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .
(٦) عوارف المعارف : ص ٦٤ .

وقال بعضهم : التصوف أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة من الله (١)

التعريف الصحيح للتصوف :

ذكر د / عبد الحليم محمود أن هناك بعض التعريفات اتجهت الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقي لهذا الموضوع ، وذلك لجمعها بين أمرين :

الأول : الوسيلة : وهي الأمور التي يتصف بها الصوفي أو يحاول الاتصاف بها حتى يصل إلى درجة الصفاء ، والتي يصل إليها من خلال كثرة العبادة ، والزهد في الدنيا ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، وإيثار الحق على كل شيء ، وتهذيب النفس ، وقطع المقامات والعقبات بإخماد الصفات النفسانية والشهوانية للوصول إلى صفاء النفس من كل كدرها ، واتباع النبي ﷺ .

الثاني : الغاية : وقد حددها الصوفية في المشاهدة والاتصال بالحق سبحانه وتعالى .

وممن جمع بينهما

الخراز ٢٦٨ هـ فقد سئل عن الصوفي فقال : من صفى ربه قلبه فامتلأ نورا ، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله (٢) .

والجنيد ٢٩٧ هـ حين عرفه فقال : " التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به " (٣) .

والكتاني ٣٢٢ هـ حين قال : " التصوف صفاء ومشاهدة " (٤) .

وغيرهم ممن جمعوا في تعريفهم بين الوسيلة والغاية .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٤٢ .

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٢٨٠ ، وعوارف المعارف : ص ٦٥ .

(٤) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٤٣ .

وقد ذكر د / عبد الحليم محمود أن أصحها تعريف الكتاني فقال : " وإذا نظرنا إلى تعريف الكتاني فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان فيما نرى يكونان وحدة متكاملة في تعريف التصوف : أحدهما الوسيلة والثاني غاية ، أما الوسيلة فهي الصفاء ، وأما الغاية فهي المشاهدة .

والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية ، وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية واتخاذها عنوانا على هذه الطائفة " (١) .

وفي النهاية فإنه يمكن لنا أن نقول أن الصوفي هو ذلك الإنسان المكثر من العبادة ، والزاهد في الدنيا الطامع في الآخرة ، والذي يتعهد نفسه فيعمل على صفائها من خلال تخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، وهو المتبع لسنة رسول الله ﷺ والسلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، وهو الذي لا يرضى بمخالفة هذا المنهج ، والذي يعيش لله وبالله والمستمر في العمل من أجل الوصول إليه سبحانه وتعالى ، وهو الذي عبرت عنه إحدى النساء وقد سألها ذو النون قائلا لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ فقالت : من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، فقال لها : وأين تريدين ؟ فقالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقال : صفيهم لي ، فأنشدت تقول :

قوم همومهـم بالله قـد علقـت
فمالهـم همـم تسـمو إلى أحد
فمطلب القـوم مولاهم وسيدهم
يا حسن مطلبهـم للواحد الصمد
ما إن تنازعهـم دنيا ولا شرف
من المطاعم والملذات والولـد

---

(١) المرجع السابق نفسه .

ولا للبــس ثيــاب فائــق أنــق

ولا لروح ســرور حــل في بلد

إلا مســارعة في إثــر منزلــة

قد قارب الخطو فيها باعد الأبد

فهم رهائــن غــدران وأوديــة

وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد [١]

---

(١) انظر التعرف : ص ٣٣ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص

الباب الأول

ســمات التصحيح

الفصل الأول

عــوامل التصحيح

الفصل الأول

عــوامــل التصحيــح

تمهيد :

تناول التصوف بالنقد والتصحيح محبوه وأربابه والغيورون عليه مثل غيرهم من المعتدلين خارج دائرة التصوف ومن أعدائه ، وقد أثار انتباه الصوفية إلى التصحيح ما جد في الطريق من انحرافات ، ونظراً لأنها تنوعت فإن الباحث سوف يقوم بتحديد هذه الانحرافات قدر استطاعته وذلك في فقرات محددة .

[١] قلة أهل الحق وتواريهم

من بين الأسباب التي أدت إلى القيام بالتصحيح انقراض الممثلين الحقيقيين للتصوف وحصول الضعف واندراس الحقيقة ، وميل أهل التصوف الحق إلى الانزواء والتواري خوفا على أنفسهم ، وهو ما شكى منه المصححون من أمثال القشيري ، والهجويري ، والغزالي ، واليافعي ، والشعراني في المدة ما بين القرن الرابع والقرن العاشر وهو القرن الذي عاش فيه الشعراني [١] . وقد أنشد الإمام اليافعي في ذلك شعرا فقال :

بكى دهــرنا والدهــر من قبل بســام
على وجهــه نور وفي اليــوم إظلام
ومـــا ذاك إلا مـــن قبــل ســــــادة
شموس الهدى كانوا فبانوا ومادامــوا
حدا بركاب القــوم حادي رحيلهــــم

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٣٦ – ٣٧ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ١٩٧ ، وإحياء علوم الدين للغزالي : جـ ٢ ص ٣٨٨ – ٣٨٩ ، دار الحديث خلف الجامع الأزهر ، ط بدون تاريخ ، والإمام الغزالي حجة الإسلام لمحمد صالح الشامي : ص ١١٨ ، دار القلم – دمشق ط ١ ١٤١٣ هـ والكوكب الشاهق للشعراني : ص ٣٢ ، تحقيق د / حسن الشرقاوي ، دار المعارف ، ط ١٩٩١ .

لـــدار لهـم فيهـا نعيـم وإنعــام

فأمســت ديار القــوم تبكــي عليهم

وأخلــف فيهــا القــوم من بعد أقوام

وأضحــت خيــام كالخيــام ما بــها

مــلاح كأمثــال المــلاح وإكــرام

فأنشــدت فــي تلك الخيــام تغــزلا

بغزلانهــا اللائــي لها القلــب سقام

عدمنا غوالي الحسن خودات دهرها

ومن في هواها أهل أعصارها هاموا

وأبــدلنا حكــم المقــابر غــيرها

وقلــت كمــا قال للشــعر نظـــام

وما كنت أرضــى وسليمي بديلــة

بليلي ولكن للضرورات أحكام (١)

وهو ما أكده الشعراني فقال : " اعلم يا أخي أن الفقراء الصادقين قد اختفوا في هذا الزمان وغالب ما يتظاهر فيه الآن بالصلاح معدود من النصابين على تحصيل الدنيا ، كما يدل على ذلك مزاحمتهم على اعتقاد الأمراء والأكابر فيهم فكل من طلع له أمير يود أن لا يطلع لغيره أبدا " (٢) .

وعليه ومادام الطريق قد انقرض أهله واندرست أحواله وغاب الشيخ المربي وصار مفقوداً ، وأصبح السالك غير موجود ، وحل مكان ذلك المنتفعون واللصقاء ، كان لابد وأن يقوم أهل التصوف الحق بالتصحيح وبيان الأخطاء ويظهروا الانحرافات حتى لا يساء فهم التصوف وحتى لا يساء الفهم بأهله .

---

(١) نشر المحاسن الغالية : ص ٣٧٦ .

(٢) الكوكب الشاهق : ص ٣٢ ، وانظر الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي لفوزي محمد أبو زيد : ص ١٤١ ، دار الإيمان والحياة ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

[٢] كثرة الأدعياء :

ابتلي التصوف الإسلامي منذ فجره الأول كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة بالدخلاء والأدعياء الذين انضموا إلى التصوف طمعا فيما كان يتمتع به أهل التصوف من احترام وتقدير وحماية لأنفسهم (١) .

وقد زاد عدد هؤلاء الأدعياء زيادة ملفتة للنظر نبه عليها الصوفية في عصورهم المختلفة ، فالطوسي أشار إليها في القرن الرابع الهجري ، وأشار إليها الهجويري والغزالي في القرن الخامس ، وأبو نجيب السهروردي وشهاب الدين السهروردي في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد ذكر الشعراني في القرن العاشر ذلك أيضا ، بل ذكر أن هؤلاء الأدعياء سيطروا على الساحة في هذا العصر (٢) .

هذا وقد سلك هؤلاء في كل عصر وجدوا فيه بالتصوف مسالك تبعده عن رونقه وتشوه حقائقه ، كما أدخلوا فيه كثيراً من الأمور التي ليست منه ، وظهرت على أيديهم صورة له مشوهة ومخالفة لأصله (٣) .

وقد أدى ظهورهم أيضا إلى سوء ظن من لا يعرف أصول الطريق الصوفي به وبأهلة جميعاً وإلى الطعن فيهم " (٤) .

وقد أدى ذلك كله إلى تنبه أهل التصوف الحق إلى خطورة هؤلاء وخطورة دورهم ، ودفعتهم الغيرة على التصوف إلى القيام ببيأن ما أحدثه هؤلاء

---

(١) انظر مقدمة اللمع للطوسي : ص ٨ ، ومقدمة كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٣ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٩ ، ومقدمة كشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٧ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٣٨٨ ، وآداب المريدين لأبي نجيب السهروردي : ص ٤٢ ، تحقيق / فهيم محمد شلتوت ، الناشر دار الوطن العربي – القاهرة ، ط بدون تاريخ ، وعوارف المعارف : ص ٤٢ – ٤٣ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٢ .

(٣) التعرف : ص ٢٥ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٧ .

(٤) انظر عوارف المعارف : ص ٤٣ .

الأدعياء والتحذير منهم ، وتصحيح ما أحدثوه من انحرافات وما ارتكبوه من أخطاء في الأصول والفروع ، واستمر لنصح والتوجيه موازياً للانحراف والتشويه : فالإمام الطوسي والقشيري والهجويري وأبو نجيب السهروردي ومن بعدهم الشعراني في القرن العاشر يذكرون جميعاً أنهم ما كتبوا كتبهم :

١ – إلا ليميزوا بين الأدعياء وأهل التصوف الحق .

٢ – وإشفاقهم على التصوف من أن يظن الناس أنه بنيت على هذه الجملة قواعده ، وعلى هذا النحو صار أهله .

٣ – وأن يرسموا صورة واضحة للتصوف يبينوا فيها أصوله النظرية والعملية المبنية على القرآن والسنة .

٤ – بيان عقائد الصوفية وآدابهم وأخلاقهم حتى يستطيع المرء أن يميز بين الطيب والخبيث .

٥ – التصدي لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا إلى التصوف ، والعمل على تفليسهم والتحذير منهم [1] .

وعليه فالأدعياء وصلوا بالتصوف إلى حد أصبحت فيه الحاجة ماسة لبيان الحق من الباطل ، وأوجب القيام بالتصحيح .

[٣] قصر التصوف على الرسوم والمظاهر :

من الأسباب التي أدت إلى قيام أهل التصوف الحق بالتقويم والتصحيح قصر الأدعياء التصوف على المظاهر والرسوم.

فقد قصر بعض أصحاب النوايا الفاسدة الذين اندسوا في الطريق الصوفي واستمر وجودهم في كل عصر التصوف على مجرد ارتداء الصوف .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ١٨ ، والرسالة : ص ٣٨ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٧ – ٢٠١ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٢ ، والصوفية والمجتمع : ص ٤٦ .

فقد اغتر بالزي الصوفي جماعة ظناً منهم أنه هو الغاية ، ولبس البعض الآخر الصوف والمرقعات " طلبا لرغد العيش وأكل أموال السلاطين ولم يتورعوا عن المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة " (١) وجعلوا الطريق وسيلة للحصول على شهواتهم وأغراضهم ، وزينوا ظاهرهم للناس لخراب سرائرهم وباعوا الدين بالدنيا (٢) .

وأصبحوا يشبهون الصوفية في زيهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم فقط (٣) .

ويعتبر الحسن البصري من أوائل الذين تنبهوا إلى ذلك حين دخل عليه أحد الأدعياء " وهو يرتدي جبة صوف وعمامة صوف ، ورداء من الصوف فلما جلس عنده جعل موضع بصره في الأرض لا يرفعه وكأن الحسن البصري خال فيه العجب والكبر ، فقال الحسن ها إن قوماً جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا والله دينهم بهذا الصوف " (٤) ، وهو ما أشار إليه الشبلي حين مر على جماعة من أصحابه بالمسجد عليهم المرقعات والفوط فينشد قائلاً :

أما الخيـــام فإنهـــا كخيامهـــم .:. وأرى نساء الحي غير نسائهم (٥)

وإذا كان هؤلاء قد قصروا التصوف على لبس الصوف ، فقد قصره البعض الآخر على التصايح والتواجد وهو ما أشار إليه الطوسي قائلاً : " وقد قال عبد الرحيم القناد – رحمه الله – في التصوف واندراس أهله شعراً :

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة

صار التصوف صيحـــة وتواجـــد ومطبقة

مضت العلوم فلا علـــوم ولا قلـــوب مشـــرقة

كذبتك نفسك ليس ذا سنن الطـــريق المخلقة

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٦ – ٦٢٧ .

(٢) الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٣) مقدمة التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٦ .

(٤) تلبيس إبليس : ص ١٩٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٦ .

(٥) تلبيس إبليس : ص ١٩٢ .

حتى تكون بعين من عنــه العيــون المحدقة

تجري عليك صروفه وهموم سرك مطرقة (١)

وإذا كان الأدعياء قصروا التصوف في القديم على لبس الصوف وعلى التصايح والتواجد فإنهم قصروه في العصر الحديث " على الرقص والزمر وتحريف أسماء الله " (٢) ، وعلى " إقامة الموالد ... " (٣) ، وادعاء الكرامات واتباع المشايخ وورثتهم ولو كان عصاة جهلاء إلى غير ذلك من الأمور التي أشار إليها كل من الشيخ محمد زكي إبراهيم ، ود / يحيى ربيع والذي يرى أن هذه الأمور بعيدة عن روح التصوف الصادق ، كما يرى أن حصر التصوف في مثل هذه الأمور ظلم كبير (٤) .

هذا وقد ترتب على قصر التصوف على الأمور السابقة ذهاب الحقائق وبقاء أسمائها ، وذهاب أنوار الطريق وانطماس مغالمه ، والجهل بأحواله وانحجاب الإمدادات السماوية والفيوضات الربانية التي كانت تفاض على القلوب العامرة باليقين والأبدان العاملة بسنة رسول الله ﷺ والتوهم بأن الطريق الصوفي مجرد رسوم وظاهر ، حسبما أشار إلى ذلك أبو محمد المرتعش ، والكلاباذي ، وأبو عبد الله القرشي ، والشيخ ماضي أبو العزائم (٥) .

---

(١) اللمع للطوسي ص ٤٧ .

(٢) الشيخ / محمد زكي إبراهيم أبجدية التصوف : ص ١٣ ، سلسلة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية – القاهرة ، ط ٥ (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م) .

(٣) الصوفية والمجتمع : ص ٤٠ – ٤١ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٣ .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٨٥ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف : ص ٢٧ ، ونشر المحاسن الغالية لليافعي : ص ٣٧٦ ، تحقيق / إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ٢ (١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م) .

يضاف إلى ما سبق أن قصر التصوف على الرسوم والمظاهر قد حرك أهل التصوف الحق إلى التصحيح أملا في أن يجددوا هذه الأحوال التي اندرست ويوضحوا هذه الحقائق التي توارت أمام غلبة الرسوم والمظاهر .

[٤] الانحراف في المجال العقدي :

من أهم الأسباب التي أدت إلى غيرة أهل التصوف الحق وقيامهم بالنقد والدعوة إلى الرجوع إلى الحق ظهور بعض العقائد الفاسدة .

فقد ابتليت طوائف من الصوفية بعقائد فاسدة كالقول بالحلول والاتحاد [١]

وقد ذكر الهجويري أن طائفتين من الصوفية " طائفة منهما تنتمي إلى أبي حلمان الدمشقي [٢] ... والطائفة الأخرى ينسبون أقوالهم إلى فارس [٣] " [٤] دانتا بالحلول ، بل يذكر أن فارساً هذا كان يدعي أن مذهبه في القول بالحلول هو مذهب الحسين بن منصور ، وأنه ليس لأحد هذا المذهب إلا أصحاب الحسين ، ويذكر أنه رأى " أبا جعفر الصيدلاني ومعه أربعة آلاف رجل من الحلاجين متفرقين في العراق وكانوا جميعاً يلعنون فارساً لهذه المقالة " [٥] .

ومن القضايا التي انحرفت عن خط الصوفية الحقيقي دعوى بعض الصوفية تفضيل الولاية على النبوة ، والقول برؤية الله في الدنيا ، وبأن العبد مجبر على

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤١ – ٥٤٢ ، ٥٥٢ .

(٢) ذكر البغدادي في الفرق بين الفرق أن أبا حلمان الدمشقي كان أصله من فارس ومنشؤه بحلب وأظهر بدعته بدمشق ، وكان كفره من وجهين : القول بحلول الإله في الأشخاص ، والثاني القول بالإباحة . انظر الفرق بين الفرق : ص ٢٧٧ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث – القاهرة ، ط بدون تاريخ

(٣) لم أجد لفارس ترجمة ولعل أرباب التراجم أهملوه لسوء سمعته لديهم ، ومما يدل على ذلك أن الهجويري نفسه يقول : " وأن علي بن عثمان الجلابي أقول إني لا أعرف من كان فارسا هذا " كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

حركاته ، وقول البعض الآخر بقدم الروح ، وإظهار القول بوحدة الوجود ، وبخاتم الأولياء وتفضيله على صحابة رسول الله ﷺ ، وتحمسهم للقول بعصمة الأولياء [١]

وغيرها من الانحرافات الأخرى التي وقعت في المجال العقدي والتي كانت دافعاً لغيرة أهل التصوف الحق ودافعة إلى التصحيح ، مع العلم بأنني لا أتعمد سرد الانحرافات بقدر ما أسوق نماذج منها لأبين من خلالها الدعاوى التي أثارت أهل النصفة من الصوفية فأشبعوها نقداً ، وطالبوا بالعودة إلى النهج الصوفي السني .

[٥] الانحراف في المجال التشريعي :

من العوامل التي أدت إلى القيام بالعملية التصحيحية أيضاً ظهور بعض الانحرافات في المجال التشريعي والتي سماها الطوسي أخطاءاً في الفروع [٢] .

فقد برز في الساحة الصوفية جماعة من الغلاة نادوا بإسقاط التكاليف وادعوا أن "الارتسام بمراسم الشريعة رتبه العوام والقاصرين الأفهام" [٣] ،

ولم يعبأوا بالدين ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، كما استخفوا بأداء العبادات من صوم وصلاة [٤] .

وبهذا يكونون قد طووا بساط الشرع بقولهم السابق ، وبرفعهم للأحكام

---

(١) اللمح الطوسي : ص ٥٣٥ ، ص ٥٤١ ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ ، والرسالة : ص ٣٦١ ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية : جـ ١ ص ٧٥ - ٨٤ ، ص ٩٦ - ٩٧ ، ص : ١١١ ، ص ١٧٨ - ١٨٩ ، جـ ٤ ص ٢٨ - ٤٧ ، ص ٦٦ - ٨٥ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط ٢ (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) ، وتنبيه الغبي بتكفير ابن عربي للبقاعي ص ١٨ وما بعدها تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، الناشر دار التقوى - الشرقية ، ط ٢ (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢ م) .

(٢) اللمع الطوسي ص ٥٢٠ - ٥٣١ ، وانظر أصول الملامتية وغلطات الصوفية للسلمي ص ١٧٦ - ١٨١

(٣) عوارف المعارف : ص ٧١ .

(٤) الرسالة : ص ٣٧ .

وادعائهم أن الله مستغن عن العمل فلم الجهد ؟ ومرة يرون أن شجرة المجاهدة من تصفية بالشرع محالة ، وطوراً يدعون أن العبرة بأعمال القلوب لا بالجوارح التي لا وزن لها [١] .

وبذلك يكونون قد قصروا عن مطالب التكليف وسلكوا ساحات الغفلات وتعاطوا المحظورات وعاشوا على الارتفاق الوارد إليهم من السوقة والنساء وذوي السلطان [٢] .

حول هذه القضايا كانت شكوى الطوسي والسلمي والقشيري والغزالي وشهاب الدين السهروردي وغيرهم ، وإليها توجهت نقودهم الحادة مبينين أن هذا ليس من التصوف الذي يقوم على كثرة الطاعات والتمسك بالأحكام والفضائل الشرعية وبناء المجاهدات على مراعاة الحلال والحرام ، وإنما جأر الصوفية بذلك غيرة على طريقتهم ودعوة صريحة إلى ما يودون للصوفية أن يسلكوه .

[٦] الانحراف في المجال الأخلاقي :

أهل التصوف الحق أصحاب أخلاق عالية ، وقد ظهر ذلك من ربطهم التصوف بالأخلاق في كثير من تعريفاتهم للتصوف ، كما بدا ذلك أيضاً في حديثهم عن الأخلاق التي تخلق بها أهل التصوف الحق .

وها هو أبو نجيب السهروردي يسرد في كتابه – آداب المريدين – كثيراً من الأخلاق الحميدة للصوفية ويبين أن أهل الحق منهم متصفون بها داعون إليها [٣]

ومع حرصهم على هذه الأخلاق فإن جماعة من المنتسبين قاموا بتغير أخلاق الصوفية هذه واستبدلوها بأخلاق أخرى مرذولة ، وهنا بدأت تظهر شكوى

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٢) الرسالة : ص ٣٧ .

(٣) أبو نجيب السهر وردي : آداب المريدين ص ٤٢ ، تحقيق / فهيم محمد شلتوت ، الناشر : دار الوطن العربي – القاهرة ، ط بدون تاريخ .

أهل التصوف الحق من أمثال أبي بكر الواسطى (٣٣١ هـ) ،وأبي العباسي الدينوري (٣٤٠ هـ) ، والهجويري (٤٦٩ هـ) من ذلك فذكروا أن هؤلاء " نقضوا أركان التصوف وهدموا سبيلها وغيروا معانيها بأسام أحدثوها سموا الطمع زيادة ، وسوء الأدب إخلاصا ، والخروج عن الحق شطحا ، والتلذذ بالمذموم طيبة ، واتباع الهوى ابتلاء ، والرجوع إلى الدنيا وصولا ، وسوء الخلق صولة ، والبخل حلاوة ، والسؤال عملا ، وبذاءة اللسان سلامة " (١) .

وقد دفع ذلك إلى غيرة الغيورين من أهل التصوف فحاولوا أن يجددوا هذه الأحوال التي اندرست ، ويبينوا هذه المكارم التي توارت ، ويوضحوا هذه الأخلاق التي أميتت فكان التصحيح

وهو ما صرح به أبو نجيب السهروردي ، ومن بعده الشعراني في القرن العاشر (٢)

[٧] ظهور فرق ضلت وألفاظ شطحت .

من بين الأسباب التي أدت إلى قيام الصوفية بالتصحيح ظهور بعض الفرق الغالية :

كالحلولية التي أشرنا إلى بعض أفكارها وسوف يرد لها تفصيل فيما بعد .
ومنها القلندرية والملامتية على سبيل المثال لا الحصر وإلا فهم كثير .

أما القلندرية فقد تعقبهم السهروردي مبينا أبرز أفكارهم قائلاً : " القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم ، فقلت

---

(١) الرسالة : ص ٤١٣ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٠٩ ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) آداب المريدين : ص ٤٢ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٢ ، وانظر تنبيه المغترين للإمام الشعراني ، ص ٣ ، مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط بدون تاريخ .

أعمالهم من الصوم والصلاة " إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله ، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طلع مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب ".[١] .

وأما الملامتية [٢] وإن كانوا في الأصل فرقة معتدلة وامتدح طريقتهم كثير من الصوفية كالسلمي الذي يجعلهم في الطبقة الثالثة من طبقات أرباب العلوم والأحوال [٣] .

فإن شهاب الدين السهروردي يذكر أن هذه الطائفة انتهى بها الحال إلى عكس ما بدأت به [٤] .

كذلك برز في الوسط الصوفي كثير من المصطلحات الغالية وبدأت تظهر " عبارات من باب الشطح تتنافى في ظاهرها مع تعاليم الشرع "

وذلك كقول القائل " أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، وكقول الآخر أنا الله ، وكقول الآخر ما في الجبة إلا الله " [٦] وغيرها من العبارات الشاطحة الأخرى

كما وجد في الوسط الصوفي " من يتلفظ بألفاظ مبهمة غير مفهومة أو

---

(١) عوارف المعارف : ص ٧١ .

(٢) سوف نتحدث عن هذه الفرقة بصورة عصيلية في الباب الثالث عند حديثنا عن الاهتمام بالجانب السلبي للنفس .

(٣) أصول الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٤١ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٧١ .

(٥) د / وجيه أحمد . الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية : ص ١٠٠ - ١٠٣ ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ط ١٩٨٩ م ، وانظر مقدمة أصول الملامتية : ص ٧١ .

(٦) العز بن عبد السلام : زبدة خلاصة التصوف : ص ١٠٩ ، مكتبة تاج بطنطا ، ط بدون تاريخ

يتمتم بحروف غير مترابطة " [١] .

وقد أفسح هذا المجال للأدعياء حتى شغلوا الناس بالحيل والشعبذة في إطار خرق العادات حتى فتن العامة بهؤلاء فعدوهم من أرباب الكرمات ومن الأولياء المقربين " [٢] .

كما أدى ذلك إلى ظهور " نزعات الابتعاد عن الكتاب والسنة بين المتصوفة الذين راحوا يخوضون في ألغناء والشطح وغير ذلك [٣] .

الأمر الذي أدى إلى قيام أهل التصوف الحق كالطوسي والكلاباذي والغزالي وغيرهم من كبار مشايخ الصوفية في القديم والحديث بإعلان رفضهم لمثل هذه الانحرافات وتصحيح مسار التصوف وتنقيته من مثل هذه الأمور .

[٨] قيام الفقهاء بالدعوة إلى نبذ التصوف والصوفية .

من العوامل التي أدت إلى قيام أهل التصوف الحق بالعملية التصحيحية أن كثيرا من العلماء والفقهاء [٤] وجهوا سهام نقدهم إلى التصوف والصوفية

---

(١) د / مصطفى غلوش التصوف في الميزان : ص ٩ ــ ١٠ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر الفجالة – القاهرة ، ط بدون تاريخ .

(٢) المراجع السابق : ص ١٠ .

(٣) الشيخ محمود المراكبي : عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة : ص ٣١ ، سلسلة الظاهر والباطن ، ط بدون تاريخ .

(٤) الهجوم على التصوف والصوفية لم يكن قاصراً على الفقهاء فحسب بل هاجم المتكلمون التصوف أيضاً ، وكانت الخوارج من أوائل الفرق الإسلامية التي أظهرت عداوتها للصوفية . وقد أخذوا على الصوفية إطاعتهم للسلطان ولو كان جائراً ، وقولهم بأن النية أفضل من العمل ، ثم جاء الإمامية في القرن الثالث الهجري فأنكروا كل نزوع إلى التصوف :

[أ] لأنه يستحدث على حد زعمهم بين المؤمنين ضرباً من الحياة الشاذة تتمثل في طلب الرضا من غير توسل بالأئمة الاثنى عشر .

[ب] طلب إمامة تناقض ما جروا عليه من تقية .

أما المعتزلة والظاهرية فقد أنكروا العشق لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، كما أنه =

معتمدين على وقوع بعض الصوفية في الأخطاء التي أشرنا إليها فهب الصوفية من أهل السنة والجماعة بتصحيح هذه الأخطاء والعمل على سد الثغرات التي أثارها الفقهاء وتقويم الانحراف داخل الجماعة الصوفية نفسها .

وفي البداية ينبغي التنبيه على أن الهجوم من الفقهاء على التصوف كان في أغلب الأحيان منصباً على الانحراف وعلى المغاليين والمنحرفين وأصحاب الاتجاه الفلسفي من الصوفية ، وإن تعداه في بعض الأحيان إلى التصوف جملة ، ثم إن هذا الهجوم لم يمنع من تقدير الصوفية للفقهاء ، كما لم يمنع من تقدير الفقهاء لأصحاب الاتجاه المعتدل من الصوفية (١) .

وسوف يقف الباحث وقفة متأنية عند هذا البند من الدواعي لأهميته

[أ] بداية الهجوم واستمراره .

الهجوم على التصوف والصوفية قديم قدم الحياة الروحية (٢) ولكنه أخذ يشتد وتقوى شوكته في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وذلك حين " انقسم علم الشريعة إلى قسمين متمايزين :

- يقوم من الناحية العملية على الملامة والحلول . انظر دائرة المعارف الإسلامية : جـ ٥ ص ٢٦٩ ، وانظر مقدمة كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣١ ، وانظر التصوف الإسلامي من البداية حتى القرن الثاني : ص ٦٣ – ٧٠ .

(١) سوف يتحدث الباحث عن ذلك بالتفصيل في الباب الثالث عند الحديث عن جهود الصوفية في العمل على استقامة الظاهر والباطن .

(٢) يري أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن الخلاف بين أهل الظاهر والباطن بدأت خيوطه رقيقة في عصر الصحابة حين قام الإمام على ﷺ يشيد بالعلماء الربانيين وذم الرعاع الذين يميلون مع كل ريح ، ويرى أن أصدق دليل على ذلك قيام سيدنا أبي ذر ﷺ بالهجوم على مظاهر الترف والثراء التي كان يعيش فيها سيدنا معاوية ﷺ .

ويذكر أن هذا الخلاف اتسعت صورته في عصر التابعين حين قام الحسن البصري يخالف الفقهاء ويخالفونه ويهاجمهم لإقبالهم على الدنيا .

ويذكر أيضا أن الخلاف تعمق في القرن الثالث عند انفصال التصوف عن علم الشريعة انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨١ .

قسم اختص به الفقهاء وأهل الفتيا في الأحكام العامة والعبادات .

وقسم اختص به الصوفية وأهل الباطن ؟ أو بعبارة أخرى حين صار علم الشريعة علمين :

أحدهما : علم الأعمال الظاهرة التي تجري على أعضاء الجسم وجوارحه في العبادات كالطهارة والصلاة والصوم .

وثانيهما : علم يعني بأحوال القلب وجوانحه ، ويدل على الأعمال الباطنة ويبين الطريق إليها وكيفية التحقق بالكمال فيها (١) .

وتذكر لنا كتب التاريخ أسماء كثير من الفقهاء من الذين هاجموا التصوف والصوفية كالإمام أحمد بن حنبل الذي عاب على المحاسبي لاشتغاله بعلم الكلام (٢) ، والملطي (٣٧٧ هـ) ، وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ، وابن تيمية (٧٢٨ هـ) ، والشاطبي (٧٩٠ هـ) ، والبقاعي (٨٨٥ هـ) (٣) ، وغيرهم على مر العصور والأزمان ، فالإنكار على التصوف . كما يذكر د / عبد الحليم محمود لم يهدأ على مر الزمن " بين الصوفية وغيرهم فقهاء كانوا أوعقليين " (٤) .

[ب] أسباب هجوم الفقهاء على التصوف والصوفية .

ترجع أسباب هجوم الفقهاء على التصوف إلى مجموعة من الأسباب

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام : ص ١١٧ .

(٢) انظر تلبيس إبليس : ص ١٦٩ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي : ص ٩٣ – ٩٦ ، قدم له وعلق عليه محمد زاهد الكوثري ، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث ، ط ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م ، وانظر تلبيس إبليس : ص ١١٥ وما بعدها ، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية : جـ ١ ص ٧٥ – ٨٤ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م) ، وانظر الاعتصام للشاطبي : جـ ١ ص ١٨٤ وما بعدها ، تحقيق / سيد إبراهيم ، دار الحديث – القاهرة ، ط ٢٠٠٠ م ، وانظر تنبيه الغبي بتكفير ابن عربي للبقاعي : ص ١٨ وما بعدها .

(٤) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٢٣٧ .

بعضها عام ، وآخر يختص بالصوفية ، وثالث يعود إلى الفقهاء أنفسهم .

الأســباب العامــة :

وترجع تلك إلى أمرين :

الأول : طبيعة العصر الذي نشأ فيه التصوف .

فالفترة التي اشتعل فيها العداء بين الفقهاء والصوفية كانت مسرحاً لاختلاف العلماء في كل فن بينهم وبين غيرهم ، أو بين أبناء الفن الواحد كل فريق له وجهة أو مذهب معين يدافع عنه ويصب جام غضبه على مخالفيه ، وكثيراً ما كان علماء كل فن يشيدون به دون غيره ويعتبرون ما سواه من العلوم قليل النفع (١) .

الثاني : رفض كل ما هو جديد :

فقد جبل الإنسان على مجابهة الجديد فما " ظهرت حقيقة قط في الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها " (٢) ، وعليه " فلا عجب أن نجد اختلافاً بين الفقهاء وبين الصوفية في مثل هذا العصر " (٣) .

الأسباب الخاصة بأهل التصوف :

ترجع الأسباب الخاصة بأهل التصوف والتي من أجلها هاجم الفقهاء التصوف والصوفية في بعض الأحيان إلى رقة مدارك الصوفية ودقة كلامهم " وعلو أذواقهم وسمو معارفهم إلى مستوى يجعل من الصعب على كثير من العقول إدراك معانيهم وفهم مراميهم " (٤) وذلك لأن النفس كما يقول الشيخ

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) الشيخ زروق قواعد التصوف : ص ١٤ ، قاعدة ٢٤ ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، ط ٣ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٩٧ ، وانظر مقدمة أصول الملامتية : ص ٧١ .

زروق دائمة التسرع إلى إنكار ما لم يتقدم لها علمه " [١] .

كما يعود أيضاً إلى " إمعان الصوفية في الباطن وإسرافهم في التحدث عما في هذا الباطن " [٢] ، والنظر إلى أنفسهم " على أنهم أرباب الحقائق وأهل الباطن ... وإلى غيرهم على أنهم أهل ظواهر وأهل رسوم " [٣] .

فقد اعتبر الفقهاء أن هذه النظرة تحط من شأنهم وعلمهم فقابلوا هذه النظرة من الصوفية بنظرة مقابلة كلها سخط على الصوفية وتجريح لمذاهبهم [٤] .

وكذلك فإن " جلوس بعض الصوفية في الخانقاوات ... دفع رجال الظاهر إلى عدائهم خشية أن يكون هذا المسلك إضعافاً لمركز الشريعة " [٥] .

ومن الجدير بالذكر أن استهانة بعض الصوفية بالشريعة ومناداة آخرين بإسقاط التكليف ، وإلى إباحة المحظورات وغيرها من الأمور الخاصة بالتكاليف الشرعية [٦] فقد تسببت كل هذه الشناعات في إشعال العداوة بينهم وبين رجال الظاهر .

ومن بين الأسباب أيضاً غموض بعض المصطلحات الصوفية فقد لعب " غموض بعض المصطلحات دورا كبيرا في إثارة الأحقاد على الصوفية " [٧]

---

(١) قواعد التصوف : ص ١٣٥ قاعدة ٢٠٨ .

(٢) الحياة الروحية في الإسلام : ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١٧ .

(٤) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام د / عبد القادر محمود : ص ٦٠٧ ، دار الفكر ط بدون تاريخ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية:جـ ٥ ص ٢٦٧

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٤ .

(٦) انظر تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى القرن الثاني : ص ٦٣ ،وانظر التنبيه والرد للملطي : ص ٩٣ ــ ٩٦ ، وتلبيس إبليس : ص ١٦٥ وما بعدها ، وانظر تنبيه الغبي للبقاعي : ص ١٨ وما بعدها .

(٧) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٤ .

كما أن الرقص والإيقاع من المهيجات التي أطلقت الألسن تنهش في مكانة وصحة الطريق خاصة وما لاقوه على لسان ابن الجوزي فكان يقول : " هذه الطائفة إذا سمعت الغناء تواجدت وصفقت وصاحت ومزقت الثياب " (١) .

ويضاف إلى تلك الأسباب ما احتواه التصوف من بعض العناصر الدخيلة من الأفكار والنظريات والعقائد الفاسدة فقد كان معظم النقد والهجوم منصباً " على نظريات تبناها بعض فلاسفة الصوفية من أمثال ابن عربي وابن سبعين وغيرهم " (٢) كالقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، وتفضيل الولاية على النبوة والقول بخاتم الأولياء وتفضيله على صحابة رسول الله ﷺ (٣) .

ويعدون من الأسباب أيضاً إفراط الأدعياء في الغرور والمروق والتحلل من الآداب والأخلاق (٤) وحاول البعض منهم الحصول على بعض المنافع الدنيوية والشهرة من وراء التستر بالصلاح ولبس الخرقة والمرقعة ، ومع حرصهم على ذلك فلم يستطيعوا ستر حالهم على الدوام ، فاستغل الفقهاء أخطاءهم وصبوا جام غضبهم على التصوف والصوفية (٥) .

الأسباب الخاصة بالفقهاء .

ترجع الأسباب الخاصة بالفقهاء في بعض الأحيان إلى غيرتهم على الدين ومحاولتهم الحفاظ عليه وخاصة من غلاة الصوفية الذين غالوا في الباطن على

---

(١) تلبيس إبليس : ص ٢٥٢ ، وانظر الاعتصام للشاطبي : جـ ١ ص ١٨٤ .

(٢) انظر مقدمة أصول الملامتية : ص ٧١ ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية : جـ ٥ ص ٢٦٩ وانظر التصوف الإسلامي الطريق والرجال د / فيصل عون : ص ٨٠ ، الناشر مكتبة سعيد رأفت جامعة عين شمس ، ط ١٩٨٣ م .

(٣) انظر التنبيه والرد للملطي : ص ٩٣ - ٩٤ ، وتلبيس إبليس : ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية : جـ ١ ص ٧٥ - ٨٤ ، وانظر تنبيه الغبي للبقاعي : ص ١٨

(٤) قواعد التصوف : ص ١٣٠ قاعدة ٢٠٨ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٤ .

حساب الظاهر وخوفهم على العامة من الوقوع في الضلال باتباعهم (١) .

ويضاف إلى ذلك اعتقاد الفقهاء والمتكلمين أن الاعتناء بالباطن على حساب الباطن " وعدم الأخذ بالتعاليم الإسلامية الظاهرة من شأنه أن يؤدي إلى إباحة كثير من المحارم ، ومن ثم التنصل من التعاليم الإسلامية والانصراف عن الدين (٢)

ويعود العداء في بعض الأحيان الأخرى إلى الهوى واتباع الشيطان ؟

يقول الطوسي في اللمع : " ومنهم – أي من الفقهاء – من دعاه شيطانه وهواه إلى طلب الرياسة وجمع الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل ، فجعل المعادة والمنافاة معهم والطعن فيهم والسفاهة والإنكار عليهم سلما إلى جمع الدنيا وسبباً إلى قبول قلوب الجهلة من العامة له ، فلا يبالي بعدما أسرته أهواؤه ، واستحوذته شياطينه : أن يسفك الدماء ويأكل الحرام ، ويركب المآثم ، ويشهد بالزور ، ويكذب على الله ورسوله ، ويبسط بالوقيعة والطعن على أوليائه وأصفيائه ، وينسبهم إلى الكفر والزندقة والبدعة والضلالة ، ويهيج على سفك دمائهم الغاغة ، والجهلة من العامة " (٣) .

ويرجع ذلك أيضا إلى أن الصوفية حين ظهروا أولع الناس بهم " أكثر من غيرهم وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم " (٤) ، واستطاعوا انتزاع " الجماهير من قبضة الفقهاء كما انتزعوا إعجاب الخلفاء وتقدير الولاة فأعلنها الفقهاء حرباً وتشهيراً بمختلف الأسلحة عليهم يزلزلون مكانة التصوف ورجاله (٥)

---

(١) قواعد التصوف : ص ١٣٠ قاعدة ٢٠٨ ، وانظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٢) التصوف الإسلامي الطريق والرجال : ص ٨٠ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٤٩٧ .

(٤) قواعد التصوف : ص ١٣٠ قاعدة ٢٠٨ .

(٥) د / علي معيد فرغل ، د / عبد العزيز عبيد : محاضرات في التصوف : ص ٢٦ مكتبة الكليات الأزهرية ، ط (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) .

ويأتي في المرتبة الأخيرة " الحسد الذي ينبعث من النفس عند رؤية تفوق الغير والعجز عن إدراكه وكراهة الناس أن يكون لأحد شرف بمنزلة واختصاص " (١)

ما ترتب على هجوم الفقهاء .

ترتب على قيام الفقهاء بالهجوم على التصوف والصوفية مجموعة من النتائج تمثلت في إثارة الفقهاء الجماهير عليهم :

فيذكر الطوسي أن رجلا " ممن انتسب إلى العلم والعبادة بناحية تُسْتَر كان سببا في تهيج العامة على سهل بن عبد الله حتى وثبوا عليه حين رماه إلى الكفر والقبائح لقوله التوبة فريضة على العبد مع كل نفس " (٢) .

كذلك يذكر أن واحدا من الفقهاء كان يدعى أبا عبد الله الزبير هيج العامة على أبي عبد الله بن الحسين بن مكي الصبيحي حين تكلم في شيء من علم الأسماء والصفات وعلم الحروف ، وأن ذلك كان سببا في خروجه من البصرة (٣) .

وأيضا تسبب ذلك في تعرض كثير من الصوفية للسجن والتعذيب والقتل كأبي العباسي أحمد بن عطاء والنوري فيما عرف بمحنة الخليل (٤) .

---

(١) مقدمة أصول الملامتية : ص ٧١ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٤٩٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٠٠ .

(٤) يذكر أن غلام خليل ذكر للموفق أن رجلا ببغداد من الزنادقة وأن دمه حلال لسماعه يقول أنا أعشق الله وهو يعشقني وكان ذلك الرجل هو النورى ، فأمر بالقبض عليه وكثير من الصوفية وتم القبض على النوري ومعه جماعة من الصوفية وأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم ، فتقدم النوري مبتدراً إلى السياف ليضرب عنقه أولا ، فقال له السياف : ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك ، فقال : آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة فتوقف السياف والحاضرون عن قتله .

ويذكر الهجويري أن الخليفة الموفق دعا النوري وأبا حمزة وجماعة من الصوفية بعد ذلك وقال " سلوا حاجتكم ، قالوا : إن حاجتنا إليك هي أن تنسانا ، فلا ترانا مقربين بقبولك ولا مطرودين بهجرك ، لأن هجرك لنا كقبولك وقبولك كهجرك فبكي الخليفة " انظر اللمع للطوسي : ص ٤٩٢ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٢١ .

وكالحلاج الذي حكم عليه الفقهاء بأنه حلال الدم واستندوا في ذلك إلى دعواهم أنه كان قرمطيا ، وطلبه رفع الزكاة إليه ، وقوله بالحج بالهمة ، وإعلانه أنه الحق (١) .

كما تعرض كثير منهم للهروب والطرد خارج بلادهم : فقد خرج سهل بن عبد الله من تستر وانتقل إلى البصرة (٢) .

كذلك خرج أبو سعيد الخراز إلى مصر في المحنة المسماة بمحنة غلام خليل .

وترك أبو سليمان الداراني دمشق بدعوى أنه كان يزعم أنه يرى الملائكة

وأخرج البسطامي من بسطام لقوله لي معراج كما للنبي ﷺ معراج .

كذلك هرب أحمد الحواري من دمشق إلى مكة حين شهد عليه قوم بأنه يفضل الأولياء على الأنبياء (٣) .

كذلك فقد أدى هذا الهجوم إلى ميل كثير من الصوفية إلى العزلة مخافة أن يلقوا نفس المصير الذي لاقاه غيرهم : فيذكر أن الإمام الجنيد بعد محنة الحلاج مال إلى العزلة ، وصار يعلم التصوف في بيوت خاصة ، ولا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قلب بيته ويقول : " أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله وخاصته ويرمونهم بالزندقة " (٤) ، وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه .

---

(١) انظر مقدمة أخبار الحلاج لمحمد باسل عيون السود : ص ٥ - ١٤ ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ، ط ١ ١٤١٩ هـ ، وانظر قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ٢٧٧ ، وانظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : دار النشار جـ ٣ ص ٣٢ - ٣٣ ، دار المعارف ، ط ٨ بدون تاريخ

(٢) مقدمة كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣١ .

(٣) تلبيس إبليس : ص ١٦٩ .

(٤) د / عبد المنعم الحفني : مقدمة قوت القلوب لأبي طالب المكي : جـ ١ ص ٩ دار الرشاد ، ط ١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م) .

ونسب إلى الشبلي قوله :" كنت والحلاج شيئاً واحدا إلا أنه أظهر وكتمت " [١]

وقد أدى ذلك أيضاً إلى قيام أهل التصوف الحق بتصحيح الأخطاء التي وقع فيها بعض الأدعياء تجنبا لهجمات الفقهاء والدفاع عن التصوف ضد أعدائه ومعارضيه وردعهم ودفع الشبهات " لينتفي عنهم خرص المتخرصين ، وسوء تأويل الجاهلين " [٢].

وهو ما صرح به الطوسي في اللمع ، والكلاباذي في التعرف ، والقشيري في الرسالة ، والسهروردي في عوارف المعارف ، وغيرهم من أصحاب الاتجاه التصحيحي في التصوف [٣] .

[٩] تسرب الفلسفة إلى التصوف .

من بين الأسباب والعوامل التي أدت إلى القيام بالتصحيح تأثر بعض رجال الطريق بالفلسفة وغزو المصطلحات والأفكار الفلسفية ميدان الحياة الروحية شأنها في ذلك شأن بقية العلوم الإسلامية التي اقتحمتها الفلسفة .

ولا شك أنه بالرغم من اختلاف التصوف مع الفلسفة فيما يتعلق بوسيلة المعرفة ، فالتصوف يعتمد على التجربة الذوقية وتعتمد الفلسفة على العملية العقلية ، لكن توجد صلات تاريخية تربط بين التصوف والفلسفة في المحيط الإسلامي وذلك " أن العلمين نشأا وتقدما في زمن واحد ... ففي الوقت الذي كان فيه سعيد بن المسيب [٤] وأقرانه في المدينة يمهدون السبيل للتطور كان خالد بن

---

(١) مقدمة أخبار الحلاج : ص ١٧ .

(٢) التعرف : ص ٢٦ .

(٣) انظر اللمع للطوسي : ص ١٨ ــ ٢١ ، والتعرف : ص ٢٦ ، والرسالة : ص ٣٧ ، وعوارف المعارف : ص ٤٣ .

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القريشي المخزومي ، قال ابن المديني لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيب ، توفي سنة ٩٤ هـ قاله الواقدي في خلافة الوليد وهو ابن خمس وسبعين سنة ، انظر تهذيب التهذيب لابن حجر : جـ ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٧ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ، ط ٢١ (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) .

يزيد [١] مغرما بالترجمة ، وفي الوقت الذي كان الحسن البصري ومالك بن دينار يطوران الزهد ، كان جعفر الصادق [٢] يتكلم في الكيمياء ، والفأل والزجر وفي الوقت الذي اتسعت فيه الترجمة على أيدي العباسيين في نهاية القرن الثالث كان شقيق البلخي ومعروف الكرخي يتكلمون في الحقائق ، ومع الدور الرئيسي في الترجمة ... في بدايات القرن الثالث كان المحاسبي وذو النون والبسطامي والسري ينشرون أهم الأذواق الصوفية ويجتمع حولهم المريدون من كل صقع " [٣] .

ومع تزامن التطور بين العلمين فإنه لم يحدث تلاقي حقيقي بينهما إلا في بداية القرن الثالث الهجري حين بلغ التصوف نضجه وبدأ على يد قلة معروفة " يتفاعل مع العناصر الأجنبية التي تسللت إلى الإسلام " [٤] والتي كان لها أثر عميق وفعال سلباً وإيجابا في جوانب الفكر الإسلامي عامة .

ويذكر كثير من العلماء أن البداية كانت هادئة ومعتدلة عند البسطامي لكن سرعان ما تعمقت إلي حد ما عند الحلاج والسهروردي المقتول (٥٨٧ هـ) صاحب نظرية الإشراق ، وبلغت حد الكمال عند ابن عربي ومدرسته والتي كانت آخر رجالها عبد الكريم الجيلي (٥٠٨ هـ) [٥] .

ومما ألقي في المحيط الصوفي بالأفكار الأجنبية والفلسفية أن الفلسفة

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي أبو هاشم حكيم قريش وعالمها في عصره اشتغل بالطب والكيمياء والنجوم توفي سنة ٩٠ هـ على الأصح ؛ قال البيزوني كان خالد بن يزيد أول فلاسفة الإسلام ، انظر الأعلام للزركلي : جـ ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ، ط ١ ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٢ م .

(٢) جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب الهاشمي العلوي ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٨ هـ ، انظر الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٥٦ – ٥٧ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٤) الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية : ص ٩٧ – ٩٨ .

(٥) انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٥٦ وانظر الفلسفة الصوفية في الإسلام : د / عبد القادر محمود ص ٣٠٧ – ٣٠٨ وانظر الحياة الروحية في الإسلام : ص ١٦٧ وانظر أدب الزهد في العصر العباسي . د / عبد الستار السيد متولي : ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ م .

بنظرياتها صارت في متناول اليد حيث انتشرت مراكزها في المشرق والمغرب مع بداية القرن الثالث وسمح للفلاسفة بأن يعلنوا عن آرائهم ويستمع لها المثقفون وغيرهم ، ولقيت الفلسفة رواجاً وقبولا من الخلفاء أنفسهم كما هو معروف (١) .

أضف إلى ذلك أن الفكر الإسلامي تطور تحت تأثير الفلسفة حيث غزت كثيرا من العلوم الإسلامية ولم يسلم من تأثيرها أخص العلوم الإسلامية مثل التفسير وعلم الكلام الذي راح يمازج بين مسائل العقيدة وبين التفلسف ، ويرد على الفلاسفة بما يشبه منهجهم ، وتعرض علم الكلام إلى مسائل ومصطلحات هي من صميم التفلسف وأخص فرقة الشيعة بالذات (٢) .

ثم إنه دخل في الإسلام أمم كانت لهم ثقافات وفلسفات شرقية كالهنود والفرس تناقلها أربابها بالمحاكاة حتى كتب البيروني كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة " فشاعت تلك الفلسفات في المجتمع الإسلامي (٣) .

وأيضا فإن الفكر اليهودي قد احتك بالمسلمين في المشرق والمغرب إبان استفادة اليهود في نشاطهم الثقافي بالتيار الثقافي الإسلامي وعن طريق الامتزاج دخلت كثير من أفكار اليهود لا سيما التأويل الرمزي إلى الفكر الإسلامي (٤) .

وعموما فقد تعددت الروافد التي زجت بأفكار فلسفية وأجنبية داخل المجتمع الإسلامي ، ووضع نفر من الصوفية أيديهم عليها فمزجوا الحياة الروحية

---

(١) انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام . ص ٧٦ ، والتصوف الإسلامي الخالص لأبي الفيض المنوفى : ص ١٨٣ ، دار نهضة مصر لطباعة والنشر ، القاهرة ، ط بدون تاريخ .

(٢) انظر أدب الزهد في العصر العباسي : ص ٢٩٣ ، الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٧٦ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها للدكتور / عرفان مفتاح : ص ١٥٩ ، دار الجيل ، ط ١ ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، ودائرة المعارف الإسلامية : جـ ٥ ص ٢٨٤ ، والحياة الروحية في الإسلام : ص ١٦٧ - ١٦٨ ، مقدمة ابن خلدون : ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، وضحى الإسلام لأحمد أمين : جـ ٣ ص ٢٣٥ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ط بدون تاريخ .

(٣) التصوف الإسلامي الخالص : ص ١٧٩ ، وأدب الزهد في العصر العباسي : ص ٢٨٧ ، ومقدمة أصول الملامتية : ص ٥٤ - ٥٧ .

(٤) أدب الزهد في العصر العباسي : ص ٢٩٣ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٥٩ .

بها ، وترتب على ذلك أن تأثر هذا النفر الذي يقل عن عدد أصابع اليدين بتلك الأفكار فصدرت منهم أقوال تفصح عن الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، كما نجدها عند الحلاج وابن عربي وابن سبعين وشراحهم وهو المنحي الذي عرف بالاتجاه الفلسفي لدى الصوفية ، وهو الأمر نفسه الذي أثار عداء الفقهاء والصوفية السنين على حد سواء ، وأوجد نوعا من النفور إزاء هذا الفزيق المحدود الذي انغمس في هذه الأفكار أسلوبا وفكراً ، وحمس الصوفية أنفسهم من أمثال الطوسي والكلاباذي والقشيري وشهاب الدين السهروردي وغيرهم من أصحاب الاتجاه التصحيحي إلى ما يلي

[١] تصحيح هذه الانحرافات

[٢] العودة بالتصوف إلى حظيرة الإسلام بصورته العلمية والروحية ، والعمل على تنقيته من هده النظريات الفلسفية التي أساءت إلى التصوف والصوفية وشوهت صورتيهما .

وقد سلك الصوفية في ذلك مسلكاً خاصاً يتمثل في :

أ – التبرؤ من ذوي الميول المتطرفة في قلب الاتجاه الصوفي :

فقد تظاهر الجمع الغفير من الصوفية السنيين منذ دخول الفلسفة اليونانية والحكمة إلى الساحات في القرن الثالث الهجري " على كل من يشمون من فمه رائحة التفلسف ، وصبوا جام غضبهم على الصوفية المتفلسفة ، كما صنع السري السقطي وعمرو بن عثمان المكي مع الحلاج وتلاميذه " [١] .

ويذكر د / عبد الله الشاذلي أن رويم بن أحمد قد ألف كتابه " غلط الواجدين " للرد على هؤلاء المارقين في نظره [٢] .

---

(١) التصرف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٧٤ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

الفصل الثاني

مصـــادر التقـــويم

كذلك شدد الصوفية من أهل السنة والجماعة في النكير على الكرامية [١] من الفرق الكلامية المنتسبة للتصوف لقولهم بالتشبيه المتأثر بالديانات والفلسفات السابقة ، وكذلك هاجموا بعنف الفلاسفة الحقيقيين على غرار ما فعل الغزالي في حملته المشهورة " [٢] .

ب – رفض الصوفية للنظريات المتأثرة :

فقد ضاق الصوفية من أهل السنة والجماعة " ذرعاً بكل النظريات التي تبعد التصوف عن قواعد العقيدة الإسلامية " [٣] ، وذلك لأنهم يعتقدون اعتقادا جازما أن الخروج عن الشرع حرمان وزيغ وسخافة ، وأن الطريق السليم لإدراك المعرفة الصادقة هو طريق الشرع لا طريق العقل ، ومن هنا علت أصوات القوم في المناداة بالعودة إلى السنة والتمسك بسيرة السلف الصالح [٤] .

ويذكر كثير من العلماء أن الإمام الغزالي كان له الفضل الأكبر في عودة التصوف إلى حظيرة الإسلام " فقد مزج التصوف بالقرآن الكريم والحديث الشريف مزجا تاماً واستخرج من المجموع مادة واحدة وكتابه إحياء علوم الدين هو مصدر ذلك التصوف من غير جدال [٥] .

ويذكر د / عبد القادر محمود أن مدرسة الغزالي والتي امتدت في المدرسة الشاذلية كان لها دورها في الرد على مدرسة ابن عربي وامتدادها ، كما كان لها دورها في الحفاظ على التصوف نقياً خالصا بعيدا عن تيارات الغلو والانحراف [٦]

---

(١) الكرامية أتباع محمد بن كرام وهم ثلاثة أصناف : حقائقية ، وطرائقية ، وإسحاقية ومن أهم ضلالاتهم زعم محمد بن كرام أن لله جسم له حد ونهاية من تحته ، انظر الفرق بين الفرق : ص ٢٢٧ – ٢٣٦ ، وانظر الملل والنحل للشهرستاني : جـ ١ ص ١٢٢ ــ ١٢٨ ، تحقيق : محمد فريد ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٣) أدب الزهد في العصر العباسي : ص ٢٧٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٧٣ .

(٦) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٢٨٢ .

الفصل الثاني

مصـــــادر التقــويم

تمهيد :

بداية نجد الصوفية اعتمدوا في سلوكهم ومنهجهم مصادر متنوعة ترتب عندهم بحسب أوليتها وقيمتها في الدين ، والباحث وهو يتناول عملية التصحيح وبعد أن فرغ من أسباب الانحراف وذكر في الفصل السابق العوامل التي أدت بالصوفية لكي يقوموا بعملية تقويم الطريق برجاله يجدر به الآن أن يبحث المصادر التي تعتمد عليها عملية النقد ، وما يتبعها من تنبيه شديد على تصحيح المسالك نظريا وعمليا ، وسوف يرتب كل مصدر حسب أوليته في الدين ولدى نظرة الصوفية أنفسهم بحيث إذا فرغ من ذلك يكون قد أفصح عن المصادر التي استند إليها الصوفية في نقدهم الذاتي للطريق ، وفي الوقت نفسه يكون قد كشف عن أهم مصادر الطريق أصوليا ونقديا .

وسوف يتبع الباحث للكشف عن هذه المصادر منهج الاستقراء لأقوالهم وتصنيفها لكي تشيّد بدورها مصادر الطريق والمصادر المعيارية لكل معرفة وعمل وهذا أمر ضروري لكل من أراد أن يتتبع النقود الموجهة لأبناء الطريق ، إذا يلزم والحالة هذه أن تكون هناك أصول متفق عليها ، وتعطي لمن ألتزمها إشارة الصحة وترد من خالفها عن طريق الجادة .

ولا بأس أن أفصل ذلك في نقاط عامة وفرعية لتستبين الأصول وما يلحقها وهاهي :

أولا : مصدرية الكتاب والسنة .

يؤمن الصوفية بأن الكتاب والسنة هما المصدران اللذان لا يدانيهما مصدر سابق ، وفيهما حل لكل مشكل ، وبيان لما أجمل وتفصيل لما كان عاماً [١] .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ونصوصهم في هذا الصدد كثيرة ومتنوعة والباحث يسوق منها ما يبين موقف الصوفية من المصدرين وبناء علمها وما يتبع ذلك من ضرورة لزومهما، والسير على هديهما نظرا وعملا .

{ أ } الصلة بين المصدرين وعلم القوم .

تأكيدا على تلك الجزئية يفصح الصوفية عن منبع علمهم وأساسه وأصله ودعامته ، ولأنهم رجال دين من الطراز الفريد نراهم يفصحون عن تلك المصدرية فيجعل سهل بن عبد الله (٢٨٣ هـ) أول أصول السير هو التمسك بالكتاب والسنة " [١] ، ثم يردفهما بما انبنى عليهما من أصول السير كأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة ، وواضح أنه يجعل الكتاب والسنة مصدرا أوليا قائما علي الوحي والسند الرباني ، ويلحق بهما غيرهما .

ويتضح من خلال أقوالهم الرامية إلى مرجعية الكتاب والسنة لعلمهم أنهم جعلوا الشريعة التي هي فهوم العلماء الثقات في المصدرين تالية في الأهمية للمصدرين ويعتبرونها منبعاً من منابع علومهم ، وهذا ما أعلنه الجنيد في قوله : " كتابنا – يعني القرآن – سيد الكتب وأجمعها ، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها " [٢] .

وما دام الأمر كذلك اعتقادا من الصوفية في وفرة المصدرين وما تبع عنهما من فهوم فإنه لا غرابة أن يفصحوا عن أن طريقتهم " مشيدة على الكتاب والسنة " أو قائمة عليهما وحدهما حسبما ذكر الجنيد (٢٩٧ هـ) والبدوي والشعراني [٣] .

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٤٩ ، ونشر المحاسن الغالية لليافعي : ص ٣٦٧

(٢) الشعراني . تنبيه المغترين : ص ٩ ، مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط بدون تاريخ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، وأعلام التصوف الإسلامي . أحمد أبو كف : ص ١٥ ، دار الهلال ، ط بدون تاريخ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٨ .

ومن دقة عباراتهم في هذا الصدد أنهم وهم يقيمون علمهم على المصدرين يطالبون المريدين بتحري الحقيقة لا مجرد الإقامة بلا تحري وتدقيق .

يقول الشيخ على الخواص : " إن طريق القوم – رضي الله عنهم – محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر وذلك لأن لهم في كل حركة وسكون نية صالحة بميزان شرعي ولا يعرف ذلك إلا من تبحر في علوم الشريعة " (١).

ونلحظ من هذا النص أنه طالب المريدين بتحري الموافقة بين ما يطلبه الطريق وبين الشرع على وجه يتسم بالدقة والشمول ومثل هذا التحري لا يتحقق كما يظهر من نصه إلا لمن تبحر في علوم الشريعة ، فمجرد الموافقة الظاهرة غير كافية بل لابد من التحري فيها ، والتحري يستلزم السعة في علوم الشريعة المستقاة من الكتاب والسنة .

{ ب } الملازمة الدائمة .

ما دام الصوفية قد أفصحوا عن أصول علمهم التي شيد وقام عليها وطالبوا بالتحري في ذلك إلى أبعد حد وأدقه فإنهم بعد ذلك لم يجعلوا الإفصاح عن المصدرية مجرد قول نظري ، بل طالبوا بملازمة هذين المصدرين ملازمة دائمة في كل الحركات والسكنات والأقوال والأفعال والعبادات والعادات وجعلوا الملازمة للأصل هي التي يعتد بها في سيطرة هذا الأصل على السالكين سيطرة تامة لا مجرد نسبة (٢) .

يقول أبو القاسم النصر آباذي (٣٧٦ هـ) : " أصول التصوف ملازمة الكتاب والسنة " (٣) ، فالأصل إذا أفصح عنه نظريا لا يكون ذا قيمة تضاهي

---

(١) تنبيه المغترين : ص ١٠ .

(٢) الغزالي . الأربعين في أصول الدين : ص ٥٥ ، دار الكتب العملية – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م) .

(٣) طبقات الصوفية للسلمي : ص ١٢٠ .

تلك التي يعتقد بها وتمثل التزاما ما في الجوانب المتعددة ، فالالتزام إفصاح عن المصدر مع زيادة التمسك بالكتاب والسنة تمسكاً يقوم غلى الفهم والعمل ، ومن فهم وطبق ولازم حرمة الأصول وترك الفضول واختار ما اختاره الرسول صار حقيقة من ذوي العقول على حد تعبير المحاسبي [١] .

ولقد نادى الرفاعي (٥٧٠ هـ) والدسوقي (٦٧٦ هـ) على مريديهم بذلك مرارا " يا فقير يا صوفي اقتد بالقرآن المجيد اتبع آثار السلف [٢] ، " يا ولدي الزم طريق النسك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ " [٣] ، وزن جميع أفعالك بميزان الشرع

وانضم إلى المنبهين إلى هذا كل من أبي حامد الغزالي والخواص والشعراني [٤]. والشيخ زروق حين يقول : " لا يؤخذ إلا عن الكتاب والسنة ، وفي الإلقاء لا يلقي إلا بالوجه الشائع منهما من غير منازع " [٥] .

ولمحة أحمد رزق جميلة دقيقة كلمحة التحري السابقة إذ يرى ارتباط التصوف بالشرع من الوجه الشائع منهما من غير منازع .

أي أن يلتزم المريد الكتاب والسنة متحريا فقههما على وجه دقيق مع مراعات أن يأخذ بالأحكام والفهوم التي شاعت بين العلماء ومثلت اتفاقا عليها فيما بينهم ، وذلك حتى لا يدخل المريد وهو يلازم الكتاب والسنة في قوله وعمله وخلقه وعبادته وعاداته في خلافات الفقهاء فمتى وجد الإتفاق كان معه .

---

(١) أبو نعيم . حلية الأولياء : جـ ١ ص ٧٤ ، مطبعة الأنوار المحمدية ، ط بدون تاريخ .

(٢) أحمد الرفاعي : العقيدة ألحقه ص ٨٣ ، عالم الكتب ، ط ١ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .

(٣) أعلام التصوف الإسلامي : ص ١٥ .

(٤) الغزالي: ميزان العمل ص ١٧ دار الكتب العملية بيروت لبنان ، ط ١ (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م)؟ وتنبيه المغترين للشعراني : ص ١٠ .

(٥) قواعد التصوف : ص ١٢٥ القاعدة رقم [١٩٩] .

إن الصوفية هنا لا ينبهون إلى ملازمة الكتاب والسنة بوجه عام دون أن يشيروا إلى ضرورة الفهم والتبحر والتحري واتباع المتفق عليه لا المختلف فيه .

{ ج } ارتباط السلوك والثمار بالملازمة .

لما نبه الصوفية على ملازمة الكتاب والسنة وأنهما مصدران ومعياران لازمان للسلوك يجب السير على هديهما ، كان ذلك بصورة إجمالية عادوا إلى تلك النقطة بطريقة تفصيلية فربطوا بين الملازمة من جهة وبين المقامات والأحوال من جهة أخرى ، وهذا يدل على أن الصوفية إذ يسلكون هذا المسلك يصرون على عقد صلة وثيقة بين علمهم والكتاب والسنة بشكل كلي أو شكل تفصيلي .

ونتبين صحة ذلك إذا رجعنا إلى أقوالهم التي تربط كلا من المقامات والأحوال بالكتاب والسنة .

أما من جهة المقامات :

فإن تلك المقامات مع العلم بأنها وثيقة الصلة بالكتاب والسنة ومستقاة من أهم فضائلهما كالخوف والرجاء والصبر والشكر والتواضع إلى آخر المقامات إلا أن الصوفية لم يكتفوا بمجرد الصلة الظاهرة التي يمكن إدراكها بل نبهوا مشددين على أهمية التلازم بين كل مقام والمصدرين السابقين من باب التأكيد والاحتياط ونظرا لأن المقامات عبارة عن فضائل سلوكية تطبق بطرق تتناسب وطباع البشر فإن الصوفية قد اختاروا مثالا أعلى في التطبيق يقتدون به هو رسول الله ﷺ ولذا قالوا على لسان أبي العباسي بن عطاء الآدمي (٣٠٩ هـ) **لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية** " (١) .

أرأيت كيف رفضوا كل مقام غير مقام المتابعة ، لأن الحبيب ﷺ هو صاحب الشريعة فهو أدري بالوجوه الحسنة في تطبيقها ، وتطبيقه أدق مسلك وأعظمه ،

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٦٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٢٣ .

لذا أعلنوا أن مقام المتابعة أصل لقبول السلوك في المقامات وفي كل الأحوال والأفعال والعقد والعزم إلى آخره ، وتصيير المتابعة في جميع الأفعال الاختيارية ووزنها بميزان الشرع هي علامة المريد الصادق عند الإمام الغزلي [١] .

ومن ناحية الأحوال :

لما كانت الأحوال متبدلة متغيرة وللعدو مدخل فيها بالنفث والوسوسة ، جعل الصوفية من التلازم بينها وبين الكتاب والسنة معيارا لميزانها وضبطها .

وقد توسع الصوفية قليلاً في بيان تلازم الأحوال للكتاب والسنة بخلاف المقامات ، وذلك لأن المقامات فضائل سلوكية ظاهرة يمكن التحقيق فيها بصورة سهلة بخلاف الأحوال .

وقد ظهر ذلك واضحا في مناداتهم بربط الأحوال بصفة عامة بالكتاب والسنة مبينين أنه لا يبلغ " أحد حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة " [٢] كما جاء على لسان أبي الخير الأقطع (٣٤١ هـ) ، وأن التمسك بالكتاب والسنة هو الطريق إلى انقداح علم الحقائق والأسرار التي تعجز الألسن عنها نظريا ، أشار إلى ذلك الدسوقي (٦٧٦ هـ) والشعراني [٣] .

وفي توصيتهم بوجوب عرض الأحوال جميعها على الكتاب والسنة وقبول ما قبلاه ورفض ما رفضاه كما ذكر ابن عجيبة [٤] .

وبعد أن نادى الصوفية بضرورة التلازم بين الأحوال وبين الكتاب والسنة بصورة إجمالية عادوا فنادوا بربط كل حال على حده بهما ، فيجعل ذو النون ،

---

(١) ميزان العمل : ص ١٧١ .

(٢) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٩٠ .

(٣) أعلام التصوف : ص ١٥ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٨ .

(٤) ابن عجيبة . الفتوحات الإلهية : ص ٥٥ ، تحقيق عبد الرحمن حسن حموده ، عالم الفكر ، ط بدون تاريخ .

وإبراهيم بن داود الرقي (٣٢٦ هـ) المتابعة للنبي ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره ونواهيه وسننه وإيثار طاعته من علامة المحب [١] .

وأعلن أبو بكر الطمستاني (٣٤٠ هـ) بأن الطريق إلى الصدق في التوجه وإلي صفاء القلب وتصفيته هو صحبة الكتاب والسنة والتغرب عن النفس والهجرة إلي الله تعالى [٢] .

ويربط أبو سعيد الحيري (٢٩٨هـ) ، وأبو العباسي بن عطاء (٣٠٩هـ) بين الاتباع للكتاب والسنة وبين أهم النطريات عند الصوفية وهي نظرية المعرفة

فيقول أبو سعيد الحيري : " من أمر السنة على نفسه قولا وفعلاً نطق بالحكمة لقوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [٣] [٤]

ويقول أبو العباسي : " من ألزم نفسه أدب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة " [٥] .

وبالرغم من أن كشف الولي وخواطره وسائر علوم الأولياء لا تكون إلا من باطن شريعته ﷺ ومن دائرة عمله ، ومن المحال أن يوحي الحق تعالى إلى قلب وليه من طريق الإلهام شيئاً يخالف شريعته ﷺ حسبما أشار إلى ذلك الشيخ على الخواص والشعراني [٦] ، فإننا وجدنا الإمام الجيلاني يطالب كل ولي إن

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٣٧ ، والرسالة : ص ٤١٥ ، ونشر المحاسن الغالية لليافعي : ص ٣٦٧ .

(٢) الرسالة : ص ٤٢٣ .

(٣) سورة النور آية ٥٤ .

(٤) الرسالة ص ٤٠٨ .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي ص٦٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ١ ص ٣٣٣

(٦) الشعراني : الأجوبة المرضية ص ١٥٧ - ١٥٨ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٦ ، مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م) .

خطر له خاطر أو وجد إلهام أن يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن وجد فيهما تحريم ذلك فليدفعه عن نفسه وليهجره ولا يقبله ولا يعمل به وليعلم أنه إلهام النفس وقد أمر بمخالفتها وعداوتها (١) .

وهو ما طبقة أبو سليمان الداراني ٢١٥ هـ بصورة عملية فقال عن نفسه " ربما تنكت الحقيقة في قلبي أربعين يوماً فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة " (٢) .

وأعلن أبو الحسين الوراق بأن حال الوصال والقرب لا يصل إليه العبد إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه (٣) .

وبين سهل بن عبد الله (٢٩٣ هـ) أن حال الوجد " إذا لم يشهد له الكتاب والسنة فباطل عمله (٤) أو يجب نفيه حسبما أشار إلى ذلك المكي (٥) .

وهكذا فقد نادى الصوفية بربط الأحوال إجمالا وتفصيلا بالكتاب والسنة وقبول ما وافقهما ورفض ما خالفهما .

{ د } التبرؤ من المخالفين .

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من دعوة الصوفية إلى التمسك بالكتاب والسنة وضرورة التلازم بين المقامات والأحوال وجميع الحركات والسكنات والخطرات والأقوال والأعمال والأخلاق وبين الكتاب والسنة ووجوب أخذ الموافق لهما ورد

---

(١) الجيلاني . فتوح الغيب : ص ١٦ ، والمكتبة الأزهرية ط ١ (١٤١٩ هـ) .

(٢) اللمع للطوسي : ص ١٤٦ ، وطبقات الصوفية للسلمي : ص ٢٠ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧١ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ١٤٦ ، ٣٧٦ .

(٥) أبو طالب المكي . قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٣٧ ، تحقيق : د / عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، ط ١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م) .

وترك المخالف [١] .

فإن الصوفية أعلنوا وبكل وضوح بأن المريد إذا لم يلتزم بالكتاب والسنة فإنه لا يكون سائرا في طريق التصوف " [٢] بل يكون سائرا في طريق الضلال والابتداع والانحراف حسبما جاء ذلك على لسان أبي الحسين الوراق ، والرفاعي وأبي الحسن الشاذلي [٣] .

ومن ثم فلا يعد في ديوان الرجال ، ولا يصح الاقتداء به لأن كل " من لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة لا يصح الاقتداء به " [٤] وبهذا صرح كل من عمر بن سلمه الحداد (٢٦٠ هـ) والجنيد (٢٩٧ هـ) .

ولم يكتف الصوفية بدعوة مريديهم وأتباعهم إلى عدم الاقتداء بمن لم يلتزم بالكتاب والسنة ، بل دعوا إلى البعد عنهم وعدم القرب منهم فقال أبو الحسين النوري : " من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد الشريعة فلا تقربنه ، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه [٥]

كما أعلنوا أن كل ما جاء في الطريق مخالفا للكتاب والسنة فهو مدسوس عليهم وليس من الطريق في شيء كما ذكر البدوي [٦] .

وذلك لأن الطريق مشيد وقائم ومحرر على الكتاب والسنة كما ذكرناه سابقا ، وأنه لا يكون مذموما إلا إذا خالف " صريح القرآن والسنة والإجماع " [٧]

---

(١) الفتوحات الإلهية : ص ٥٥ ، ومقدمة أصول الملامتية : ص ٧٢ .

(٢) د / عبد الحليم محمود . أبو البركات سيدي أحمد الدردير ص ٧٧ دار المعارف ط بدون تاريخ

(٣) وطبقات الصوفية للسلمي : ص٧١، والعقيدة ألحقه : ص ٨٣ ، والمفاخر الغالية في المآثر الشاذلية لأحمد بن محمد بن عباد الحلي الشافعي : ص ٧٠ ، مكتبة الفجر الجديد الدراسة ط بدون تاريخ

(٤) الرسالة القيشرية : ص ٤٠٦ ، وتنبيه المغترين : ص ٩ .

(٥) تلبيس إبليس : ص ١٧٠ .

(٦) أعلام التصوف : ص ١٥ .

(٧) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٨ .

ونختم كلامنا بدعوة أبي الحسن الشاذلي أحد تلاميذه بترك كشفه إذا خالف القرآن والسنة قائلاً له : " إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام " (١) .

وعليه ومن خلال ما سبق فقد تبين لنا اهتمام الصوفية بالتمسك بالكتاب والسنة ولم يبق لنا إلا أن نبين مدي تطبيقهم بطريقة عملية ما دعوا إليه نظريا .

التطبيق العملي :

طبق الصوفية بصورة عملية ما دعوا إليه نظريا ومما يدل على ذلك :

ما ذكره الإمام الشعراني في الأجوبة المرضية من أن المحاسبي ، والمكي والقشيري ، والغزالي ، وغيرهم استدلوا على بطلان عبادة كل من لم يوافق باطنه ظاهرة بما جاء عن النبي ﷺ " كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد " (٢) (٣)

ويدل عليه أيضا ما جاء عن أبي يزيد رضي الله عنه من رفضه سؤال الحق ﷻ أن يكفيه مؤنة الأكل والنساء لعدم سؤال النبي ﷺ ذلك فقال : " لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء ، ثم قلت كيف يجوز لي أن أسأل الله ﷻ هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ فلم أسأله (٤) .

ومما يدل على ذلك أيضا ما جاء عن أبي عثمان الحيرى " أنه لما تغيرت الحال عليه رضي الله عنه مزق ابنه قميصاً ففتح أبو عثمان عينيه وقال إن خلاف السنة في الظاهر من رياء الباطن " (٥) .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) الحديث أخرجه الدار قطني في سننه : جـ ٢ ص ١٢٣ كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري ، حديث رقم [٤٤٩١] دار الفكر ط (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م) .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ١٤٥ .

(٥) نشر المحاسن الغالية : ص ٣٧٤ ، وحلية الأولياء : جـ ١ ص ٢٤٥ .

ورفض السهروردي ما دعت إليه الملامتيه لمخالفته ما جاءت به السنة فيقول : " فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية ... وانتهجوا مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد والارتسام بمراسم الشريعة رتبه العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليدا وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والأبعاد ، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة " (١)

كذلك وجدناه يرفض القول بالحلول لمخالفة ذلك " لما آتانا به رسول الله ﷺ " (٢) وهكذا طبق الصوفية بصورة عملية ما أعلنوه نظريا ، وسوف يتضح ذلك بصورة أوضح في الفصول القادمة وقد اكتفينا بما سقناه من نماذج حتى لا يكون هناك تكرار .

ثانياً : أقوال السلف الصالح :

بعد إعلان الصوفية قيام التصوف على الكتاب والسنة وبعد مناداتهم بضرورة وزن الأعمال والأقوال عليهما نظروا في القرآن فوجدوا الحق سبحانه وتعالى يمدح السابقين من أصحاب النبي ﷺ فيقول في حقهم ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (٣) كما وجدوا النبي ﷺ يأمر بالإقتداء بهم فيقول ﷺ : " اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما " (٤) .

ويوصي ﷺ باتباعهم وبمن أتى من بعدهم من التابعين وتابعي التابعين ،

---

(١) عوارف المعارف : ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٢ .

(٣) سورة التوبة آية ١٠٠ .

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ٢ ص ٧٥ كتاب : معرفة الصحابة . باب : مناقب أبو بكر بن قحافة ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ط (١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م) .

وباتباع ما أجمعوا عليه ويحذر من مفارقة الجماعة فيقول ﷺ : " أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ويشهد ولا يستشهد وعليكم بالجماعة وإياكم والفرقة " (١) .

كما وجدوا الصحابة رضي الله عنهم " قد أكثروا من الكلام في الأسس التي قام عليها التصوف " (٢) .

ومن ثم نادى الصوفية بوجوب متابعتهم والاحتكام إلى أقوالهم وأفعالهم ، ويظهر ذلك حين يعلن حمدون القصار (٢٧١ هـ) بأن العلماء حقاهم " المقتدون بسيرة السلف والمتبعون لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ " (٣) .

وحين يجعل أبو على الجوزجاني مجانبة البدع واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام الطريق إلى اتباع السنة (٤) .

وحين يجعل أبو طالب المكي النطق بما لم ينطق به السلف تكلفاً وسقوطا في القول وبطلانا (٥) .

كما يظهر في مناداة السهروردي صاحب عوارف المعارف بوجوب رجوع الصوفي في كل أمر من الأمور خاصة تلك العبارات الشاطحة ووزنها بميزان أصحاب رسول الله ﷺ واضعا في حسبانه تواضعهم واجتنابهم التفوه بمثل هذه العبارات (٦) .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ١١٤ كتاب : العلم . باب : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٣٣١ .

(٣) حلية الأولياء : جـ ١ ص ٢٣١ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٥٥ ، وطبقات الصوفية للسلمي : ص ٥٩ .

(٥) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٦) عوارف المعارف : ص ١٣٥ .

وقد طبق الصوفية بصورة عملية ما دعوا إليه نظريا من وجوب الاحتكام إلى أقوال وأفعال السلف الصالح في القبول والرفض ، فقد رفض الغزالى ترك الأدعياء الزاد في الأسفار وفي الخلوة بدعوى التوكل لعدم ثبوت ذلك عن الصحابة والسلف فيقول : " فمنهم من يدعي التوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب واثق به " (١) .

ورفض الشيخ ماضي أبو العزائم ما يحدث أثناء الذكر من خروج عن حد الاعتدال لعدم ورود ذلك عن السلف ، يقول فوزي محمد أبو زيد : " ظهر الإمام أبو العزائم ﷺ في وقت غلب فيه على الصوفية ذكر الأسماء الحسني الإلهية في الخلوات بأعداد معينة ... وربما ينتج من هذه الأذكار أحوال تجعل السالكين يخرجون عن المألوف ، إما بشدة تأثرهم بالواردات التي ترد عليهم أو خروجهم عن حد الاعتدال في العبادة وهو الحالة الوسط قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٢) فتؤثر هذه الأحوال على الأعضاء فيخرج الإنسان أشعث الرأس حافي القدمين أحيانا ، وأحيانا أخرى يهيم على وجهه في القفارى والجبال ، وأحيانا أخرى ... يتفوه بعبارات لا تليق ، أو لا يفهمها العامة من الناس ، وغير ذلك من الأمور التي تبعد كثيرا عن حقيقة التصوف ... فأعلن الإمام صيحته المدوية والتي حددها في هذا المبدأ الكريم : إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها " (٣) .

---

(١) الإحياء للغزالي ، جـ ٣ ص ٦٢٨ ، ٦٢٩

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٣) فوزي محمد أبو زيد . الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٠٦ ، ١٠٧ دار الإيمان والحياة المعادي ، ط بدون تاريخ .

وقد اكتفينا بهذين النموذجين لدلالتهما على المطلوب في احتكام الصوفية قديما وحديثاً إلى أقوال السلف وأفعالهم في القبول والرفض وسوف يزداد الأمر وضوحاً في الفصول القادمة إن شاء الله عند حديثنا عن جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بمسائل الاعتقاد ، والنفس والباطن ، والتربية ، وسوف يتبين لنا كيف كانت أقوال السلف مصدراً اعتمد عليه الصوفية في بناء القواعد والآداب ، وهدم الانحرافات والبدع .

ثالثاً : أقوال مشايخ الصوفية :

بالرغم من أن أقوال المشايخ لا تعد مصدراً من مصادر الدين كالقرآن والسنة وكإجماع الأمة فإن أصحاب الاتجاه التصحيحي من الصوفية كانوا في بعض الأحيان يعتمدونها كمصدر تدليلي يدللون به على عدم صحة ما وقع فيه البعض من انحرافات لمخالفته ما جاء عن سلف الصوفية الذين تمسكوا بالكتاب والسنة وساروا على ما سار عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم رضي الله عنهم أجمعين

فالطوسي مثلا حين يتحدث عن الأخطاء التي وقع فيها البعض فيما يتعلق بالعبادات والمجاهدات يقول : " إن طبقة من الصوفية غلطت في العبادات والمجاهدات ورياضه النفوس والمكابدات فلم تحكم في ذلك أساسها ولم تضع الأشياء في مواضعها فانهزمت ونكصت على أعقابها القهقري (١) .

وبعد أن يسوق الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين نراه يعقب قائلاً : " سمعت أحمد بن على الكرخي يقول : سمعت أبا على الروذباري – رحمة الله – يقول البداية كالنهاية والنهاية فهي كالبداية فمن ترك شيئاً في نهايته مما كان يعمل في بدايته فهو مخدوع " (٢).

ونلاحظ أن الطوسي في هذا النص يحاول التدليل على عدم صحة فعل

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٢٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

هؤلاء الذين قعدوا عن العبادة والمجاهدة بإثبات مخالفته لما كان عليه سلف الصوفية الذين نادوا بضرورة الالتزام في البداية والنهاية بأداء التكاليف الشرعية ومعلنين بأن من ترك شيئاً في نهايته مما كان يعمله في بدايته فهو مخدوع .

ونفس الشيء يفعله القشيري في الرسالة عند حديثه عن آفة صحبة الأحداث فقد ساق الكثير من أقوال المشايخ الدالة على رفضهم هذه الآفة فقال : " من أصعب الآفات في هذا الطريق صحبة الأحداث .... يقول فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كلهم أوصوني عند فراقي إياهم وقالوا : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم " (١) .

ونفس الشيء فعله الهجويري والغزالى والشعراني فقد دأبوا في مؤلفاتهم على الاستشهاد بأقوال مشايخهم وأساتذتهم عند عرض مسألة من المسائل والتدليل على صحة فعل أو عدم صحته (٢) .

ويضيف الشعراني في القرن العاشر إضافة جديدة وهي جعله أقوال وأفعال سلف الصوفية قاعدة في التمييز بين الصادق والكاذب من المريدين فيقول : " والضابط في تمييز الصادقين عن بيان الكاذبين إقامة الأعمال كلها على قانون الشريعة ومتابعتهم لآدابها والتأدب بآداب أهل الطريق على وفق سير المشايخ من السلف الصالحين ، فاعرض يا أخي ما ذكرته من أحوال الصادقين من المريدين والأشياخ تعرف حال أهل زمانك " (٣) ، والذي يقرأ نص الشعراني السابق يجد أنه يبين لنا المعايير التي يحتكم إليها في بيان المريد الصادق من الكاذب وهذه المعايير هي :

١ - مدى تمسكه بآداب وأخلاق الشريعة المطهرة .

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٣٦٢ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) الكوكب الشاهق : ص ٤٣ ، وتنبيه المغترين : ص ٣ ، ص ٧ .

٢ - مدى تمسكه بآداب وأخلاق أهل الطريق والتي استمدوها من القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين فإذا تمسك بها كان من الصادقين وإلا كان من الكاذبين المطرودين .

رابعاً : العقل .

يعد العقل المصدر الرابع الذي اعتمد عليه الصوفية في التصحيح والتقويم فقد اهتم الصوفية بالعقل وقدروه واحترموه وذلك لتقدير القرآن والسنة له :

فقد نظر الصوفية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فوجدوا أنهما يعليان من شأنه ويحفزان الإنسان ويدعوانه بل ويأمرانه إلى النظر العقلي في الكون والأنفس وصولا من خلالهما إلى الله الذي خلق وأوجد وأبدع ونظم هذا الكون وحافظ على بقائه :

فقال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ (٣) (٤) .

ووجدوا أن القرآن ينص على إبطال التقليد لما فيه من إسقاط منفعة العقل ويقرر أن من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم ، وأن جزاء معطل العقل السعير (٥) .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٢٠ ، وسورة يونس آية ١٠١ ، وسورة الروم آية ٩ ، وسورة الذاريات آية ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة الروم آية ٢٠ .

(٣) سورة الجاثية آية ١٢ ، وسورة الشوري آية ٢٩ ، وسورة الطور آية ٣٥ .

(٤) د / عبد الحليم محمود . التفكير الفلسفي في الإسلام : ص ٥١ ، دار المعارف ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، والصوفية والعقل د / محمود عبد الله الشرقاوي : ص ٦٢ ، دار الجيل - بيروت - لبنان ، مكتبة الزهراء بحرم جامعة القاهرة ، ط ١ (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م) .

(٥) د / ناجي حسين جوده المعرفة الصوفية : ص ٢٤ ، دار عمار - عمان ، ط ١ (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

كذلك نظروا فوجدوا أن القرآن لم يكتف بحث العقل على العمل وترك التقليد فحسب بل أثار أمامه مسائل وقضايا عالجها كنماذج لما ينبغي أن يكون عليه العقل وهو يؤدي الرسالة المنوطة به كقضية أصل الوجود والحياة والنشأتين واتخاذ أولاهما دليلا على إمكان الأخرى (٤) .

قال تعالى ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) .

كما وجدوا أن القرآن يطالب كل صاحب دعوى أن يقيم برهانا معقولاً عليها فقال تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) .. » (٧) .

كذلك وجدوا أن النبي ﷺ أعلى من شأن العقل حين ربط به التكاليف فقال ﷺ

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .
(٢) سورة الأنفال آية ٢٢ .
(٣) سورة الملك آية ١٠ ، ١١ .
(٤) الصوفية والعقل : ص ٦٥ .
(٥) سورة يس آية ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .
(٦) سورة البقرة آية ١١١ .
(٧) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ٢ ص ٣٣ ، والمعرفة الصوفية : ص ٢٤ .

: " رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ وعن المعتوه أو قال المجنون حتى يعقل وعن الصغير حتى يشب " (١) .

وجعل النبي ﷺ العقل الإنساني أحد وسائل المعرفة فقال ﷺ " عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور القلم وينابيع العلم " (٢) .

وعن هذا الحديث يقول د / محمد عبد الله الشرقاوي : " ففي هذا الحديث يعطي الرسول ﷺ العقل جانبا هو (الفهم) ويعطي الوسيلة الوجدانية الإيمانية الجانب الآخر وهو (نور الحكمة) ... " (٣) .

ومع اعتراف السنة بذلك فقد جعلت السنة المعرفة الوجدانية " أرحب مجالا وأوسع وظيفة من العقل : يقول لنا النبي ﷺ : " استفت قلبك وإن أفتاك المفتون " (٤)

وقال ﷺ : " الإثم ما حاك في صدرك " (٥) .

وقال ﷺ : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (٦) والفقه لا يكون إلا من القلب " (٧) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ١ ص ١١٨ دار الفكر ، ط بدون تاريخ ، وأخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٦٤١ ، كتاب : الطلاق ، باب : طلاق المعتوه والصغير ، حديث رقم [٢٠٤١] .

(٢) الحديث أخرجه الدارمي في سننه : جـ ٢ ص ٤٣٣ ، كتاب : فضائل القرآن ، باب : فضل من قرأ القرآن ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط بدون تاريخ .

(٣) الصوفية والعقل : ص ١٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤) الحديث ذكره البرهان فوري في كنز العمال : جـ ١ ص ٢٥٠ حديث رقم [٢٩٣٣٩] ، مؤسسة الرسالة ، ط (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) .

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٤ ص ١٨٢ عن زيد بن الحباب الأنصاري .

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٥ ، باب : فضائل العلماء والحث على طلب العلم حديث رقم [٢٢٠ ، ٢٢١] عن أبي هريرة ومعاوية رضي الله عنهما .

(٧) الصوفية والعقل : ص ١٠١ .

يضاف إلى ما سبق إجلال الصوفية العقل " لشرفه في ذاته ولقدرته على إدراك العلوم ولكونه يبعد الإنسان عن مراتع الهلكة ويبصره بمواطن السعادة ولقدرته على التمييز بين النافع والضار " (١)

ويدل على ذلك اعتبارهم العقل أداة الفكر ، وأن الإنسان إذا فكر في نفسه وفي الخلق واعتبر أداه ذلك إلى عبادة الله عبادة صادقة ، وأنه أداة التفاضل بين الزهاد حسبما أشار إلى ذلك المحاسبي (٢) .

أو أنه الأداة التي يقيم بها الإنسان الحجة على أهل البدع والضلال ، أو أنه أداة الصنعة وآلة الصانع ، وأنه الذي يخلص المريد مما يعتيريه من الوساوس ، وأنه لسان الروح وترجمان البصيرة وصاحبه من أهل التدبر والعبرة ، كما جاء ذلك على لسان الطوسي والمكي والقشيري والسهروردي صاحب عوارف المعارف (٣) .

أو أنه الذي يظهر شرف العلم ومنبعه ومطلعه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين كما أنه وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة كما أشار إلى ذلك الغزالي (٤) .

ويبرز احترام الصوفية للعقل وتقديرهم له حين يرفض الغزالى ذمه فيقول : " العقل نور البصيرة الذي يعرف به الله تعالى ويعرف به صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله عليه وإن ذم فما الذي بعده يحمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ، فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) حلية الأولياء : جـ ١٠ ص ٧٦ ، ٨٦ ، ودراسات في التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ٢٩٥ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٤٥٦ ، وقوت القلوب : جـ ٢ ص ١٢٩ ، والرسالة : ص ٣٨٢ والمعرفة الصوفية : ص ١٤٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزن الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٨ ، وعوارف المعارف : ص ٢٢٠ .

(٤) الإحياء . جـ ١ . ص : ١٣٥ .

فيكون الشرع أيضاً مذموما (١)

كما تبرز أهمية العقل أيضاً حينما يعطيه الغزالى دورا هاما في الطريق الصوفي يتمثل في وظيفتين أساسيتين :

الأولى : استفاء الشروط المطلوبة للحصول على المعرفة الصوفية .

وقد حددها في ثلاثة شروط هي :

١ – تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

٢ – الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة .

٣ – التفكير فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط الفكر ينفتح عليها باب الغيب ، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب وتنفتح رزونة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملا عاقلا ملهما مؤيدا (٢) .

الثانية : الحكم على التجارب الصوفية وتقويمها تقويماً صحيحاً .

فالغزالي كما يذكر د / عبد الفتاح سيد أحمد وإن ارتضى التصوف واتخذه سلوكا ومنهجا فإنه لم يهمل العقل ، بل نادي بالرجوع إلى العقل دائما في قبول الأفكار أو رفضها وأعطى " للعقل دور القاضي في التجارب الصوفية من حيث إن هذه التجارب لا يجوز بحال من الأحوال أن تناقض العقل وتصادمه (٣) .

---

(١) الإحياء : جـ ١ ص ١٤٤ .

وذكر الإمام الغزالي أن ما جاء على لسان الصوفية من ذم للعقل فإنما يقصدون بذلك المجادلة والمناظرة التي نقل الناس اسم العقل إليها .

(٢) الغزالي : الرسالة اللدنية : ص ٧٣ ــ ٧٤ ضمن مجموعة رسائل الغزالي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان بدون تاريخ ، والتصوف بين الغزلي وابن تيمية . د عبد الفتاح سيد أحمد : ص ١١٨ ، دار الوفاء بالمنصورة ، ط ١ (١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م) .

(٣) التصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ٧٩ .

ويدل على ذلك ما جاء في المقصد الأسنى :

فالإمام الغزالي في رفضه لفكرة الحلول يذكر أن من صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل وذلك لأنه " لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته " (١) .

ومع احترام الصوفية للعقل وتقديرهم له واحتكامهم إليه فقد نادوا بضبطه بالشرع والعقل أيضاً ذاهبين إلى أن العقل إذا سبح بمفرده في أمواج الكون أو في طبقات الجو ، وأنه إن عرج إلى الإلهيات وحده يكاد يغرق وقد لا يكتشف من الأسرار شيئاً له بال ، " ولكنه إذا استضاء بالشرع المتمثل في القرآن والسنة بلغ عن قريب قصده ، وانزجر عن الهوى ، وكان نورا على نور وحظي صاحبه بالخير الكثير والذي يتمثل في الاطلاع على الملكوت واستطاع صاحبه أن يدبر أمر الدنيا والآخرة كما أشار إلى ذلك أبو حمزة البغدادي (٢٨٩ هـ) ، ويوسف ابن الحسين الرازي (٣٠٤ هـ) وأبو الحسين المزين (٣٢٨ هـ) والغزالى ، والسهروردي (٢) .

خاتمة على المصادر :

من خلال ما سبق يمكن لنا أن نقول : إن الصوفية اعتمدوا على أربعة مصادر للتصحيح هي .

١ – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

٢ – أقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين .

---

(١) الغزالي : المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى : ص ١١٣ – ١١٤ ، قدم له الشيخ محمود المناوي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط بدون تاريخ ، وعوارف المعارف : ص ٧٢ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٣٩ – ٣٤٥ .

(٢) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧١ ، ص ٤٤ ، ص ٩٣ ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي : ص ٤ مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط الأخيرة بدون تاريخ ، وعوارف المعارف : ص ٢٢٠ – ٢٢١ ، والتصوف الإسلامي في ميزن الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٣٩ – ٤٠ .

الفصل الثالث

خصائـــص التصحيح

الفصل الثالث

خصـــائص التصحيح

تمهيد :

اهتم الصوفية بتصحيح الطريق مما لحق به من انحرافات على أيدي الأدعياء وأصحاب الاتجاه الفلسفي ، وقد تميز التصحيح بمجموعة من الخصائص والمميزات من أهمها .

الذاتيـــة :

ونعني بها أن التصحيح ناشئ من الصوفية أنفسهم ومن رجال عاشوا التجربة الصوفية وذاقوا حلاوتها ، كما أنه ناشئ عن معرفة كاملة بالتصوف والصوفية ، وبمعرفة تامة بمقصود القوم من كلامهم ومصطلحاتهم ، بالإضافة إلى معرفة صحة نسبة الكلام إلى صاحبه أو عدم صحة تلك النسبة وبما إذا كان المخطئ قد تكلم بهذا الكلام في حالته العادية أو في حالة وجده أو أنه كان يتكلم بهذا الكلام حكاية عن الله أو عن رسوله ﷺ كما عبر بذلك الإمام الشعراني (١) .

وتبرز قيمة هذه الذاتية حين يخبرنا الطوسي في اللمع بأن عدم المعرفة بالتصوف وعدم فهم معاني ما أشار الصوفية إليه وعدم المعرفة بمصطلحاتهم هو الذي جعل كثيرا من الناس ينصبون العدواة للصوفية ويعتقدون فيهم الباطل (٢) .

وهو الأمر الذي جعله ينادي بالرجوع إلى الصوفية عند وجود خطأ من الأخطاء التي تتعلق بالطريق وبالصوفية دون التسرع برمي المخطئ بالذنب لعدم معرفة حاله وعدم العلم بمقصده فيقول : " ولا خلاف في أن أصحاب الحديث إذا

---

(١) الشعراني : لطائف المنن والأخلاق : ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وضع حواشيه وخرج أحاديثه / سالم مصطفي البدري ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م) .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٣٨ – ٣٩ ، ص ٤٩٧ .

أشكل عليهم علم من علوم الحديث وعلل الأخبار ومعرفة الرجال لا يرجعون في ذلك إلى الفقهاء ، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة .... لا يرجعون في ذلك إلى أصحاب الحديث ، وكذلك من أشكل عليه علم من علوم هؤلاء الذين تكلموا في مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب ... فليس له أن يرجع في ذلك إلا إلى عالم ممن يكون هذا شأنه ، ويكون ممن قد مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها ، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ ، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في قوم لا يعرف حالهم ، ولم يعلم علمهم ولم يقف علي مقاصدهم ومراتبهم فيهلك ويظن أنه من الناصحين " (١) .

ولعل ما يؤكد قيمة الذاتية في التصحيح وأن الصوفية هم أقدر على فهم مراد إخوانهم :

ما رواه الإمام الشعراني من أن شيخ الإسلام ابن حجر شرح بعض أبيات لابن الفارض وأرسل إلى " الشيخ مدين تلميذ الشيخ أحمد الزاهد لينظر فيها ويكتب عليها فمكثت عنده نحو شهرين ثم كتب على ظاهر الكتاب ما أحسن قول من قال : " سارت مشرقا وسارت مغربا ، شتان ما بين المشرق والمغرب " (٢)

ويعلق د / محمد مصطفي حلمي على هذا النص قائلا : " إن ما كتبه الشيخ مدين جعل ابن حجر يدرك أنه لم يتذوق ما يشرح ولم يفهمه على طريقة القوم وأسلوبهم في الذوق والفهم الأمر الذي دعا ابن حجر إلى أن يغير رأيه ، وأن يعدل عن فهمه ، وسوء ظنه في الصوفية " (٣) .

ومما يؤكد هذه الخصيصة أيضاً ما ذكره د / محمد مصطفي حلمي في

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٩ .

(٢) الأجوبة المرضية : ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٣) د / محمد مصطفي حلمي . ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٢ ، دار المعارف ، ط ٢ ١٩٨٥ م .

كتابه " ابن الفارض والحب الإلهي " حين يذكر أن وقوف المقبلي عند ظاهر بعض نصوص ابن الفارض جعله يتهمه بحب الخلاعة فقال : " ويكفيك كلام ابن الفارض الذي أذعنوا له طرّا ما ظاهره الاتحاد والتزام الكفر ، والترفع على الأنبياء وعلى الجملة فلم يبق ما يمكن دعواه من المقامات الرفيعة ولا ما تأتي به الخلاعة من البذاءة الشنيعة إلا ادعاه " (١) .

ويذهب د / محمد مصطفي حلمي أن المقبلى رمي ابن الفارض بما رماه به لما فهمه من تائيته الكبرى حيث يعلن خلع العذار في هذه الأبيات :

خَلَعْــتُ عِذارِى واعتِذارِي لاَبِسَ الْــ
ــخَلاَعَــةِ مَسْــرُوراً بِخَلْعِي وَخِلْعَتِي

وخَلْعُ عِذَارِى فيك فَرْضي وَإنْ أبَى اقْــ
ــترَابِيَ قَوْمِــي وَالْخَلاَعَــةُ سُــنَّتِي

وَلَيسُــوا بقومِــي ما استَعَابُــوا تَهتُكِي
فأبْــدَوْا قلي واستَحسنُوا فيك جَفْــوَتي

وأهلِــي في دين الهــوى أهْلُــهُ وقــد
رَضُوا لِي عاري واستَطَابُوا فَضِيحتي (٢)

ويعقب على هذه الأبيات قائلاً : " فابن الفارض هنا يعلن أنه خلع العذار ، وأن هذا الخلع أو هذه الخلاعة وما يستتبعان من فضيحة ، كل أولئك أحب إلى نفسه وآثر عنده إلى الحد الذي جعله يتخذ منه مذهباً " (٣) .

ويرجع سبب اتهام المقبلي لابن الفارض بالاتهام السابق إلى أنه وقف عند

---

(١) المقبلي . العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ : ص ٤٦٤ ، مكتبة دار البيان ، ط بدون تاريخ .

(٢) ديوان الفارض : ص ٣٠ الأبيات ٧٧ – ٨٠ من التائية الكبرى ، مكتبة الفجر الجديد ، ط بدون تاريخ ، وابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٧ .

(٣) ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٧ .

ظاهر كلامه ولم " يلتفت إلى أن الشاعر إنما يتكلم رمزاً أو تلويحاً أو يعبر عما يعنيه في لغة الأحوال ، ولهذا يحط على الرجل ويشنع به ، ويرميه بما يدل عليه ظاهر لفظه من خلاعة وتهتك وفضيحة " (١) .

كما يذكر أن المقبلي لو فكر في أن ابن الفارض من أصحاب الأحوال وقدر ما يكون عليه صاحب الحال من غيبة ، وما يقع تحت سلطانه من وجد وشطح وما يعمد إليه من رمز وألغاز بحكم حاله ، لو فكر في هذا كله وقدره حق قدره لكان أصح فهماً ، وأقوم رأيا ، وأقرب إلى روح الصوفية " (٢) .

ويؤكد كلامه السابق " بأن ابن الفارض بين في غير تائيته الكبرى ما كان يعنيه بخلع العذار ، وما ينفي عنه أنه كان متهتكاً أو إباحيا ، بل هو يتخذ من خلع العذار حجابا يستر به محبوبه عن أعين الناظرين صيانة له وغيرة عليه ، كما يدل على ذلك قوله :

فجعلـــت خلعـــي للعـــذار لثامه

إذ كان من لثـــم العذار معاذا

وبقوله :

ممنعة خلـــع العـــذارى نقابهـــا

مسربله بردين قلبي ومهجتي (٣)

ويختم كلامه ذاهباً إلى أن الإنكار على غالب الصوفية وخاصة ابن الفارض " كان في معظم الأحيان راجع إلى تمسك المنكرين بحرفية ما يقرءون ويحكمون عليه من حيث دلالته الظاهرية صارفين النظر عن أن من صدر عنه هذا الكلام أو هذا الشعر كان صوفيا خاضعاً لأحوال ومواجيد لها أثرها في حياته

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

النفسية ، ولابد من أن يكون لها صدى فيما يقول ، فإذا قوله ينطوي على ما يظنه أهل الظاهر خلاعة أو تهتكا أو حلولاً أو اتحاداً ، والواقع أنه ليس من هذا كله أو بعضه في شيء ، بل كل ما هنالك أنه قول قيل بلسان الحال ، وصاحب الحال معذور لأنه لا يملك أمر نفسه " (١) .

وعليه ومن خلال ما سبق يتبين لنا قيمة التصحيح الصوفي وذلك لأنه ناشئ عن معرفة كاملة بالتصوف والصوفية وبأحوالهم ومواجيدهم .

الأسبقية :

من الخصائص التي تميز بها التصحيح الصوفي للتصوف الأسبقية فقد كان الصوفية أول " من نقد بعض عناصر التصوف الغريبة عن الإسلام ونقد بعض المنتسبين إليه فيما شذوا فيه عن جادة الطريق ... وعن مقاصد التصوف التي حددها شيوخه " (٢) .

فقد كان الشيوخ أول من تعقبوا الأدعياء وأظهروا عوراتهم وتبرؤوا من أخطائهم " بل كان ذلك من أهم أهدافهم في تأليف الكتب في التصوف (٣) .

ومما يؤكد ذلك ما ذكرناه في الفصل الأول من أن الحسن البصري (١١٠هـ) كان أول من تنبه إلى هؤلاء الذين تزيوا بالزي الصوفي أملا وطمعاً في المكانة التي وصل إليها الزهاد في عصره والصوفية من بعده كما أنه كان " أول من تنبه إلى ما يلحق الطريق من إهانة بسبب هؤلاء الأدعياء ولذا لم يدخر جهداً في حربهم مبيناً أنهم أكنوا الكبر في قلوبهم ، وأظهروا التواضع في لباسهم فكان يقول : والله لأحدهم أشد عجباً بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه " (٤) .

(١) المرجع السابق : ص ١٢٨ ، وانظر ديوان ابن الفارض : ص ٣٠ - ٣١ الأبيات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من التائية الكبرى .

(٢) مقدمة أصول الملامتية : ص ٦٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٤ ، وتلبيس إبليس : ص ١٩٣ ، طبقات الصوفية للسلمي : ص ١٠ - ١١ .

وقد ذكرنا أيضاً أن الصوفية بعد الحسن البصري استمروا في تتبع المنحرفين على مر الأزمان والأماكن والنيل منهم وتصحيح أخطائهم .

ومما يدل على ذلك أن الصوفية كانوا أول من تنبه إلى خطورة الحلاج ، حيث نسبه الجنيد إلى الادعاء وأنكر عليه هو وعمرو بن عثمان المكي وأبو يعقوب النهرجوري ، وعلى بن سهل الأصبهاني [١] .

ويذكر أبو محمد الجسري سبب نقد الجنيد للحلاج فيقول " كنت عند الجنيد ... إذ دخل شاب حسن الوجه والمنظر - يعني الحلاج - وعليه قميصان وجلس سويعة ، ثم قال للجنيد : ما الذي يصدّ الخلق عن رسوم الطبيعة ؟ فقال الجنيد : أرى في كلامك فضولا أي خشبة تفسدها ، فخرج الشاب باكيا " [٢] .

وكم أعلن الطوسي غير مرة في اللمع عن هذه الأغلاط التي وقع فيها بعض الصوفية ، ولدقة ما قال نقل عنه الملطي (٣٧٧ هـ) من داخل أهل السنة والجماعة ، وكذلك ابن الجوزي في تلبيس إبليس [٣] .

التعدد والتنوع :

ونعنى بالتعدد هنا تعدد مصادرهم ، فمع أن الباحث قد فصل ذلك في المصادر لكن من المناسب ذكر مصادرهم هنا جملة لبيان دقة النقد وضبطه .

أقول لقد اعتمد الصوفية في التصحيح على مصادر متعددة هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعقل .

وأعلنوا أن أي أمر يخالف ما جاء به القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية المطهرة ، ويصطدم مع ما أجمع عليه السلف الصالح - رضوان الله

---

(١) أخبار الحلاج : ص ٤٦ ، وتلبيس إبليس : ص ١٧٣ .

(٢) أخبار الحلاج : ص ٤٦ .

(٣) تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى القرن الثاني : ص ٧١ .

عليهم أجمعين – ومع ما يقرره العقل فهو أمر مرفوض .

أما التنوع فنعني به التنوع في الاتجاهات فنلحظ أن الصوفية قد تعددت اتجاهاتهم التصحيحية بحيث شملت تصحيح الأخطاء المتعلقة بالعقائد والتشريعات والمتعلقة بالمجال النفسي والباطني ، والمرتبطة بالعملية التربوية ، وإن تلك المجالات كانت تحت مراقبة الصوفية ، ونصب أعينهم ، الأمر الذي اضطرهم إلى وضع القواعد والآداب لكل منها ليضمنوا للمريد إذا سار عليها عدم الوقوع في الخطأ ، وهو ما سوف يتضح في الأبواب والفصول القادم إن شاء الله تعالي .

التخصيص وعدم التعميم :

سلك الصوفية في نقدهم للتصوف مسلكا خاصا " برز في قصرهم النقد على المرائين والمتشبهين الذين لا يخفي تصنعهم إلا على كل غبي " [١] وعدم تحميلهم المخلصين منهم ما وقع فيه هؤلاء الأدعياء من أخطاء وهذا هو عين الإنصاف امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [٢] وقد رأوا أن التعميم والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جور وتهور غالبا .

وهو الأمر الذي عاني منه الصوفية على مر العصور وقد كان خصوم الصوفية حين يقفون على خطأ عند صوفي بعينه " لا يقفون في نقدهم عند حدود ذلك الخطأ أو ذلك الصوفي وإنما يعممون به التصوف برمته ورجاله بأكملهم وفي هذا من التجني والظلم ما فيه " [٣] .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن بعض النقاد من خارج الصوفية سلكوا نفس هذا المسلك الدقيق ، فابن تيمية مثلا بالرغم من شدة نقده لبعض الصوفية فإنه كان لا يتعدى في نقده من يوجه إليه النقد ، بل نراه في كثير من الأحيان

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٦ .

(٢) سورة فاطر آية ١٨ .

(٣) مقدمة أصول الملامتية : ص ٧١ .

يثني على كثير من الصوفية ويفرق بينهم وبين أهل التصوف الفلسفي فيقول مثلا : " إن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم فضلا أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التسترى وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين " (١) .

لكننا حين نقرأ كتاباً مثل كتاب " تلبيس إبليس " لابن الجوزي نجد أنه كان يعمم في أحكامه في كثير من الأحيان فنراه مثلا يقول : " تلبيسه عليهم في المساكن والرباط " (٢) و " تلبيسه عليهم في السماع والرقص " (٣) ، وغيرها من العناوين الأخرى التي يعمم فيها الحكم على جميع المتصوفة وهو الأمر الذي جعل الأستاذة غادة عدرة تذكر في مقدمة كتاب " صفوة التصوف " للمقدسي بأن " المقدسي " لما هاجم المتصوفة المتطرفة من أمثال الملامتية ، فهو لم يرفض غيرهم بينما هاجم ابن الجوزي المتصوفة ككل " (٤) .

وحين نقرأ كتابا مثل كتاب " التصوف والصوفية في مواجهة الإسلام " لعبد الكريم الخطيب نجده يعمم في أحكامه فمثلا وهو يتحدث عن وحدة الوجود نراه يذكر أن ابن عربي كان ممن قال بهذا ، وكان يجب عليه أن يقف عند هذا الحد ولكننا وجدناه يرمي الصوفية جميعاً بهذه التهمة قائلاً : " ابن عربي ... هو الذي أقام لهذا المذهب الضال منطقا سقيما من الجدل السوفسطائي ، وجعل فيه

---

(١) ابن تيمية الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ص ١١٣ ، تصحيح محمود عبد الوهاب فايد ، نشر وتوزيع إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ، ط بدون تاريخ .

(٢) تلبيس إبليس : ص ١٧٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٢٥ .

(٤) مقدمة صفوة التصوف للمقدسي : ص ٩٨ .

مركباً سبح به الصوفية في بحر لجي لا نجاة لراكبه " [١] .

ونلاحظ هذا أيضا حين نقرأ ما جاء على لسان الأستاذ عبد الرحمن الوكيل في كتابه " هذه هي الصوفية " : فمثلا وهو يتحدث عن وحدة الوجود وجدناه يتهم جميع الصوفية بذلك فيقول : " ولكيلا ترتاب في أن ما ذكرته لك هو دين الصوفية جميعاً من سلفهم إلى خلفهم ومعاصريهم ، أذكرُ لك دِين بعض أصنامهم الصغيرة فاسمع إلى ابن عامر [٢] في تائيته التي عارض بها تائية ابن الفارض وزنا وقافية ولطخها بنفس الزندقة الفارضية " [٣] .

كما أن الشيخ وهو يتحدث عن أفراد معينين من الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي وغيرهما من فلاسفة الصوفية يرمي جميع الصوفية بما رماهما به [٤] .

كما نلاحظ هذا أيضا عند حديث الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه " الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة " عن الحلول فيذكر أن البسطامي كان ممن قال بهذا ، ويا ليته اقتصر على هذا لكنه اتهم جميع الصوفية بالقول بالحلول فقال : " لما بدا القول بالحلول وجعل الصوفية غايتهم من التصوف أن يتشبهوا بصفات الله في زعمهم فيكون أحدهم إلها يعلم كل شيء ويتصرف في كل شيء فإن هذا الحال استمر بهم حتى وصلوا في النهاية إلى القول بوحدة الوجود ، وأن كل شيء إنما هو الله وأن الله هو الذي في الكون وحده وليس هناك شيء آخر

---

(١) عبد الكريم الخطيب . التصوف والصوفية في مواجهة الإسلام : ص ١٣٨ ، دار الفكر العربي ، ط ١ ١٩٨٠ م .

(٢) ابن عامر البصري : عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين ، توفي غالبا في أواخر القرن الثامن الهجري ، انظر هامش هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل : ص ٥٧ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ١٩٨٤ م .

(٣) هذه هي الصوفية : ص ٥٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٤ .

معه " (١) .

ففي هذا النص نجد الشيخ يتهم جميع الصوفية بالقول بالحلول ووحدة الوجود مع أن المعلوم أن الذين اشتهر عنهم القول بذلك أفراد محدودين لا يتعدون أصابع اليد ، ومع هذا فقد قام كثير من الصوفية بشرح الأقوال التي نسبت إليهم ووصلوا من خلال هذه الشروح إلى أن القوم :

١ - إما أن تكون هذه الأقوال دست عليهم .

٢ - أو أن القوم لم يكن مقصودهم ما اتهموا به وإنما كان مقصودهم شيء آخر .

٣ - كما أن القوم لم يترددوا في إعلان البراءة ممن ثبت عليهم القول بهذا ، وهو ما سوف يظهر في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى .

الغيرة دافع على النقد :

ومن بين الخصائص أيضاً أن هذا التصحيح ناشئ من غيرة على التصوف لما آل إليه على أيدي الأدعياء وأصحاب الاتجاه الفلسفي ، ويهدف إلى تنقيته وتخليصه من الشوائب التي لحقت به ، والعودة به إلى ما كان عليه من صفاء ونقاء ، وليس ناشئا عن ردة فعل تجاه التصوف أو تجاه أهله وبالطبع لم يهدف نقد التصوف من الصوفية هدم العلم كما صرح بذلك كثير ممن وجه إليه سهام النقد .

ويبدو هذا جليا مما ذكره الطوسي والكلاباذي والقشيري والهجويري وغيرهم ممن قاموا بالتصحيح إذ نجد أنهم أعلنوا عن سر ما قاموا به من نقد ، مبينين منشأ ذلك بدافع من الغيرة على التصوف وخشيتهم من أن يظن بالصوفية

---

(١) عبد الرحمن عبد الخالق . الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ١١٥ ، دار الحرمين للطباعة ، ط ٥ (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) .

سوء أو يظن أنهم جميعاً على شاكلة الأدعياء (١) .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره في الفصل السابق نقول : إن الإمام الشعراني ذكر في الطبقات الكبرى أن أبا بكر الحسين بن علي يزدانيار " كان ينكر على بعض المشايخ بالعراق أقاويلهم " (٢) ، فلما لاموه في ذلك قال : " تراني تكلمت في الصوفية بما تكلمت به إنكارا على التصوف والصوفية ؟ والله ما تكلمت به إلا غيره عليهم حيث أفشوا أسرار الحق وأظهروها بين من ليس من أهلها وإلا فهم السادة بمحبتهم أتقرب إلى الله تعالى " (٣) .

وذكر المقدسي (٥٠٧ هـ) في صفوة التصوف أنه ما وضع هذا إلا غيرة منه على التصوف لكثرة الإنكار عليه نتيجة لظهور الأحداث الذين جعلوا الطريقة " ذريعة إلى بلوغ أغراضهم ، ووسيلة إلى تحصيل آمالهم " (٤) .

كذلك يذكر الإمام الشعراني أنه ما دفعه إلى كتابة كثير من كتبه ومن بينها كتاب " تنبيه المغترين " إلا غيرته علي التصوف والصوفية فيقول : " وكان من الباعث الأعظم لي على تأليف هذا الكتاب ... الغيرة الإيمانية على الشريعة وألفت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من معالم أخلاقها في دولة علماء الظاهر والباطن ، فهو نافع لكل فقيه وصوفي في هذا الزمان لا يكاد أحد منهم يستغني عن النظر فيه ... وهو كالسيف القاطع لعنق كل مدع للمشيخة في هذا الزمان " (٥) .

أما النقد الموجه إليه من خارج دائرته ورجاله فقد " كان قائما في كثير من الأحيان على خصومة وعداوة ... ومن ثم لم يكن في كثير من جوانبه منصفا ولا

---

(١) ذكرنا ذلك في الفصل الأول من هذا الباب فليرجع إليه .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، وطبقات الصوفية للسلمي : ص ٩٩ .

(٤) صفوة التصوف للمقدسي : ص ١٥٦ – ١٥٨ .

(٥) تنبيه المغترين للشعراني : ص ٤ .

عادلا " (١) لمغالاة هؤلاء الخصوم في خصومتهم وقسوتهم في هجومهم .

يقول الأستاذ صالح الشامي : " كان نقد غير الصوفية للتصوف ناشئا في أغلب الأحيان عن ردة فعل أو من جاهل بالتصوف " (٢) .

وكثيرا ما وجدنا هؤلاء الخصوم يصرحون بذلك فمثلا يذكر الشيخ عبد الرحمن الوكيل في مقدمة كتابه " هذه الصوفية " أنه ما قام بوضع كتابه هذا إلا بعد أن قام أحد الصوفية بشكواه إلى النيابة فما كان منه إزاء تلك إلا أن قام بكتابه هذا الكتاب ليفضح فيه الصوفية على حد زعمه (٣) .

ويذكر صالح الشامي أن ردة الفعل هذه جعلت النقد في أغلب الأحيان بعيداً عن الإنصاف والعدل ، وبعيدا عن الدقة في كثير من جوانبه ، كما جعلت القصد منه هدم التصوف على حد زعم الكثير من هؤلاء النقاد ، بخلاف التصحيح الصوفي الذي دعت إليه الغيرة وكان القصد منه التنقية ومحاربة الانحرافات والأخطاء (٤) .

البعد عن الهوى والغرض :

ومن الخصائص التي تميز بها التصحيح أيضا بعده عن الهوى وتجرد أصحابه عن الغرض أو الطمع في مكسب مادي أو مكانة دنيونة .

وإنما كان من أجل إعادة التصوف إلى ما كان عليه وصبغه بالصبغة الدينية بعد أن طغت عليه الصبغة الفلسفية في بعض الأحيان .

فالهجويري مثلا في كشف المحجوب وهو يتحدث عن التصحيح يذكر أنه جرد

---

(١) مقدمة أصول الملامتية : ص ٧٠ .

(٢) الإمام الغزالي حجة الإسلام : ص ١٣٢ .

(٣) هذه هي الصوفية : ص ١٤ .

(٤) الإمام الغزالي حجة الإسلام : ص ١٣٢ .

نفسه من الهوى والغرض معلنا أن كل عمل يدخله الهوى والغرض تزول منه البركة وينحرف فيه " القلب عن الطريق المستقيم إلى محل الاعوجاج والانشغال " (١) ، ويذكر أن الغرض والهوى من أسباب الهلاك واستحقاق النار ، أما نهي النفس عن الهوى والغرض فهو مفتاح باب الجنة امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٢) ... (٣) .

كذلك يذكر الإمام الشعراني أن أحد الأدعياء في عصره قال في مجلس بحضرة ملأ من الناس قد بلغت " في طريق القوم مقاما لو أدركني أكابر السلف لأخذوا عني الطريق " (٤) .

وقال أيضا : " لو أدركت الفضيل وإبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري ، ومالك بن دينار ... ونحوهم لسلكتهم الطريق وأوصلتهم إلى مقامات الكمال لكني لم أدركهم فماتوا بنقصهم وحجابهم " (٥)

وأمام هذه الأقوال الصارخة نجد الإمام الشعراني لم يدفعه الهوى إلى النيل من هذا الرجل والرد عليه وإنما سلك مسلكاً يتسم بالبعد عن الهوى في الرد وما كان منه إلا : أن ذكر ذلك لشيخه الشيخ على الخواص – رحمه الله – فقال : " هذا من الجهل المبين من قائله " (٦) ، وأوضح أنه لو علم أن القائل يرجع إلى الحق من غير حصول ضرر لبين " له جميع ما خالف فيه السلف الصالح ، حتى يعلم أنه لا يصلح لأن يكون تلميذا لتلاميذ هؤلاء الأشياخ " (٧) ، وحدد أن هذا

---

(١) كشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٢ .

(٢) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ١ ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٤) الأجوبة المرضية : ص ١٩٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) المرجع السابق : ص ٢٠٠ .

(٧) المرجع السابق نفسه .

التصحيح هو من أجل الشفقة عليه والمحبة له ، وليس تشفياً للنفس ، ويري أنه لو فعل ذلك لكان من جملة الشياطين (١) .

أما النقد الذي وجه إلى التصوف من خارج دائرته فقد شابه في أكثر الأحيان الهوى والغرض .

يقول د / محمد مصطفي حلمي : " كان من الفقهاء فريق لم يلتزم في حكمه حدود الإنصاف ، وإنما أطلق لأهوائه العنان فلم يأت حكمه منزهاً عن الغرض ولا مبرءاً من التعصب المذموم الذي لا يستند إلى أساس قوى من أسس الشريعة ، ولا يقوم عليه دليل قاطع من أدلتها " (٢) .

ويقول أيضاً : " إن من الفقهاء من تجاوز حدود الحق والاعتدال وساير سوء النية أو سوء الفهم ، فحكم على بعض الصوفية بأنه كافر أو زنديق أو ملحد ، وهو لا يرمي من وراء هذا إلى إرضاء الله أو ابتغاء وجهه أو وضع الحق في نصابه بل هو يقصد إلى تمكن عاطفة الجمهور أو التقرب من أصحاب السلطان ، أو إشباع شهوة الغرور وحب الظهور ، أو النعي على صوفي بعينه لشيء منه في نفسه (٣) .

ويدلل على ذلك فيذكر أن الإمام البقاعي كان ممن انتقد ابن الفارض واتهمة بأن مذهبه هو عين مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ... وأن أهل زمانه من أهل الشريعة وأرباب الطريق رموه بالفسق والإباحة (٤) .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ١١٢ .

(٤) تنبيه الغبي للبقاعي : ص ٥٤ - ٥٦ ، ٢١٤ - ٢١٧ ، وانظر ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٦ .

ويخطئ د / محمد مصطفي حلمي الإمام البقاعي فيما ذهب إليه من أن مذهب ابن الفارض هو مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ذاهبا إلي أن البقاعي لم يستطع التفريق بين " اتحاد ابن الفارض من حيث هو حال وبين وحدة الوجود عند ابن عربي من حيث هي حقيقة واقعة " (١) .

كما يرى أن البقاعي حين قال بأن أهل زمانه جميعاً رموه بالفسق والإباحة تجنى على الرجل وعلى معاصريه وعلى الحقيقة ويتابع كلامه قائلاً : " فلو قد حقق البقاعي هذا كله ، وتحرى وجه الحق فيه ، وخلّص نفسه من شوائب الهوى والحسد وسوء النية ، فدرس حياة ابن الفارض وعصره ومذهبه دراسة منزهة عن الغرض لانتهى إلى ما كان ينبغي أن ينتهي إليه ، وهو أن ابن الفارض كان في حياته الخاصة والعامة مثلا أعلى ، وأن ما عرف من حاله وما ذاع من شعره كان موضع إعجاب الملك والكبار العظماء والعلماء من أهل زمانه " (٢) .

حسن الظن بالمخطئ والتماس العذر له :

ومن الخصائص التي تميز بها التصحيح الصوفي للتصوف أيضا حسن الظن بالمخطئ والتماس العذر له .

وينادي الإمام الشعراني بذلك قائلاً " إياك وسوء الظن بأحد من إخوانك من المسلمين فما أساء الظن بأخيه إلا كل مغتر كاذب أو محجوب عن جمال أهل الحضرة غائب ... وإياك ثم إياك من سوء الظن بأحد من العلماء أو أتباعهم فيلحقك بذلك عذاب واصب " (٣) .

وينطلق الصوفية في الدعوة إلى ذلك من مبدأ أن الله تعالى " لم يأمرنا بسوء الظن بأحد من المسلمين وإنما يأمرنا بحسن الظن بهم في جميع المطالب " (٤)

---

(١) ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٦٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (١).
واستنادا إلى نهيه ﷺ عن ذلك أيضاً فقد روى الإمام مسلم في صحيحة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " (٢).

كما يعتمد الصوفية على قاعدة شرعية وهي أن الإنكار " لا يجب إلا إذا خالف الأمر المجمع عليه لا على من خالف مذهبا واحدا مما كان صاحبه فيه مفتقد وراغب ... " (٣) .

كذلك ينطلق الصوفية من نهية ﷺ عن معاداة أوليائه فقد قال ﷺ " في الحديث القدسي يقول الله ﷻ : من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة " (٤) .

ولما سبق كله نادي الصوفية بحسن الظن بالمخطئ كما نادوا بالتماس العذر له ، وحاولوا تأويل كلامه بما يقربه إلى الصحة وينفي عنه الدعوى .

ومما يؤكد ذلك أيضا ما ساقه الطوسي في اللمع من قيام الإمام الجنيد بشرح وتأويل كثير من الأقوال التي نسبت إلى البسطامي والشبلي محاولا بذلك تقريبها إلى الأفهام وإبعادها عن التهمة ، ونفس الشيء فعله الطوسي أيضا (٥) .

والغزالي بالرغم من رفضه لظاهرة الشطح لعظم ضررها وأنها كانت مقدمة للقول بالاتحاد وارتفاع الحجب والقول بالمشاهدة " بالرؤية والمشافهة بالخطاب " (٦) وأنها حفزت أبا يزيد ليقول " سبحاني سبحاني " ودفعت بالحلاج

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢ .

(٢) صحيح مسلم : جـ ٢ ص ٤٢٣ ، كتاب : الأدب ، باب : تحريم الظن والتجسس .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٦٩ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ١٢٩ ، كتاب : الدعوات ، باب : التواضع .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٤٥٩ - ٤٧٧ ، ص ٤٧٨ - ٤٨٥ .

(٦) الإحياء : جـ ١ ص ٦٣ .

ليقول " أنا الحق " (١) .

أقول بالرغم من هذه الشدة في رفض الظاهرة إلا أننا وجدناه بعد ذلك يحاول أن يتلمس العذر لأبي يزيد فيقول : " وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى عنه وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله ﷻ في كلام يردده كما لو سمع وهو يقول ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (٢) ... (٣)

وهو ما أكده د / عبد القادر محمود ذاكراً أن الغزالي وإن رفض ما أشاعه فلاسفة الصوفية في المحيط الصوفي فإن حسن الظن بهؤلاء جعل الغزالي يحاول الاعتذار عنهم (٤) .

وإذا ما جئنا إلى الإمام اليافعي في " نشر المحاسن الغالية " وجدناه يذكر أن الألفاظ التي صدرت عن هؤلاء الصوفية يمكن الاعتذار عنها بأنها صدرت منهم في حالة السكر ، أو على سبيل الحكاية كقول الحلاج " أنا الحق " ، أو أنها يمكن تأويلها بما يبعد عنها الدعوى ، إلى غير ذلك من الأعذار التي ذكرها اليافعي في نشر المحاسن الغالية " (٥)

ويختم كلامه قائلا : " وشطحات المشايخ كثيرة جداً ولكن إذ قد عرفت هذه المسالك ... التي أجبت بها في الاعتذار عنهم فكلما بلغك عن أحد منهم من شطح فاحمله على أحد المحامل التي ذكرتها على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى " (٦) .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) سورة طه آية ١٤ .

(٣) الإحياء : جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٥) نشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٥ - ٣٠٢ .

(٦) المرجع السابق : ص ٣٠٢ .

وينضم الإمام السيوطي (٨٤٩ هـ) إلى مركب من يحسن الظن بالصوفية ويلتمس العذر للمخطئين منهم ، فيحمل كلامهم على محامله المقبولة وتأويلاته الحسنة لتضافر نصوص الأئمة على التحذير من الإنكار والرجوع إلى حسن التأويل .

ويظهر ذلك من خلال دفاعه عن ابن عربي ضد من اتهموه بالكفر .

فبالرغم من أن الإمام السيوطي يحكي أن العلماء اختلفوا في شأنه إلا أنه يري أن الأفضل " اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه " (١) .

ويرجع ذلك إلى أن " الصوفية تواطئوا على ألفاظ اصطلحوا عليها وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها ، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر وكفرهم " (٢) .

وعليه ومن خلال ما سبق تتضح لنا هذه الخصيصة وهي حسن الظن والتماس العذر ، وهو ما سوف يتضح أيضاً في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى .

عدم التسرع في التهمة :

من الخصائص أيضا التي تميز بها التصحيح الصوفي للتصوف عدم التسرع في رمي المخطئين بالكفر والفسق وأشنع الأوصاف كما فعل غيرهم .

ويعتمد الصوفية في ذلك على ما جاء في السنة النبوية من نهيه ﷺ عن رمي المسلم بالكفر من ذلك : ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " (٣) .

---

(١) السيوطي : تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي : ص ٤٣ ، تحقيق / محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، ط بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٥٧ ، كتاب : الأدب ، باب : ما ينهى من السباب واللعن =

وبما رواه الإمام البخاري في صحيحه أيضا عن أبي ذر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : " لا يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك " (١) .

وبما رواه الإمام البخاري أيضا عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال : " من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ، ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله " (٢) .

ويعتمد الصوفية في ذلك أيضاً على ما جاء عن كبار أئمة المسلمين من توقفهم عن رمي أهل الأهواء بالكفر :

فالإمام الشافعي " نص على عدم تكفير أحد من أهل الأهواء والبدع ، وقال : لا أكفر أحداً منهم دون الكفر الصريح ، وفي رواية عنه : ولا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب .

وفي رواية أخرى عنه : ولا أكفر أهل التأويل المخالف للظاهر بذنب " (٣) .

وأيضا ما جاء عن الإمام الأشعري أنه لما حضرته الوفاة قال لأصحابه : " اشهدوا على أني لا أكفر أحدا من أهل القبلة لأني رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد ، والإسلام يشملهم ويعمهم " (٤) .

- وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٤٥ ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان قول النبي ﷺ : " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " عن عبد الله بن مسعود .

(١) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٥٧ ، كتاب : الأدب ، باب : ما ينهى من السباب واللعن ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٤٤ ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر ، عن ابن عمر .

(٢) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٥٧ ، كتاب : الأدب ، باب : ما ينهى من السباب واللعن .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٢٩٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٩٦ .

وبما جاء عن إمام الحرمين الجويني أنه كان يقول : " لو قيل لنا فعلوا ما يقتضي التكفير ويؤدي إلى التعطيل من عبادات القوم وغيرهم ، لقلنا هذا طمع في غير مطمع ، فإن هذا بعيد المدرك وعزيز المسلك يستمد من تيار بحار التوحيد ، ومن لم يحط علما بنهايات الحقائق لم يحصل من التكفير على وثائق " (١) .

وبما جاء عن أبي طاهر القزويني أنه قال : " اعلم أن الأئمة المتدينين كلهم قد أمسكوا عن تكفير أهل الأهواء ، وغيرهم ممن يقول لا إلا الله ، وقالوا : ما دخل به الإنسان دين الإسلام لا يخرج منه إلا بتركه وذلك لأن التكفير أمر هائل عظيم الخطر (٢) .

وقال أيضاً : " وعندي أن الخطأ في ترك ألف كافر أهون عند الله من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم " (٣) .

وانطلاقا مما سبق فقد علت أصوات الصوفية بالدعوة إلى عدم التسرع برمي من نسبت إليهم أقوال يوحي ظاهرها بالكفر :

فقال الإمام على المرصفي : " إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أحد من القوم إذا رأيتموه يتكلم بكلام يخالف ما فهمه بعض العلماء ، لأن الأفهام تختلف، ودائرتها واسعة ، وليس فهم أولى من فهم عند صاحبه . بل كل واحد يقول : فهمي أصح من فهم غيري ، بل تربصوا وتأملوا في الكلام قبل أن تنكروه ، فربما كان له دليل خفي من المفاهيم أو من لغة العرب يشهد لذلك " (٤) .

ويقول الإمام الشعراني : " لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب أو بدعة إلا إذا ثبت عنه ما أجمعت عليه الأئمة من أنه كفر ... كإذا استحل ذنبا من الذنوب

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٩٧ .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٤٧ .

الكبائر كشرب الخمر وإتيان السحر والكاهن ، ومن أنكر معلوما من الدين بالضرورة كمنكري حدوث العالم ومنكري البعث والنشر والحشر للأجسام والعلم بالجزئيات فلا نزاع في كفرهم لإنكارهم بعض ما علم مجيء الرسول به ضرورة [١] .

ويقول أيضا عن نفسه : " ومما منّ الله تبارك وتعالى به على : عدم مبادرتي إلى الرد على من نقل عنه بعض الحسدة غلطة تخالف النقل ، بل أتثبت في ذلك غاية التثبت ، لا سيما إن أفضت تلك الغلطة إلى التكفير أو التعزير وهذا الأمر قليل من يتثبت فيه ، بل يبادر أحدهم إلى الفتوى مع أنه لم يجتمع بصاحب الواقعة ، ولا ثبت ذلك الأمر عنده ببينة عادلة " [٢] .

ويقول أيضاً : " ومما منّ الله به على حسن الظن في الطوائف المنتسبين إلى طريقة الفقراء عموماً كالأحمدية [٣] والبرهانية [٤] ... ولا أحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة بحكم الإشاعة عن أهل خرقته فقد يكون ذلك الشخص على نعت الاستقامة دون غيره ، وإنما أحكم عليه إذا شاهدته أنه يخالف السنة ، أو قامت بذلك عندي بينة عادلة ، فإن كل طائفة من هؤلاء فيها غالبا الجيد والرديء ، والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جور وتهور غالباً ... فينبغي للمفتي أن يخلص عبارته ، ليخلص ذمته ، ويقول : إن كان من ذكر يعتقد كذا وكذا فهو فاسق مثلا أو مبتدع " [٥] .

---

(١) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٢) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٣٣٧ .

(٣) **الأحمدية** : هي الطريقة المنسوبة إلى سيدي أحمد البدوي (٦٧٥ هـ) ويطلق عليها البدوية ، انظر الطرق الصوفية في مصر : ص ١٤٢ - ١٧٢ .

(٤) **البرهانية** : هي الطريقة الصوفية المنسوبة إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم الدسوقي ، انظر الطرق الصوفية في مصر : ص ٢٣٣ - ٢٤٤ .

(٥) المرجع السابق : ص ٣٩٠ .

إعادة الثقة بالطريق الصوفي :

من الخصائص التي تميز بها التصحيح الصوفي للتصوف إعادة الثقة بالطريق الصوفي .

وعن هذه الخصيصة تقول الأستاذة غادة عدرة : " إن الصوفية المعتدلين من أمثال القشيري والمقدسي استطاعا إعادة الثقة بالطريق في أوساط الفقهاء ، وبعض المحدثين عن طريق التمييز بين رجال الشطح والدعاوى من أمثال البسطامي والشبلي والحلاج ... وبين أهل التصوف الحق من أمثال المحاسبي والجنيد والتستري وغيرهم " (١) .

كما تذكر أن الصوفية بجهدهم التصحيحي هذا حصروا الإنكار عليهم في مسائل محدودة من مسائل السلوك وعلى رأسها مسألة السماع .

وتذكر أن الصوفية حاول كثير منهم الإجابة على هذه المسألة مثل أبي سعيد الأعرابي في كتاب له في السماع والوجد والذي أورد الإمام الطوسي تلخيصاً له في اللمع ، واعتمد عليه أبو طالب المكي في فصله عن السماع والوجد في قوت القلوب .

كما تذكر أن السلمي والقشيري قد عالجا ذلك الموضوع وانتهيا إلى إباحته معتمدين على ثبوت الرواية عن الرسول ﷺ .

كذلك تذكر أن المقدسي رد في صفوة التصوف على خصومه في هذه المسألة وإن لم يقتنع ابن الجوزي الذي هاجمه في ذلك (٢)

ويذكر صالح الشامي أن الغزالي بجهده التصحيحي كان له أكبر الأثر في ذلك كما كان له أكبر الأثر في إزالة العداء بين الفقهاء والصوفية (٣) .

---

(١) مقدمة صفوة التصوف : ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٣) الإمام الغزالي حجة الإسلام : ص ١٣٤ – ١٣٥ .

زاد الناقد الخارجي :

إذا كان الصوفي أدرى بالقوم من غيره لتذوقه وقيامه بالتجربة ، فإن من يريد النقد من خارج القوم لابد أن تتوافر فيه شروط ضرورية حتى يكون نقده محلا للقبول أو الصحة :

منها : وهو أهمها معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه مما هو مذكور في كتبهم ، لأن " من لم يعرف مرادهم كيف يفهم كلامهم ؟ أو كيف ينكر عليهم بفهمه شيئاً ليس هو مرادهم " (١) .

يقول الشيخ صدر الدين القونوي – رحمه الله تعالى – : " لا تقبل فتوى شخص في القوم إلا إن كان يعرف اصطلاحاتهم في ألفاظهم ... فإن من لا معرفة له بمصطلح القوم إذا سمع قولهم : – حقيقة التوبة : هي التوبة من التوبة – ينكر ذلك ضرورة ، فإذا عرف أن مرادهم اتهام أنفسهم في خلوص التوبة ... لربما رجع عن إنكاره " (٢) .

ومنها : التبحر في علوم الشريعة .

يقول الإمام الشعراني : " إياك أن تنكر على أحد من الفقهاء والصوفية إلا بعد شدة تبحرك في علوم الشريعة وإحاطتك بجميع طرقها ... لتسلم من الغي والطغيان " (٣) .

ومنها : أن يعلم جميع معاني الكتاب والسنة الموروثة عن الشارع ، وإجماع الأمة ، وما تفرعت عنه المذاهب وما وقع بينهم من خلاف أو وفاق أو تجاذب ، ويعلم أيضا أحكام العقل من واجب ومستحيل وجائز وصفات الصادق والكاذب (٤)

---

(١) الأجوبة المرضية : ص ٣٠٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٦٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

ومنها : أن يتخلى عن الرذائل ، حتى لا يصير في ظاهره ولا في باطنه شيء يكرهه الله تعالى ، وذلك ليصير حسن الظن بعباد الله كلهم ، قياسا على نفسه هو (١) .

قال الشيخ على المرصفي : " من لازم أهل السوء أن يظنوا بالناس السوء ، ويجب على كل عبد السعي في إزالة جميع الرذائل ليسلم من سوء الظن " (٢)

ومنها : ما أشار إليه المخزومي فقال : " ومن العلوم الواجب على العبد معرفتها ، قبل أن ينكر على القوم – رضي الله عنهم – أن يكون عنده حسن ظن بأولياء الله تعالى ليتقرب من حضرتهم فيشرف على مقاصدهم ، فإن من أساء الظن بهم طرد من حضرتهم ، ورماهم بحجارته " (٣) .

ومنها : أن يكون قد اطلع على معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء سلفا وخلفا ، وملازمة النظر في كتب تفسير القرآن العظيم ، ومعرفة التأويل ، وأسرار الكتاب والسنة (٤) .

وغيرها من الشروط الأخرى التي اشترطها أهل التصوف الحق فيمن يريد نقد القوم ، والتي حصرها الشعراني في " الأجوبة المرضية " والتي جعلت كثيرا من العلماء أمثال تقي الدين السبكي ، وتاج الدين بن الفركاح العذاري ، والشيخ محي الدين النووي وهو المجمع على إمامته يتوقفون عن نقد التصوف ، بل قال تقي الدين السبكي وهو الذي " رد على المجسمة والرافضة ... ليس الرد على الصوفية من مذهبي " (٥) .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٠٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ .

الباب الثاني

جهـــود تصحيح العقيـــدة

الفصل الأول

تنقية العقيدة في مجال الإلهيات

الفصل الأول

تنقية العقيدة في مجال الإلهيات

تمهيد

يهمنا في هذا الفصل أن نتناول نظرةَ الصوفية نحو العقيدة واهتمامهم بها باعتبارها الأصل الأصيل والبداية الصحيحة ، وكيف اهتموا بأركانها وأشربوها مع الفكر الجانب الروحي ، ويبرز هذا من خلال عدة مباحث :

المبحث الأول

الدعوة إلى التمسك بالعقيدة الصحيحة

العقيدة الصحيحة والدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله وحده " أول ما وجهه الأنبياء ونبينا محمد ﷺ خاصة " (١) .

واقتداء بهم ﷺ نادى الصوفية من أمثال الجنيد وأبي علي الدقاق ، والقشيري ٤٦٥ هـ ، والغزالي ٥٠٥ هـ ، والجيلاني ٥٦١ هـ وغيرهم من مشايخ الصوفية في القديم والحديث إلى أنه " لابد للمريد من اعتقاد صحيح ، حاصل عن البرهان الصريح " (٢) و" صاف عن الظنون والشبه ، خال من الضلال والبدع " (٣) ، و" عن التعطيل والتشبيه والتجسيم " (٤) أو يكون " على عقيدة السلف الصالح من أهل السنة القديمة ، سنة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصديقين " (٥) كما صرح بذلك الجيلاني .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١١٨ .

(٢) الإمام القشيري . بلغة المقاصد : ص ٣٠ ضمن مجموعة ثلاث رسائل للقشيري . تقديم وتحقيق د / الطبلاوي سعد ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط بدون تاريخ .

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٣٧٨ .

(٤) روضة الطالبين للغزالي : ص ٥٢ .

(٥) الجيلاني الغنية : جـ ص ٤٣٥ ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ .

كما نادوا في الوقت ذاته بالبعد عن الفرق الأخرى وخاصة المعتزلة والقدرية والجهمية والمشبهة والمعطلة والخوارج والروافض وسائر أهل البدع " [١] ، ورأوا أنه من القبح " أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة " [٢] .

ويرجع الصوفية ذلك إلى أن الصوفي إذا عرف الحق سبحانه وتعالى معرفة صحيحة فإنه " يذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته ، فإن لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه " [٣]

ويضيف الإمام القشيري أمراً آخر وهو أن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بالبناء علي أصل صحيح ويستدل على ذلك بقول مشايخ الصوفية : " إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول " [٤] .

وفي النهاية يذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن البناء على أصل صحيح يؤدي إلى التأهل للمنح والعطايا فيقول : " إن الله لما كان هو المقصود الأسنى للطالبين ، وهو محبوب القاصدين ، ومهما بذل المريد جهداً فلن يصل إلا بفضل الله وألطافه ، وإذا لم يعرف المريد غايته حق المعرفة ، ويعتقد فيه اعتقادا سليما يخلو من التردد والشك والظن والريبة ، فهل يعقل أن يمد الله شاكا فيه ، أو مسيئا للظن به ، وهل يمكن للطالب المبتغي أن يصل إلى غاية مظنونة أو مجهولة ، إن ذلك في الاعتبار غير جائز وغير محقق ، وهو بالنسبة لله أبعد مما في الشاهد الحاضر " [٥] .

---

(١) عماد الدين الأموي : حياة القلوب ص ٣٩ ، تحقيق د / محمد سيد سلطان ، دار جوامع الكلم – القاهرة ، ط (١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م) .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٣٧٨ .

(٣) اليافعي : روض الرياحين : ص ٤١٣ ، تحقيق محمد عزت ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٣٧٨ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١١٩ ، والإبريز من كلام سيدي عبد العزيز : أحمد بن المبارك ص ٢٦ ، المكتبة التوفيقية ، ط بدون تاريخ .

المبحث الثاني

الاتجاه العقدي لدى الصوفية

يوجد في الوسط الصوفي ثلاثة اتجاهات :

الأول : الاتجاه السلفي

ويمثله متقدموا الصوفية ومن ظل على سلفيته من متأخريهم كالهروي الأنصاري ، والكلاباذي ، والجيلاني ، والشيخ عدي ابن مسافر ، والشيخ أبي البيان الدمشقي وغيرهم (١) .

وقد أقر بذلك ابن تيمية فقال : " والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف " (٢) ، وذكر من متقدمي الصوفية من أصحاب الاتجاه السلفي الفضيل بن عياض ، والداراني ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ومعروف الكرخي ، والجنيد ، وسهل بن عبد الله ، والسلمي وغيرهم " (٣) .

بل يذكر أن سائر مشايخ الصوفية من المتقدمين والمتأخرين الذين كان لهم لسان صدق في الأمة " كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل " (٤) .

بل ينقل عن الإمام الجيلاني أنه سئل " هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل ؟ فقال : ما كان ولا يكون " (٥)

---

(١) انظر منازل السائرين للهروي الأنصاري : ص ٢١ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان ، ط (١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨) ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) ابن تيمية : الاستقامة جـ ١ ص ٨٢ ، تحقيق د / محمد رشاد سالم ، توزيع : مكتبة السنة - القاهرة ، ط ٢ (١٤٠٩ هـ) .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٩١ .

(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٥ - ٨٦ .

ويستدل ابن تيمية على ما ذهب إليه من سلفية غالبية مشايخ الصوفية من المتقدمين والمتأخرين بأمرين :

[١] أقوالهم تؤكد سلفيتهم :

يذكر ابن تيمية أن أقوال الصوفية التي جمعها الكلاباذي في كتابه " التعرف لمذهب أهل التصوف " ، وكذلك معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية ، وأبو عبد الرحمن بن الحسين السلمي جامع كلام الصوفية أقرب لمذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخ الصوفية [١] .

[٢] ذمهم لعلم الكلام :

ومن الأدلة أيضا ذم مشايخ الصوفية لعلم الكلام وممن ذكرهم ابن تميمة من الصوفية الذين رفضوا علم الكلام وذموه : أبا عبد الرحمن السلمي فقد ذكر أنه ذم علم الكلام بل ألف مصنفاً في ذمه [٢] .

ومن هؤلاء أيضا الإمام الجيلاني فيذكر أنه نهى شهاب الدين السهروردي عنه فيقول : " قال السهروردي : كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام وأنا متردد هل أقرأ الإرشاد لإمام الحرمين ، أو نهاية الإقدام للشهرستاني أو كتاب شيخه ؟ فذهبت مع خالي أبي نجيب ، وكان يصلّي بجنب الشيخ عبد القادر ، وقال لي : يا عمر ، ما هو من زاد القبر ، ما هو من زاد القبر ، فرجعت عن ذلك " [٣] .

ويعلق ابن تيمية على هذا النص فيقول : " فأخبر أن الشيخ كاشفه بما كان في قلبه ، ونهاه عن الكلام الذي كان ينسب إليه القشيري ونحوه " [٤] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٢ – ٨٣ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٦ – ٨٧ .

(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٧ .

الثاني : الاتجاه السني

وهذا الاتجاه يمثله مجموعة من مشايخ الصوفية من أمثال الطوسي والمكي ، والقشيري ، والغزالي ، وأبي نجيب ضياء الدين السهروردي ، وعماد الدين الأموي ، والشيخ زروق ، والشعراني ، والشيخ عبد العزيز الدباغ ، وابن عجيبة وغيرهم من الصوفية في القديم والحديث .

وقد أقرّ ابن تيمية نفسه بوجود هذا الاتجاه السني الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأشعرية [١] ، وذكر أن أبا القاسم القشيري كان يذهب إليه ويناصره ، وأنه تلقاه عن أبي بكر بن فورك ، وأبي إسحاق الأسفراييني " [٢] .

ويذكر أن هذا الاعتقاد غالبه " موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة ، ولكنه مقصر على ذلك ، ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه ، وزيادة تخالف ما كانوا عليه " [٣] .

---

(١) اختلف العلماء حول الأشعرية التي يقصدها هؤلاء الصوفية فذهب البعض إلى أنها أشعرية الإمام الأشعري التي أعلن عنها في الإبانة فقال : " قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه " . انظر الإبانة للإمام الأشعري : ص ٥٦ دار الأصالة ، ودار الدعوة السلفية ، ط ١ (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) ومدخل إلى التصوف الإسلامي د / العربي هلال : ص ١٢٥ ، بدون طبع .

وذهب البعض الأخر إلى أنها أشعرية مطلقة ولعل هذا يفهم من قول ابن تيمية واصفا إياه : " وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عن ذلك ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه ، وزيادة تخالف ما كانوا عليه . " انظر الاستقامة : جـ ١ ص ٨٢ وقول الأستاذ محمد فهيم شلتوت : " إن الصوفية سنيون في اعتقادهم سلفيون في نظرتهم إلى المتشابه في كلام الله تعالى " . انظر مقدمة آداب المريدين ص ٥ ، وانظر حياة القلوب . ص ٣٨ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ ، وشرح الخريدة للإمام الدردير : ص ١٨ ، تحقيق / حسين عبد الرحيم المكي ، دار مكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، ط بدون تاريخ ، فقد ذكر أصحاب هذه الكتب أن عقيدتهم التي أجمعوا عليها " عقيدة شيخ السنة أبي الحسن الأشعري وأصحابه من فاتحتها إلى خاتمتها " .

(٢) الاستقامة : جـ ١ ص ٨٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

الثالث : الاتجاه الفلسفي

ظهر في الوسط الصوفي اتجاه ثالث اتجه أصحابه الوجهة الفلسفية كانت بدايته عند البسطامي ، وبلغ أشده على يد الحلاج ، ووصل إلى كماله على يد ابن عربي وابن سبعين ، وقد أدى وجوده إلى ظهور النظريات الفلسفية كالقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغيرها من النظريات الفلسفية الأخرى (١) .

الاتفاق على السلفية

مع انقسام الصوفية إلى ثلاث طوائف فإنه قد برز من خلال أقوالهم الناصحة أو المؤلفة أنهم قد اتفقوا وارتضوا طريق السلف كمنهج ونبذوا ما سواه (٢) .

فقد ذكر هؤلاء جميعاً أن " الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف ... مذهب الصحابة والتابعين " (٣) ، وأن مذهب الصوفية في جانب الربوبية والنبوة والدار الآخرة وما يجري مجراها من الخيرات " تابع لمذهب السلف في الإثبات والنفي " (٤) ، وأن القول الفصل في كل مشكل " ما قاله الشافعي – رحمه الله – إذ قال : آمنا بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله .

وقال مالك – رحمه الله – : الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه " (٥) .

---

(١) انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ٣ ص : ١٩ – ٢٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٢٢ ، جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزن الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٢٠ .

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي : ص ٤٢ ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

(٤) قواعد التصوف للشيخ زروق : ص ٢٨ – ٢٩ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٩ .

ومما يؤكد ذلك أن الإمام الجيلاني نادى في الغنية فقال : " فالذي يجب على المبتدى في هذا الطريق الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس ، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة سنة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء الصديقين (١) .

وما نادى به الجيلاني نادى به قبله المكي فقد كان يقول : إن العقيدة التي يجب أن يدين بها الصوفية عقيدة أهل السنة والجماعة " التي نقلها الخلف عن السلف ولم يختلف عليها اثنان من المؤمنين " (٢) وهي " التي أجمع عليها السلف من المؤمنين " (٣) .

كذلك دعا الإمام القشيري إلى تقليد مذهب السلف فقال : " فالمريد الذي له إيمان بهم إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقاصدهم فهو يساهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب فلا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة وإن كان يريد طريقة الاتباع وليس بمستقل بحاله ويريد أن يعرج في أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلفه " (٤) .

ومع أن الإمام القشيري لم يوضح المقصود من كلمة (سلفه) فإنه ربما يريد بها سلفه من الصوفية أو سلفه من أهل السنة والجماعة ، ومع هذا أو على حد تعبير أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي " فإنه حتى ولو أريد بها سلفه من الصوفية فإنهم كانوا سلفيين " (٥) .

فإذا ما جئنا إلى الإمام الغزالي نجده يعلن أن حقيقة مذهب السلف هو

---

(١) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٤ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٣٣٠ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٣٧٩ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٢١ .

الحق عند الصوفية (١) ، وهو ما أكده بعد ذلك أيضا الشيخ عبد العزيز الدباغ حين ذكر أن الذي يرتضيه ويجب أن يدين به الصوفية " إتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة " (٢) .

ويشير ابن عجيبة إلى أن مذهب الصوفية الأخذ بالأحسن في كل شيء عملا بقوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٣) (٤) وأن " أحسن المذاهب في الاعتقاد مذهب السلف ، من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه ، وتفويض المتشابه ، والوقوف مع ما ورد كما ورد " (٥) .

وهكذا فقد اتفقت كلمة الصوفية سلفيين وسنيين على وجوب التمسك بعقيدة الأنقياء من السلف رحمة الله عليهم أجمعين ، لأنها العقيدة التي توافق ما اتفق عليه المسلمون على اختلاف مذاهبهم (٦) .

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام : ص ٤٢ ، وروضة الطالبين : ص ٥٢ ، وقواعد العقائد في التوحيد : ص ٩٥ ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

(٢) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز : ص ٢٧ .

(٣) سورة الزمر آية ١٨ .

(٤) الفتوحات الإلهية : ص ٨٣ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) العقيدة ألحقة : ص ١٥ ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

المبحث الثالث

موقف الصوفية من مسائل الإلهيات

لم يكتف الصوفية بالإعلان عن اتجاههم العقدي بصورة مجملة بل تحدثوا عنه بصورة تفصيلية ، وقاموا بتصوير عقيدتهم فيما يتعلق بالذات والصفات .

وقد قام بذلك كثير من الصوفية كالطوسي في اللمع ، والكلاباذي في التعرف والمكي في قوت القلوب ، والقشيري في الرسالة ، والهجويري في كشف المحجوب ، والغزالى في كثير من كتبه ، والجيلاني في الغنية ، وأبي نجيب ضياء الدين السهروردي في آداب المريدين ، وكذا فعل الإمام اليافعي في كتابه روض الرياحين ، ونشر المحاسن الغالية ، والشعراني في كثير من كتبه وبخاصة في كتابه الأنوار القدسية واليواقيت والجواهر ، والشيخ الدردير في كتابه الخريدة ، ومن صوفية العصر الحديث الشيخ محمد خليل الخطيب في كتابه الجنة في عقيدة أهل الجنة وغيرهم من الصوفية في القديم والحديث وسوف يذكر الباحث موقفهم من أهم المسائل المتعلقة بالجانب الإلهي .

الــذات الإلهيــة

أعلن الصوفية عن عقيدتهم فيما يتعلق بالذات الإلهية فذكروا أنهم يجمعون على أن الله سبحانه وتعالى " واحد لا شريك له ، ولا ضد ولا شبيه له ، ولا ند له ، موصوف بما وصف به نفسه ، مسمى بما سمى به نفسه " (١) ، وأنه " فرد صمد قديم عالم قادر حي سميع بصير .. لم يزل قديما بأسمائه وصفاته غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه ، لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفته الصفات ، لا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم ، لم يزل سابقا متقدما للمحدثات موجودا قبل كل شيء لا قديم غيره ولا إله سواه " (٢)

---

(١) آداب المريدين : ص ١٥ ، والرسالة القشيرية : ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢) التعرف : ص ٤٥ ، والإحياء : جـ ١ ص ١٤٥ ، والغنية : جـ ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، والجنة في عقيدة أهل الجنة للشيخ / خليل الخطيب : ص ٢٣ – ٢٥ ، مطابع غباشي – طنطا ، بدون تاريخ .

ويجمع الصوفية على أنه سبحانه وتعالى : " ليس بجسم فإن الجسم مؤلف ، والمؤلف يحتاج إلى مؤلف " (١)

وأنه ليس بجوهر لأن " الجوهر ما كان متحيزا ، والرب تعالى ليس بمتحيز بل هو خالق كل مُتحَيّزٍ وحَيزٍ " (٢) .

وأنه ليس بعرض لأن العرض " لا يبقى زمانيين والرب سبحانه واجب البقاء لا اجتماع له ولا افتراق له ولا أبعاض له ، ولا يزعجه ذكر ولا تعينه الإشارات ، ولا تحيط به ولا تدركه الأبصار ، وكل شيء عنده بمقدار ، وكل ما تصور في الوهم أو حواه في الفهم فالله تعالى بخلافه " (٣) .

وأجمعوا أيضا على أنه سبحانه وتعالى " لا جهة له ولا مكان ، ولا يجري عليه وقت ولا زمان ، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا تخصه هيئة وقدّ ، ولا تقطعه نهاية وحدّ ، ولا يحله حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث ، ولا يجوز عليه لون ولا كون ، ولا ينصره مد ولا عون ، ولا يخرج عن قدرته مقدور ، ولا ينفك عن حكمه مفطور ، ولا يعزب عن علمه معلوم ، ولا هو عن فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم ، لا يقال له : أين هو ولا كيف هو ؟ ولا يستفتح له وجود ، فيقال : متى كان ؟ ولا ينتهي له بقاء فيقال : استوفى الآجل والزمان ، ولا يقال : لم فعل ما فعل ؟ إذ لا علة لأفعاله ، ولا يقال : ما هو ؟ إذ لاجنس له فيتميز بأمارة عن أشكاله ، يرى لا عن مقابلة ، ويرى غيره لا عن مماثلة ، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة ، له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، يفعل ما يريد ويذل لحكمه العبيد ، ولا يجري في سلطانه إلا ما يشاء ، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء ، ... خالق أرزاق العباد خيرها وشرها

---

(١) آداب المريدين ص ١٥ ، والتعرف ص ٤٥-٤٧ ، والرسالة ص ٤٨ والأحياء جـ ١ ص ١٤٥

(٢) روضة الطالبين : ص ٥٢ ، ٥٣ ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي : ص ١٥ - ٢٥ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط أخيرة بدون تاريخ ، التعرف ص ٤٦ ، ٤٧ ، والغنية : جـ ١ ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) آداب المريدين : ص ١٥ - ١٦ .

ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار ، ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه ، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة ، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين وعرف المنكر ، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه الراشدين ... (١) .

وهكذا فقدا اتفقت كلمة الصوفية " على أن الله تعالى موصوف بكل كمال برئ من كل نقص " (٢) .

الصفات وموقف الصوفية منها

الصوفية من مثبتي الصفات (٣) ، فقد أجمع أهل التصوف على أن لله صفات على الحقيقة هو بها موصوف من العلم ، والقدرة ، والقوة ، والعز ، والحلم والكبرياء ، والجبروت ، والقدم ، والحياة ، والإرادة ، والمشيئة ، والكلام ، وأن هذه الصفات ليست بأجسام ولا أعراض ، ولا جواهر ، كما أن ذاته ليست بجسم

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٤٨ - ٤٩ ، والإحياء : جـ ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ ، وروضة الطالبين : ص ٥٢ - ٥٣ ، والفصول في الأصول للقشيري : ص ٣٨ - ٦٢ ضمن رسائل القشيري .

(٢) روضة الطالبين : ص ٢٣ .

(٣) ينقسم علماء الكلام حول الصفات إلى قسمين :

<u>الأول : نفاة الصفات</u> : فقد رفضت المعتزلة الصفات ولم يثبتوا له إلا القدم ، ووافق الجهمية أتباع جهم المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وزادوا عليهم بأن الله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يوصف بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيه.

<u>الثاني : مثبتوا الصفات</u> : وهم أهل السلف ، والأشعرية ، فالشهرستاني يذكر في الملل والنحل أن السلف " أثبتوا لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والإرادة ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، ويثبتون صفات خبرية : مثل اليدين والوجه ولا يؤولون ، وأن الإمام الأشعري كان يقول إن هذه الصفات أزلية قائمة بذاته ، وهي القدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والبقاء ، انظر الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥ ، ١٠٤ ، ١٠٨ والفرق بين الفرق ص ٣٥٧ ، والتبصير في الدين للأسفرايني : ص ٦٤ تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث ، ط١ ١٤١٩ هـ - ، ١٩٩٩ م ، والغنية جـ ١ ص ١١٩ - ١٢٠

ولا عرض ولا جوهر وأنها " ليست هي هو ولا غيره ، وليس معنى إثباتها أنه محتاج إليها وأنه يفعل الأشياء بها ، ولكن معناها : نفي أضدادها وإثباتها في نفسها وأنها قائمات به ... وليس معنى العلم نفي الجهل فقط ، ولا معنى القدرة نفي العجز ، ولكن إثبات العلم والقدرة ... وأنها لا تتغاير ولا تتماثل ، وليس علمه قدرته ولا غير قدرته ، وكذلك جميع صفاته من السمع والبصر والوجه واليد " (١) .

ويذكر أبو طالب المكي أنهم أجمعوا على قدم هذه الصفات وأنها غير مخلوقة ، وأنهم اعتبروا القول بنفي الصفات وحدوثها وانفصالها عن الذات إلحادا (٢) .

الصفات الخبرية (٣) وموقف الصوفية منها

اختلف الصوفية فيما يتعلق بالصفات الخبرية إلى فريقين :

الفريق الأول : جمهور الصوفية :

ذهب جمهور الصوفية إلى أنها " صفات له كما يليق به ولا يعبر عنها

---

(١) التعرف : ص ٤٩ ، والرسالة القشيرية : ص ٤٧ - ٤٨ ، وآداب المريدين : ص ١٦ .

(٢) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٢٧١ ، والغنية : جـ ١ ص ٧٣ .

(٣) الصفات الخبرية هي التي وردت في القرآن والسنة مثل الوجه واليدين والاستواء والمجيء وغيرها من الصفات الأخرى وقد اختلف علماء الكلام حولها إلى فريقين :

الفريق الأول : أول هذه الصفات على وجه يحتمل اللفظ ذلك ومن هؤلاء المعتزلة . انظر الملل النحل للشهرستاني : جـ ١ ص ٦٦ .

الفريق الثاني : توقف في التأويل وقال : عرفنا بمقتضى العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء فلا يشبهه شيء من المخلوقات ولا يشبه شيئا منها وقطعنا بذلك إلا إنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ سورة طه آية ٥ ، ومثل قوله تعالى : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ سورة ص آية ٧٥ ، ومثل قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ سورة الفجر آية ٢٢ ... إلى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه " لا شريك له ، وليس كمثله شيء وذلك قد أثبتناه ، ومن هؤلاء الإمام مالك ، إذ قال : " الاستواء معلوم والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة " ومثل أحمد بن حنبل رحمة الله وسفيان الثوري ومن تابعهم . انظر الملل والنحل : جـ ١ ص ١٠٤ .

بأكثر من التلاوة ويجب الإيمان بها ولا يجب البحث عنها " (١) .

يقول أبو نجيب السهروردي : " وقولهم في الاستواء ما قاله مالك بن أنس حين سئل عن ذلك فقال : " الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وكذلك مذهبهم في النزول " (٢) .

وقال الإمام الجيلاني : " وقال أحمد بن حنبل قبل موته بقريب أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل " (٣) ، وممن صرح بذلك من الصوفية الإمام الجيلاني ، والشيخ زروق ، والشيخ خليل الخطيب في العصر الحديث (٤) .

الفريق الثاني : موقف البعض :

وعن أصحاب هذا الاتجاه يقول الكلاباذي : " وأولها بعضهم فقال : معنى الإتيان منه : إيصال ما يريد إليه ، ونزوله إلى الشيء : إقباله عليه ، وقربه : كرامته ، وبعده : إهانته ، وعلى هذا جميع هذه الصفات المتشابهة " (٥)

وقد ارتضى هذا الاتجاه من الصوفية الإمام الغزالي ، واليافعي والشعراني (٦) بل يذهب الإمام الغزالي إلى أن " الإعراض عن تأويل المتشابه خوفا من الوقوع في محظور من الاعتقاد يجر إلى الشك والإيهام واستزلال العوام وتعريض بعض آيات كتاب الله العزيز إلى رجم الظنون " (٧) .

---

(١) التعرف : ص ٥٠ .

(٢) آداب المريدين : ص ١٧ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٣) الغنية : جـ ١ ص ٧٤ .

(٤) قواعد التصوف : ص ٢٨ – ٢٩ ، والجنة في عقيدة أهل الجنة : ص ٢٥ – ٢٦ .

(٥) التعرف : ص ٥٠ .

(٦) روضة الطالبين : ص ٥٣ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٣٨ .

(٧) روضة الطالبين : ص ٥٣ .

كلام الله ونظرة الصوفية منه

اختلف الصوفية في كلام الله ما هو ؟ إلى فريقين :

الأول : جمهور الصوفية :

ذهبوا إلى أن كلام الله " صفة لذاته لم يزل وأنه لا يشبه كلام المخلوقين بوجه من الوجوه وليست له مائية ، كما أن ذاته ليست لها مائية إلا من جهة الإثبات " (١) .

الثاني : بعض الصوفية :

ذهبوا إلى أن كلام الله تعالى " أمر ونهي (٢) وخبر ووعد ووعيد وقصص وأمثال ، والله تعالى لم يزل آمراً ناهياً مخبراً واعداً حامداً ذاماً " (٣) .

خلق القرآن وموقف الصوفية منه (٤)

أجمع الصوفية " على أن القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة وأنه ليس

---

(١) التعرف : ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢) ذكر الإمام الشهرستاني أن الإمام الأشعري كان يري أن كلام الله " واحد : هو أمر ونهي وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد ، وهذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات في كلامه لا إلى عدد في نفس الكلام والعبارات ، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلي ، والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو : كالفرق بين الذكر والمذكور فالذكر محدث ، والمذكور قديم " . انظر الملل والنحل : جـ ١ ص ١٠٨

(٣) التعرف : ص ٥٢ – ٥٣ .

(٤) خلق القرآن من المسائل التي أثير حولها جدل واسع في الوسط الإسلامي ، فذهبت المعتزلة والجهمية إلى أن كلام الله مخلوق له ، وأن الله يخلق كلاما في جسم من الأجسام فيكون فيه متكلما ، وأنه لم يكن متكلما قبل أن خلق لنفسه كلاما ، وزعموا أن الكلام هو المكتوب في الصحف والمقروء بالألسنة غير الكلام الذي نزل به جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ بل كان ذلك عرضا معلوما ، وهو الذي يتلى ويكتب .

وذهب أهل السنة والجماعة والسلف من أهل الحديث إلى أن كلام الله قديم وأنه غير مخلوق ، واختلفوا حول كونه حروفاً وأصواتاً ، فذهب السلف إلى أن كلام الله " حروف وأصوات أزلية " وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت .انظر التبصير في الدين ص ٥٤ ، ٩١ ، ١٤٣ ، والفرق بين الفرق : ص ٣٦٠ ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي : ص ١٦٩ تحقيق / جماعة من العلماء ، وخرج أحاديثه / محمد ناصر الألباني ، المكتب الإسلامي – بيروت – لبنان ، ط ٨ (١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م) .

بمخلوق ولا محدث ، وأنه متلو بألسنتنا ، مكتوب في مصاحفنا ، محفوظ في صدورنا غير حال فيها ، كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود في مساجدنا غير حال فيها (١) .

وقد حكي هذا الإجماع أبو طالب المكي ، والغزالي ، وأبو نجيب السهروردي ، والجيلاني ، واليافعي ، بل يجعله المكي من الواجبات التي يجب على الصوفي أن يعتقد بها فيقول : " يجب أن يعتقد الصوفي أن القرآن كلام الله ﷻ غير مخلوق (٢) .

رؤية الله تعالى وموقف الصوفية منها

رؤية الله تعالى من القضايا التي طال نزاع علماء الكلام حولها (٣) ، وموقف الصوفية منها هو موقف أهل السنة والجماعة ، فالصوفية يؤمنون بإمكان الرؤية وجوازها في الدنيا ، وبوقوعها بالأبصار في الآخرة للمؤمنين دون الكافرين (٤) لقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٥) ،

---

(١) التعرف : ص ٥٢ .

(٢) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٤ ، والإحياء : جـ ١ ص ١٤٧ ، وآداب المريدين : ص ١٧ ، والغنية : جـ ١ ص ٧٧ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٤٠ .

(٣) اختلفت آراء المتكلمين حول إمكان الرؤية وحول وقوعها في الآخرة فذهبت الخوارج والمعتزلة إلى أن الله تعالى لا يرى بالأبصار في الدنيا ولا الآخرة ولا يجوز عليه ذلك ، واختلفت المرجئة فذهب بعضهم إلى قول المعتزلة ، وذهب البعض الآخر منهم إلى القول بجوازها ، أما أهل السنة والجماعة من الأشاعرة وغيرهم من السلف الصالح فذهبوا إلى أن الحق مع تنزهه عن الجهة والمقابلة يصح أن يرى ويراه المؤمنون في الجنة ، انظر الإبانة للإمام الأشعري : ص ٦٨ - ٨٤ والإنصاف للباقلاني : ص ١٧٦ تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ٤ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ونهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني : ص ٣٥٦ - ٣٧٠ حرره وصححه الفرجيوم ، بدون دار طبع . والمواقف للإيجي ص ٢٩٩ ، عالم الكتب - بيروت ، ط بدون تاريخ .

(٤) التعرف : ص ٥٥ . وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٩ . والإحياء : جـ ٥ ص ١٨٥ ، والأنوار القدسية للشعراني ص : ١٠ - ١١ ، دار جوامع الكلم - القاهرة ، ط : بدون تاريخ . واليواقيت والجواهر جـ ١ ص ١١٩ .

(٥) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ (١) ، فقد جاءت الرواية بأن الحسنى هي الجنة والزيادة النظر إلى وجهة الكريم (٢) .

ولقوله ﷺ : " إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته ". (٣) (٤) .

وقد اختلف الصوفية حول رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج ، فذهب جمهور الصوفية والكبار منهم إلى أن النبي ﷺ لم ير ربه في هذه الليلة لقول أم المؤمنين عائشة : " من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " (٥) (٦) .

وبما جاء عن أبي ذر حين سأل النبي ﷺ قائلا له : " هل رأيت ربك ، فقال : نور أنى أراه " (٧) أي حجبني النور المغشي للبصر عن رؤيته " (٨) .

وذهب بعض الصوفية إلي أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج بعيني رأسه ، وأنه خص بها من بين الخلائق كما خص موسى – عليه السلام – بالكلام (٩) ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (١٠)

---

(١) سورة يونس آية ٢٦ .

(٢) التعرف : ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٠٥ ، كتاب : المواقيت ، باب : فضل صلاة العصر ، ومسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٢٥٣ ، كتاب : المساجد ، باب : فضل صلاتي الصبح والعصر .

(٤) الإحياء : جـ ٥ ص ١٨٥ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٨٩ ، كتاب : الإيمان ، باب : معنى قول الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾

(٦) التعرف : ص ٥٧ .

(٧) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٩٠ ، كتاب : الإيمان ، باب : في قوله ﷺ نور أني أراه " .

(٨) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١١٩ .

(٩) التعرف : ص ٥٧ .

(١٠) سورة النجم آية ١١ .

قال الطوسي " يعني لم تكذب عينه ما رآه بقلبه ولم يكذب فؤاده ما رآه بعينه " (١)

وبما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : رأى محمد ﷺ ربه بعينيه مرتين " (٢) (٣) .

أفعال العباد وموقف الصوفية منها (٤)

يجمع الصوفية على أن الله سبحانه وتعالى " خالق لأفعال عباده كما أنه خالق لأعيانهم ... وأن الخلق كلهم يموتون بآجالهم وأن الشرك والمعاصي كلها بقضاء وقدر من غير أن يكون لأحد على الله حجة ... وأنه لا يرضى لعباده الكفر والمعاصي والرضى غير الإرادة " (٥) .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : جـ ١ ص ٢٨٥ ، ٢٩٠ .

(٣) الغنية : جـ ١ ص ٨٦ .

(٤) اختلفت الفرق الكلامية في أفعال العباد :

فذهبت الجهمية إلى أن العباد غير مكتسبين ولا قادرين على أكسابهم .

وذهبت المعتزلة إلى أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة

وذهب جمهور أهل السنة إلى أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله ومفعول لله .

يقول البغدادي : " قالوا : إن الله سبحانه وتعالى خالق الأجسام والأعراض خيرها وشرها وإنه خالق أكساب العباد ولا خالق غيره "

وقال أيضا : " من زعم أن العباد خالقون لأكسابهم فهو قدري ... ومن زعم أن العبد لا استطاعة له على الكسب وليس هو بفاعل ولا مكتسب فهو جبري ... ومن قال إن العبد مكتسب لعمله والله سبحانه خالق لكسبه فهو سني عَدْلي منزه عن الجبر والقدر " .

ويقول ابن تيمية : " جمهور أهل السنة يقولون إن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله ومفعول لله لا يقولون هو نفس فعل الله ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول "

ويقول الطحاوي : " وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد " ، انظر الفرق بين الفرق : ص ٣٦٢ ، والملل والنحل للشهرستاني : جـ ١ ص ٦٦ ، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية : جـ ١ ص ٢١٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ ، وشرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٣٦ .

(٥) آداب المريدين : ص ١٨ .

وقد استدل الصوفية على ذلك بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من ذلك : قوله تعالى ﴿ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى :﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (٣) .

ومن السنة ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : " ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له (٤) .

كما استدل الصوفية على ذلك أيضا بالقياس على حركة المرتعش فقالوا : " ومجمع على أن حركة المرتعش خلق الله تعالى فكذلك حركة غيره غير أن الله تعالى خلق لهذا حركة واختياراً ، وخلق للآخر حركة ولم يخلق له اختياراً (٥) .

ومع إجماع الصوفية على خلق الله لأفعال العباد فإنهم يجمعون على أن لهم " أفعالا واكتساباً على الحقيقة هم بها مثابون وعليها معاقبون وعليها ورد الوعد والوعيد " (٦) .

---

(١) سورة الرعد آية ١٦ .

(٢) سورة القمر آية ٤٩ .

(٣) سورة الفلق آية ٢ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ١٤٤ ، كتاب : القدر ، باب : وكان أمر الله قدرا مقدورا عن أمير المؤمنين علي ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٥٤ ، كتاب : القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي عن أمير المؤمنين علي ، وفي رواية أخرى عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سبق ... " الحديث .

(٥) التعرف : ص ٥٨ - ٥٩ .

(٦) المرجع السابق : ص ٦٠ ، وروضة الطالبين : ص ٢٤ - ٢٥ ، والغنية : جـ ١ ص ٨٤ واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٣٩ .

وأجمعوا أيضا على أنهم " مختارون لاكتسابهم مريدون له وليسو بمحمولين عليه ولا مجبرين ولا مستكرهين له ، ومعنى قولنا : مختارين أن الله تعالى خلق لنا اختياراً فانتفى الإكراه وليس ذلك على التفويض ...

قال سهل بن عبد الله : إن الله تعالى لم يقو الأبرار بالجبر ، وإنما قواهم باليقين (١) .

الصلاح والأصلح وموقف الصوفية منهما (٢)

أجمع الصوفية علي أن الله " يفعل بعباده ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد ، كان ذلك أصلح لهم أو لم يكن لأن الخلق خلقه والأمر أمره ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٣) (٤) ، ويبني الصوفية رفضهم القول بالصلاح والأصلح علي مجموعة من الأمور :

منها : أن القول بالأصلح يتنافى مع ما جاء في القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا ﴾ (٥) ، وقال تعالى :﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) التعرف : ص ٦٢ .

(٢) اختلفت الفرق الكلامية حول الصلاح والأصلح :

فذهبت المعتزلة إلى أن الله لا يفعل إلا الأصلح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد

وأما الأشاعرة وأهل السنة والجماعة فقالوا : إنه من الجائز في حقه تعالى خلق العباد وخلق أعمالهم وخلق الثواب والعقاب عليها لا يجب عليه شيء من ذلك ولا مراعاة صلاح ولا أصلح . انظر الملل والنحل للشهرستاني : جـ ١ ص ٦٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ونهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني : ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ، ومن قضايا العقيدة الإسلامية . د / أحمد على عجيبة : ص ٥٩ - ٦٠ ، بدون دار طبع .

(٣) التعرف : ص ٦٤ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٧٨ .

وتَزْهَقَ أنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢) (٣) .

ومنها : أن القول بالأصلح " يوجب نهاية القدرة وتنفيذ ما في الخزائن وتعجيز الله تعالي عن ذلك ، لأنه إذا فعل بهم غاية الصلاح فليس وراء الغاية شيء ، فلو أراد أن يزيدهم على ذلك الصلاح صلاحا آخر لم يقدر عليه ، ولم يجد بعد الذي أعطاهم ما يعطيهم : مما يصلح لهم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا " (٤) .

وأجمعوا أيضا على أن جميع ما فعل الله بعباده " من الإحسان والصحة والسلامة والإيمان والهداية واللطف : تفضل منه ، ولو لم يفعل ذلك لكان جائزا وليس على الله بواجب ، ولو كان ما يفعل مما يفعل شيئا واجبا عليه لم يكن مستحقاً للحمد والشكر (٥) .

الوعد والوعيد وموقف الصوفية منهما (٦)

أما عن موقف الصوفية من الوعد والوعيد فنقول : إن الصوفية أجمعوا

---

(١) سورة التوبة آية ٥٥ .

(٢) سورة المائدة آية ٤١ .

(٣) التعرف : ص ٦٤ – ٦٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٥ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٦) اختلفت الفرق الكلامية في ذلك :

فذهبت المعتزلة إلى أنه سبحانه وتعالى يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب .

وذهب أهل السنة والجماعة إلى أنه سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء فله أن يثيب المطيع أو يعاقبه وله أن يعاقب العاصي وأن يعفو عنه فالثواب فضل من الله تعالى والعقاب عدل من غير وجوب على الله ولا استحقاق من العبد ، إلا أن الخلف في الوعد نقص لا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى ، فيثيب المطيع البتة إنجازاً لوعده ، بخلاف الوعيد فإنه كرم وفضل يجوز إسناده إليه فيجوز ألا يعاقب العاصي ، انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم : جـ ٤ ص ٧٩ – ٨٠ ، تحقيق د / محمد إبراهيم نصر ، ود / عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ، والملل والنحل للشهرستاني : جـ ١ ص ٦٦ ، ومنهاج السنة النبوية : جـ ١ ص ٢١٤ والوحدانية د / بركات دويدار : ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط بدون تاريخ .

على أن " الوعيد المطلق في حق الكفار ، والوعد المطلق في حق المؤمنين والمحسنين ... وأن الثواب والعقاب ليس من جهة الاستحقاق لكنه من جهة المشيئة والفضل والعدل ،وأنه لو عذب جميع من في السموات ومن في الأرض لم يكن ظالما لهم ، ولو أدخل جميع الكافرين الجنة لم يكن ذلك محالا لأن الخلق خلقه والأمر أمره ، ولكنه أخبر أنه ينعم على المؤمنين أبدا ، ويعذب الكافرين أبدا ، وهو صادق في قوله ، وخبره صدق ، فوجب أن يفعل بهم ذلك ولا يجوز غيره ، لأنه لا يكذب في ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً " (١) .

---

(١) التعرف : ص ٦٥ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٨ .

الحسن والقبح وموقف الصوفية منهما [١]

يذهب الصوفية إلى أن الحسن والقبح شرعيان لا عقليان وأنه " لا يكون شيء منه ظلماً ولا جورا لأن الظلم صار ظلما لأنه منهي عنه ، ولأنه وضع الشيء في غير موضعه ، والجور إنما كان جورا لأنه عدل عن الطريق الذي بين له ، والمثال الذي مثل له من فوقه ومن هو تحت قدرته ، ولما لم يكن الله تحت قدرة قادر ، ولا كان فوقه آمر ولا زاجر لم يكن فيما يفعله ظالما ، ولا في شيء يحكم به جائرا ، ولم يقبح منه شيء ، لأن القبيح ما قبحه والحسن ما حسنه [٢].

---

(١) الحسن والقبح لكل منهما معان ثلاثة :

الأول : الحسن : بمعنى كونه صفة كمال .

والقبح يراد به صفة نقص كقولنا العلم حسن والجهل قبيح

الثاني : الحسن كون الشيء ملائما للطبع والغرض .

والقبح كون الشيء غير ملائما للطبع والغرض كقتل زيد بالنسبة لأعدائه وأوليائه فإنه بالاعتبار الأول حسن أي ملائم للغرض وبالاعتبار الثاني قبيح أي غير موافق لغرضهم .

ولا خلاف بين علماء الكلام في كون هذين المعنيين يستقل العقل بإدراكهما سواء ورد الشرع أو لا وذلك لأنهما عقليان يدركهما العقل :

الثالث : الحسن بمعنى كون الفعل متعلق الذم في العاجل والعقاب في الآجل وقد اختلف العلماء في هذا المعنى :

فذهبت المعتزلة إلى أن التحسين والتقبيح من مدارك العقول على الجملة بمعنى أن العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها ، وأفعال العباد قبل ورود الشرع تتصف بالحسن والقبح ، لأن العقل يحكم بحسنها وقبحها ، على اعتبار أن الأفعال لها صفات ذاتية يدركها العقل فيحكم بحسن الفعل أو قبحه .

وذهبت الأشاعرة وأهل السنة والجماعة إلى أن العقل لا يدرك حسن الشيء ولا قبحه وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع وعليه ، فالحسن : ما حسنه الشرع أو ما أمر به الشارع الحكيم ، والقبح ما قبحه الشرع أو ما نهى عنه الشارع الحكيم ، فلا حسن للأفعال ولا قبح لها قبل ورود الشرع . انظر نهاية الإقدام : ص ٣٧١ ، وانظر الملل والنحل : جـ ١ ص ٦٦ ، ١١٤ ومن قضايا العقيدة الإسلامية : ص ٤٢ – ٤٤ .

(٢) التعرف : ص ٦٦ .



ونكتفي بهذا القدر في الحديث عن إعلان الصوفية التفصيلي عن موقفهم من مسائل الإلهيات والذي يدل على أن الصوفية يميلون إلى ما مال إليه أهل السلف الصالح ، وبعيدون كل البعد عن الفرق الأخرى كالمعتزلة وغيرهم ممن حكموا العقل في النقل .

المبحث الرابع

التوحيـد بين التعقـل والتذوق

أشار الصوفية عند عرضهم لمسائل الاعتقاد إلى أن هناك مرتبة أخرى للتوحيد " أدق معنى وأعمق روحانية " (١) ، وأطلقوا عليها اسم " توحيد الخواص ويفضل البعض أن يطلق عليها توحيد الشهود " (٢) ، أو توحيد القلب أو التوحيد الوجداني (٣) .

وهو عبارة عن تذوق القلب معاني العقيدة وتحويلها من مجرد اعتقاد وعلم إلى واقع عملي ملموس ، واستيلاء سلطان الحقيقة على العبد ، والإذعان المطلق لإرادة الله وقدرته والفناء عن الخلق والبقاء بالحق لكمال الانشغال به (٤) .

ويرى البعض أن أول من تكلم في هذا النوع من التوحيد " مدرسة بغداد التي كان من رجالها السري السقطي ، والحارث المحاسبي والجنيد والنوري والشبلي ... وربما كان أبو القاسم الجنيد أبرز هؤلاء جميعاً في هذا المضمار " (٥) ، فقد كان له الفضل " في نقل التوحيد من الميدان الكلامي إلى الميدان الصوفي ، أو من ميدان النظر إلى ميدان التجربة الروحية ، وقد كتب في ذلك رسالة خاصة " (٦) سماها " رسالة في التوحيد " .

ويرجع كثير من العلماء اهتمام الصوفية بذلك إلى مجموعة من الأمور

---

(١) د / أبو العلا عفيفي . التصوف الثورة الروحية : ص ١٦٤ ، دار المعارف ، ط (١٩٦٣) وأصول التصوف الإسلامي : د / يحي هاشم فرغل : ص ٥٠ ط ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م بدون دار ط

(٢) التصوف الثورة الروحية : ص ١٦٨ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥١ ، وأصول التصوف الإسلامي : ص ٥٠ ، ط ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣ م ، بدون دار طبع .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٦٨ ، والتصوف الثورة الروحية : ص ١٦٨ .

(٥) التصوف الثورة الروحية : ص ١٦٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه ، وأصول التصوف الإسلامي : ص ٥١ .

منها اهتمام القرآن والسنة به فالقرآن الكريم حين عرض لمسائل العقيدة اهتم بداية بتنزيه الحق سبحانه وتعالى تنزيها يحقق استقلال الذات عن جميع المخلوقات ، وفي الوقت ذاته فقد اهتم بالإشارة إلى أن الله سبحانه رقيبٌ محيطٌ محاسبٌ للعبيد ، ومن أنه يعلم خائنة الأعين ، وبأنه قريب ومحب ، وهو ما دفع أرباب الأحوال والهمم إلى " أن يذوقوا طعم ما يعتقدون وأن يظفروا بهذه الدرجات الصفاتية ، وأن ينالوا من فيضها (١) .

كذلك فالقرآن الكريم لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (٢) (٣) .

كما أننا حين نقرأ السنة النبوية فإننا نلاحظ أنها أعطت قضية التذوق لمعاني العقيدة الكثرة الكثيرة من ذلك قوله ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار " (٤) ،

وقوله ﷺ : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا " (٥) (٦) .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٢ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢ .

(٣) د / رزق يوسف الشامي : المجموع في عقيدة مشايخ الصوفية ص ٢٥ ، الناشر دار اليقين للنشر والتوزيع – المنصورة ، ط ١ (١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م) .

(٤) صحيح البخاري : جـ ١ ص ١٢ ، كتاب : الإيمان ، باب : حلاوة الإيمان ، وصحيح مسلم : جـ ١ ص ٣٧ – ٣٨ ، كتاب : الإيمان ، باب : خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان .

(٥) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٣٥ ، كتاب : الإيمان ، باب : ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا

(٦) سعيد حوى : تربيتنا الروحية ص ٥٩ ، مكتبة وهبة – القاهرة ، ط ٤ (١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م) ، ومدخل إلى التصوف الإسلامي : د / العربي هلال ص ٩٦ ، ط ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م ، بدون دار طبع.

ومنها : طبيعة الصوفي نفسه والتي تريد في جميع مراحل السلوك " أن تتخلص من الجوانب المادية لتعيش حياة روحية خالصة ، حياة تبرز فيها كل معاني الخشية والحب والمهابة والجلال للذات الإلهية التي يحاول الصوفي التشبه بصفاتها والعيش في ظل مشاهدتها " (١) .

يضاف إلى ما سبق أن المشايخ أرادوا أن يدلوا المريدين على الصلة المباشرة بالله " تلك الصلة التي يحس فيها المريد بوجود الله يغمر قلبه ويفعم ضميره ولا يزايله لحظة ولا يغيب عنه طرفة عين " (٢) ، كما أرادوا أن يتطلع المريدون إلى مثل مشاربهم وأن " يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفلة وعوائق الوصول " (٣) .

ويأتي في نهاية ذلك عدم اهتمام علماء الكلام بإبراز هذا الجانب الروحي عند حديثهم عن العقائد إلا لماما (٤) :

وإدراك بعض المحققين " من الصوفية عدم كفاية ذلك النوع من التوحيد المستند إلى التجريد لأنه مجموعة من السلوب تصور الله تعالى بصورة تباعد بينه وبين خلقه " (٥) ، وهو يخالف ما يطمح إليه الصوفي ويتمناه وهو القرب من الله ودوام المشاهدة له .

الطريق إلى ذوق لذة التوحيد الوجداني

لم يكتف الصوفية بالإشارة إلى التوحيد الوجداني ، بل قاموا في الوقت ذاته ببيان الطريق إلى ذوق لذة هذا التوحيد ، وهو يبدأ كما يرى الصوفية بتطهير

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، والتصوف الإسلامي الطريق والرجال : ص ٢١٥ - ٢١٦

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣٠ .

(٤) تربيتنا الروحية : ص ٥٩ .

(٥) التصوف الثورة الروحية : ص ١٧١ .

الباطن من الدعاوى ، وتخليته من الشهوات والمشيئات ، والسر من الإفصاح ؛ وتنقية الظاهر من المراءاة ، وذلك لأن الباطن إذا تطهر واقتلعت منه الشهوات وأخمدت المشيئات " تهيأ القلب واتجه إلى الله تعالى وحده خاليا عما سواه من داخله وخارجه " (١) .

وقد عبر عن ذلك كل من المحاسبي ، والشاذلي :

فقال المحاسبي : " من اجتهد في باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله تعالى الهداية إليه لقوله ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) (٣) .

وقال الشاذلي : " الصحبة مع الله برفض الشهوات والمشيئات ، ولن يصل العبد إلى الله تعالى ويبقى معه شهوة من الشهوات ولا مشيئة من مشيئاته " (٤) .

وقد أجمع مشايخ الصوفية على أن لزوم الأدب مع الله تعالى في العبادة من بين الوسائل التي تؤدي إلى ذلك ، وقد حكى الإمام الشعراني هذا الإجماع فقال : **" أجمع الأشياخ على أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة ولا يصل إلى حضرة ربه إلا إن صحبه الأدب في تلك العبادة " (٥) .**

وقد بين الصوفية أن لزوم الأدب مع الله تعالى يكون بالمعرفة بربوبيته والعمل بطاعته " والحمد على السراء ، والصبر على الضراء " (٦) ، والإخلاص في طاعته وذلك " بأن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ـ ص ١٣١ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمي : ص ١٦ .

(٤) المفاخر العالية في المآثر الشاذلية : ص ٥٧ .

(٥) الأنوار القدسية : ص ٢١ .

(٦) الرسالة القشيرية : ص ٢٨٥ .

تصنع لمخلوق أو اكتساب صفة حميدة عند الناس ، أو محبة مدح من الخلق ، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى " [١] .

ويأتي بعد الإخلاص تقواه سبحانه وتعالى وذلك بقهر النفس وإخضاعها وإلزامها الحدود وإبعادها عن الرغبات والشهوات [٢] .

ثم يأتي بعد التقوي الإكثار من ذكره فقد أجمعوا " على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله ﷻ ، حتى لا يكون للمريد شغل إلا به " [٣] ، وبينوا أنه " لا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر " [٤] ، وذكروا أن المريد إذا عرف ربه وأخلص له ولزم التقوى ، وداوم على الذكر لزم عليه أن ينتقل بعد ذلك " إلى مقامات الحضرة ... فيلزم الصدق ... وأن يقيم الخوف والرجاء زمامين يمنعان من سوء الأدب " [٥] ، وأن يعلم المريد ويتيقن بأن الله مطلع على ما في قلبه وضميره وعالم بذلك ، وأن " لا يغتر أثناء السير ببسط أو زيادة أو مد فيسيء ويترك التوبة أو الإنابة ، بل كلما جدت غفلة جدد فيها توبة ، وهكذا يظل باستمرار يتخلص من زلاته وهفواته وغفلاته بالتوبة والإنابة " [٦] .

وقد أشار الصوفية إلى أن المريد إذا تأدب بهذه الآداب أسلمته هذه الآداب بفضل الله إلى المكاشفة ، وبأنه إذا وصل إلى المكاشفة وحافظ على أسرارها " أطلعه الله على المعية ... وبها وصل إلى الافتقار ، ثم إذا تحقق بالافتقار انتقل إلى الثقة بالله والسكون إليه وحده ، وانقطع عن السوي ولم يبق له إلا الله يكلفه

---

(١) الرسالة القشيرية : ص : ٢٨٥ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٥ ص ٢٣ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١١٥ .

(٣) الأنوار القدسية : ص ٢١ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٢٢١ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٥ ص ٢٤ .

(٦) المرجع السابق : جـ ٥ ص ٢٦ .

ويمده ويكفيه وإلى هنا يصل العبد بالثقة والسكون إلى أول درجة الفناء " (١) وذوق لذة التوحيد .

مراحل التحقق بالتوحيد الوجداني

ذوق لذة التوحيد أو التحقق بالتوحيد الوجداني لا يأتي دفعة واحدة وإنما يأتي عبر مراحل يمر بها السالك تبدأ بانشغال القلب بالله ، وذلك بأن يسيطر الحق سبحانه وتعالى على قلب العبد ويستولي عليه " استيلاءً يخرجه عن التوطن مع المكان والأصحاب ويأخذه مما يحب ويعشق من المحدثات ، ويخرجه من إطار الزمان " (٢) .

وقد عبر عن هذه المرحلة الإمام الجنيد فقال : " التوحيد الذي انفرد به الصوفية هو إفراد القدم عن الحدوث ، والخروج عن الأوطان ، وقطع المحاب ، وترك ما علم وجهل ، وأن يكون الحق سبحانه وتعالى مكان الجميع " (٣) .

وأشار إليها علي الحصري فقال : " أصولنا في التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث وإفراد القدم ، وهجر الإخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل " (٤) .

ويأتي بعد الانشغال بالله مرحلة أخرى هي التأهب للتلقي عن الله تعالى ، فبعد أن يصل العبد إلى حالة الاطمئنان بالله " يودع ... حديث العقل ويتأهب للتلقي من الله في القلب " (٥) عن طريق الوجد والذوق .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٥ ص ٢٤ ، واللمع للطوسي : ص ٥١ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣١ .

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٣٠٠ ، وطبقات المناوي : جـ ١ ص ٣٨٠ ، تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط : بدون تاريخ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٢٩٩ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣٢ .

وفي هذه المرحلة يصاب السالك بداية بالحيرة ، وعن العلة من ذلك يقول الطوسي : " قلت لأنه من تحقق بذلك وجد في قلبه من عظمة الله تعالى وهيبته ما يدهش ويحير عقله إلا من يثبت الله تعالى " (١)

وقد عبر عن هذه المرحلة أيضا الإمام الجنيد فقال : " إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد تناهت إلى الحيرة " (٢)

وقال غيره من العارفين : " التوحيد : هو الذي يُعمِّي البصر ويحير العاقل ، ويدهش الثابت " (٣) .

ويأتي في المرحلة الثالثة من مراحل التوحيد الوجداني مرحلة الفناء ويقصد من ذلك حسبما أشار الجنيد أن يفني الإنسان " عن نفسه وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته في حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه " (٤) ، وهو ما عبر عنه قائلا " التوحيد : معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتندرج فيه العلوم ، ويكون الله تعالى كما لم يزل " (٥) .

وهو ما أشار إليه رويم ٣٠٣ هـ حين قال : " التوحيد محو آثار البشرية ، وتجرد الألوهية " (٦) .

وبعد فناء الإنسان عن نفسه يأتي فناء آخر يعد آخر مراحل التوحيد الوجداني ، هو الفناء عن التوحيد ذاته ، وهو ما أشار إليه الشبلي ٣٣٤ هـ قائلا :

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٢ .

(٢) الرسالة : ص ٢٩٩ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) الرسالة القشيرية : ص ٣٠٢ .

" ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد " (١)

وكذلك أبو العباس أحمد بن عطاء البغدادي ٣٠٩ هـ فقال : " علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد " (٢) . وذلك لأن كمال التوحيد " أن يشتغل العبد بالله تعالى شغلا ينسيه غير الله تعالى ، ومن جملته توحيده فمن تصوره لم يستغرق في كمال توحيده " (٣) .

مميزات التوحيد الوجداني :

يتميز التوحيد الوجداني بمجموعة من المميزات :

- منها : أن كل مرحلة من مراحله لها " مذاقاتها ومكاشفاتها ... كما أن السالك تنتابه حالةٌ من حالات العطش الدائم ، فإذا مر بذوق مرحلة ، عطش لما فوقها ، وعند الوصول إليها يتعطش للذي يعلوها " (٤) .

وقد عبر عن ذلك يوسف بن الحسين فقال : " من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على مر الأوقات إلا عطشا " (٥) .

- ومنها : قيامه على الخوف من الله تعالى .

وقد برز ذلك بصورة واضحة من تصدير الإمام القشيري حديثه عن التوحيد بهذا الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ : " بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد ، فقال لأهله : إذا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروا نصفي في البر ، ونصفي في البحر في يوم ريح ، ففعلوا ، فقال الله ﷻ

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه ، واللمع للطوسي : ص ٥٥ .

(٣) هامش الرسالة القشيرية . هامش : ص ٣٠٢ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣٣ .

(٥) الرسالة القشيرية : ٣١٠ .

للريح : أدي ما أخذت فإذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على م صنعت ؟ فقال استحياءً منك ، ... " (١) (٢) .

ولعلنا نلمح ذلك أيضاً من قول أبي سليمان الداراني : " إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب " (٣)

ومن جعل أبي علي الدقاق الخوف شرطاً من شروط الإيمان حين قال : " الخوف على مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف : من شروط الإيمان وقضاياه قال تعالى ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ " (٤) . والخشية من شروط العلم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ ﴾ (٥) ، والهيبة من شروط المعرفة قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ (٦) (٧)

ومنها : أن التوحيد الوجداني بمراحله المشار إليها تمتاز طريقته بأنها سريعة خاطفة ، وأسلوبها رقيق موجز وإشاري دال ، تظهر مراميه بوضوح ، وتتضح معانيه بجلاء ، خال من الجدل والاستدلال إلا على ما يشبه الاقتباس أو التأويل الإشاري ، كما أنه يعبر عن حال صاحبه ، أو عن نخبة وصفوة من أمثال قائله .

فطابع التوحيد بالحال شخصي لا جماعي ، والمتأمل فيه يدرك أنه يمثل توحيد الخاصة وعقائد أهل القرب وأحوالهم المتصلة بالله مثل التجرد ، وإسقاط الوسائل والفناء ، والمحو ، وغيرها من الأحوال التي صرحوا بها أثناء الحديث عن الإيمان والتوحيد " (٨) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٢ . ص : ٢٦٢ ، كتاب : الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٢٩٨ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٢١ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٧٥ .

(٥) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٦) سورة آل عمران آية ٣٠ .

(٧) الرسالة القشيرية : ص ١٢٥ .

(٨) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٣٣ .

المبحث الخامس

تصحيـــح الأخطــــاء

ما مر كان هو التصور الشامل للجانب العقدي كما يراه الصوفية ، وكما يتذوقونه ، واضطررنا إلى تلخيصها لنبين وجهة العقيدة الصحيحة عند رجال الطريق ، ولأن بحثنا يركز على عملية التصحيح للانحرافات فإن الجهد الأساسي والتفصيل المناسب سيكون خاصا بتلك العملية ، ويسأل الباحث عدة أسئلة ليجيب عنها ، هل بقيت العقيدة صحيحة كما هي عند الجميع أم انتابتها الشوائب والتغير ؟ ، وإذا كان فما مظاهره ؟ ، والباحث يهتم بإبراز هذه المظاهر مبينا أن فريقا من المنتسبين إلى الطريق قد صدرت منه عبارات دوت ، ثم تحولت إلي أفكار ونظريات ينبغي الوقوف عليها .

أولا : الحلول وموقف الصوفية منه

دعوى الحلول من الدعاوى المنحرفة التي وقع فيها بعض الأدعياء ، وقد تصدي أهل التصوف الحق لها بالنقد والتقويم وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في الصفحات التالية .

الحلول في اللغة : يأتي الحلول في اللغة بمعنى النزول أو نزول شيء في شيء فيقال : " حل بالمكان يحل حلولا ومحلا وحللا بفك التضعيف نادر : نزول القوم بمحلة وهو نقيض الارتحال .

قال الأسود بن يعفر :

كما فاتني من كريم كأن ذائقة   يذكي الوقود بحمد ليلة الحلل

والحل والحلول النزول ، والمحل الموضع الذي يحل الحلل والحِلّة هيئة الحلول ، والحِلّة جماعة بيوت الناس لأنها تُحَلّ والحلة مجتمع القوم ، والمَحَلّة منزل القوم ، وروضة محلال إذا أكثر الناس الحلول بها " (١) .

---

(١) لسان العرب جـ ١٣ ص ١٧٢ - ١٧٥ ، وتاج العروس جـ ٧ ص ٣٨٣ - ٣٨٥ ، والقاموس =

الحلول في الاصطلاح :

يطلق الحلول في الاصطلاح ويراد به " اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر لحلول ماء الورد في الورد فيسمى الساري حالا والمسري فيه محلا (١) .

وقد يفهم من هذا أن الحلول والاتحاد بمعني واحد ولكن هذا غير صحيح " فالحلول والاتحاد وإن كانا ينبعان معا من إيمان بالاثنينية ومن وجود خالق ومخلوق ، الآخر يسعى إلى الاتصال بالأول عن طريق التصفية والاستعداد الكامل الذي يتناسب مع تلك الدرجة العليا من العلاقة بالله ... فإن التحقق بهذين النوعين يختلف في الحلول ، فالتحقق في الحلول يتم من الأعلى للأدنى وهبا واصطفاء ... ومن الأدنى للأعلى كسبا واجتهادا في الاتحاد ، أي أن الأول جذب ومنحة والثاني كسب وسلوك ، وهذا ما يميزهما كنوعين مستقلين من الأفكار أو الأذواق " (٢) .

أقسام الحلول : ينقسم الحلول إلى قسمين :

الأول : الحلول الذاتي

وهو ينقسم إلى حلول ذاتي عام وحلول ذاتي خاص :

أما الحلول الذاتي العام : فيطلق ويراد به أن الله بذاته حال في كل شيء ، وهو ما يسمى بوحدة الوجود (٣) .

- المحيط جـ ٣ ص ٣٧٠ ومعجم متن اللغة : للشيخ / أحمد رضا جـ ٢ ص ١٥٧ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، ط ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م ، والمعجم الوسيط جـ ١ ص ٢١٦

(١) التعريفات للجرجاني : ص ١٠٤ ، تحقيق د / عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، ط بدون تاريخ ، ودائرة المعارف الإسلامية : جـ ٨ ص ٥٥ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٦٩ – ١٧٠ ، والتصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٤٧ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٧٩ ، جـ ٤ ص ٢٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧٠ .

أما الحلول الذاتي الخاص : فيطلق ويراد به أن ذات الله حلت في بعض المصطفين من الأنبياء والمقربين من الأولياء وفي بعض الأئمة من أهل البيت (١)

الثاني : الحلول الصفاتي

وهو يطلق ويراد به حلول تأثير فعل الله في العبد واستجابته لما يطلبه الحق " فيحب .... ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، ويرضى بما يرضي الله ، ويغضب لما يغضب الله ، ويأمر بما يأمر الله ، وينهى عما ينهى الله عنه ويوالي من يواليه الله ، ويعادي من يعاديه الله ، ويحب لله ، ويبغض لله ، ويعطي لله ، ويمنع لله ، بحيث يكون موافقا لربه تعالى " (٢) .

ويذكر الطوسي أن الحلول الصفاتي عبارة عن حلول الإيمان بالله والتصديق به والتوحيد والمعرفة في القلوب وهو مقصود الصوفية من القول بالحلول (٣) .

وقد أقر ابن تيمية بهذا النوع من الحلول فقال : " فهذا المعنى حق وهو حقيقة الإيمان وكماله " (٤) .

وقد استدل على ذلك بما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : " يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي " (٥) (٦) .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ٨٢ ، ص ٩٢ – ٩٤ ، جـ ٤ ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ١١٥ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧٠

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٤٢ ، ومعراج السالكين للغزالي : ص ٩٧ – ٩٨ ، ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١١٥ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ١٢٩ ، كتاب : الرقاق ، باب : التواضع

(٦) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١١٥ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٣ ص ١٧٥ .

نشأة الحلول الذاتي الخاص :

دعوى حلول ذات الله في أحد الأشخاص دعوى قديمة ، فقد دان بها المصريون القدماء ، وكذا الهنود (١) ، وكذا الحرنانية من الصابئة يعتقدون بأن الإله يتشخص في بعض المواليد (٢) .

كما دانت فرق النصارى بحلول الإله في المسيح عليه السلام ومع اتفاقهم على ذلك ، فقد اختلفوا في كيفيته :

فذهبت النسطورية أصحاب نسطور الحكيم إلى أن الله اتحد بجسد المسيح عليه السلام " لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة ، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم " (٣) .

وقد أخذت هذه النظرية طريقها إلى محيط الفكر الإسلامي ، فيذكر البغدادي أن عشر فرق غالبيتهم من غلاة الرافضة " كالسبئية والبيانية والجناحية والخطابية والنميرية " (٤) دانت بالحلول في دولة الإسلام ، ويذهب البعض إلى أن دعوى الحلول انتقلت إلى الوسط الصوفي عن طريق هذه الفرق الغالية (٥) .

وقد اعترف الطوسي والسلمي والقشيري والهجويري والغزالي والسهروردي

---

(١) د / أحمد علي عجيبة : دارسات في الأديان الوثنية القديمة ص ١٠٦ – ١٠٨ مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا ، ط ٣ (١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م) ، والعقائد الدينية عند الأمم الوثنية القديمة : د / فرج الله عبد الباري ص ١٨ مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا ، ط ٢ (١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م) .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني : جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٣٠ ، ومعراج السالكين : ص ٩٨ ، ومجموعة الرسائل والمسائل جـ ٤ ص ٢٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧١ ، والتصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٤٩ ، ومقدمة أصول الملامتية : ص ٦١ .

(٤) الفرق بين الفرق : ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٥) مقدمة ابن خلدون : ص ٣٣١ .

وغيرهم من أهل التصوف الحق بوقوع بعض الأدعياء في القول بالحلول ، وقد عد الهجويري منهم طائفة تنسب إلى رجل يدعى فارسا ، والحلاجية المنسوبة إلى الحلاج [١] .

كذلك نسب القول بالحلول إلى بعض الصوفية ومن أشهر هؤلاء :

[١] البسطامي [٢]

فالبسطامي يعد واحداً من أشهر من نسب إليهم القول بالحلول من الصوفية ، وقد اعتمد من اتهمه بذلك على مجموعة من النصوص نسبت إليه منها :

ما روي أن رجلا : " دق على أبي يزيد داره فقال له من تطلب ؟ فقال أطلب أبا يزيد ، قال من ويحك فليس في الدار غير الله " [٣]

وقوله : " رفعني مرة فأقامني بين يديه فقال لي : أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت : زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك " [٤]

وقوله : " أنا هو " [٥] ، وقوله : " سبحاني ما أعظم شأني " [٦] وغيرها من الأقوال الأخرى ، والتي عدها البعض تمهيدا للقول بالحلول عند الحلاج .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤١ ، ورسالة الملامتية : ص ١٩٨ ، والرسالة : ص ٣٧ ، كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠١ ، والإحياء : جـ ٣ ص ٦٣١ ، وعوارف المعارف : ص ٧٢ .

(٢) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي ، كان جده مجوسياً وقد أسلم ، وكانوا ثلاثة أخوة : آدم وطيفور وعلي ، وكانوا زهاداً عباداً ، وكان أبو يزيد أجلهم ، توفي سنة ٢٦١ هـ ، انظر الرسالة : ص ٣٩٥ .

(٣) مخطوط النور : ص ٨٤ ، ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبد الرحمن بدوي ، الناشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط بدون تاريخ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٩١

(٥) مخطوط النور : ص ١٠٠ ، ١٥١ .

(٦) اللمع للطوسي : ص ٤٧٣ ، وتلبيس إبليس : ص ٣٤٣ .

[٢] الحلاج (١)

وممن نسب إليه القول بالحلول أيضاً الحلاج ، وقد اتهمه بذلك كثير من معاصريه ، كما اتهمه بذلك الإمام الباقلاني ٤٠٣ هـ ، والبغدادي ٤٢٩ هـ والاسفرايني ٤٧١ هـ ، وابن كثير ٧٧٤ هـ ، والبقاعي ٨٨٥ هـ وغيرهم من العلماء في القديم والحديث " (٢) .

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج يكنى أبا مغيث وقيل أبا عبد الله ، ولد سنة ٢٤٤ هـ في بلدة (الطور) في الشمال الشرقي من مدينة البيضاء إحدى مدن فارس ، وقد انتقل بعد مولده بقليل إلى مدينة (واسط) ثم إلى مدينة (تستر) حيث تلقى بعض العلم وتتلمذ على سهل بن عبد الله سنتين ، وبعد ذلك سافر إلى البصرة وهو في الثامنة عشر من عمره ، م انتقل إلى بغداد وفيها تعرف على عمرو ابن عثمان المكي وأقام معه ثمانية عشر شهرا ، ثم اختلف معه ، بعد تزوجه من أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع ، وصحب الجنيد ولم تطل هذه الصحبة ، وخرج إلى مكة وجاور سنة ورجع بعدها إلى بغداد وقصد الجنيد وسأله عن مسألة فلم يجبه ونسبه إلى أنه مدع فيما سأله وقال له : " أي خشبة تفسدها ، وقد ترك الحلاج بعد ذلك بغداد وتنقل بين عدة مدن كخرسان والهند ، وبعد عودته من الهند كثرت الأقاويل حوله فسافر إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد وفي هذه الفترة وقع فيه كثير من الصوفية وغيرهم حتى قتل سنة ٣٠٩ هـ .

وقد اختلف العلماء حول سبب قتله :

١ – فذكر البعض أنه قتل لقوله بالحلول ودعواه الربوبية .

٢ – وقيل لقوله بالحج المعنوي عند عدم القدرة على الحج الحسي .

٣ – وقيل لاتهامه بالقرمطة أو بالإسماعيلية .

انظر طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧٤ ، وأخبار الحلاج : ص ٥٧ – ٨٨ ، ومقدمة أخبار الحلاج : ص ١١ – ١٣ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٨٢ ، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني : جـ ٢ ص ٣٧ ضبطه وصححه الشيخ / عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي : جـ ٨ ص ١١١ – ١١٤ ، المكتبة السلفية – المدينة المنورة ، ط بدون تاريخ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ٣ ص ٣٢ – ٣٣ ، وقضية التصوف المدرسة الشاذلية للدكتور / عبد الحليم محمود : ص ٢٠٧ ، دار المعارف ، ط ٣ بدون تاريخ .

(٢) التبصير في الدين : ص ١١٠ ، والفرق بين الفرق : ص ٢٧٩ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها د / عرفان مفتاح : ص ٢١٦ دار الجيل – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م) ، وتنبيه الغبي للبقاعي : ص ٢٩ ، ١٧٧ .

وقد اعتمدوا في ذلك على بعض الأقوال التي نسبت إليه والتي يوهم ظاهرها بحلول ذات الحق في ذاته كقوله :

مزجت روحك في روحـــي
كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مســـك شـــيء مســـني
فإذا أنت أنا في كل حال [١]

وكقوله :

أنا الحـــق حـــق للحق حق
لابس ذاته فما ثـــم فرق [٢]

وكقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحـــن روحان حـــللنا بـــدنا
فإذا أبصـــرتني أبصـــرته
وإذا أبصـــرته أبصرتنا [٣]

وقوله :

أنا أنـــت بلا شـــك
فســـبحانك سبحاني
وتوحيدك توحـــيدي
وعصيانك عصياني
وإسخاطك إسخاطي
وغفرانك غفـــراني

---

(١) ديوان الحلاج : ص ١٥٢ ، وتاريخ بغداد : جـ ٨ ص ١١٥ .

(٢) ديوان الحلاج : ص ١٥٢ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٥٨ .

ولم أجلـد يا رب
إذا قيل هو الزاني (١)

وقال البغدادي في الفرق بين الفرق : " والذين نسبوه إلى الكفر وإلى دين الحلول حكموا عليه أنه قال : من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصفاة حتى يصفو عن البشرية ، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد ، وكان جميع فعله فعل الله تعالى " (٢) . وغير ذلك من الأقوال التي يدل ظاهرها على إيمانه بجواز الحلول (٣) .

جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى الحلول

بذل أهل التصوف الحق جهوداً عدة في مقاومة دعوى الحلول تمثلت في :

[١] رفض الحلول

رفض أهل التصوف الحق دعوى الحلول وذلك من خلال إجماعهم على أن الله تعالى " واحد فرد صمد قديم لا تجوز عليه المماسة والعزلة ولا الحلول في الأماكن ولا تحيط به الأفكار " (٤)

كذلك ورد كثير من النصوص تفيد ذلك على لسان كثير منهم من أمثال سهل بن عبد الله ٢٩٣ هـ ، والجنيد ٢٩٧ هـ ، وابن خفيف ٣٧١ هـ ، والمكي ٣٨٦ هـ ، وأبي نعيم الأصفهاني ٤٣٠ هـ ، والغزالي ٥٠٥ هـ ، وابن عطاء الله السكندري ، وابن مغيزيل الشاذلي ، والشعراني ، وابن عجيبة ، وغيرهم من

---

(١) ديوان الحلاج : ص ١٦٣ .

(٢) والفرق بين الفرق : ص ٢٨١ ، التبصير في الدين : ص ١١١ ،

(٣) ديوان الحلاج : ص ١٦٥ ، والطواسين للحلاج : ص ٩٥ ، ٩٧ ، وأخبار الحلاج : ص ٦٦ .

(٤) التعرف : ص ٤٥ – ٤٦ ، والرسالة : ص ٤٧ – ٤٨ ، والأنوار القدسية للشعراني : ص ١٠ – ١١

مشايخ التصوف السني في القديم والحديث [١]

وينشد الشيخ خليل الخطيب في ذلك شعراً فيقول :

سبحانه من واحد عليم

خلا عن الحلول والتجسيم [٢]

والذي يدعو إلى العجب أن أصحاب الاتجاه الفلسفي رفضوا هذه الدعوى أيضاً :

فابن عربي مثلا وهو يتحدث عما ينبغي أن يعتقد ، يذكر أنه يجب أن يعتقد بأن الله " لا تحله الحوادث أو يحلها " [٣] وهو ما أكده الجيلي حين ذكر أن الله تعالى " قديم واحد لا شبيه له ولا مثل له ولا شريك له ... لا يحل في شيء ولا يحله شيء " [٤]

ومما يؤكد ذلك أيضاً قيام كثير منهم بنفي هذه التهمة عن نفسه فابن الفارض مثلا يقول في التائية :

ولي من أتم الرؤيتين إشارة

تنزه عن رأي الحلول عقيدتي

---

(١) الرسالة : ص ٣٠٠ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٣٦ ، ورسالة الملامتية : ص ١٩٨ ، ومعتقد ابن خفيف : ص : ٨٠ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، وحلية الأولياء : جـ ١ ص ٤ ، والإحياء : جـ ١ ص ١٤٥ ، وقواعد العقائد للغزالي : ص ٩٥ - ٩٦ ، والكواكب الزاهرة لابن مغيزيل : ص : ٢٣٩ - ٢٤٠ ، تحقيق د / محمد سيد سلطان ، ود / علي عبد الحميد عيسى ، وراجعه / عبد القادر حسين ، الناشر دار جوامع الكلم ، ط بدون تاريخ . واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٣ ، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) الجنة : ص ٢٣ .

(٣) ابن عربي . الفتوحات المكية : جـ ١ ص ٣٦ ، درا صادر - بيروت - لبنان ، ط : بدون تاريخ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) عبد الكريم الجيلي . المناظر الإلهية : ص ٨٨ ، تحقيق د / نجاح محمود الغنيمي ، دار المنار ، ط ١ (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .

وفي الذكر ذكـــر اللبـــس بمنكـــر
ولم أعدُ عن محكَمي كِتَابٍ وسُنَّة [١]

ويقول الشيخ علي وفا نافياً تهمة الحلول عن نفسه :

يظنـــون بي حلـــــولا واتحـــادا
وقلبـــي من سوى التوحيد خالي [٢]

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذه الدعوى على مجموعة من الأمور منها :

أولاً : رفض القرآن لدعوى الحلول :

فقد نظر الصوفية في القرآن الكريم فوجدوا أنه يحارب في كثير من آياته جميع أشكال الحلول مبيناً في وضوح بطلان التثليث فقد قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ [٣] ، وأبطل ألوهية المسيح لقيامها على الحلول فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٤] ، ويضاف إلى ذلك تصريح القرآن بأن الحلول نوع من أنواع الغلو. فقال الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [٥] .

كذلك وجد الصوفية أن القرآن " دعا إلى تنزيه الله تعالى وأنه فوق عباده ، وأنه من ورائهم محيط ، وأنه غني عن العالمين ، وأنه فصل بين الخالق والمخلوق في مجال القدم والحدوث ، والافتقار والاستغناء ، والبداية والنهاية ، والأزل والأبد ، والفناء والبقاء ، والتغير والتحول " [٦] ، وعليه فلم يكن أمام

---

(١) ديوان ابن الفارض : ص ٤٣ ، البيت رقم [٢٨٤ ، ٢٨٥] .
(٢) الكواكب الزاهرة : ص ٣٥٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ٧٣ .
(٤) سورة المائدة الآية ٧٢ .
(٥) سورة النساء الآية ١٧١ .
(٦) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧١ .

الصوفية إلا رفض كل ما خالف القرآن :

فالطوسي بعد أن يذكر من وقع في الحلول يعقب قائلا : " والله تعالى موصوف بما وصف به نفسه كما وصف به نفسه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) (٢) .

ثانياً : رفض السنة النبوية دعوى الحلول :

نظر الصوفية أيضاً في السنة النبوية المطهرة فوجدوا أن الرسول ﷺ قد حذر المسلمين أن يصلوا به إلى ما وصل المسيحيون بعيسى عليه السلام فقال ﷺ : لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله " (٣) (٤) .

يدل على ذلك ما جاء في عوارف المعارف فبعد أن تحدث السهروردي عن وقوع بعض الأدعياء في ذلك عقب قائلاً : " وقد أتاه رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كل معوج " (٥) .

ويفهم من هذا أن السهروردي يرى أنها عقيدة تخالف ما جاءنا به رسول الله ﷺ وعليه فيجب رفضها .

ثالثاً : إجماع الأمة الإسلامية على بطلان الحلول :

ويرجع رفض الصوفية للحلول أيضاً إلى مخالفته للعقيدة التي أجمع المسلمون عليها يقول الإمام الشعراني : " ومما يمتنع شرعا وكذلك لا يجوز

---

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥٤٢ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٢٦٢ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٢

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٢ ص ٢٥٦ ، كتاب : الأنبياء ، باب : واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ١ ص ٢٣ ، ٤٢ ، ٤٧ عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧١ .

(٥) عوارف المعارف : ص ٧٢ .

إجماعاً إرادة ذاته تعالى بقول بعضهم :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا (١)

رابعاً : تصادم دعوى الحلول مع العقل :

ويعود رفض الصوفية لدعوى الحلول أيضا إلى تناقض هذه الدعوى وتصادمها مع ما يقرره العقل :

يقول السهروردي : " وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز والله تعالى منزه أن يحل به شيء أو يحل بشيء " (٢) .

وقد ساق الصوفية كثيراً من الأدلة العقلية على بطلان دعوى الحلول منها :

١ – أنه لو حل في مكان أو في شخص لكان محتاجاً إليه والاحتياج عليه محال يقول الجنيد ٢٩٧ هـ : " كيف يصير بحالة كان في الأزل عنها غنياً ، وكيف ينتقل بانتقال الفناء جل وتعالى أن يوصف بشيء من هذه " (٣) .

ويقول أبو عمرو الدمشقي ٣٢٠ هـ : " كيف يجوز أن يحل الحق في شخص هو أنشأه ملازماً للنقص ، وكان عنه مستغنياً ، وهو القاهر بجباريته البائن بصفاته عن صفات خليقته كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن كما كان " (٤) .

٢ – أن حلول الشيء في الشيء مجانسة لهذا الشيء الذي حل فيه والله تعالى بائن من الأشياء والأشياء بائنة منه بصفاتها (٥) .

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤٠٥ ، واللمع للطوسي : ص ٥٤١ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٧٢ .

(٣) الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٥٤١ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧٢ .

٣ – أن الحلول لا يكون إلا بين جسمين والجسمية مستحيلة في حق الله تعالى فيستحيل في حقه الحلول .

يقول الغزالي : " ويبطل أن يحل في النفوس أو ينطبع فيها انطباع الخمر في اللبن كما زعمت النصارى في المسيح ، فإن ذلك من صفات الأجساد " (١) .

٤ – أنه لو حل في العالم لزم أن يكون العالم كله آلهة وهو محال (٢) .

٥ – أنه لو حل الحق في العالم لما كان الحق قديما ولا بديعا (٣) .

٦ – أنه لو حل الحق سبحانه وتعالى في الخلق لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً وصار الحق خلقاً والخلق حقاً وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق (٤) .

٧ – أنه سبحانه وتعالى لو حل في جسم من الأجسام للزم أن يحل في كل الأجسام مثل البقة والنملة وهذا لا يقبله العقل السليم (٥) .

وقد أشار إلى ذلك الشيخ الدردير فقال : " فكيف يكون العلي الكبير الغني القدير حالاً أو متصلاً أو منفصلاً في شيء حقير هو في نفسه عدم " (٦) .

إلى غير ذلك من الأدلة العقلية التي ساقها الصوفية لإبطال دعوى الحلول .

[٢] موقف الصوفية من البسطامي والحلاج

نظراً لأن البسطامي والحلاج من أشهر من نسب إليهما القول بالحلول ولاختلاف الآراء حولهما سوف يفرد الباحث موقف الصوفية منهما بشيء من

---

(١) معراج السالكين : ص ٩٨ ، والمقصد الأسنى : ص ١١٣– ١١٤ .

(٢) معراج السالكين : ص ٩٨ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ورسالة الملامتية : ص ١٩٩ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٠١ .

(٥) التصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٥٥ .

(٦) الشيخ الدردير . شرح الخريدة : ص ٢٨ ، تصحيح وتعليق حسين عبد الرحيم مكي ، دار مكتبة الهلال ، بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ .

التفصيل ، ويبدأ بالبسطامي لسبق وجوده على وجود الحلاج .

أولاً : موقف الصوفية من البسطامي

كان البسطامي محل ثقة وعطف وحسن ظن جميع الصوفية إلا ما كان من ابن سالم (١) فإنه كان يسرف في الطعن عليه (٢) .

ومما يدل على قبولهم له ما ذكره الطوسي ٣٧٨ هـ في اللمع فقال : " إن علماء نواحينا يتبركون بتربة أبي يزيد – رحمه الله – إلى يومنا هذا ، ويحكون عن المشايخ المتقدمين أنهم كانوا يزورونه وكانوا يتبركون بدعائه ، وهو عندهم من أجلة العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله ، ويذكرون أنه فاق عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى حتى حكى عنه جماعة أنهم رأوه قد ذكر الله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى ودوام تعظيمه لله ﷻ " (٣)

وذكر القشيري أن أبا يزيد كان له أخان : آدم وعلي ، وأنهم كانوا جميعا زهاداً وعباداً وأن أبا يزيد " كان أجلهم حالاً ... وقيل لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن الكريم كله " (٤) .

وقال عنه الهجويري : " كان من رؤساء المتصوفة " (٥) .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم البصري ، صاحب سهل بن عبد الله التستري ﷺ وراوي كلامه ، لا ينتمي إلى غيره من المشايخ ، وكان من أهل الاجتهاد وطريقته طريقة أستاذه سهل ، وله بالبصرة أصحاب ينتمون إليه وإلى ولد أبي الحسن أيضاً . انظر طبقات الصوفية للسلمي : ص ١٠١ ، وحلية الأولياء : جـ ١ ص ٣٧٨ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٠١

وقد ذكر الطوسي في اللمع أنه كان الوحيد الذي أنكر على أبي يزيد وأسرف في الطعن عليه وكان يكفره ، ويرجع ذلك إلى خصومته له ويدلل على ذلك بأن سهل بن عبد الله حكيت عنه أقوال مثل أقوال أبي يزيد وأولها له ولم يفعل ذلك مع أبي يزيد . انظر اللمع للطوسي : ص ٤٧٦

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٦٣ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٤٧٣ ، وحلية الأولياء : جـ ١ ص ٣٤ .

(٤) الرسالة : ص ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٥) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤١٣ .

وبالرغم من قبول الصوفية لأبي يزيد فإنهم رفضوا ما يدل عليه ظاهر أقواله من حلول ، وحاولوا أن يجدوا لهذه الأقوال مخرجا بحيث يبعدون عنه هذه الدعوى وقد تمثل ذلك فيما يلي :

أ – التشكك في نسبة هذه الأقوال له :

وقد أشار إلى ذلك الطوسي في اللمع ، فقد بدأ حديثه عن هذه الأقوال قائلاً : " وقد شاع في كلام الناس أنه قال ذلك ولا أدري يصح منه ذلك أم لا " (١) . كما أنه كان دائم التعقيب على كل نص لأبي يزيد بهذه العبارة " فإن صح عنه ذلك " (٢) .

وقد تشكك أيضاً في أخطر ما نسب إلى أبي يزيد وهو قوله (سبحاني) فقال : " سمعت ابن سالم يقول في مجلسه يوما : فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد – رحمه الله – ، لأن فرعون قال : أنا ربكم الأعلى ، والرب يسمى به المخلوق ، فيقال : فلان رب دار ورب مال ، ورب بيت ، وقال أبو يزيد – رحمه الله – : سبحاني سبحاني وسبوح ، وسبحان اسم من أسماء الله تعالى الذي لا يجوز أن يسمى به غير الله تعالى .

فقلت له : هذا كلام قد صح عندك عن أبي يزيد – رحمه الله – وصح عندك أن اعتقاده في ذلك : كان كاعتقاد فرعون في قوله : أنا ربكم الأعلى ؟ فقال ابن سالم : قد قال ذلك حتى يصح عندي : أنه أيش أراد بذلك ؟ يلزمه الكفر (٣)

فقلت : إذا لم يتهيأ لك أن تشهد عليه بما اعتقد عند قوله ذلك فبطل أن

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٦١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦١ – ٤٧٨ .

(٣) في العبارة شيء من الغموض ولعلها تشير إلى أن ابن سالم نفسه كان يتشكك في صحة نسبة هذا الكلام لأبي يزيد ، وكأنه يقول للطوسي لست متأكداً من صحة نسبة هذا الكلام له وعليه فلا أستطيع تحديد مقصوده واعتقاده حتى أكفره .

تكفره (١) .

ويذكر الطوسي أنه قصد بسطام " وسأل جماعة من أهل بيت أبي يزيد – رحمه الله – عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك وقالوا لا نعرف شيئا من ذلك " (٢) .

وقد وافق الطوسي في ذلك الغزالي وابن الجوزي (٣) .

ب – الاعتذار بصدور هذه الأقوال في سكره وغيبته :

ذهب جماعة من الصوفية ومنهم الجنيد وأبو علي الجوزجاني والغزالي واليافعي إلى القول بأن هذه الأقوال على فرض صحة نسبتها إلى أبي يزيد فإنها صدرت منه في حالة السكر (٤) .

وهو ما اعتذر به ابن تيمية نفسه عن أبي يزيد فقد قال : " بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوي والسكر وجد بلا تمييز ، فقد يقول في تلك الحال : سبحاني ، أو ما في الجبة إلا الله ، أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد أو غيره ، وكلمات السكر تطوى ولا تروى ولا تؤدى إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو وجه منهي عنه ، فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً " (٥) .

ج – الاعتذار بصدور هذه الأقوال منه على سبيل الحكاية :

وقد اعتذر عنه بذلك الطوسي والغزالي ، وشهاب الدين السهروردي واليافعي فقد ذكروا أنه " لو سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله ﷻ في كلام يردده في

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٧١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧٣ .

(٣) الإحياء : جـ ١ ص ٦٤ ، وتلبيس إبليس ص ٣٤٣ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٥٩ ، ومشكاة الأنوار للغزالي : ص ١٢ ، ونشر المحاسن الغالية ص ٥٨٩ والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٣٣ .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٧٦ ، ومدارج السالكين لابن قيم الجوزية : جـ ١ ص ١٤٨ ، تحقيق / عماد عامر ، دار الحديث – القاهرة ، ط ١ (١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م) .

نفسه ، كما لو سمع وهو يقول ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (١) فإنه ما كان ينبغي أن يفهم من ذلك إلا على سبيل الحكاية " (٢) .

د – محاولة شرح هذه الكلمات :

حاول الجنيد ومن بعده الطوسي وغيرهم شرح هذه النصوص شرحاً يباعد بينها وبين ظاهرها الذي يوهم الحلول ، ومن هذه النصوص قوله : " رفعني مرة فأقامني بين يديه ، وقال : يا أبا يزيد ... النص " (٣) .

فعن هذا النص يقول الجنيد : " هذا كلام من لم يلبسه حقائق وجد التفريد في كمال حق التوحيد ، فيكون مستغنيا بما ألبسه عن كون ما سأله ، وسؤاله لذلك يدل على أنه مقارب لما هناك وليس المقارب للمكان بكائن فيه على الإمكان والاستمكان .

وقوله : ألبسني وزيني وارفعني : يدل على حقيقة ما وجده مما هذا مقداره ومكانه ، ولم ينل الحظوة إلا بقدر ما استبان " (٤) .

ويشرح الطوسي هذا النص أيضاً فيقول : " وقوله : رفعني مرة فأقامني بين يديه يعني أشهدني ذلك وأحضر قلبي لذلك لأن الخلق كلهم بين يدي الله تعالى ، لا يذهب عليه منهم نفس ولا خاطر " (٥) .

ويقول بعد شرح كثير من نصوص أبي يزيد : " فقس على ما بينت لك

---

(١) سورة طـــه الآية ١٤ .

(٢) الإحياء : جـــ ١ ص ٦٤ ، واللمع للطوسي : ص ٤٧٢ ، وعوارف المعارف : ص ٧٢ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٦ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٤٦١ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) المرجع السابق : ص ٤٦١ – ٤٦٢ .

فإن الجميع يشبه بعضه بعضا ... » [١] .

هـ - دفاع البسطامي عن نفسه :

ذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن الذي ساعد هؤلاء العلماء في تلمس العذر للبسطامي ثلاثة أمور :

الأول : تفسيره أخطر نموذج شطحي كي يزيل عنه الوهم وكي يدرك الأعداء يقينا أن ظاهر الشطح ليس مراداً ، فقال عن سبحاني ما أعظم شأني : يمدحون الله فيظن المتقرئ أنهم يمدحون أنفسهم .

الثاني : إعلانه أنه يجب التماس العذر له وإلا أخطأوا ووقعوا فيه بلا سبب يذكر فقال : من الناس من يزورني فيرجع عني وهو في لعنة الله فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : ربما يزورني الإنسان فتكون علي غلبة الحق فيرجع عني فيعذرني ، فيرجع عني وهو في رحمة الله ، ومنهم من يزورني فيرى علي غلبة حال فينقلب عني ويقع في فينقلب عني وهو في لعنة الله .

وأنه بين لأبي حفص النيسابوري أن الكلام يخرج منه على حسب الوقت ، ويأخذ كل إنسان على حسب ما يقوله ثم ينسبه إليه ، وما دام الأمر كذلك فإنه يجب أن لا يخطئوا النظر فيه لأنه ليس مثلهم .

الثالث : إفصاحه عن عقيدته فأعلن أن الله تتبعه الأشياء ولا يتبع الأشياء وهو أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو تدركه الحواس ، إلى غير ذلك من الأحوال التي تخرجه من الاتحاديين والحلوليين وتدخله في عداد المنزهين [٢] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٦٢ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨ ، ومخطوط النور : ص ٨٦ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٦١ .

ثانيا : موقف الصوفية من الحلاج

اختلف مشايخ الصوفية في أمر الحلاج وافترقوا في ذلك إلى فرق عدة :

الفريق الأول : الرافضون له :

رد الحلاج ورفض أقواله كثير من مشايخ الصوفية :

منهم عمرو بن عثمان المكي ٢٩٣ هـ ، وسهل بن عبد الله ٢٩٣ هـ والجنيد ٢٩٧ هـ ، وأبو أيوب الأقطع ٣٣٠ هـ ، وأبو يعقوب النهرجوري ٣٣٠هـ ، وإبراهيم بن شيبان القرمسيني ٣٣٠ هـ ، وغيرهم من مشايخ الصوفية (١) .

فأبو أيوب الأقطع يقول : " زوجت ابنتي من الحسين بن منصور لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده فبان بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال خبيث كافر " (٢)

وسأله الفوطي عنه فقال له " ما قول الشيخ في أمر الحسين بن منصور ؟ فقال هو كما تقول خبيث كافر " (٣) .

وقال إبراهيم بن شيبان : " من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوى فلينظر إلى الحلاج وما جرى عليه " (٤) .

وقد حدد هؤلاء الأسباب التي من أجلها رفضوه وحصروها فيما ثبت عنه من أقوال تدل على الحلول ، وقوله أنا الحق ، وتعلمه السحر .

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧٤ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٨٥ ، وأخبار الحلاج : ص ٦١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٦٢ ، والفرق بين الفرق : ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

(٢) أخبار الحلاج : ص ٨١ – ٨٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٨٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٥ ، ٨٢ .

الفريق الثاني : القابلون له :

قبل الحلاج جماعة من الصوفية وأثنوا عليه منهم أبو العباس بن عطاء ٣٠٩ هـ ، وفارس الدينوري ٣٤٠ هـ ، وأبو القاسم بن النصر آبادي ٣٦٧ هـ ، وابن خفيف ٣٧١ هـ ، والهجويري ٤٦٩ هـ " (١) .

فقد قال عنه ابن خفيف : " الحسين بن منصور الحلاج عالم رباني " (٢) وسئل يوما عنه فقيل له : ما تعتقد في الحسين بن منصور ؟ فقال : " أعتقد فيه أنه رجل من المسلمين فقط ، فقال له : قد كفره المشايخ وأكثر المسلمين ، فقال : إن كان الذي رأيته منه في الحبس (٣) لم يكن توحيداً فليس في الدين توحيد " (٤)

وقال الهجويري : " إن الحسين بن منصور الحلاج ﷺ كان طوال عمره في لباس الصلاح من صلوات طيبة وأذكار " (٥) .

وقد نفى عنه أصحاب هذا الفريق تهمة الحلول واعتمدوا في ذلك على مجموعة من الأمور من أهمها :

أ – رفضه الحلول :

فقد ذكر أصحاب هذا الاتجاه أن نصوصا كثيرة وردت عن الحلاج تفيد

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧٤ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٨٥ ، وأخبار الحلاج : ص ٨٣ ، تاريخ بغداد : جـ ٨ ص ١٢١ ، كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٤

(٢) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٧٤ .

(٣) جاء في أخبار الحلاج عن محمد بن خفيف أنه قال : رجعت من مكة ودخلت بغداد ، وأردت أن ألقى الحسين بن منصور ، وكان محبوساً قد منع الناس عنه ، فاستعنت معارفي وكلموا السجان وأدخلني عليه فدخلت السجن والسجان معي فرأيت داراً حسنة ورأيت في الدار مجلساً حسناً وفرشاً حسناً وشاباً قائماً كالخادم ، فقلت له : أين الشيخ ، فقال : مشغول بشغل ، فقلت : ما يفعل الشيخ إذا كان جالساً ههنا ، قال : ترى هذا الباب هو إلى حبس اللصوص والعيارين يدخل عليهم ويعظهم فيتوبون ... انظر أخبار الحلاج : ص ٦٤ .

(٤) أخبار الحلاج : ص ٨٣ .

(٥) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٦٣ – ٣٦٤ .

رفضه الحلول : منها ما جاء في أخبار الحلاج عن أحمد بن أبي الفتح بن عاصم البيضاوي أنه قال : " سمعت الحلاج يقول لبعض تلامذته : إن الله تبارك وتعالى وله الحمد ذات واحد قائم بنفسه ، منفرد عن غيره بقدمه ، متوحد عمن سواه بربوبيته ، لا يمازجه شيء ، ولا يخالطه غير ، ولا يحويه مكان ، ولا يدركه زمان ، ولا تقدره فكرة ، ولا تصوره خطرة ، ولا تدركه نظرة ... " (١) .

وحكى الإمام القشيري عنه أنه قال : " إن القدم له ، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه ، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه ، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه ، والذي يظفر به الخيال فالتصور يرتقي إليه ، ومن آواه محل أدركه أين ، سبحانه لا يظله فوق ، ولا يقله تحت ، ولا يقابله حد ... تنزه عن أحوال خلقه ... باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم " (٢) .

وبالرغم من تشكك ابن تيمية من صحة نسبة هذا الكلام إلى الحلاج قائلاً : " هذا الكلام والله أعلم هل هو صحيح عن الحلاج أم لا ؟ فإن في الإسناد من لا أعرف حاله " (٣) ، فإنه قد ذهب إلى أن هذا الكلام " إن كان صحيحاً فمعناه الصحيح هو نفي مذهب الاتحاد والحلول الذي وقع فيه طائفة من المتصوفة ، ونسب ذلك إلى الحلاج ، فيكون هذا الكلام من الحلاج رداً على أهل الاتحاد والحلول " (٤) .

وقد جاء عنه أيضاً أنه قال : " من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية ، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات خلقه وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء

---

(١) أخبار الحلاج : ص ٣٠ ، بتصرف .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٤٢ .

(٣) الاستقامة لابن تيمية : جـ ١ ص ١١٩ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث ، ومن زعم أن البارئ في مكان أو على مكان أو متصل بمكان أو يتصور على الضمير أو يتخايل في الأوهام أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك " (١) .

وحكى عيسى القصار أن آخر كلمة تكلم بها عند " قتله وصلبه ... حسب الواحد إفراد الواحد ... فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا رق له واستحسن هذا الكلام منه " (٢) .

ب – الدس عليه :

فقد ذهب هؤلاء إلى أن بعض الأقوال الغالية دست عليه ، فقد جاء في أخبار الحلاج أن عيسى بن يزول القزويني سأل أبا عبد الله بن خفيف " عن معنى هذه الأبيات :

سبحان من أظهر ناسوته
سرّ سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا
في صورة الآكل الشارب

حتى لقد عاينه خلقه
كلحظة الحاجب بالحاجب

فقال الشيخ : على قائلها لعنة الله ، فقال عيسى بن يزول هذا للحسين بن منصور ، فقال : إن كان هذا اعتقاده فهو كافر ، إلا أنه لم يصح أنه له ربما يكون مقولا عليه " (٣) .

وقد اعترف ابن تيمية بأن الحلاج دست عليه أقوال كثيرة " ونسبت إليه

---

(١) أخبار الحلاج : ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٦ .

(٣) تاريخ بغداد : جـ ٨ ص ١٢٩ ، أخبار الحلاج : ص ٨٧ .

مصنفات وكلمات ورسائل وهي كذب عليه لا شك في ذلك " (١) .

بل يذكر ابن تيمية أنه لما كانت الكلمات الثابتة عنه فيها فساد واضطراب كثير حملها البعض أكثر مما تتحمل " وصار كل من يريد أن يأتي بنوع من الشطح والطامات يعزوه إلى الحلاج " (٢) .

ج – الحلول صفاتي لا ذاتي :

في دفاع أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي عن الحلاج ذهب إلى أن الحلول عنده حلول أسرار وقرب لا حلول ذات في ذات .

ويبين أن أقوال الحلاج إذا وضعت بجانب بعضها دون الفصل بينها أمكن فهم ما كان يقصده الحلاج من الألفاظ التي يوهم ظاهرها القول بالحلول (٣) .

ويذكر أن الحلاج كانت نفسه تهفو إلى علاقة قرب من الله وأنه تلقف الخيط من البسطامي الذي هفت نفسه إلى ذلك أيضاً فنسج على منواله شريطا ذا خيوط ثلاثة أو مراحل ثلاث :

مرحلـــة البدايـــة :

وفيها استخدم الحلاج الألفاظ الدالة على القرب والتداني مثل قوله :

لبيك لبيك يا ســري ونجوائــي
لبيــك لبيــك يا قصــدي ومعنائـــــي

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل
ناديــت إيــاك أم ناديــت إيائــــي

يا عين عين وجودي يا مدي هممي
يا منطقــي وعباراتــي وإيمائـــــي

---

(١) الاستقامة : جـ ١ ص ١١٩ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧٨ .

يا كل كلي يا سمعي ويا بصري
يا جملتـي وتباعيضـي وأجـزائـي

يا كـل كلـي وكل الكل ملتبـس
وكـل كلك ملبـوس بمعنائـي

يا مـن بـه علقـت روحـي
فقد تلفت وجْداً فصرت رهينا تحت أهوائي

أبكي على شجني من فرقتي وطني
طـوعا ويسـعدني بالنـوح أعدائي (١)

ويرى أن قول الحلاج هنا يفسره قوله الآخر :

وليس يعلـم ما لاقيت من أحـد
إلا الذي حـلّ مني فـي سويدائي

قل لي فديتك يا سمعي ويا بصري
لم ذي اللجاجة في بعدي وإقصائي (٢)

ويعلق أستاذنا على هذه الأبيات قائلاً : " إن كلية الكل والاحتواء ليس مراد بها احتواء ذات محدثة لذات قديمة أو إلباس الذاتين في إهاب واحد ولكن الاحتواء أو اللبس نوع من المكاشفة المقربة حتى كأن القريب في نفس المقرب من باب التوهم الموجود في قوله ﷺ " كأنك تراه " (٣) لا من باب الحقيقة الاحتوائية " (٤) .

---

(١) ديوان الحلاج : ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٩ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٨ ، كتاب : الإيمان ، باب : سؤال جبريل ، والإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٢٣ كتاب : الإيمان ، باب : الإيمان ما هو وبيان خصاله .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٧٩ .

- مرحلـــة الوســـط :

وفيها استخدم الحلاج ألفاظ (وحدني) و(ألبسني) و(مزج) وذكر لأول مرة لفظتي (اللاهوت) و (الناسوت) فيقول :

وحدني واحدي بتوحيد صدق

ما إليه من المسالك طرق

أنا الحق والحق للحق حــق

لابس ذاته فما ثمّ فـــرق

قد تجلت طوالع زاهـــرات

يتشعشعن والطوالع برق (١)

ويشرح د / عبد الله هذه الأبيات قائلاً : " والبيت الأول يتحدث فيه عن التوحيد الصادق الذي تسد كل الطرق إليه إلا طريق الجذب به ، والذي كان سبباً في أن الله وحده به وصرفه إلى ذاته دون بقية الخلائق أي جعل الوجهة واحدة ، وليس في هذا البيت مشكلة ولكن المشكلة تطرأ في البيت الذي بعده حينما يذكر أنه حق والحق للحق حق ويصرح بأنه لابس ذاته بلا فرق .

ومن اليسير حلها بشيء من التأويل أو الفهم لقولة أنا الحق إذ يصير العبد حقاً بإحقاق الحق له وإخراجه من ظلمة العدم إلى حيز الوجود ، ومن تيه الضلالة إلى نور الهداية ... ويصبح آنذاك دليلاً على الحق وعلامة على قدرته كما تنطق عبارته ...

وأما قول الحلاج : لابس ذاته بلا فرق .

فالمراد لبس التجليات الذاتية وورودها على العبد بدليل ما ساقه في البيت الثالث عندما أحس بالخطر يكمن في إيهام الشطر الثاني قائلا :

---

(١) أخبار الحلاج : ص ٦٥ وجاءت فيه خصني واحدي بتوحيد صدق ، وليس وحدني ، وديوان الحلاج : ص ١٤٨ .

قد تجلت طوالع زاهـــرات

يتشعشعن والطوالع برق (١)

وعن قول الحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته

سرّ سنا لاهوته الثاقـــب

يقول أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي : " إن الناسوت ظهر بسر سنا اللاهوت لا ذات الله ، والأسرار ليست عين الذات بل هي آثارها " (٢)

ويستدل على ذلك بقول الحلاج في طاسين الأسرار : " الأسرار منه فارغة وإليه نازعة وبه وازعة " (٣)

ويرى أن الحلاج وإن استعار الناسوت واللاهوت من المسيحية إلا أنه استعملها استعمالاً بعيداً عن امتزاجها الحلولي في الدين المستعار منه ووضح العلاقة بينهما توضيحاً لا يدع مجالاً للريب في أنه حلول وصفي لا ذاتي حين قال : " إن قيامي بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقي لاهوتية ، وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماسة لها " (٤)

المرحلـــة الثالثـــة :

وفيها أظهر الحلاج ما كان مستخفيا وصرح بألفاظ الحلول صراحة حال كونها ملفوفة في ثوب الهوى مشحونة بالعاطفة ومن ذلك قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحـــن روحان حـــللنا بـــدنا

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٨٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، والطواسين : ص ١٠٧ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٨٢ .

فإذا أبصــرتني أبصــرته
وإذا أبصــرته أبصرتنا (١)

وعن هذه الأبيات يقول أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي : " وعندما نتتبع ما جاء في القرآن عن الروح نجد أنها أطلقت بمعنى جبريل ، وبمعنى الوحي ، وبمعنى الروح الذي يسري في البشر ، وبمعنى الرجاء والرحمة في قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ (٢) ... التي تحيا بها القلوب أو ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد كما جاء في الآية : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) .

أو يراد بها النور والإيمان والبرهان والهدى والنصر كما جاء في سورة المجادلة ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (٤) (٥) .

ويقطع أستاذنا بأن الحلاج أراد بإحدى الروحين روحه الخاصة به وليس يعقل أنه أراد بالروح جبريل أو عيسى أو الوحي كما لم يرد بها الذات الإلهية لأنه لم يطلق عليها أصلاً وبالتالي فما قصد إلا الروح بمعنى الهداية والرحمة وغيرها (٦)

ثم يختم كلامه قائلاً : " ومن منا لا يعشق الروح بهذا المراد ؟ ومن من الصالحين يخلو منها ؟ " (٧) .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٨٣ ، وديوان الحلاج : ص ١٥٨ .
(٢) سورة يوسف آية ٨٧ .
(٣) سورة النحل آية ٢ .
(٤) سورة المجادلة آية ٢٢ .
(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٨٤ .
(٦) المرجع السابق نفسه .
(٧) المرجع السابق نفسه .

الفريق الثالث : الرافضون لأقواله المعتذرون عنه :

رفض فريق ثالث أقوال الحلاج وأكدوا أنها دالة على الحلول حقيقة ولكنهم ذهبوا إلى أنها صدرت منه من فرط المحبة وشدة الوجد .

ومن هؤلاء الإمام الغزالي ، والجيلاني ، واليافعي ، وابن مغيزيل الشاذلي وشمس الدين الحنفي ٨٤٧ هـ (١) .

فالإمام الغزالي يذكر في مشكاة الأنوار أن بعض العارفين سكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم " فقال بعضهم : أنا الحق ... وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرض العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحـن روحان حـللنا بـدنا " (٢)

ويذكر الإمام الجيلاني أن الحلاج " غلب على سويداء قلبه سكر المحبة وقهر سرّ سرائره سلطان العشق فقال من حيرة الطلب أنا الحق " (٣) .

والذي يدعو إلى الدهشة أن ابن تيمية اعتذر هو الآخر عن الحلاج بمثل ما اعتذر به أصحاب الفريق الثالث عنه فقال : " وأحسن ما يقوله الناصر له : إنه كان رجلاً صالحاً صحيح السلوك لكن غلب عليه الوجد والحال حتى عثر في المقال ولم يدر ما قال وكلام السكران يطوى ولا يروى فالمقتول شهيد والقاتل

---

(١) مشكاة الأنوار : ص ١٢ ، وديوان عبد القادر الجيلاني : ص ٢٧٠ – ٢٧١ تحقيق د / يوسف زيدان ، دار الحرم للتراث ، ط بدون تاريخ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ، والكواكب الزاهرة : ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٥٢١ .

(٢) مشكاة الأنوار : ص ١٢ .

(٣) ديوان عبد القادر الجيلاني : ص ٢٧٣ .

مجاهد في سبيل الله " (١) .

النهي عن الاقتداء بالحلاج

بالرغم من قبول الهجويري للحلاج واعتذاره عن أقواله بأنها صدرت منه في حال غلبة الوجد قائلاً : " وهم يعترضون عليه في كلماته التي تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، وذلك مبالغة منه وتهويل في العبارة لا في المعنى ، إذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته في غلبة الحال .

ويجوز أيضاً أن يكون معنى العبارة شكلاً فلا يستطيعون فهم المعنى المقصود ، ويصور وهمهم صورة عنه ، فينكرونه وإنكارهم هذا يرجع إليهم لا إلى ذلك المعنى " (٢) .

بالرغم من هذا فإنا وجدنا الهجويري يعقب قائلاً : " وفي الجملة : اعلم أنه لا يجوز الاقتداء بكلامه لأنه كان مغلوبا في حاله لا متمكنا ، وينبغي للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به ، وهو عزيز على قلبي كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقه غير مستقيمة على أي أصل ، وحاله غير مستقر على أي وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة " (٣) .

خاتمة :

بعد عرض أقوال الصوفية السابقة واختلافهم حول الحلاج بين رافض وقابل وبين رافض لأقواله وملتمس له العذر بأنها صدرت في حال غلبة الوجد وفرط الحب نقول :

إن الأفضل أن نسلم أمره لله ونغلق صفحة لم يعد هناك طائل من ذكرها خاصة بعد أن بان لنا ثبوت نصوص كثيرة تدل على رفضه الحلول .

وما ذهبنا إليه هو ما ذهب إليه كل من الإمام القشيري وابن تيمية .

---

(١) الاستقامة : جـ ١ ص ١١٦ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٦٤ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

وأما الأستاذ أبو القاسم القشيري فيقول : " إذا كان من أرباب المعاني والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وإن يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق فلن يصير مقبولا بقبول الخلق ونحن نتركه لله بحكم التسليم ونجله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق " (١) .

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : " إن كان قد تاب في الباطن وقت قتله فإن الله ينفعه بتلك التوبة وإن كان كاذباً فإنه قتل كافرا " (٢) .

[٣] التبرؤ من القائلين بالحلول

اتفقت كلمة أهل التصوف مع أهل الفقه والآثار في كل الأقطار والأمصار على رفض دعوى الحلول والتبرؤ من أصحابها (٣) .

ومما يؤكد ذلك حكم السلمي والغزالي على القائلين بذلك بأنهم فاقدوا العقل وبأنهم ليس لهم في التصوف قدم (٤) .

ويشتد الأمر حين يعلن الطوسي ، وأبو نعيم ، وابن خفيف ، والهجويري ، وابن مغيزيل الشاذلي ، وابن عجيبة وغيرهم من قدماء الصوفية ، ومن المحدثين الشيخ خليل الخطيب بأن " من صح عنه شيء من هذه المقالات فهو ضال بإجماع الأمة كافر يلزمه الكفر " (٥) بل هو أشر من الكفار لأنه يلبس على المسلمين ويفسد عقائد الدين (٦) .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٦٢ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية : جـ ١ ص ١٩٠ ، وانظر التصوف في تراث ابن تيمية : د / الطبلاوي محمود سعد : ص ٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ م .

(٣) حلية الأولياء : جـ ١ ص ٤ .

(٤) غلطات الصوفية : ص ١٩٨ ، والمقصد الأسنى للغزالي : ص ١٠٩ .

(٥) اللمع للطوسي : ص : ٥٤١ – ٥٤٢ ، حلية الأولياء : جـ ١ ص ٤ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٠٢ ، والكواكب الزاهرة : ص ٢٤٩ ، والفتوحات الإلهية : ص ٣٦٧ ، والتصوف في تراث ابن تيمية : ص ٩٠ .

(٦) الجنة في عقيدة أهل الجنة : ص ٢٤ .

ثانياً : الاتحاد وموقف الصوفية منه

الاتحادمن الدعاوى المنحرفة التي ظهرت في الطريق الصوفي ، وقد قابلها أهل التصوف الحق بالنقد والتصحيح ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه من خلال النقاط التالية :

الاتحاد في اللغة :

يأتي الاتحاد في اللغة بمعنى صيرورة شيئين أو أشياء شيئاً واحدا فيقال : " اتحد الرجلان : صار كالشيء الواحد "(١) ، و " اتحد : انفرد ، والشيئان أو الأشياء صارت شيئاً واحداً "(٢) .

الاتحاد في الاصطلاح : الاتحاد له في الاصطلاح مفهومان :

الأول : الاتحاد الحقيقي :

يطلق ويراد به : " صيرورة الشيئين المختلفين شيئاً واحدا "(٣) ، بمعنى أن " يصير المحب والمحبوب شيئاً واحدا فعلا : سواء في الجوهر والفعل ، أي في الطبيعة والمشيئة والفعل الصادر منهما فتكون الإشارة إلى الواحد عين الإشارة إلى الآخر ، ثم تختفي الإشارة لانعدام المشير ، فلا يصير ثمت غير واحد هو الكل في الكل "(٤) .

الثاني : الاتحاد المجازي :

يطلق ويراد به : تحول شيء إلى شيء دفعة واحدة أو بالتدريج ، أو مزج

---

(١) الشيخ أحمد رضا . معجم متن اللغة : جـ ٥ ص ٧١٦ منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان ، ط (١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م) .

(٢) المعجم الوسيط : جـ ٢ ص ١٠٥٨ .

(٣) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ١ ص ٣٤ .

(٤) د / عبد الرحمن بدوي . شطحات الصوفية : ص ١٤ الناشر وكالة المطبوعات – الكويت ، ط بدون تاريخ .

شيء بشيء آخر ليخرج منه ثالث بالتركيب ، أو تصور شخص بصورة آخر كظهور الملك أو الجن بصورة إنسان [١] .

الاتحاد في المفهوم الصوفي

يطلق الاتحاد في المفهوم الصوفي ويراد به معنى آخر مخالفا لمفهوم الاتحاد بمعنييه الحقيقي والمجازي.

إذ يطلق ويراد به " شهود الوجود الحق ، الواحد المطلق الذي الكل به موجود بالحق فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه ، لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال ".[٢] .

يقول الإمام السيوطي : " اعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد ، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد والأحد ... وهو فناء المخالفات وبقاء الموافقات ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة ، وفناء الشك وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر " [٣] .

وقد لخص أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي مفهوم الاتحاد عند الصوفية فقال : " إن المفهوم اللائق بكلمة اتحاد حسبما فهمنا من تتبعنا لأقوالهم في هذا الصدد فنراهم يستعملونه استعمالاً راقياً لفناء مراد العبدْ في مَراد الله أو لإفراده سبحانه بالفعل والخلق والتدبير واعتبار جميع الكائنات محتاجة إليه على الدوام وما

---

(١) انظر التعريفات للجرجاني : ص ١٨ – ١٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٣ ، والمعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ١ ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢) الكاشاني : معجم مصطلحات الصوفية ص ٤٩ ، تحقيق د / عبد الخالق محمود ، دار المعارف ، ط ٢ (١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م) ، والتعريفات للجرجاني : ص ١٩

(٣) السيوطي : الحاوي في الفتاوى : جـ ٢ ص ١٣٤ ، دار الفكر ، ط بدون تاريخ ، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٨٨ ، ومدارج السالكين : جـ ١ ص ١٥٨ – ١٥٩ .

يتبع ذلك من استغراق العبد في توحيده أو استهلاكه في وجده وحبه مما يجعله يتفوه بعبارة الاتحاد لا على الحقيقة والذات ولكن على التجلي بالوصف " (١) .

نشـــأة الاتحـــاد

دعوى الاتحاد بالله دعوى قديمة دانت بها كثير من فرق النصارى ومن أشهرها اليعقوبية فقد كانت تقول : " إن المسيح هو الله تعالى نفسه ... وأن الله اتحد مع الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً كاتحاد الماء يلقى في الخمر فيصيران شيئاً واحدا " (٢) .

وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني : " اليعقوبية أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة ... وقالوا انقلبت الكلمة لحما ودما ، فصار الإله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو ... ومنهم من قال : إن المسيح هو الله تعالى ، ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الجوهر لا على طريق حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة في حكم الصفة ، بل صار هو هو ، وهذا كما يقال ظهر الملك بصورة إنسان أو ظهر الشيطان بصورة حيوان ، وكما أخبر التنزيل عن جبريل عليه السلام :﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (٣) .. وزعم أكثر اليعقوبية أن اتحاد الكلمة بالناسوت اختلاط وامتزاج كاختلاط الماء وامتزاجه بالخمر إذا صب فيها ومزج بها " (٤) .

انتقال الاتحاد إلى الوسط الصوفي

ذكر العلماء أن الاتحاد انتقل إلى غلاة الصوفية عن طريقين :

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٤ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل : جـ ١ ص ١١١ ، دار الجيل – بيروت – لبنان ، ط (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م) .

(٣) سورة مريم آية ١٧ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني : جـ ١ ص ٢٣٢ ، وانظر الإحياء : جـ ٣ ص ٤٥٣ باب السماع

الأول : غلاة الشيعة :

فابن خلدون في المقدمة يرى أن غلاة الصوفية تأثروا بما جاء في الفكر الشيعي حول مسائل الاتحاد والحلول وخاصة بالإسماعيلية المتأخرين الذين دانوا بذلك (١) .

وقد ذكر د / النشار في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام " أن التصوف الغالي أو الفلسفي ... تأثر بالتشيع الغالي " (٢) .

وأما الطريق الثاني فهو تأثير الفلسفة اليونانية :

فقد ذكر بعض العلماء أن القول بالاتحاد دخل إلى المحيط الصوفي مع دخول الفلسفة اليونانية في بداية القرن الرابع الهجري ، إذ أدى دخولها في المحيط الإسلامي واتصالها بالتصوف إلى ظهور القول بالاتحاد وغيرها من النظريات الصوفية الفلسفية (٣) .

وقد اعترف أهل التصوف الحق بوقوع بعض الأدعياء في القول بالاتحاد .

فالإمام القشيري يذكر في الرسالة أنه نقل عن طائفة من غلاة المتصوفة أنهم قالوا بذلك ، وهو ما أكده السيوطي في كتابه " الحاوي في الفتاوى " (٤) .

كما نسب إلى بعض الصوفية القول بالاتحاد ومن أشهر هؤلاء ابن الفارض(٥).

---

(١) ابن خلدون . المقدمة : ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ، ٣٣١ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ٣ ص ٢٦٨ ، وانظر أدب الزهد في العصر العباسي : ص ٢٩٤ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٧٦ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ٣ ص ٢٢٨ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٣٧ ، والحاوي في الفتاوى : جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٥) أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن المرشد بن علي الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، المعروف بابن الفارض ، ولد في ذي القعدة سنة ٥٦٦ هـ ، وقيل سنة ٥٧٦ هـ ، نشأ تحت كنف أبيه في عفاف وعبادة وديانة وزهد ، اشتغل بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن =

فقد اتهمه بذلك ابن تيمية ، وابن خلدون ٨٠٨ هـ ، وابن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ ، والبقاعي ٨٥٨ هـ ، والمقبلي ١١٠٨ هـ ، وفي العصر الحديث عبد الرحمن الوكيل [١] ، وهو وإن اعتمد على ما ذكره السابقون عليه فقد صور ذلك بطريقة مختلفة ذاكراً أن ابن الفارض كان يؤمن ببدعة الاتحاد ، و " لهذا راح يزعم أنه بذاته اتحد بذات ربه فكانت الثنائية في الاسم وكانت الوحدة في الحقيقة والوجود ، وأنه في جلوة تلك الوحدة يشهد في ذاته وصفاته وأفعاله ذات الله وصفاته وأفعاله " [٢] .

ويستدل على ذلك بقول ابن الفارض :

وأشهدت غيبي إذ بــدت فوجدتنـــي

هنالك إياهـــا بجلـــوة خلوتـــي [٣]

- عساكر ، ثم حبب إليه الخلاء وسلوك الطريق الصوفي فتزهد وتجرد وصار يستأذن أباه في السياحة حتى ألف الوحشة ، خرج إلى مكة وانقطع بواد بينه وبين مكة عشر ليال وأنشأ غالب نظمه حالتئذ ، وأقام في مكة نحو خمسة عشر عاما ثم رجع إلى مصر فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر ، وتوفي بالقاهرة يوم الثلاثاء من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ ودفن من الغد حسب وصيته بالقرافة في سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض . انظر مقدمة ديوان ابن الفارض : ص ٥ ، مكتبة ومطبعة الفجر الجديد – الدراسة – القاهرة ، ط بدون تاريخ ، وطبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٤٧ – ١٥٣ تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان ، الناشر المكتبة الأزهرية للتراث ، ط بدون تاريخ .

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ٩٧ – ٩٨ ، ومقدمة ابن خلدون : ص ٣٣١ ، وميزان الاعتدال للذهبي : جـ ٣ ص ٢١٤ – ٢١٥ دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ ، ولسان الميزان لابن حجر : جـ ٤ ص ١١٧ – ١١٨ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – لبنان ، ط ٢ (١٩٧١ م – ١٣٩٠ هـ) ، وتنبيه الغبي للبقاعي : ص ٥٤ ، والعلم الشامخ للمقبلي : ص ٤٦٤ – ٥٥١ مكتبة دار البيان ، دمشق ، ط (١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م) ، وهذه هي الصوفية : ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢) هذه هي الصوفية : ص ٢٥ – ٢٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٦ ، وديوان ابن الفارض : ص ٣٨ البيت رقم [٢١١] .

ويرى أن ابن الفارض خشي أن يتوهم " أحد أن هذا الشهود وهم طارئ ، أو حال عارض أو صورة من حلم أسبل لها فكره وعينه ، خشي هذا فقال

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها
وذاتي بذاتي ، إذ تحلت تجلت (١)

كما يستدل على ما ذهب إليه أيضاً بقول ابن الفارض :

فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها
وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي (٢)

وبقوله أيضاً :

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن
منادي أجابت من دعاني ولبت (٣)

ويذكر أن ابن الفارض " ما كفاه زعمه أنه هو الله ، فأكد أن الرب الأكبر ما هو إلا صورة شاحبة منه وظلّ حيران له " (٤) ويستدل على ذلك بقول ابن الفارض :

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا
وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي (٥)

كذلك يستدل على إيمان ابن الفارض بالاتحاد بقوله :

وكل الجهات الست نحوي توجهت
بما تم من نسك وحج وعمرة

---

(١) هذه هي الصوفية : ص ٢٦ ، وديوان ابن الفارض : ص ٣٩ البيت رقم [٢١٤] .

(٢) ديوان ابن الفارض : ص ٣٩ البيت رقم [٢١٥] .

(٣) المرجع السابق نفسه البيت رقم [٢١٦] ، وهذه هي الصوفية : ص ٢٧ .

(٤) هذه هي الصوفية : ص ٢٨ .

(٥) ديوان ابن الفارض : ص ٣٩ البيت رقم [٢١٨] .

لهـا صلـواتي بالمقـام أقيمهـا

وأشـهد فيها أنها لي صلت (١)

وكقوله :

فإن لم يجوز رؤية اثنين واحـدا

حجـاك ولم يثبت لبعـد تثبـت

سأجلوا إشـارات عليـك خفيـة

بهـا كعبـارات لديـك جليـة

وأثبت بالبرهان قولـي ضـارباً

مثال محـق والحقيقـة عمدتـي

بمتبوعة ينبيك في الصرع غيرها

على فمها في مسـها حيث جنت

وها دحية وافي الأمـين نبينـا

بصورته في بدء وحـي النبـوءة

أجبريل قل لي كان دحية إذ بدا

لمهدي الهدى في هيئـة بشـرية

وفي علمه عن حاضريه مزية

بماهية المرئي مـن غـير مريـة

يرى ملكا يوحى إليه وغـيره

يرى رجلا يدعى لديه بصحبة (٢)

وغيرها من الأبيات الأخرى والتي وردت في تائيته وفيها يذكر ابن الفارض أنه صار والذات الإلهية شيئاً واحدا ، وأنها لم تزل إياه ولم يزل إياها لا

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٥ البيت رقم [١٥١ ، ١٥٢] ، وهذه هي الصوفية : ص ٢٩ .

(٢) ديوان ابن الفارض : ص ٣٩ البيت رقم [٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣]

فرق بين ذاته والذات الإلهية (١) .

جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى الاتحاد

بذل أهل التصوف الحق جهودا عدة فيما يتعلق بدعوى الاتحاد تمثلت في :

[١] بيـــان الأسباب

ذكر أهل التصوف الحق أن هناك ثلاثة أسباب دعت إلى قول من قال بالاتحاد

الأول : الجهل بأصول الدين :

يعد الجهل بأصول الدين وقلة المعرفة بالعلم من أولى الأسباب التي أدت إلى القول بالاتحاد ، وقد صور الإمام الطوسي ذلك فقال : " وإنما غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص وقلة معرفتهم بذلك ، كما قال بعض المشايخ : إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول " (٢) .

الثاني : الغرور .

من بين الأسباب التي أدت إلى الوقوع في الاتحاد الغرور، فقد ذكر الإمام الغزالي أن بعض المغرورين من الصوفية نتيجة جدتهم في السير حدثت لهم دهشة فنطقوا أثناء هذه الدهشة بعبارات تفيد الاتحاد ولم يتضح لهم ما وراء ذلك فاغتروا به وظنوا أنهم اتحدوا بالحق على الحقيقة (٣) .

ويرى الإمام الغزالي أن هذا الأمر نفسه هو الذي أوصل النصارى إلى اعتقاد اتحاد المسيح بالله فيقول : " وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ الأبيات رقم [٢٣٨ ، ٢٦٣ ، ٣٩٣] ، وتنبيه الغبي للبقاعي : ص ٧٣ ، وهذه هي الصوفية : ص ٢٤ – ٣٤ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥١٨ ، والحاوي في الفتاوي : جـ ٢ ص ١٣٣ .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٣١ .

إشراق نور قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في الماء ... فيظن أن الكوكب في الماء ... فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور " [١] .

الثالث : شدة الوجد .

ومن بين الأسباب أيضا شدة الوجد ، فقد ذكر الإمام الغزالي أن شدة الوجد أشكلت على بعض ذوي العقول فنطقوا بعبارات توحي بالاتحاد مثل قول البعض سبحاني وغيرها من الأقوال الأخرى [٢] .

[٢] رفض الاتحاد

أعلن أهل التصوف الحق كما أعلن المسلمون جميعاً من أهل السنة والجماعة " أن الاتحاد بين الاثنين لا يصح " [٣] ، وبأنه غلط محض " وأن قول القائل بأن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه ، بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات " [٤] .

وقد جاء ذلك على لسان كثير من الصوفية ومنهم المحاسبي ٢٤٣ هـ ، والجنيد ٢٩٧ هـ ، والهجويري ٤٦٩ هـ ، والغزالي ٥٠٥ هـ " [٥] .

ويكفي في ذلك قول المحاسبي : " لا يجوز على القديم الاتحاد والامتزاج " [٦] وقول الجنيد ذاكرا أن التوحيد الذي يجب الإيمان به " هو إفراد القِدم من الحدوث " [٧]

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٦٣ – ٦٤ .

(٣) المواقف : ص ٨١ .

(٤) المقصد الأسني للغزالي : ص ١١٠ .

(٥) الرسالة : ص ٤١ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٢٢ . والمقصد الأسنى : ص ١١٠ – ١١١

(٦) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤١١ .

(٧) الرسالة : ص ٤١ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٢٢ .

وقد علق ابن تيمية على قول الجنيد هذا ذكراً أن " مقصوده التوحيد الذي يشير إليه المشايخ ، وهو التوحيد في القصد والإرادة ، وما يدخل في ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة ، وهو أن يفرد الحق سبحانه وهو القديم بهذا كله فلا يشاركه في ذلك محدث ، وتميز الرب من المربوب في اعتقادك وعبادتك وهذا حق صحيح وهو داخل في التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه " (١) .

ويرى أن الإمام الجنيد كان يقصد من ذلك أيضا إثبات مباينة الحق للخلق رداً على من وقع في القول بذلك من الصوفية وغيرهم . (٢)

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذه الدعوى وإبطالها على مجموعة من الأمور:

الأول : تصادم فكرة الاتحاد مع ما جاء في القرآن والسنة .

من أهم الأمور التي اعتمد الصوفية عليها في رفضهم دعوى الاتحاد بين المخلوق والخالق تصادم هذه الدعوى مع العقيدة التي جاءت في القرآن والسنة ، والتي تعترف باستقلال الوجود الإلهي وأزليته (٣) .

فقد أوضح الحق سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم وبما لا يدع مجالا للشك " بأن الخالق سبحانه وتعالى بائن عن مخلوقاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته بل الرب رب والعبد عبد ، قال تعالى ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا *وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا * ﴾ (٤) (٥) .

كما توجد كثير من آيات القرآن تقطع بتنزيه الله سبحانه وتعالى وبوحدانيته "

---

(١) الاستقامة : جـ ١ ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) سورة مريم آية ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١١٥ .

ومحيلة لاتحاده سبحانه وتعالى بمحدود أو مقيد أو بمكاني أو زماني " (١) .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

وقد أثبت القرآن وكذا السنة النبوية أن الله كان ولا شيء معه فقد قال الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٥).

وروي الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين ﷺ أنه قال : " قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ : قبلنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : كان الله ولم يكن شيء قبله " (٦) .

كما أثبت القرآن وكذا السنة أيضا أن الله سبحانه وتعالى أوجد الأشياء بلا حاجة إليها ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (٨) .

وقال ﷺ : قال الله تعالى " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ،

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٨ .

(٢) سورة الإخلاص آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(٥) سورة هود آية ٧ .

(٦) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٢٨١ كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء .

(٧) سورة فاطر آية ١٥ .

(٨) سورة الذاريات آية ٥٦ ، ٥٧ .

كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في مُلكي شيئاً " (١) الحديث .

ثانيا : تصادم فكرة الاتحاد مع العقيدة التي أجمع المسلمون عليها

ومن الأسباب أيضا تصادم فكرة الاتحاد مع العقيدة التي أجمع المسلمون عليها

يقول الإمام السيوطي :" الاتحاد بين العبد والرب باطل محال مردود شرعاً وعقلا وعرفا بإجماع الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين وليس هذا مذهب أهل الصوفية (٢) .

ويقول الإمام الشعراني : " أجمع المسلمون على أن الله واحد ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد بشيء "(٣) .

الثالث : تصادم فكرة الاتحاد مع العقل .

ومن الأمور التي اعتمد عليها الصوفية في رفض دعوى الاتحاد تصادم هذه الدعوى مع العقل ، وقد ساق الصوفية مجموعة من الأدلة العقلية تدل على بطلان دعوى الاتحاد منها .

[أ] أنه لو اتحد بشيء لكان ذلك الشيء جزءاً منه وهو محال .

[ب] أنه الحادث لو اتحد بالقديم فإنه لا يبقي دليل على حدوث العالم (٤)

[ج] أنه لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها وصار الحق خلقاً والخلق حقا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٢٩ ، كتاب البر والصلة والأداب ، باب تحريم الظلم عن أبي ذر .

(٢) الحاوي في الفتاوي : جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٣ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٢٠ ، ٥٢٢ .

وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا [١] .

[د] ومن الأدلة العقلية أيضا ما ذكره الغزالي في المقصد الأسنى فقال :

" إن قول القائل : إن العبد صار هو الرب يتناقض مع نفسه ، بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه من أن يجري مجرى اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات لأنا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيدا صار عمرا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد : إما أن يكون كلاهما موجودين ، أو كلاهما معدومين ، أو زيد موجود وعمرو معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه .

فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود .... وذلك لا يوجب الاتحاد .

وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث .

وإن كان أحدهما معدوما والآخر موجودا فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم ، فالاتحاد بين الشيئين محال مطلقاً وهذا جاري في الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فإنه يستحيل أن هذا السواد ذاك ، كما يستحيل أن يصير ذلك البياض أو ذلك العلم والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل [٢]

[٣] موقف الصوفية من ابن الفارض

سوف يفرد الباحث موقف الصوفية من ابن الفارض نظراً لأنه أشهر من نسب إليه القول بالاتحاد ، ولاختلاف الآراء حوله ، ذلك أن الصوفية افترقوا فيه إلى فريقين :

---

(١) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٤ ، وانظر الحاوي في الفتاوى : جـ ٢ ص ١٣٤ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٣ .

(٢) المقصد الأسنى للغزالي : ص ١١١ .

الأول : الرافضون له

فقد رفض ابن الفارض فريق من الصوفية واتهموه بما اتهمه به ابن تيمية ، وابن خلدون ، وابن حجر ، ومن هؤلاء ! قطب الدين القسطلاني ٦٨٦ هـ (١) ، وبدر الدين حسين بن الأهدل (٢) ، وعلاء الدين البخاري ٨٤١ هـ " (٣) .

فقد ذكر الفقيه أبو الحسن على بن قرباص " أنهُ دخلَ على الشيخ قطب الدين القسطلاني فوجده يصنف كتاباً فقال ما هذا ؟ فقال : " في الرد على ابن سبعين وابن الفارض والعفيف التلمساني (٤) ، وكان بدر الدين بن الحسين يقول : " اعلم أن ابن الفارض من رؤس الاتحاد (٥) .

وذكر علاء الدين البخاري بأنه " لا فرق بين التائية والفصوص (٦) .

الثاني : القابلون له

قبل ابن الفارض كثير من الصوفية ورفضوا اتهامه بما اتهمه به الآخرون وكتبوا كتبا في تبرئته مما ينسب إليه ومن هؤلاء :

---

(١) أبو بكر قطب الدين بن أحمد بن على بن محمد القسطلاني ، أحد أئمة الشافعية ، وأحد أكابر العلماء في الحديث ، ومن الجبال الراسخين في التصوف ، أخذ عن السهروردي واجتمع بأبي الحسن الشاذلي وقال الأسنوي في ترجمته : كان ممن جمع العلم والعمل والزهد والورع والكرم ، طلب من مكة وفوضت له مشيخة دار الحديث " بالكاملية " إلى أن توفي سنة ٦٨٦ هـ ، انظر الكواكب الزاهرة لابن مغيزيل الشاذلي : ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) بدر الدين حسين بن الأهدل من أعيان صوفية اليمن وفقهائهم . ولم أقف له على ترجمة .

(٣) محمد بن محمد البخاري علاء الدين ، فقيه من كبار الحنفية ، ولد بإيران ونشأ ببخارى ورحل إلى الهند ثم إلى مكة فمصر واستوطنها ، مات بدمشق ودفن بالمزة سنة ٨٤١ هـ ، وله رسالة في الرد على ابن عربي سماها : " فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين " . انظر الأعلام للزركلي : جـ ٧ ص ٤٦ .

(٤) ابن تيمية : مجموع الفتاوى " توحيد الربوبية " : جـ ٣ ص ٢٤٣ ، مكتبة ابن تيمية ، ط ٣ ١٤٠٣ هـ .

(٥) تنبيه الغبي بتكفير ابن عربي : ص ٥٦ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

شهاب الدين السهروردي ٦٣٢ هـ ، وابن الملقن ٨٠٤ هـ ، وابن مغيزيل الشاذلي ٨٦٥ هـ ، والشيخ زكريا الأنصاري ٩١١ هـ الذي أصدر فتوى برأ فيها ابن الفارض من الاتحاد ، وجلال الدين السيوطي ٩١١ هـ والذي ألف كتاباً سماه " قمع المعارض في تبرئة ابن الفارض ، والشيخ محمد المغربي الشاذلي ٩٢١ هـ " (١) ، ومن هؤلاء أيضا الإمام الشعراني الذي كان ينعته دائما بلفظ " سيدي عمر بن الفارض " (٢) ، والشيخ عبد الرؤف المناوي الذي قال في حقه " الملقب في جميع الآفاق بسلطان المحبين والعشاق المنعوت بين أهل الخلاف والوفاق بأنه سيد شعراء عصره على الإطلاق (٣) .

وممن قبل ابن الفارض في العصر الحديث ودافع عنه أيضا د / عبد الحليم محمود ، ود/ عبد الله الشاذلي (٤) وقد اعتمدا في دفع هذه التهمة عنه على مجموعة من الأمور :

الأول : احترام الملك الكامل الأيوبي وعلماء عصره له..

فقد ذكر هؤلاء العلماء أن ابن الفارض كان موضع تقدير الملك الكامل الأيوبي وكثير من العلماء المعاصرين له من أهل الحديث والفقه ، كالشيخ ولي الدين العراقي ، وجمال الدين الأسنوي ، ورشيد الدين العطار وغيرهم .

وعليه فلو كان ابن الفارض يؤمن بجواز الاتحاد بين الخالق والمخلوق ما كان موضع ثناء هؤلاء واحترامهم ، وخاصة الملك الكامل لأنه كان سنيا بكل ما

---

(١) الكواكب الزاهرة : ص : ٢٤١ و ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ص ٢٥٩ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٢ ، والطبقات الصغرى للشعراني : ص ٣٧ ، مكتبة القاهرة ، ط (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠) ، وطبقات الأولياء لابن الملقن : ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، دار الكتب العلمية ، ط ١٩٩٨ م ، وابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٣٠ .

(٢) لطائف المنن للشعراني ص ٣٦٣ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ، والطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ٣٠

(٣) طبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٤) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٦٢ ، وقضية التصوف المدرسة الشاذلية : ص ٢٥٨ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٠٠ - ٢١١ .

ما في الكلمة من معنى ، فلو أنه انتهي إليه من حاله وسلوكه ما يشعر من قريب أو من بعيد إيمانه بالاتحاد لما تردد عن محاربته والقضاء على تعاليمه ، ولما وصلنا شيء عما يحدثنا به المؤرخون من إقباله عليه وإكباره له [١] .

الثاني : الاتحاد الفارضي اتحاد وجداني لا ذاتي .

ومن الأمور التي اعتمد عليها أصحاب هذا الفريق أيضا القول بأن الاتحاد عند ابن الفارض اتحاد وجداني لا ذاتي ويستدلون على ذلك بأن ابن الفارض صرح في التائية بأنه يقصد من الاتحاد ما جاء عن رب العزة سبحانه في الحديث القدسي والذي يقول فيه : " وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به " [٢] فقال :

فكن بصرا وانظر وسمعا وعه وكن
لسانا وقل فالجمع أهدى طريقة [٣]

وقال موضحا مقصوده من الاتحاد أيضا :

وجاء حـــديث في اتحـــاد ثابت
روايته في النقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب إليه
بنفـــل أو أداء فـــريضـــــة
وموضع تنبيه الإشارة ظاهر
بكنت له سمعا كنور الظهيرة [٤]

---

(١) ابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٥ ، ص ١٣٢ ، ص ١٦٥ - ١٩٦ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ١٢٩ ، كتاب الرقاق ، باب التواضع .

(٣) ديوان ابن الفارض : ص ٣٧ البيت رقم ١٩٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٩ الأبيات رقم [٧١٩ - ٧٢١] ، والكواكب الزاهرة : ص ٢٤١ ، وابن الفارض والحب الإلهي ص : ١٩٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٠٨

الثالث : صدوره في وقت الغلبة والسكر .

كما ذهب هؤلاء أيضا إلى أنه على فرض أن الألفاظ التي جاءت على لسانه تدل على الاتحاد بمعناه الحقيقي فإنها صدرت منه في حال الغلبة والسكر وهو الأمر الذي لم يتنبه إليه من اتهمه بذلك لتمسكهم بحرفية ما يقرءون من كلام ابن الفارض وشعره ، وحكمهم عليه من حيث دلالته الظاهرة ، وعدم مراعاتهم للحالة التي كان يعيش فيها وهي حالة الحب للذات الإلهية والتي سيطرت عليه منذ البداية " وعاملوه معاملة الصاحي في الدرجة الأولى " (١) .

وقد استدل أستاذنا أ. د / عبد الله الشاذلي على ذلك بمجموعة من الأمور :

أ – إعلان ابن الفارض منذ البداية بأنه لا يريد إلا الله بحقائقه الذاتية لا الظاهرة في آثاره فقط قائلا :

لأنت مني قلبـــي وغايـــة بغيتـــي

وأقصى مرادي واختياري وخيرتي (٢)

ب – إعلانه سلوك كل الطرق التي توصله إلى التحقق والتداني من الله الذي هو غايته قائلاً :

رجعت لأعمـــال العبـــادة عـــادة

وأعددت أحـــوال الإرادة عـــدتي

وعدت بنسكي بعد هتكي وعـــدت

من خلاعة بسطي لانقباض بعفة

وصمت نهاري رغبة في مثـــوبة

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢١١ ، والكواكب الزاهرة : ص ٢٤٦ – ٢٥٣ ، وابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٢٨ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص : ١١٩ ، وديوان ابن الفارض : ص ٣٠ ، البيت رقم [٧٦] .

وأحييت ليلي رهبة من عقوبة
وعمرت أوقاتي بورد لوارد
وصمت لسمت واعتكاف لحرمة
وبنت عن الأوطان هجران قاطع
مواصلة الإخوان واخترت عزلتي
ودققت فكري في الحلال تورعا
وراعيت في إصلاح قوتي قوتي
وأنفقت من يسر القناعة راضيا
من العيش في الدنيا بأيسر بلغة
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهبا
إلى كشف ما حجب الموائد غطت [١]

ج – ذكره أنه استمر في مجاهدة نفسه حتى هذبت ونقلت من أرضها وفازت ببشرى جمعها مع مطلوبها قائلا :

ولما نقلت النفس من ملك أرضها
بحكم الشر منها إلى ملك جنة
وقد جاهدت واستشهدت في سبيلها
وفازت ببشرى بيعها حين أوفت
سمت بي لجمعي عن خلود سمائها
ولم أرض إخلادي لأرض خليفتي [٢]

د – إشارته إلى سلوك طريق آخر للوصول إلى حالة التحقق والتداني من الله هو الحب والعاطفة ، والذي اعتبره أشرف من نسبه لأبيه ولأمه قائلا :

---

(١) ديوان ابن الفارض : ص ٤٢ الأبيات رقم ٢٦٨ – ٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٣ البيت رقم ٤٦١ – ٤٦٣ .

نسب أقرب في شرع الهوى
بيننا من نســب من أبوي
هكــذا العشـــق رضينـــاه
يأتمر إن تأمري خبر مري [(١)]

هـ - إعلانه أنه لا يعدل بالحب مذهباً ، وأنه هو الذي أسلمه إلى الوجد قائلا :

وعن مذهبي في الحب مالـــي مذهب
وإن ملــت يوما عنـــه فارقــت ملتي
ولو خطــرت لي فـــي ســواك إرادة
على خاطـــري ســـهوا قضيت بردتي
وما اخترت حتى اخترت حبيك مذهبا
فواحـــيرتي إن لم تكـــن فيك حـــيرتي
وجدت بكـــم وجـــدا قوي كل عاشق
لو احتملت من عبئه البعض كلت [(٢)]

ويذكر كثير من العلماء أن هذا الحب قد غمر قلب ابن الفارض وغيبه عن كل شيء إلا عن محبوبه ، " وفي هذا الجو المشحون بالعاطفة والانفعال الروحي " [(٣)] قيلت جميع أقواله " وصاح في غمرات الوجد والشوق أنا إياها " [(٤)]

يقول الشيخ زكريا الأنصاري : " إن ما قاله صدر عنه حين استغراقه وغيبته ولكن ينبغي كتم العبارات عمن لم يدركها ، فما كل قلب يصلح للسر ، ولكل قوم مقال " [(٥)] .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، وديوان ابن الفارض ص ١٢ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٠١ ، وديوان ابن الفارض : ص ٣٠ ، ٣١ ، ١٩ ، الأبيات رقم [٦٤ ، ٦٥ ، ٨٣] .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٠١ ،

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٠٥ ، والحياة الروحية : ص ١٨٤ .

(٥) الطبقات الصغرى للشعراني : ص ٣٧ .

الرابع : إن ابن الفارض حين قال :

فإن لم يجوز رؤية اثنين واحدا

حجاك ولم يثبت لبعد تثبت (١)

والتي اعتبرها المعارضون دليلا على إيمانه بجواز الاتحاد بين الخالق والمخلوق اتحاداً ذاتيا .

يذكر أستاذنا أ. د / عبد الله الشاذلي أيضا أن ابن الفارض لم يقصد الاتحاد الذاتي ، إنما كان يقصد الاتحاد الصفاتي قائلا : " وإذا قيل إن ابن الفارض ضرب مثالي ظهور الجن والملك بالإنس في معرض الإقناع بقبول الاتحاد ... أجيب بأن هذا لا يعني قبول - الاتحاد الذاتي - وإنما يرمي إلى ضرب المثل بإلباس صفة المتجلي على المتجلى عليه لا ذات الأول في الثاني .... وليس بمستحيل لأنه لا يقيد المتجلي بقيود وحدود المتجلى عليه إذ هو نوع من الفعل وفعل شيء في شيء لا يحد الفاعل بحدود المفعول ولا ينقل ما للثاني في الأول بل يبقى كل منهما على ما هو عليه غني أو افتقارا " (٢) .

ويرى أن القرآن أخبر بوقوع ذلك فيقول : " وقد تجلى الله على النار فأنطقها لموسى (٣) ، وتجلى الله على النار فأسمعها لإبراهيم (٤) ، .... وتجلى الله على الناقة فأفهمها أمره بالنزول برسول الله ﷺ في دار هجرته ... وكلها ليست اتحاد ذات بذات وإنما هي اتحاد عن طريق التجلي بأفعال وتدبير الله سبحانه في بعض مخلوقاته بحيث يكون هذا التصرف الإلهي هو المتحكم المسيطر على المخلوق لا خصائص هذا المخلوق وإرادته " (٥) .

---

(١) ديوان ابن الفارض : ص : ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، الأبيات [١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣] .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٤ .

(٣) يقصد قول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ سورة النمل : ٨ .

(٤) يقصد قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ سورة الأنبياء آية ٦٩ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩٤ ، وابن الفارض والحب الإلهي : ص ٢١٤ - ٢١٥

التحذير من مطالعة كتب ابن الفارض

بالرغم من قبول هذا الفريق لابن الفارض ودفاعهم عنه فقد حذر بعضهم من مطالعة كتبه على من لم يتأهل لتنزيل ما فيها من شطحات على قوانين الشريعة المطهرة .

يقول الشيخ زروق : " حذر الناصحون ... من فتوحات الحاتمي بل كتبه كلها ... وابن الفارض " (١) .

ويقول الشعراني : " ومنع بعضهم من سماع كلام سيدي عمر بن الفارض في التائية والجمهور على جواز ذلك مع التأويل " (٢) .

ويقول المناوي : " والحاصل أنه اختلف في شأن ابن الفارض ... من الكفر إلى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين في هذه القضية ، ولا أقول كما قال بعض الأعلام : سلم تسلم والسلام ، بل أذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم أنه يجب اعتقاده وتعظيمه ويحرم النظر في كتبه على من لم يتأهل لتنزيل ما فيها من الشطحات على قوانين الشريعة المطهرة " (٣) .

وما ذهب إليه الشيخ زروق ، والشعراني ، والمناوي ، هو ما ذهب إليه أيضا الشيخ زكريا الأنصاري ، وفي العصر الحديث د / محمد مصطفي حلمي (٤) ، وهو ما نميل إليه ونرجحه ، وندعو المخالفين أن يقفوا منه موقفا معتدلا فيأخذوا ما يتمشى من أحواله وأقواله مع الشرع على ما هو عليه ويؤولوا ما يحتاج إلى التأويل من هذه الأقوال على محامله الحسنة إن كان إلى ذلك سبيل ، وإلا فإنكاره

---

(١) قواعد التصوف : ص ١٢٩ قاعدة ٢٠٧ .

(٢) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤٠٨ .

(٣) طبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٥١ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٣ ، والأجوبة المرضية : ص ٤٨٩ ، وابن الفارض والحب الإلهي : ص ١٣٣ - ١٣٤ .

أولى إذا كان مخالفا للشرع مخالفة صريحة واضحة لا تقبل شكا ولا جدالا مع الوضع في الاعتبار أنها قيلت في حال سكر وغيبة وكلمات السكر تطوى ، ولا تروى

[٤] التبرؤ من القائلين بالاتحاد

أعلن أهل التصوف الحق في القديم والحديث تبرأهم من القائلين بالاتحاد وذلك من خلال إعلانهم بداية مخالفة طريقة الذين وقعوا في الاتحاد لطريقة مشايخ الصوفية من أهل السنة والجماعة (١) .

وأن التصوف الذي يدعو إلى الاتحاد ليس من تصوف المسلمين ، وأن القول بالاتحاد نوع من الفجور (٢) ، وبأن من ثبت عليه القول بالاتحاد فإنه يكون قد زاد في الكفر على النصارى (٣) ، وبأنه أشر من الكفار لأنه يلبس على المسلمين ويفسد عقائد الدين (٤) .

وهو ما أقر به ابن تيمية نفسه حين ذكر أن أئمة التصوف أمثال البصري والبلخي والجنيد والتستري وعمرو بن عثمان المكي ، ومن بعدهم إلى أبي طالب المكي وإلى مثل عبد القادر الجيلاني ، وأمثال هؤلاء الذين كانوا بالشام والعراق ومصر والمغرب وخراسان من الأولين والآخرين متفقون على تكفير هؤلاء (٥)

وهو ما ذهب إليه الشاذلية جميعاً وعلى رأسهم الشاذلي والمرسي ، وفي العصر الحديث الشيخ خليل الخطيب ، والشيخ محمد ذكي إبراهيم (٦) .

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٣٧ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠١ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٣٢ – ٣٣ .

(٣) الحاوي في الفتاوى : جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٤) الجنة في عقيدة أهل الجنة : ص ٢٤ .

(٥) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٨٦ .

(٦) الحاوي في الفتاوى : جـ ٢ ص ١٣٥ ، الجنة في عقيدة أهل الجنة : ص ٢٤ ، وأبجدية التصوف ص ٣٢ ، ٣٣ .

ثالثاً : وحدة الوجود وموقف الصوفية منها

وحدة الوجود من المسائل التي شملها التصحيح الصوفي وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في الصفحات التالية من خلال الحديث عن مفهوم الوحدة في اللغة والاصطلاح ، وعن نشأة هذه الدعوى وكيف انتقلت إلى الوسط الصوفي وعن موقف أهل التصوف الحق منها ، ومن أشهر من نسبت إليهم هذه الدعوى من الصوفية .

مفهوم الوحدة في اللغة : الوحدة في اللغة من التوحيد وهو الانفراد فيقال " رجل متوحد : أي لا يخالط الناس ولا يجالسهم وتوحد برأيه تفرد به " (١)

ويقال : " وحد : يحد حدة ووحدا ووحودا ووحدة : : انفرد بنفسه ، والشيء وحدا : أفرده .... وتوحد الله بربوبيته وجلاله وعظمته " (٢) .

مفهوم الوحدة في الاصطلاح : يطلق مصطلح وحدة الوجود عند الفلاسفة ويراد به أن الله سبحانه وتعالى هو والمخلوقات شيء واحد أو أن وجود الكائنات هو عين وجود الله وبأنه ما ثم غير وأنه ليس في الحقيقة رب وعبد (٣)

يقول د / جميل صليبا : " مذهب وحدة الوجود مذهب الذين يوحدون الله والعالم ويزعمون أن كل شيء هو الله ... وأن الله والعالم موجود واحد وأن العالم لا ينفصل عن الله ، فالله هو الموجود الحق ، وأما العالم فهو مظهر الذات ، وليس له وجود في ذاته لأنه صادر عن الله بالتجلي " (٤) .

---

(١) لسان العرب : جـ ٤ ص ٤٦٣ .

(٢) المعجم الوسيط : جـ ٢ ص ١٠٥٨ – ١٠٥٩ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية : جـ ٤ ص ٦ ، ومدارج السالكين : جـ ١ ص ١٤٧ ، والوجود الحق لعبد الغني النابلسي : ص ١٧ تحقيق : بكري علاء الدين ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ط ١٩٩٥ م ، قضية التصوف المدرسة الشاذلية : ص ٢٥٢ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥٤ ، معجم مصطلحات الصوفية : د / عبد المنعم الحفني ص ٣٨ ، دار المسيرة – بيروت ، ط ١ (١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م) .

(٤) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ٢ ص ٥٦٩ .

صــور وحــدة الوجــود :

ترد وحدة الوجود على صورتين :

الأولى : وحدة الوجود المادية : ويعني بها أن العالم وحده هو الموجود الحق وليس الله سوي مجموع الأشياء الموجودة في العالم [١] فالله والعالم لدي هذه الوحدة ليس سوي قوى مادية متنوعه يتضايف بعضها البعض [٢] .

الثانية : وحدة الوجود الروحية : ويعني بها القول بأن الله وحده هو الموجود الحق وأن العالم مجموع ظواهر وأحوال ليس لها وجود حقيقي دائم الوجود ولا جوهر متميز ، وإنما هي أوجه للخالق على قدرته [٣].

وحدة الوجود في المفهوم الصوفي

يستخدم الصوفية مصطلح الوحدة بمعنى مختلف عن أستخدام الفلاسفة ، فالصوفية لا يستخدمون الوحدة بمعنى وحدة الذات مع المخلوقات وإنما يستخدمونه بمعنى : " أن الله وحده هو الذي خلق العالم " [٤] .

كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [٥] ، وأنه سبحانه هو الذي يمنح الإنسان الوجود الذي يريده له في كل لحظة لا لتلاشي الإنسان ، وهو ما بينه الحق سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم ، ففي

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٨٤ .

(٣) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ٢ ص ٥٦٩ – ٥٧٠ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٨٤ ، والفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ليوسف زيدان : ص ١٨٠ دار النهضة العربية – بيروت – لبنان ، ط (١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م) .

(٤) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥٤ .

(٥) سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

كثير من آيات القرآن الكريم يبين الحق سبحانه وتعالى أنه محيط بالكون مهمين عليه قيوم السماوات والأرض قائم على كل نفس بما كسبت لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، كما أخبر في كثير من آياته بأنه سبحانه الممد الوجود لكل موجود كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) ، وفي قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (٢) وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ ﴾ (٣) (٤) .

وقد شرح مراد الصوفية من الوحدة الشيخ عبد الغنى النابلسي فقال " اعلم بأنك إذا سمعتنا نقول : " إن الوجود هو الله تعالى ، فلا تظن أننا نريد بذلك أن الموجودات هي الله تعالى سواء كانت الموجودات محسوسات أو معقولات وإنما نريد بذلك أن الوجود الذي قامت به جميع الموجودات هو الله تعالى .. واعلم بأنك إذا سمعتنا نقول بـــ " وحدة الوجود " فلا تظن أننا بذلك على حد ما يعتقد أهل الجهل والضلال والجحود وإنما نقوله فارقين بين " وحدة الوجود " و " كثرة الموجود " (٥) .

وينشد في ذلك شعراً قائلا .

كـــن عارفاً بوحدة الوجـــود
وقاطعـــا بكـــثرة الموجـــود
وميز الحادث مـــن القـــديم
وخلـــص الثابت من مفقـــود
واحذر من التباس ما تجلـــى
بغـــيره فـــي حالة الشـــهود

---

(١) سورة الواقعة آية ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) سورة الواقعة آية ٦٣ ، ٦٤ .
(٣) سورة الواقعة آية ٧١ ، ٧٢ .
(٤) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٦٠ .
(٥) الوجود الحق : ص ١١ .

فوحدة الوجود في اصطلاحنا
كناية عن رؤية الـودود [١] .

ويشير إلى ذلك وبصورة أوضح فيقول : " اعلم أن الفرق بين الوجود والموجود عندنا أمر لازم متعين ، فإن الموجودات كثيرة مختلفة والوجود واحد لا يتعدد ولا يختلف في نفسه وهو عندنا حقيقة واحدة لا تنقسم ولا تتجزأ ولا تتعدد بتعدد الموجودات والوجود أصل ، والموجودات تابعة له صادرة منه قائمة به ، وهو المتحكم فيها بما يشاء من التغير والتبديل ، ومعنى الموجود : شيء له الوجود ... لا أنه عين الوجود ، وكلامنا في وحدة الوجود ، لا في وحدة الموجود فإن الموجود ليس واحدا ، بل فيه كثير كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [٢] [٣] .

وعليه ومن خلال النصوص السابقة فإن الوحدة عند الصوفية وحدة وجود لا وحدة موجود وهي تعنى وحدة الفاعل الخالق الذي انفرد بإيجاد العالم وأنه هو الذي يمنحه الوجود وأنه لو سحب إمداده بالوجود عن هذا العالم تلاشي .

نشأة وحدة الوجود

وحدة الوجود نظرية قديمة وجدت عند الأمم السابقة ، فقد أخذ بها فلاسفة الهنود البراهمانيين [٤]

---

(١) المراجع السابق : ص ١٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ٣٦ .

(٣) الوجود الحق : ص ١٩ .

(٤) البراهمة : قوم من الهند ينسبون إلى رجل يقال له " براهم " دانت بنفي النبوات ، وبتقديس رجال الدين ، ووحدة الوجود ، وتناسخ الأرواح ، وقد ظهرت دياناتهم هذه فيما بين سنتي ٨٠٠ – ٦٠٠ ق . م . انظر الملل والنحل للشهرستاني : جـ ٢ ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ، والأسفار المقدسة د / عبد الواحد وافي : ص ١٨٢ ، نهضة مصر – الفجالة ، ط بدون تاريخ ، والجانب الإلهي في التفكير الإسلامي د / محمد البهي : ص ٢٧ – ٢٨ ، مكتبة وهبة ، ط بدون تاريخ ، والمعجم الصوفي د / سعاد الحكيم : ص ١١٥٥ ، دار ندرة للطباعة والنشر ط ١ (١٤٠١ هـ – ١٩٨١م) ، ودراسات في الأديان الوثنية القديمة : ص ١٠٦ – ١٠٧ .

، كما وجدت عند الإيلين [١] ، ومن رجال المدرسة الإيلية المتقدمين الذين رددوا قول البراهمين في " الوجود " أو في " وحدة الوجود " اكزينوفان ، وبارمنيدس ، وكذلك زينون ٤٩٠ – ٤٣٠ ق م ، وكذلك ذهب الرواقيون [٢] وبالأخص رجال المدرسة القديمة وفي مقدمتهم زينون ٢٦٤ ق م ، وخرسيبس ٢٠٩ ق م إلى قصر الوجود على الجسمي أو المادي ، وذكروا أنه يتنوع إلى فاعل مؤثر ، ومنفعل متأثر وهما متصلان ببعضهما ، ولذا فقد نعتوا بالماديين لقصرهم الوجود على الجسمي أو المادي ، ولقبوا بالموحدين لعدم فصلهما بين المؤثر والقابل ، واعتبروا من أصحاب وحدة الوجود [٣] ، كما دانت الأفلاطونية المحدثة [٤] بوحدة الوجود فقد كانوا يقولون بأن الله واحد ، وأن العالم يفيض عنه كفيضان النور عن الشمس ، وأن للموجودات مراتب مختلفة إلا أنها لا تؤلف مع الله إلا

---

(١) الإيليون : مدرسة فلسفية تنسب إلى ايليا مدينة بناها الأيونيون الهاربون من وجه الفرس على الشاطئ الغربي في إيطاليا الجنوبية حوالي سنة ٥٤٠ ق م ، ويعتبر بارمنيدس ٥٤٠ ق م هو المؤسس الحقيقي لها ، ومن أهم رجالها اكزينوفان ٥٧٠ – ٤٨٠ ق م . انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ٢٧ – ٣٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤ ، بدون تاريخ ، وتاريخ الفكر الفلسفي " الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون : د / محمد على أبو ريان : جـ ١ ص ٩٠ – ٩١ ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ط ١٩٧٣ م ، وقصة الفلسفة اليونانية : أحمد أمين ، ود / ذكي نجيب محمود : ص ٣٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٨ بدون تاريخ .

(٢) المدرسة الرواقية : شيعة خرسيبس وهم أصحاب المظال ، سموا بذلك لأنهم كانوا يتعلمون الحكمة في رواق هيكل مدينة أثينة على يد معلهم خرسيبس أو كر سيس ، وكانوا في زمن جالينوس انظر الملل والنحل للشهرستاني : جـ ٢ ص ١١١ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ١ ص ١٧١ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ٢٢٣ .

(٣) الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي : ص ٢٣٩ .

(٤) الأفلاطونية المحدثة : تنسب إلى أفلوطين الذي وضع أسسها في روما وشاعت في أرجاء العالم ، وبعد موت أفلوطين نشر فور فوريوس ويامبليجوس مذهبه في كل جهات العالم الروماني التي كان فيها اهتمام بالفلسفة . انظر الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها : د / أميرة حلمي مطر : ص ٤٠٢ ، الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ط ١٩٩٨ م ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ٢٨٥ – ٣٠١ .

موجودا واحدا (١) .

انتقال النظرية إلى الفكر الإسلامي

يذهب بعض العلماء إلى أن نظرية وحدة الوجود دخلت إلى الفكر الإسلامي عن طريق الشيعة الباطنية وخاصة الإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفا وغيرهم من غلاة الشيعة الذين تأثروا بالآراء الهندية عند البراهمة (٢) .

ويذهب البعض الآخر إلى أنها دخلت إلى التصوف الإسلامي عن طريق الأفلاطونية المحدثة من خلال محمد بن مسرة والذي تعلمها من خليل الغفلة صديق والده الذي كان يعلمه علوم الدين والفلسفات (٣) ، وقد أخذ محمد بن مسرة يلقن تلاميذه ومريديه مذهب وحدة الوجود ، وأن عذاب النار أو ثواب الجنة ليس محسوسا وإنما معنوي (٤) .

ويذكر ابن حزم وآثين بلاثيوس أنه بعد وفاة ابن مسرة عني أحد تلاميذه وهو إسماعيل الرعيني بهذه النظرية وأخذ على عاتقه نشرها ، وأنه أضاف إليها القول بأبدية العالم واكتساب النبوة (٥) .

ويذكر آثين بلاثيوس أن هذه الأفكار انتقلت في القرن الخامس الهجري إلى

---

(١) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ٢ ص ٥٦٩ ، والمعجم الصوفي : ص ١١٥٥ ، والجانب الإلهي في التفكير الإسلامي : ص ٢٤٠ – ٢٤١ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٢٩ – ٣٠ ، والتصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٦٠ .

(٢) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٩٧ ، والتصوف الإسلامي الطريق والرجال : ص ٢٩١ ، والتصوف في تراث ابن تيمية : ص ٩٤ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٨٩

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل : جـ ٥ ص ٦٦ – ٦٧ . وابن عربي حياته ومذهبه ! لآثين بلاثيوس : ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ، ترجمة د عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات – الكويت ، ودار الفكر – بيروت – لبنان ، ط ١٩٧٩ م .

مدينة " المرية " وأصبحت هذه المدينة مركزا هاما من مراكز الصوفية الذين يقولون بوحدة الوجود بتأثير من آراء ابن مسرة ، وظهر فيها مجموعة من التلاميذ المخلصين لهذه النظرية والذين عملوا على نشرها في ربوع العالم الإسلامي من أمثال : محمد بن عيسي الألبيري الصوفي ، وأبو العباس بن العريف ٥٣٥ هـ ، وابن برجان ٥٦٣ هـ ، ثم ابن قسي ٥٦٤ هـ ، ثم الشيخ أبو مدين ٥٩٤ هـ ، وهو شيخ ابن عربي المباشر الذي تتلمذ عليه وعاصره [١] .

وقد اعترف أهل التصوف بوقوع بعض الصوفية في القول بوحدة الوجود

فالسبعينية والتي تنسب إلى ابن سبعين دانوا بمذهب الوحدة المطلقة التي ينفي معها كل تعدد في الوجود [٢] .

كما وقع عدد كبير من الصوفية في زمن عبد الكريم الجيلي في ذلك [٣] .

وقد ذكر الإمام الشعراني أن بعض الصوفية في زمانه كانوا يقولون " إن كل شيء في الوجود هو الإله ، وأن [illegible] هذا الوجود الحادث هي عين الله من الجماد " [٤] ، وقد نسب هذا القول إلى جماعة من الصوفية كابن عربي وصدر الدين القونوي ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الكريم الجيلي ، ويعد ابن عربي أشهر هؤلاء الصوفية على الإطلاق ولذا فسوف يقتصر الباحث عليه مبيناً أقواله التي اعتمد عليها خصومه في رميه بوحدة الوجود .

---

(١) ابن عربي حياته ومذهبه [illegible] ، والفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٩١ ، والتصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٦١ .

(٢) د / أبو الفا التفتازاني : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ص ١٦٦ – ١٦٧ ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١٩٧٣ م ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ٧٨ .

(٣) د / عبد القادر عطا : التصوف بين الأصالة والاقتباس في عصر النابلسي : ص ٣٧٢ ، دار الجيل – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م) .

(٤) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ٥٠٤ .

ابن عربي (١) والقول بوحدة الوجود

اتهم ابن عربي بوحدة الوجود كثير من العلماء الذين عاصروه أو ممن جاءوا بعده ، كابن تيمية ، وابن خلدون ، والبقاعي والمقبلي وغيرهم في العصر الحديث كأبي العلا عفيفي ، ود / عبد القادر محمود ، ود / عرفات مفتاح .

فابن تيمية يقول : " إن ابن عربي يدين بأنه ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب (٢) ، ويقول البقاعي : " الوحدة المطلقة دين ابن عربي " (٣) .

وقد اعتمد هؤلاء على مجموعة من النصوص التي وردت في كتبه وخاصة كتاب الفتوحات والفصوص ، من هذه النصوص قول ابن عربي : " سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها (٤) .

وقوله :

فأنت عبـــد وأنـــت رب
لمن له فيـــه أنت عبـــد

---

(١) أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن عبد الله الحاتمي الطائي المعروف بالشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، ولد بـ " مرسية " سنة ٥٦٠ هـ من عائلة اشتهرت بالعلم والتقوى وتنتهي في نسبتها إلى حاتم الطائي ، كان أبوه من أئمة الفقه والحديث ، ومن أعلام الزهد ، وتزوج من مريم بنت محمد بن عبدون البجائي وكانت امرأة صالحة ، واشتهر السباحة فقد تنقل بين الأندلس والمغرب والمشرق وفي سنة ٦٠٣ هـ زار مصر ، ثم رحل بعد ذلك إلى مكة ودخل بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، واستقر به المقام في دمشق ولم يفارقها حتى توفي سنة ٦٣٨ هـ ، ودفن بجبل قاسيون ، انظر الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٣١٧ . وجامع كرامات الأولياء للنبهاني جـ ١ ص ١٦١ . وابن عربي حياته ومذهبه لأثنين بلاثيوس : ص ٥ – ٨٥ ، وطبقات المناوي : جـ ١ ص ٦٩٥ – ٦٩٦ .

(٢) توحيد الربوبية لابن تيمية : ص : ١٢٣ – ١٢٤ ، ١٦٠ ، ٢٤٢ – ٢٤٣ . ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦ ، ص ٨ – ٢٠ ، ص ٢١ – ٢٢ ، ومقدمة ابن خلدون : ص ٣٣١

(٣) تنبيه الغبي للبقاعي : ص ٦٦ . والعلم الشامخ : ص ٥٤٢ – ٥٤٩ .

(٤) د / أبو العلا عفيفي : مقدمة فصوص الحكم لابن عربي : ص ٢٥ الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ، ط بدن تاريخ .

وأنت رب وأنـت عبـد
لمن له في الخطاب عهد
وكل عقد عليه شـخص
يحله من سواه عقد [١]

وكقوله :

فالحق خلق بهذا الوجـه فاعتبروا
وليس خلقا بهذا الوجـه فادكـروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته
وليس يدريـه إلا مـن له بصـر
جمـع وفـرق فإن العين واحـدة
وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر [٢]

وقوله :

يا خالـق الأشياء في نفسـه
أنـت لمـا تخـلق جامـع
تخلـق مـا لا ينهـى كونه
فيك فأنت الضيق الواسع [٣]

وقوله في الفتوحات :

كيف التوكل والأعيان ليس سوي
عين الموكل لا عين ولا أثر [٤]

---

(١) فصوص الحكم : جـ ١ ص ٩٢ فص حكمة علية في كلمة إسماعيلية .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٧٩ فص حكمة قدوسية في كلمة ادريسية .

(٣) المراجع السابق : جـ ١ ص ١٩٢ فص حكمة إمامية في كلمة هارونية .

(٤) الفتوحات : جـ ٢ ص ١٩٥ ، الباب ١١٣ ، والعلم الشامخ : ص ٥٤٤ .

وكقوله :

ولا تراقب فليس في الكون إلا
واحد العين وهو عين الوجود

فتسمى في حالة بمليك
وتكنى في حالة بالعبيد (١)

وقوله :

نحن في المظاهر والمعبود ظاهرنا
ومظهر الكون عين الحق فاعتبروا

ولست أعبده إلا بصورته
فهو الإله الذي في طيه البشر (٢)

وغيرها من النصوص الأخرى المبثوثة في كتبه .

ومع اتفاق هؤلاء على اتهام ابن عربي بوحدة الوجود فقد اختلفوا في نوع الوحدة التي كان يدين بها ابن عربي ، فذهب جماعة أن مذهب الشيخ الأكبر من صورة النوع الأول فهو روحاني خالص ينكر العالم الظاهر ولا يعترف بالوجود الحقيقي إلا لله الحق ، أما الخلق فظل للوجود الحق ولا وجود له بذاته " (٣) .

وذهب البعض الآخر إلى أن وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة وجود مادية فهو الاتجاه الألصق به والأقرب إليه (٤) .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢١١ ، الباب ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢١٥ ، الباب ١٣١ ، والعلم الشامخ : ص ٥٤٤ .

(٣) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ٢٨٦ . ومقدمة فصوص الحكم لأبي العلا عفيفي : ص ٢٦ – ٢٧ .

(٤) الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٨٤ ، هناك اتجاه ثالث ذهب إليه جماعة من الصوفية وهو أن الوحدة التي كان يدين بها ابن عربي وحدة وجود صوفية ، وسوف نوضح ذلك عند بيان موقف الصوفية من ابن عربي .

جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بوحدة الوجود

في مواجهة هذه النظرية المنحرفة بذل أهل التصوف الحق جهودا عدة تمثلت في

[١] الفصل التام بين الخالق والمخلوق

بالرغم من تأخر ظهور نظرية وحدة الوجود في الوسط الصوفي فإن أهل التصوف الحق قد تنبهوا مبكرا لخطورة الوقوع في مثل هذا الاتجاه المنحرف ، ومن ثم حرص الصوفية من البداية على إعلان الفصل التام بين الخالق والمخلوق ذاكرين أن لكل موجود حقيقة تخصه يتميز بها عما سواه ويباين بها غيره فالقديم قديم والمحدث محدث " (١) .

وأن الله سبحانه " ليس هو خلقه ولا جزءا من خلقه ولا صفة لخلقه بل هو سبحانه وتعالى مميز بنفسه المقدسة ، بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته " (٢) ، فالإمام المحاسبي حين يقول : " إن الله ليس في أي من مخلوقاته " (٣) ، وحين يقول الهجويري : " إنه تعالى لا يقبل الوصل ولا الفصل ... ولا اتصال له بشيء " (٤) ، وحين يرفض الجنيد القول بأنه " لا موجود إلا الله " (٥) ،

فإنهم ينيرون الطريق لنا لنتعرف على موقف الصوفية المتقدمين من هذه النظرية ، فإذا ما جئنا إلى عصر الغزالي وهو الذي سبق عصر الوحدة فإننا نجده يحس بمقدماته ويعلن رفضه له في كثير من كتبه ويقدم الكثير من الأدلة

---

(١) توحيد الربوبية لابن تيميه : ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٨٦ .

(٣) د / عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين الحارث المحاسبي : ص : ١٠٦ ، دار المعارف ، ط : بدون تاريخ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٢ .

(٥) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ .

على بطلانه (١) .

بل إن نيكلسون يرى أن الغزالي بموقفه هذا " قد أوصد الباب في وجه مذهب وحدة الوجود بقوله مع أهل السنة إن الله ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وإنه بمقدار ما يتحقق في النفس من صفات الكمال الإلهية يكون استعدادها لمعرفة الله ، وأن العبد عبد والرب رب ولن يصير أحدهما الآخر البتة" (٢) .

[٢] رفض القول بوحدة الوجود

أهل التصوف لم يقف مكتوفي الأيدي فقد بعد ظهور مذهب وحدة الوجود أعلن كثير منهم رفض هذا القول ، وقد ذكر ابن تيمية من هؤلاء الشيخ عدي بن مسافر ٥٥٠ هـ ، والجيلاني ، وأبي مدين المغربي ، وأبي البيان ، وقطب الدين القسطلاني ، وجمال الدين بن واصل ، وشمس الدين الأصبهاني ، وأبي الحسن ابن قرباص ، والعز بن عبد السلام ، والشيخ كمال الدين الميراغي ، والشيخ أبي العباس الشاذلي ، والشيخ إبراهيم الجعبري ، والشيخ عثمان المعلم ، وشرف الدين بن الشيخ نجم الدين بن الحكيم (٣) .

ويضاف إلى ما ذكره ابن تيمية الشيخ علي الخواص ، والشعراني ، بل يذكر الشعراني أن هذا قول طائفة .... استحكم في غالبهم الضلال والفساد (٤) وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو الإله ، وأن عين هذا الوجود الحادث هي عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان والملك والشيطان ويجعلون الخالق هو عين المخلوقات من خسيس ونفيس حتى الأباليس وهذا الكلام لا يرضى به أهل الجنون ، ولا من كان في حبه مجنون .

---

(١) المقصد الأسنى للغزالي : ص ١١٥ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٢٣٦ .

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون : ص ٨٤ ، نقلها إلى العربية د / أبو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والنشر ، بدون تاريخ ، والتصوف بين الغزالي وابن تيمية : ص ١٦٣ .

(٣) توحيد الربوبية : ص ٢٤٣ . ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٨١ – ٨٦ . وجـ ٤ ص ١٨٦ . والتصوف في تراث ابن تيمية : ص : ٩٥ .

(٤) لطائف المنن للشعراني : ص ٥٠٤ – ٥٠٥ ، ولواقح الأنوار للشعراني : ص ٤٨٧ .

ويرى الإمام الشعراني أن إبليس لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله وإن كان هو الذي يلقي إلى نفوسهم ذلك .

ويضيف الإمام الشعراني قائلا : " إن عباد الأوثان لم يتجرأوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (١) فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالله على حد ما يتعقله أصحاب العقول الضعيفة هذا كالمحال في حقهم ، إذ ما من ولي إلا وهو يعلم أن حقيقته مخالفة لسائر الخلق وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق لأن الله بكل شيء محيط " (٢) .

هذا ولم يكتف الصوفية بإعلان رفضهم لوحدة الوجود بل راحوا يحذرون من الوقوع فيها :

فقد كان الشيخ أحمد الرفاعي الكبير يقول : " إياك والقول بالوحدة التي خاض فيها بعض المتصوفة " (٣) .

كذلك حذروا من مطالعة الكتب التي اتهم أصحابها " بالوحدة .. ككتب الشيخ محيي الدين بن عربي وأضرابه ... كابن سبعين ... والعفيف " (٤)

ويضاف إلى ما سبق دعوة أهل التصوف إلى عدم الاجتماع بهؤلاء الدخلاء وإلى البعد عنهم وتنفير الناس منهم ورأوا أن ذلك من الواجبات ومن لباب الأحكام الشرعية (٥) ، ولذا وجدنا الإمام الشعراني بعد أن يتحدث عن هؤلاء الدخلاء يعقب قائلا : " فإياك يا أخي ومخالطة أهل البدع إلا بقصد هدايتهم

---

(١) سورة الزمر آية ٣

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٦٥ ، وأبجدية التصوف : ص ٣٢ .

(٣) العقيدة الحقه : ص ٨٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٦ ، ولطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٥) العقيدة الحقه : ص ٧٨ .

إلى الطريق الحق (١) .

والذي يدعو إلى العجب أن الجيلي وهو من الذين اتهموا بوحدة الوجود كان يدعو إلى البعد عنهم قائلا : " فاجهدْ ألا تراهم ولا تجاورهم فكيف أن تعاشرهم وإن لم تفعل فما نصحتك " (٢) .

ويرجع رفض الصوفية للوحدة إلى أن القول بها يخالف المنقولات والمعقولات وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى (٣) .

أولا : مخالفة وحدة الوجود لعقيدة التوحيد

من أولى الأسباب التي أدت إلى رفض أهل التصوف الحق لوحدة الوجود مخالفتها لعقيدة التوحيد التي جاء بها القرآن ، وجاءت بها السنة النبوية ، وأجمع عليها المسلمون .

فالقرآن في كثير من آياته ينفي عن الحق سبحانه وتعالى التعدد والاحتياج والمماثلة ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٤) .

وعن هذه الآية يقول الشيخ أحمد الرفاعي الصغير : " انظر أخي المسلم بعين الفهم والعلم إلى هذا الكفر الصريح يصادم آيات الحق تعالى ، يقول جل شأنه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ واحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا يقبل التعدد والتكثر ﴿ الله الصمد ﴾ المستغني عمن سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه . ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي للمادة والانحلال وهو بمعنى أنه يحل فيه شيء أو يحل في شيء . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولم يكن له مشابه أو مماثل أو مشاكل أو ند فقولهم

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٥٠٥ .

(٢) التصوف بين الأصالة والاقتباس : ص ٣٧٣ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق : ص ٥٠٤ . والعقيدة الحقه : ص ١٨ .

(٤) سورة الإخلاص آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

هذا يصادم عقيدة التوحيد ويخالف القرآن ولا ينزه الله عن صفات المحدثات فهو كفر بواح لا يقبل التأويل إطلاقاً ، وهل يتكثر ويتحول ويتبدل ويتطور إلا المخلوق الحادث ؟ " [١] . ويقول أيضاً : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [٢] ويقول أيضاً : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [٣] .

وعن هذه الآيات يذكر النورسي أنها دالة على أنه تعالى ليس له مشابهة بأي شيء وأنه منزه عن التحيز والتجزء " [٤] .

فإذا نظرنا إلى السنة النبوية المطهرة وجدنا النبي ﷺ يعلن بأن الله كان ولم يكن شيء معه .

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين أنه قال : " إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء " [٥] .

فهذا الحديث كاف في بطلان القول بأن وجود الله هو عين وجود المخلوقات وإلا كانت قديمة مثله وهو باطل ، كذلك فإن وحدة الوجود مخالفة لما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم كما أنها مخالفة لما أجمع عليه المسلمون من أن الله

---

(١) العقيدة الحقه : ص ١٨ .

(٢) سورة الشورى آية ١١ .

(٣) سورة مريم آية ٦٥ .

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي . مجموعة المكتوبات من كليات رسائل النور : ص ١٣٨ ، ترجمة الملا محمد زاهد الملا زكردي ، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ط (١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م) .

(٥) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٢٨١ ، وكتاب التوحيد ، باب : وكان عرشه على الماء .

سبحانه منزه عن الحلول والاتحاد أو أن يكون وجوده عين وجود المخلوقات (١)

ثانيا : تصادم الفكرة مع العقل

ومن الأسباب أيضا التي من أجلها رفض الصوفية وحدة الوجود تصادم هذه الفكرة مع العقل ، كما أنها تؤدي إلى مجموعة أمور يرفضها العقل منها .

[أ] أن القول بوحدة الوجود يؤدي إلى وجود مجانسة بين الخالق والمخلوق إذ الوصل والفصل لا يكون إلا مع المجانس ولا مجانسة بين الله تعالى وبين خلقه بوجه من الوجوه .

[ب] القول بوحدة الوجود يؤدي إلى القول بقدم العالم وهو قول باطل (٢)

[ج] القول بوحدة الوجود يؤدي إلى نفي الحساب والعقاب والجنة والنار ، كما أنه يؤدي إلى أن لا حلال ولا حرام ولا آخرة (٣) .

[د] القول بوحدة الوجود يؤدي إلى إبطال رسالة جميع الرسل ويبطل أحكام جميع الكتب لأنها كلها إنما جاءت بالإثنينية رب وعبد (٤) .

[هـ] القول بوحدة الوجود يؤدي إلى أن تكون الحادثات عين القديم وهو باطل لأن الحادثات لا تكون عين القديم (٥) .

[و] ويؤدي أيضا إلى التسوية بين العبد والرب وهذا محال عقلا لأن العبد لا يلحق مرتبة السيد أبدا بالإجماع (٦) .

---

(١) الكوكب الشاهق : ص ١١٥ – ١١٦ ، والعقيدة الحقة : ص ١٨ ومجموعة المكتوبات : ص ١٣٧

(٢) الكوكب الشاهق للشعراني : ص ١١٦ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٥٠٤ .

(٤) الكوكب الشاهق : ص ١١٥ .

(٥) مجموعة المكتوبات : ص ١٣٨ .

(٦) المقصد الأسنى : ص ١١٤ – ١١٥ ، والكوكب الشاهق : ص ١١٥ .

[ز] ويؤدي أيضا إلى عدم ثبوت طاعة أو معصية أو عبد طائع وعبد عاص يقول الشعراني : " كيف يقول بالوحدة المطلقة ويثبت هناك عبد يعصي مثل إبليس أو غيره فتعوذ بالله من اعتقاد يخالف سائر الملل [١] .

[ح] يضاف إلى ما سبق أن القول بوحدة الوجود يؤدي إلى عدم فائدة العبادة وإلى عدم قدرة العبد على الاتصال والرقي إلى الحق وذلك لأن الرقي لا يتصور إلا مع وجود كثرة متباينة فالرقي صعود إلى فوق .

يقول الغزالي : " ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية وليس وراء ذلك مرقي : إذ الترقي لا يتصور إلا بكثرة : فإنه نوع إضافة يستدعي ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافات وطاحت الإشارات ولم يبق علو وسفل ونازل ومرتفع واستحال الترقي فاستحال العروج ، فليس وراء الأعلى علو ، ولا مع الوحدة كثرة ولا مع انتفاء الكثرة عروج [٢] . كما أن الواقع ينفي الوحدة وذلك أن الناس " يرون الوجود على ما هو عليه في حواسهم ومدركاتهم وجودا متعددا متكثرا " [٣] ، إلى غير ذلك من الأدلة العقلية التي ساقها الصوفية لإبطال الوحدة .

[٣] موقف الصوفية من ابن عربي

انقسم الصوفية حول ابن عربي واتجهوا في ذلك اتجاهات ثلاثة .

الأول : اتجاه الرفض

رفض ابن عربي جماعة من الصوفية منهم الشيخ إبراهيم الجعبري ٦٨٧ هـ وإسماعيل الكوراني ، ونجم الدين بن الحكم ، والقاضي شرف الدين البازيلي ، وعلاء الدين البخاري ، وغيرهم ممن ذكرهم ابن تيمية والبقاعي ، فقد ذكرا أن

---

(١) الكوكب الشاهق : ص ١١٥ .

(٢) مشكاة الأنوار : ص ١٤ ضمن مجموعة رسائل الغزالى ، والمقصد الأسنى : ص ١١٥ .

(٣) مشكاة الأنوار : ص ١٢ .

هؤلاء الصوفية قد رفضوا ابن عربي وأنكروا ولايته واتهموه بأنه " شيخ نجس يكذب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله [١] ، كما حذّر هؤلاء الصوفية الناس منه لفساد عقيدته وضلال طريقته على حد تعبير علاء الدين البخاري [٢] ، وهو ما أكده المناوي حين ذكر أن جماعة من الصوفية رفضوه ، وذهبوا إلى أنه زنديق لا صديق [٣] .

الثاني : اتجاه القبول

قبل ابن عربي فريق كبير من الصوفية ونظروا إليه على أنه واسطة عقد الأولياء وأثنوا عليه الثناء الجميل ، وقد ذكر السيوطي والشعراني ، والمناوي ، والنبهاني عددا كبيرا منهم كأبي عبد الله القرشي ، والشيخ كمال الدين الزملكاني ، والشيخ قطب الدين الحموي ، والشيخ صلاح الدين الصفدي ، والشيخ قطب الدين الشيرازي والشيخ شهاب الدين السهروردي ، وكمال الدين الكاشي . وكذلك الإمام ابن أسعد اليافعي ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، والشيخ محمد المغربي الشاذلي ، والسيوطي ، والإمام الشعراني ، والشيخ عبد الغني النابلسي ، فقد أشبع في الرد على المنكرين في كتابه " الرد المتين على منتقصي العارف محي الدين " [٤] .

وفي العصر الحديث قبل ابن عربي د / عبد الحليم محمود ، ود / سعاد الحكيم ، ود / عبد الله الشاذلي وغيرهم [٥] .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٨١ ، ص ٨٤ – ٨٦ ، وتوحيد الربوبية : ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) تنبيه الغبي بتكفير ابن عربي : ص ١٨٢ .

(٣) طبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٦١ .

(٤) تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي للسيوطي : ص ٥١ – ٧٣ ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة – القاهرة ، ط بدون تاريخ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٧ ، وطبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٦١ – ١٦٣ ، وجامع كرامات الأولياء : جـ ١ ص ١٦١ .

(٥) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥٤ – ١٦٣ ، والمعجم الصوفي : ص ١١٤٥ – ١١٤٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٢٣ – ٢٤٠ .

ويكفي ما قاله الإمام السهروردي فيه " بأنه مملوء سنة من فرقه إلى قدمه [١] وبأنه " بحر الحقائق " [٢] .

وقد اعتمد هؤلاء الصوفية في قبولهم لابن عربي على مجموعة من الأمور من أهمها :

[أ] اعتقادهم صحة عقيدته .

فالإمام الشعراني يقول عنه : " وكان رضي الله عنه متقيدا بالكتاب والسنة ويقول : كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، ويقول : وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة [٣] .

[ب] قصور الناس في فهم كلام ابن عربي .

فقد ذكر الإمام السيوطي أن عدم فهم كلام ابن عربي كان من الأسباب التي أدت إلى الإنكار عليه ، وقد ضرب المثل على ذلك بما جاء عن العز بن عبد السلام فقال : " إن ما روي عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام من إنكاره مرة عليه ورفعه مرة أخرى إلى درجة القطبية من أنه كان في بداية أمره ينهج نهج الفقهاء ، ثم لما خضع إلى التصوف ولزم مجلس الشاذلي من حينئذ صار يبالغ في الثناء على الصوفية لما فهم طريقتهم على وجهها [٤] .

[ج] الدس عليه

ذكر الإمام الشعراني في دفاعه عن ابن عربي أن جميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة فهو مدسوس عليه ويذكر أن الشيخ أبا طاهر المغربي نزيل

---

(١) طبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، وتنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي : ص ٦٠ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٧ .

(٤) تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي : ص ٤٢ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١١ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٣١٨ .

مكة المشرفة أخرج له نسخة من الفتوحات وقابلها على نسخة الشيخ التي بخطة في مدينة قونية فلم ير فيها شيئا مما كان توقف فيه وحذفه حين اختصر الفتوحات [١] .

ويذكر الإمام الشعراني أن الفيروزآبادي ذكر أن الذي دس عليه هذه الأقوال شخص من اليمن اسمه جمال الدين الخياط " كتب مسائل في درج وأرسلها إلى العلماء ببلاد الإسلام ، وقال هذه عقائد الشيخ محيي الدين العربي ، وذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، فكتب العلماء على ذلك بحسب السؤال ، وشنعوا على من يعتقد ذلك من غير تثبت ، والشيخ عن ذلك كله بمعزل

قال الفيروز آبادي : فلا أدري أوجد ابن الخياط تلك المسائل في كتاب مدسوس على شيخ أو فهمها هو من كلام الشيخ محيي الدين على خلاف مراده " [٢]

[د] قبول كثير من العلماء له :

ومن الأمور التي اعتمد عليها أصحاب هذا الاتجاه أيضا : قبول العلماء له ، فقد قبل ابن عربي من خارج دائرة التصوف كثير من العلماء ذكر الشعراني والمناوي والبنهاني عددا كبيرا منهم [٣] .

ومن هؤلاء الفيروز آبادي فقد كان يقول : " لم يبلغنا عن أحد من القوم أنه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محيي الدين [٤] ، وجاء عنه أيضا : " والذي أقوله وأتحققه وأدين الله به أن الشيخ محيي الدين كان شيخ الطريقة حالا وعلما وإمام التحقيق حقيقة ورسما ومحيي علوم العارفين فعلا واسما إذا تغلغل

---

(١) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٧ – ٨ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٧ – ٩ ، وطبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٦١ – ١٦٣ ، وجامع كرامات الأولياء : جـ ١ ص ١٦١ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٧ .

فكر المرء في طرف من مجده غرقت فيه خواطره لأنه بحر لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا يتقاصي عنه الأنواء ، كانت دعوته تحرق السبع الطباق وتغترف بركاته فتملأ الأفاق ، وهو يقينا فوق ما وصفته ، وناطق بما كتبته ، وغالب ظني أنني ما أنصفته :

وما علـــى إذا ما قلـــت معتقـــدي
دع الجهـــول يظن الجهـــل عدوانا
والله والله والله العظيـــــم ومـــن
أقامـــه حجـــة للـــدين بـــرهـــانا
إن الذي قلـــت بعـــض من مناقبه
ما زدت إلا لعلى زدت نقصانا (١)

وقد ألف سراج الدين المخزومي كتابا في الرد عنه وكان يقول فيه : " كيف يسوغ لأحد من أمثالنا الإنكار على ما لم يفهمه من كلامه في الفتوحات وغيرها وقد وقف على ما فيها نحو من ألف عالم وتلقوها بالقبول " (٢)

وكتب الشيخ أحمد المقري يقول : " ابن عربي ولي صالح وعالم ناصح وإنما فوق إليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه ، على أنه تشنت في كتبه مقالات " (٣)

وقال فخر الدين الرازي : "كان الشيخ محي الدين وليا عظيما " (٤).

[هـ] الوحدة صوفية

ذهب جماعة من الصوفية ومنهم الإمام الشعراني ، وفي العصر الحديث د / عبد الحليم محمود ، ود / سعاد الحكيم ، ود / عبد الله الشاذلي (٥) ، إلى أن

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٩ .

(٣) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٣ ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط بدون تاريخ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٨ .

(٥) الأجوبة المرضية : ص ٣٩٤ . وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥٤ – ١٦٣ ، والمعجم الصوفي : ص ١١٤٥ – ١١٤٩ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٤٠

وحدة الوجود عند ابن عربي ليست وحدة وجود بالمفهوم الفلسفي كما ادعى من رمي الشيخ بأنه جعل الحق تعالى والخلق واحد ، وأنه لا موجود إلا الله ، وأنه كفر بقوله في بعض شعره :

فيحمـــدني وأحمـــده .:. ويعبدني وأعبده [١]

وأنها لا تعنى وحدة الذات مع المخلوقات ، وإنما تعنى وحدة الفاعل والموجد لا أكثر ولا أقل ، وأنها ليست " إلا بمعنى الفاعل الواحد وعدم الشريك له سبحانه في ملكيته وسلطانه [٢] ، وأنها وحدة وجود لا وحدة موجود [٣] .

يقول الإمام الشعراني : " إننا نقول حاشا شيخ المحققين من أن يريد ما فهمه المعترض عليه وإنما مراده من عبارته التي فهم المنكر ما فهم أن الوجود الحقيقي لله تعالى وحده ، وأما غيره من العوالم كلها فهو موجود بإيجاده تعالى لا بنفسه فإن شاء الحق تعالى أعدمه وإن شاء أوجده " [٤] . وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على مجموعة من الأمور .

الأول : رفض ابن عربي لوحدة الوجود المادية والروحية : فقد ثبت عنه أنه كان يقول " لو كنت سلطانا لضربت عنق كل من يقول ما ثم إلا الله لأنه يهدم بذلك جميع الشرائع وأحكامها [٥] ، كما ثبت عنه في نحو ثمانين موضعا في الفتوحات كما ذكر الإمام الشعراني " ما ثم إلا عبد تحت قهر الرب وتصريفه أزلا وأبدا " [٦]

الثاني : أن ما فهمه المنكر من أن الشيخ جعل الحق تعالى والخلق واحدا

---

(١) الأجوبة المرضية : ص ٣٩٤ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٣ ص ٢٤٠ .

(٣) قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥٦ .

(٤) الأجوبة المرضية : ص ٣٩٥ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) المرجع السابق : ص ٣٩٦ .

فهو مخطئ لأن الشيخ قد صرح بخلافه : ففي الباب ٥٥٨ من الفتوحات عند حديثه عن اسم الله البديع وبعد كلام طويل يقول : " وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق وإنما هو ما ظهر في الوجود الحق إذ لو كان عين الحق ما صح كونه بديعاً " (١) .

ويقول في الباب ٤٨ من الفتوحات أيضا : " لا يصح أبدا أن يكون الخلق في رتبة الحق كما لا يصح أن يكون المعلول في رتبة العلة " (٢)

الثالث : أن ابن عربي إن صح عنه أنه قال " لا موجود إلا الله " فإنما قال ذلك عندما تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه كما قال أبو القاسم الجنيد : " من شهد الحق غير الخلق " (٣) .

وقوله عندما سئل عن حقيقة العالم فقال : " هو محدث بإجماع ووجوده متردد بين وجود وعدم لا يخلص لأحد الطرفين فيا لها من حيرة ، ولكن العارف إذا وصل إلى مقامات القرب في بداية عرفانه ربما تلاشت عنده الكائنات وحجب عن شهودها شهود الحق تعالى لا أنها زالت من الوجود بالكلية ، ثم إذا كمل عرفانه يشهد الحق تعالى والخلق معا في آن واحد الله فاعل والعالم مفعول ، وما كان أحد يصل إلى هذا المقام ، وغالب الناس إن شهد الحق تعالى لم يشهد الخلق وإن شهد الخلق لم يشهد الحق (٤) .

---

(١) الفتوحات الملكية : جـ ٤ ص ٣١٦ الباب ٥٥٨ .

(٢) المرجع السابق : جـ ص ٢٦٢ الباب ٤٨ . والأجوبة المرضية : ص ٣٩٧ .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٣٩٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٩٠ – ٣٩٦ .

كتبت د / سعاد الحكيم في كتابها المعجم الصوفي تحت عنوان – وحدة وجود أم وحدة شهود – تقول : " كثيرا ما يتوقف الباحث أمام نتائج ابن عربي متسائلا : هل عنده وحده الوجود أم وحدة شهود ؟ ثم لا يلبث أن وحدة وجود من حيث إنها لم تبرز في صيحة وَجْد ، بل كانت نتيجة باردة لتفكير نظري " . المعجم الصوفي : ص ١٤٥ . وترجع هذا التردد إلى تطابق النتائج بين –

الرابع : أنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على ابن عربي بمجرد النص الظاهر وإنما يجب فهم مراده منه لأن مراده في كثير من هذه النصوص بخلاف ما يدل عليها ظاهرها .

يقول الإمام الشعراني موضحا ذلك : " وأما قول ابن عربي فيحمدني

= الوحدتين فتقول : " ويعود تردد الباحث بين الوحدتين إلى أنهما يتطابقان في النتيجة فكلتاهما ترى أن الوجود الحقيقي واحد وهو الله ، ولكن صاحب وحدة الشهود يقولها في غمرة الحال على حين يدافع عنها ابن عربي في صحو العلماء " .

وتقول أيضا : " ولكن الحقيقة أن وحدة الوجود – عند ابن عربي – تختلف عن وحدة شهود غيره بسبب جوهري وهو أن الشيخ الأكبر لم يقطفها ثمرة فيض فناء في الحق فناء أفناه عن رؤية كل ما سوى الحق ، فقال بعدم ما سواه ، كلا إن ابن عربي يرى الكثرة وشهوده يعطيه الكثرة وبصره يقع على الكثرة ، إذن الكثرة عنده موجودة .

وهنا نستطيع أن نقول إن " وحدته " على النقيض من وحدة الشهود تعطي كثرة شهودية ، فالنظر يقع على كثرة عنده وهذا مالا يمكن أن ينطبق على وحدة الشهود ، ولكن ابن عربي لا يقف مع الكثرة الشهودية أو بتعبير أدق المشهودة بل يجعلها كثرة معقولة لا وجود حقيقي لها ، وهي إذا أمكن التعبير بلغتنا خداع بصر وبلغة ابن عربي : خيال " . المعجم الصوفي : ص ١١٤٦ .

وتقول أيضا : " ويستحسن ألا نفهم موقف ابن عربي على أنه نظرية فلسفية قامت على دعائم منطقية ومقدمات فكرية ، فهو وإن كان قد جعل الكثرة معقولة مشهودة وغير موجودة فهذا الإرجاع ليس تعملا فكريا ، كما يظن البعض ، ونقول ردا على من جعل وحدة ابن عربي الوجودية نظرية فلسفية تقررت باستدلال نظري ، وإن الواقع عكس ذلك لأن النظر الفكري كما يقول شيخنا الأكبر : يعطي وجود المخلوقات التي من شأنها إن لم تكثر الوجود ، فعلى الأقل تحدده بثنائية كلاسيكية : حق خلق . وإن الذي يعطي الوحدة الوجودية هو الشهود المعجم الصوفي : ص ١١٤٦

وتقول : " ونستطيع أن نلخص موقفه قائلين إنه : شهود لوحدة الوجود ، ونوضح كلامنا بأن نقول : إن وحدة الوجود عند ابن عربي إن كانت ثمرة فكر نظري ، أرجع الكثرة المشهودة إلى حقيقتها الواحدة ، فهي في اللحظة الثانية شهود لهذا النظر الفكري ولكن تآلف الفكر مع الشهود فدعم كل منها الآخر ، حتى صعب التفريق بين حدود كل منهما ، وإن كنا نظن بأسبقية الفكر على الشهود " المعجم الصوفي : ص ١١٤٧ .

وتختم كلامها قائلة : " وحدة الوجود عنده ثمرة تفكره في الكتاب والسنة ، ثم شهوده لهذا التفكير . المعجم الصوفي : ص ١١٤٧ .

وأحمده ويعبدني وأعبده .... فلا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على الشيخ بسبب ذلك لأن مراده أن الله تعالى يحمده أي يشكره على طاعته فضلا منه تعالى ، ويحمد هو ربه على توفيقه لذلك .

وأما قوله : فيعبدني وأعبده ، فمعنى يعبدني أي يطيعني ويعطيني ما أسأله فيه من الرزق والمغفرة مثلا ، ومعنى وأعبده ظاهر لا يحتاج إلى شرح ، والعبادة في اللغة هي الطاعة .

قال تعالى ﴿ لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ (١) أي لا تطيعوه ، فالشيخ قال ما ذكر نظراً للمعنى ، مع أن الشيخ يعرف أن معنى العبادة هو الذلة والانكسار والخضوع ولا يجوز إطلاقه على الحق جل وعلا ، بل صرح في كتبه وقال : لا يجوز لنا أن نسمي الله تعالى إلا بما سمي نفسه " (٢) .

ويذكر الإمام الشعراني أنه سأل الشيخ على المرصفي - رحمه الله - " عن معنى البيت المذكور فقال : معناه يحمدني فضلا منه إذا أطعته بامتثال الأمر واجتناب النهي ، وأحمده أنا على ذلك ، ويطيعني إذا أطعته أي باستجابة دعائي " (٣)

الخامس : خطأ البعض في اتهام ابن عربي بوحدة الوجود معتمداً على قوله بشيئية المعدوم وأن الأعيان ثابتة في العدم (٤) . وذلك لأن ابن عربي شرح هذا الثبوت وفسره بأنه لا يخرج عن إحاطة العلم الإلهي أزلا هذا العلم الذي يحيط بنا وكأننا موجودون ماثلون تحت سمع وبصر الحق قدر علينا فيه جميع أحكامنا والمهايا الخاصة بكل موجود فينا (٥) .

---

(١) سورة يس آية ٦٠ .

(٢) الأجوبة المرضية : ص ٣٩٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) توحيد الربوبية : ص ١٤٣ ، ص ١٦٣ ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦ ، ص ٨ - ٢٠ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٣٢٤ .

ومما يدل على ذلك قول ابن عربي : " فهو قد علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها " (١) ، وصرح بذلك في موضع آخر فقال : " ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلا والعالم معدوم غير موجود وإن كان ثابتاً في العلم في عينه ثم أوجد العالم (٢) كما فسر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (٣) بأن معيته في العدم بالعلم وفي الوجود بالخلق (٤) .

السادس : أن ابن عربي حين قال " الله عين الموجودات والموجودات مظاهر ومجال للحق " .

وقوله :

فقل للحق إن الحــق ما هــو
سواه فهو حــق في الحقيقــة
فلم أنظر بعينـــي غير عيني
فعين الحق أعيان الخليقة (٥)

وأمثال ذلك من أقواله فإنه " لم يقصد ... ما فهمه المعترض وذلك لأن ابن عربي صرف العينية من الذوات إلى الوجود (٦) . فالله عند ابن عربي عين وجود الموجودات لا عين ذواتها ، وقد جاء ذلك في قول ابن عربي : " إن الحق عين الوجود لا أمر آخر " (٧) ، وقال أيضا : " وإن كان هو عين وجود الأشياء

---

(١) فصوص الحكم : جـ ١ ص ٦٣ .

(٢) الفتوحات المكية : جـ ١ ص ٣٧ .

(٣) سورة الحديد آية ٤ .

(٤) الفتوحات : جـ ٢ ص ١١٨ ، الباب ٧٣ ، السؤال السابع والعشرون ومائة ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٥) الفتوحات : جـ ٢ ص ٩٤ ، الباب ٧٣ ، السؤال ٨٨ .

(٦) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٣٥ .

(٧) الفتوحات : جـ ١ ص ٣٢٨ ، الباب ٦٧ .

فإنه ليس عين الأشياء " (١) .

وعينية الوجود عند ابن عربي هي فعله الساري في المخلوقات الذي لو لم يكن " لما صح الوجود فهو عين الوجود " (٢) ، وهي عينية التدبير والتقدير لا عينية حقيقية وإنها قيومية تدبيره وتصريفه " (٣) .

السابع : أن ابن عربي أحس إزاء لوم معاصريه ما يمكن أن تثيره أفكاره فيمن بعده فأقام الحجج والبراهين المتنوعة لإثبات أن الحق غير الخلق ذاتا وصفة من كل وجه ، وما من مناسبة إلا وأعلن فيها الفصل بين الموجودين فصلاً تاما (٤)

من ذلك قوله مبينا انفصاله عن خلقه قبل وجودهم وبعد وجودهم : " كان الله ولا شيء معه ثم أدرج فيه وهو الآن على ما عليه كان لم يرجع إليه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها بل كان موصوفاً لنفسه ومسمى قبل خلقه بالأسماء التي يدعونه بها خلقه " (٥) .

وقد علل ابن عربي بقاء الحق فيما لا يزال كما كان في الأزل بأنه لو استوطن الكون لجاز عليه الانتقال ولحدد بحدود العالم وقيد به ولزمته الجسمية والاحتياج وكلها أمور باطلة فقال : " كل من استوطن موطنا جازت عنه رحلته وثبت نقلته ، من حاذى بذاته شيئا فإن التثليث يحده ويقدره وهذا يناقض ما كان العقل من قبل يقرره " (٦) .

---

(١) الفتوحات : جـ ٢ ص ٢١ الباب ٧٣ .

(٢) فصوص الحكم : جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٣٨ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤٠ .

(٥) الفتوحات المكية : جـ ١ ص ١١٩ ، الباب السادس .

(٦) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٩ .

ويقول أيضاً : " القديم لا يقبل الطارئ فلا تمار ولو أحدث في نفسه ما ليس منها لكان بعدم تلك الصفة ناقصاً عنها ، ومن ثبت كماله بالعقل والنقل فلا ينسب إليه النقص " (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله في الباب الأول من الفتوحات : " أنت الأنا – أي النفس – وأنا أنا فلا تطلبني فيك فتتعنى ولا من خارج فما تتهنى ولا تترك طلبي فتشقى ، فاطلبني حتى تلقاني فترقى ، ولكن تأدب في طلبك وأحضر عند شروعك في مذهبك وميز بيني وبينك " (٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله في الباب الخامس من الفتوحات : " بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميز العابد من المعبود " (٣) ، وقال أيضاً في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات : " فالعبد عبد على أصله والربوبية ربوبية على أصلها " (٤) ، إلى غير ذلك من النصوص التي تفيد فصل ابن عربي بين الخالق والمخلوق فصلا تاما يهدم القول بالوحدة .

إن ابن عربي وقد عاني من علماء عصره ومن جمودهم عن فهم آرائه أو رغبة البعض في البعد بالعامة والخاصة عن هذه الأفكار لغنانا في العقيدة عنها ختم حديثه عن رأيه في التوحيد والمسائل الكلامية بإعلان عقيدته وشهادة حملها أعناق الناس وقلوبهم كي يهدأ من حوله ولا يثور من بعده (٥) .

ففي مقدمة الفتوحات وتحت عنوان – فصل يتضمن ما ينبغي أن يُعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام – كتب يقول : " يا إخوتي المؤمنين ختم الله لنا

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٩ – ٤٠ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٥٠ ، الباب الأول .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٠٢ ، الباب الخامس .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٩٤ ، الباب الثالث والسبعون ، السؤال السابع والثمانون .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٤٥ .

ولكم بالحسنى لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١) فاشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بأحديته لما علم عليه السلام أن الله سبحانه يوقف عباده ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم ... وإذا كان العدو لابد أن يشهد لك بما أشهدته به على نفسك فأحرى أن يشهد وليك وحبيبك ومن هو على دينك وملتك وأحرى أن تشهده أنت في الدار الدنيا على نفسك بالوحدانية والإيمان فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب .... أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضر من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقداً أن الله تعالى إله واحد ... موجود بذاته ... " (٢) .

ثم أخذ يسرد عقيدته والتي لا تختلف عن ما أعلنه أهل السنة والجماعة ، ثم ختم حديثه قائلا : " فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلها حيثما كان نفع الله وإياكم بهذا الإيمان ، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان وأحلنا دار الكرامة والرضوان " (٣) .

وعليه ومن خلال ما سبق ذكره فإن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة وجود بالمفهوم الصوفي ، وأن الرجل كان صاحب عقيدة سليمة عبر عن رأيه بجرأة وبعمق ، وأنه أحس بخطورة كلامه فأعقبه بما يدل على الفصل التام بين الخلق والمخلوق فصلا ينفي عنه تهمة القول بوحدة الوجود بالمفهوم المادي والروحي .

---

(١) سورة هود آية ٥٤ .

(٢) الفتوحات : جـ ١ ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٨ . والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ٢٤٥

الثالث : اتجاه التفويض

اتجه فريق ثالث من الصوفية إلى اعتقاد ولايته وتفويض أمره إلى الله تعالى ، وتحريم النظر في كتبه على من لا يستطيع فهمها خوفا عليه ، واعتمدوا في ذلك على أمرين :

الأمر الأول : أنه لم يثبت بالطريق المقبول في نقل الأخبار أنه قال هذه الكلمات بعينها ، وأنه قصد بها معناها المتعارف عليه .

الأمر الثاني : أنه على تقدير ثبوت أصل الكتاب فلابد من ثبوت كل كلمة ، لاحتمال أن يدس في الكتاب ما ليس من كلامه من عدو أو ملحد (١).

ومن هؤلاء الإمام الشاذلي ، والسيوطي ، وابن عجيبة : يقول ابن مغيزيل : " وتوقف فيه طائفة والله قلت : هذا غير ما أجاب به سيد علماء الطريقة ... أبو الحسن الشاذلي فإنه لما سئل عنه وكان السائل فقيها فقال : هو زنديق ، ثم سأله بعض الصوفية عنه أيضاً فقال : هو صديق ، فأجاب كل واحد بما يعتقده " (٢).

وأما الإمام السيوطي فيقول : " والقول الفصل عندي في ابن عربي لا يرضاها فرقتا أهل العصر لا من يعتقده ، ولا من يحط عليه ، وهي اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه " (٣) .

بل يذكر أن ابن عربي نقل عنه أنه قال : " نحن قوم يحرم النظر في كتبنا وذلك أن الصوفية تواطئوا على ألفاظ اصطلحوا عليها وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارف منها فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر وكفرهم ، ومن حمله على ظاهره كفره وله معنى سوى المتعارف عليه منه " (٤)

ويختم كلامه قائلا : " إن السكوت عنه أسلم وهذا اللائق بكل ورع يخشى

---

(١) تنبيه الغبي للسيوطي : ص ٤٣ .

(٢) الكواكب الزاهرة : ص ٢٤٥ .

(٣) تنبيه الغبي للسيوطي : ص ٤٣ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

على نفسه " [١] ، بل هو نصف الولاية على حد تعبير ابن عجيبة [٢] .

وقد وافق هذا الفريق من خارج دائرة التصوف جماعة من العلماء منهم الإمام النووي ٦٧٦ هـ ، وابن أبي زرعة ، والكتبي .

فقد سئل الإمام النووي عنه فقال : " الكلام كلام صوفي وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت " [٣] . وحكى عن شيخه الخوري أنه سئل عنه فقال : " اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية ، والتسليم واجب ، ومن لم يذق ما ذاق القوم ويجاهد مجاهدتهم لا يسعه من الله الإنكار عليهم " [٤] .

وقال ابن أبي زرعة في شأنه : " إن يعترض على الكلام ويترك القائل لاحتمال توبته " [٥] .

وقال الكتبي صاحب فوات الوفيات : " وعلى الجملة فكان رجلا صالحا عظيما والذي نفهمه من كلامه حسن والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله " [٦] .

والذي نميل إليه ونرجحه هو الاتجاه الثالث لأنه وسط بين القبول والرفض ولأن في التسليم السلامة ، وهي أحوط عن إرسال العنان .

[٤] التبرؤ من أهل الوحدة

لم يكتف أهل التصوف الحق بإعلان رفضهم لوحدة الوجود بل أعلنوا تبرأهم أيضا ممن يثبت عليه ذلك ، وذلك من خلال : الحكم عليهم بأنهم ليسوا من

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٣٣٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) طبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٦ .

(٥) الفتوحات الإلهية : ص ٣٣٦ .

(٦) الكتبي : فوات الوفيات : جـ ٣ ص ٤٣٨ ، تحقيق د / إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط بدون تاريخ .

الصوفية وإنما هم دخلاء وأهل ضلال وفساد كما وصفهم الشعراني [١] ، أو أهل جهل وغفلة وإلحاد كما وصفهم النابلسي [٢] .

ويشتد حكم الصوفية على هؤلاء حين يذكر الشيخ على الخواص بأنهم زنادقة ، وأنهم أنجس الطوائف لأنه لا " يعلم أحد من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء ، فإن طائفة من النصارى قالت : المسيح ابن الله وكفرهم القوم الآخرون ، وطائفة من اليهود قالت : العزير ابن الله وكفرهم القوم الآخرون فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى " [٣] .

ويصل الأمر إلى نهايته حين يحكم الشيخ أفضل الدين على من يقول ذلك بالقتل قائلا : " لو كنت حاكما لضربت عنق كل من قال لا موجود إلا الله ، ونحو ذلك من الألفاظ ، لأنه لم يأت بذلك شريعة " [٤] .

وعليه فقد حكم أهل التصوف على من يثبت عليه القول بوحدة الوجود بالكفر واستحقاق القتل .

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٥٠٤ .

(٢) الوجود الحق للنابلسي : ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٥٠٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٥٠٥ ، وأبجدية التصوف : ص ٣٢ .

رابعاً: رؤية الله بالأبصار في الدنيا وموقف الصوفية منها

ذكرنا من قبل أن أهل التصوف وافقوا أهل السنة والجماعة في القول بإمكان الرؤية ووقوعها في الآخرة وإن اختلفوا في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج ، والشيء الغريب هو ادعاء بعض الأدعياء وقوع الرؤية البصرية لهم في دار الدنيا (١) .

فالإمام الطوسي يذكر في اللمع ، ويوافقه الكلاباذي في التعرف ، والسلمي في غلطات الصوفية " بأن جماعة من الصوفية في زمن عبد الواحد بن زيد ١٧٧ هـ ومنهم ابن أخته ، وكذلك جماعة أخرى من أهل دمشق في زمن أبي سعيد الخراز ٢٧٧ هـ ، قالوا بذلك وبأن أبا سعيد أرسل إلى الذين قالوا بذلك من أهل دمشق واتهمهم بالتيه والضلال (٢) .

ويشير الطوسي بأنه في زمن سهل بن عبد الله ٢٨٣ هـ قال له بعض تلامذته : " يا أستاذ أنا في كل ليلة أرى الله بعيني رأسي " (٣) ، ويقول الطوسي أنه بلغه أن جماعة من أهل الشام لم ير أحداً منهم ادعوا أن الرؤية بالقلوب في دار الدنيا كالرؤية بالعيان في دار الآخرة (٤) .

ويذكر الشعراني بأنه في زمن الشيخ عبد القادر الجيلاني ادعى بعض الأشخاص رؤية الله (٥) .

جهود الصوفية في مواجهة دعوى الرؤية في الدنيا

بذل أهل التصوف الحق جهوداً عدة في مواجهة هؤلاء الأدعياء تمثلت في

---

(١) معتقد ابن خفيف : ص ٧٩ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥٤٤ – ٥٤٥ . والتعرف : ص ٥٧ . وغلطات الصوفية : ص ١٩٠ .

(٣) اللمع : ص ٥٤٤ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٢٨ . والكواكب الزاهرة : ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٤ – ٣٧٥ .

مجموعة من الأمور منها :

[١] تحديد الأسباب

من بين الجهود التي بذلها الصوفية في مواجهة هذه الدعوى قيامهم بتحديد الأسباب التي أدت إلى الوقوع في القول برؤية الله بالأبصار في الدنيا .

فالطوسي يذكر في اللمع أن الذي أدى بهؤلاء إلى ما ادعوه المبالغة في المجاهدة والإعجاب بها والوسوسة فيقول : " والذي تاه وتوسوس في هذا المعنى قوم من أصحاب الصبيحي من أهل البصرة كما بلغني ، وقد رأيت جماعة منهم وذلك أنهم حملوا على أنفسهم في المجاهدة والسهر وترك الطعام والشراب والانفراد والخلوة وكثرة التوكل ، وصحبهم الإعجاب مع ذلك بما هم فيه فاصطادهم إبليس لعنه الله ، فخيل إليهم كأنه على عرش أو سرير وله أنوار تشعشع : فمنهم من ألقى إلى بعض ... الذين يعرفون مكايد العدو ، فعرفوهم ذلك ودلوهم وردوهم إلى الاستقامة " (١) .

ويؤكد ذلك فيقول : " حكي عن سهل بن عبد الله – رحمه الله – أن بعض تلامذته قال له يوما : يا أستاذ أنا في كل ليلة أرى الله بعيني رأسي فعلم سهل رحمه الله أن ذلك من كيد العدو فقال له يا حبيبي : إذا رأيته الليلة فابزق عليه ، قال : فلما رآه من ليلته بزق عليه قال : فطار عرشه ، وأظلمت أنواره ، وتخلص من ذلك الرجل ولم ير شيئا بعد ذلك " (٢) .

وقال أيضا : " وبلغني أن عبد الواحد رحمه رأي واحدا من تلاميذه الذين هربوا منه – بعد مدة – فسأله عن خبره وخبر أصحابه فقال : يا أستاذ نحن كل ليلة ندخل الجنة ونأكل من ثمارها ، قال : فقال له : خذوني الليلة معكم ، قال : فأخرجوه معهم إلى الصحراء ، فلما جنهم الليل فإذا بقوم عليهم ثياب خضر ،

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٤٤ – ٥٤٥ ، ورسالة غلطات الصوفية : ص ١٩٠ .

وإذا بساتين وفواكه ، قال : فنظر عبد الواحد إلى أرجل هؤلاء الذين عليهم الثياب الخضر ، فإذا هي مثل حوافر الدواب فعلم أنهم شياطين ، فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم : أين تذهبون ، أليس إدريس النبي ﷺ لما دخل الجنة لم يخرج منها ؟ قال : فلما أصبحوا فإذا هم على مزابل بين روث الدواب وبعر الحمار ، فتابوا ورجعوا إلى صحبة عبد الواحد بن زيد – رحمه الله – (١) .

ويذكر الإمام الجيلاني أن نوراً تراءى له مرة ملأ الأفق ثم بدت له فيه صورة فنادته : " يا عبد القادر أنا ربك وقد أسقطت عنك التكاليف فإن شئت فاعبدني وإن شئت فاترك ، فقلت له إخسأ يا لعين ، فإذا ذلك النور قد صار ظلاماً ، وتلك الصورة صارت دخانا ، ثم خاطبني اللعين وقال لي يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأحكام ربك وفقهك في أحوال منازلاتك ، ولقد أضللت بمثل الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقيل للشيخ من أين عرفت أنه شيطان ؟ فقال بإحلال ما حرمه الله على لسان رسوله ﷺ فإنه لا يحرم شيئا على ألسنة رسله ثم يبيحه لأحد في السر أبدا " (٢) .

ويضيف الإمام الجيلاني إلى ما ذكره الطوسي سببا آخر هو ظن البعض وتوهمه أن المكاشفة رؤية بصرية .

يقول الإمام الشعراني : " قيل للإمام الجيلاني : إن فلانا يزعم أنه يرى الله تعالى بعيني رأسه فأرسل الشيخ خلفه وقال : أحق ما يقول هؤلاء عنك ؟ فقال نعم فانتهره الشيخ وزجره عن هذا القول ، وأخذ عليه العهد أن لا يعود إليه ، فقيل للشيخ أمحق هذا الرجل أم مبطل ، فقال محق ملبس عليه وذلك أنه شهد ببصيرته نور ذلك الجمال البديع ثم حق من بصيرته إلى بصره فنفذ فرأى ببصره بصيرته حال اتصال شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره الظاهر رأى ما شهدته بصيرته وإنما رأى بصره حقيقة بصيرته فقط من حيث لا يدري ، قال تعالى :

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤٥ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٢٨ .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ (١) . وكان جمع من المشايخ حاضرين فأعجبهم هذا الجواب وأطربهم ودهشوا من حسن إفصاحه ﷺ عن حال ذلك الرجل " (٢) .

[٢] الإجماع على الرفض

وبالإضافة إلى تحديد الأسباب ، فقد أجمع أهل التصوف عل رفض رؤية الله بالأبصار في الدنيا ، وقد حكى هذا الإجماع الكلاباذي والقشيري والجيلاني والشعراني (٣) .

وقد جاء على لسان كثير منهم ما يفيد رفضهم لهذه الدعوى ، فسهل بن عبد الله ٢٨٣ هـ يقول : " ذات الله تعالى موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا " (٤) .

وجاء عن الجنيد ٢٩٧ هـ أنه كان يقول : " لن تراه الأبصار في هذه الدار بمشاهدة العيان ، ولكن تعرفه القلوب بحقائق الإيمان ، ثم تترقى من المعرفة إلى الرؤية بمشاهدة نور الامتنان " (٥) .

ويقول ابن خفيف ٣٧١ هـ : " الرؤية في الدار الدنيا محال " (٦) ، ولم يرضى ابن خفيف اتهام الصوفية بهذه الدعوى فقال في معتقده : " وقرأت لمحمد ابن جرير الطبري في كتاب سماه " التبصير " كتب بذلك إلى أهل طبرستان في

---

(١) سورة الرحمن آية ١٩ ، ٢٠ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٢٨ . والكواكب الزاهرة : ص ٣٧٢ .

(٣) التعرف : ص ٥٦ ، والرسالة القشيرية : ص ٣٦٠ ، والغنية : جـ ١ ص ٨٦ ، والكواكب الزاهرة : ص ٣٧٢ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٤) الرسالة : ص ٣٠٠ ، ٤٣٠ .

(٥) ابن عجيبة . إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ٦٢٠ – ٦٢١ ، تقديم ومراجعة / محمد أحمد حسب الله ، دار المعارف ، ط بدون تاريخ .

(٦) معتقد ابن خفيف : ص ٧٩ بتصرف .

اختلاف عندهم وسألوه أن يصنف لهم ما يعتقده ويذهب إليه فذكر في كتابه اختلاف القائلين برؤية الله تعالى وذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة ونسب هذه المقالة إلى الصوفية قاطبة ، لم يخص طائفة ، فبين أن ذلك على جهالة منه بأقوال المخلصين منهم ، وكان من نسب إليه ذلك القول بعد أن ادعى على الطائفة ابن أخت عبد الوحد بن زيد والله أعلم بمحله عند المخلصين فكيف بابن أخته ؟ وليس إذا أحدث الزائغ في نحلته قولا نسب إلى الجملة " [١] .

وذكر الإمام الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد : أن رؤية الله بالأبصار في الدنيا مستحيلة [٢] .

ويضاف إلى ما سبق قيم بعض الصوفية بتأليف الكتب في الرد على من يقول بذلك : فالطوسي يذكر أن أبا سعيد الخراز ٢٧٧ هـ قد ألف كتابا في الرد على من وقع في ذلك من أهل دمشق وأرسله إليهم [٣] .

كذلك أخبر الكلاباذي في التعرف أن الإمام الجنيد كتب في تكذيب وتضليل من ادعاه رسائل وكلاما كثيراً [٤] ، ويمكن لنا أن نعد ضمن هذه الكتب أيضاً اللمع للطوسي ، والتعرف للكلاباذي ، والرسالة للقشيري ، فقد ردوا فيها على من قال بذلك .

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذه الدعوى وبطلانها على مجموعة من الأدلة النقلية والعقلية :

أولاً : الأدلة النقلية

من الأدلة النقلية التي استدل بها الصوفية على بطلان هذه الدعوى قوله تعالى

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص ٣٣ – ٣٩ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، بدون تاريخ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٤٤ .

(٤) التعرف : ص ٥٧ .

لموسى حين سأله الرؤية قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ (١)

فعن ابن عباس أنه قال :" تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال يا موسى : إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، إنما يراني أهل الجنة ، لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسامهم " (٢) .

ومنها ما جاء عن الرسول ﷺ أنه قال : " لن يرى أحدكم ربه حتى يموت " (٣) (٤) .

ثانياً : الأدلة العقلية

[أ] إن الرؤية غاية الكرامة وأفضل النعم ، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا في أفضل الأماكن ولو أعطوا في الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق .

[ب] إن الله سبحانه منع كليمه موسى عليه السلام ذلك في الدنيا فكان من هو دونه أحرى .

[ج] إن الدنيا دار فناء ولا يجوز أن يرى الباقي في الدار الفانية ، ولو رأوه في الدنيا لكان الإيمان به ضرورة .

[د] إن الله سبحانه وتعالى أخبر بأنها تكون في الآخرة ولم يخبر أنها تكون في الدنيا فوجب الانتهاء إلى ما أخبر الله تعالى به (٥) .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) الحديث ذكره أبو نعيم في الحلية : جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٥ ص ٤٣٣ عن عمران بن ثابت عن أحد أصحاب النبي بلفظ : " إنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت " .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١١٩ .

(٥) التعرف : ص ٥٦ ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١١٣ .

التبرؤ من القائلين بالرؤية البصرية في الدنيا

لم يكتف أهل التصوف الحق بإعلان رفضهم القول بوقوع الرؤية بالأبصار في الدنيا بل أعلنوا تبرأهم ممن يقول بذلك :

فالإمام المحاسبي يرمي من يدعي ذلك بالكذب (١) ، ويرميهم الجنيد بالضلال (٢) ، ويذكر الكلاباذي أن المشايخ أطبقوا على ذلك ، وزعموا أن من ادعى ذلك لم يعرف الله – عز وجل – (٣) .

ويذهب ابن عجيبة إلى أن هذا بدعة تقدح في أصول الإيمان (٤) ، وأشد من ذلك الرمي بالزندقة فقد قال أحمد ابن إدريس :

ومن قال في دار الحياة رأيتـــه

فذلك زنديق طغي وتمردا (٥)

---

(١) أستاذ السائرين : ص ١١٣ .

(٢) التعرف : ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٧ – ٥٨ .

(٤) الفتوحات الإلهية : ص ٣٦٧ .

(٥) محمد طاهر خراش العدوي : الحق الجلي ص ٦١ – ٦٢ ، الناشر دار جوامع الكلم ، القاهرة ، ط بدون تاريخ .

خامساً : القول بالجبر وموقف الصوفية منه

ذكر الطوسي والسلمي أن بعضا ممن انتسبوا إلى التصوف قالوا إنهم مجبرون على حركاتهم ليسقطو بذلك اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع (١) ، وعنهم يقول السهروردي : " ومن أولئك – أي من الأدعياء – قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد ولا يثبتون ؟ ويسقطون لنفوسهم حركة وفعلا ويزعمون أنهم مجبرون على الأشياء وأن لا فعل لهم مع فعل الله " (٢) .

وقد اتهم بذلك من الصوفية البسطامي والحلاج ، أما أبو يزيد فقد اتهمه بذلك ابن سالم ومستدلا عليه بما روي عن أبي يزيد حين اجتاز " بمقبرة اليهود فقال معذرون ، ومر بمقبرة المسلمين فقال : مغرورن " (٣) ، فقد عد التماس البسطامي العذر لليهود دليلا على أنه كان يرى أنهم كانوا مجبورين فيما فعلوه .

أما الحلاج فقد اتهم بذلك أيضا وقد اعتمد من اتهمه بذلك على أمرين :

الأول : تسويته بين إيمان موسى عليه السلام وبين كفر فرعون .

فقد جاء في أخبار الحلاج عن عثمان بن معاوية أنه قال : " بات الحلاج في جامع دينور ومعه جماعة فسأله واحد منهم وقال : يا شيخ ما تقول فيما قال فرعون ؟ قال : كلمة حق ، فقال : ما تقول فيما قال موسى ؟ قال : كلمة حق ، لأنهما كلمتان جرتا في الأبد كما جرتا في الأزل " (٤)

وجاء في أخبار الحلاج أيضا عن ابن أخته أنه قال : " رأيت بخط خالي : من

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٩٥ . ورسالة غلطات الصوفية للسلمي : ص ١٩٢

(٢) عوارف المعارف : ص ٧٢ .

(٣) اللمع للطواسي : ص ٤٧٤ . وشطحات الصوفية : ص ٢٩ .

(٤) أخبار الحلاج : ص ٤٩ .

فرق بين الكفر والإيمان فقد كفر ومن لم يفرق بين الكافر والمؤمن فقد كفر " [١]

الثاني : التماسه العذر لإبليس .

وعن هذا الأمر يقول طه عبد الباقي سرور : " وقد انبثقت ... نظرية حلاجية أخرى في الجبر ، فالحلاج يرى أن الله شغل بكل دين طائفة لا اختياراً منهم ، بل اختياراً عليهم ، فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه ، فقد حكم بأنه اختار ذلك لنفسه ، والجبر يقتضي الفرق بين الإرادة والأمر ، والحلاج لا يقسوا على إبليس بل يشفق عليه في رفضه السجود لآدم لأن الله سبحانه أراد عدم السجود في الأزل ، رغم الأمر بالسجود وإبليس رأى أن هذا الأمر ظاهري فقط ، وهو في حقيقته ابتلاء : والله وحده سبحانه هو الحقيق بالسجود له " [٢] .

ويستدل على ذلك فيقول : " يقول الحلاج : لما قيل لإبليس اسجد لآدم خاطب الحق ، ارفع شرف السجود عن سري إلاك حتى أسجد له ؟ إن كنت أمرتني ، فقد نهيتني . قال فإني أعذبك عذاب الأبد !! فقال : ألست تراني في عذابك لي ؟ قال : بلى ؟ فقال فرؤيتك لي تحملني على رؤية العذاب ، افعل لي ما شئت " [٣] .

ويختم كلامه قائلاً : " وإبليس عند الحلاج من أهل الفتوة لأنه هدد بالعذاب الخالد فلم يرجع عن دعواه التي آمن بها !! ؟ " [٤]

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٧ .

(٢) طه عبد الباقي سرور : الحلاج شهيد التصوف الإسلامي : ص ١٦٥ - ١٦٦ ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط ٣ (١٩٩٦ م) .

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٦ .

(٤) المرجع السابق نفسه . والطواسين للحلاج : ص ١٠١ - ١٠٥ طاسين الأزل : ص ١٠٥ - ١٠٦ طاسين المشيئة .

جهود الصوفية التصحيحية في مواجهة دعوى الجبر

تصدى أهل التصوف الحق لهذه الدعوى وبذلوا جهودا عدة لمواجهتها تمثلت في :

[١] تحديد الأسباب

من بين الجهود التي قام بها الصوفية في مواجهة هذه الدعوى قيامهم بتحديد الأسباب التي أدت إلى القول بالجبر :

فالطوسي في اللمع يرجع ذلك إلى قلة معرفتهم بالأصول والفروع ، فلم يفرقوا بين الأصل والفرع ولم يعرفوا الجمع والتفرقة ، فأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع ، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة فلم يحسنوا وضع الأشياء في موضعها فهلكوا (١) .

ويؤكد السلمي كلام الطوسي ويضيف إليه شيئا آخر هو محاولة القائل بذلك رفع اللائمة عنه في ركوب المآثم (٢) .

[٢] رفض القول بالجبر

في مواجهة هذه الدعوى رفض أهل التصوف الحق " الجبر ذاكرين أن الجبر لا يكون إلا بين الممتنعين ، وهو أن يأمر الآمر ويمتنع المأمور فيجبره الآمر عليه " (٣) .

ويرجع رفض الصوفية هذه الدعوى لعدة أمور منها :

أ – أن القول بالجبر يؤدي إلى الهلاك وإلى هدم الشرائع (٤) .

ب – كما أنه يؤدي إلى سوء الأدب مع الله تعالى وإقامة الحجة على الله جل وعلا (٥)

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤٩ .

(٢) رسالة غلطات الصوفية : ص ١٩٢ .

(٣) التعرف : ص ٦٣ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٤٤ .

ج – عدم وجود الجبر في كسب الإيمان والكفر والطاعة والمعصية . يقول الكلاباذي : " ولم نجد هذه الصفة في اكتسابهم الإيمان والكفر والطاعة والمعصية بل اختار المؤمن الإيمان وأحبه واستحسنه وأراده وآثره على ضده ، وكره الكفر وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضده ، والله خلق له الاختيار والاستحسان والإرادة للإيمان والبغض والكراهة والاستقباح للكفر فقال الله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ (١) .

واختار الكافر الكفر واستحسنه وأحبه وأراده وآثره على ضده وكره الإيمان وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضده . والله تعالى خلق ذلك كله ، قال الله ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (٢)، وقال : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٣) .

وليس أحدهما بممنوع عن ضد ما اختاره ، ولا بمحمول على ما اكتسبه ولذلك وجبت حجة الله عليهم وحق عليهم القول من ربهم ، ومأوى الكافرين النار بما كانوا يكسبون : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) ويفعل الله ما يشاء : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٥) (٦) " .

[٣] موقف الصوفية من دعوى الجبر عند البسطامي والحلاج

ذكرنا من قبل موقف الصوفية من البسطامي والحلاج وسوف نكتفي هنا ببيان موقف الصوفية من دعوى الجبر عندهما .

---

(١) سورة الحجرات آية ٧ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٤) سورة الزخرف آية ٧٦ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٦) التعرف : ص ٦٣ – ٦٤ .

أما عن موقفهم من دعوى الجبر عند أبي يزيد فنقول : إن الإمام الطوسي دفع عن أبي يزيد هذه الشبهة وقام بشرح كلامه هذا شرحا يبعد عنه هذه التهمة فقال :" وأما قوله عند اجتيازه بمقبرة اليهود معذرون أي كأنهم معذرون ، فكأنه لما نظر إلى ما سبق لهم من الله بالشقاوة واليهودية من غير فعل كان موجودا في الأزل ، وأن الله تعالى جعل نصيبهم منه السخط عليهم ، فكيف يتهيأ لهم أن يكونوا مستعملين إلا بعمل أهل السخط ؟ فقال كأنهم معذرون ، وهم غير معذورين من حيث ما رسم القلم ونطق به الكتاب وما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) ، و﴿ نَحْنُ أَبْنَاء اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (٢) والله عدل في جميع ما حكم ، حكيم في جميع ما رسم ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٣) (٤) .

وأما عن موقفهم من دعوى الجبر عند الحلاج فنقول : بالرغم من خطورة هذه الدعوى فلم أجد لها معالجة عند أهل التصوف ولعلهم شغلوا بدعوى الحلول عنده عن دعوى الجبر ، أو لعلهم اكتفوا بإعلان الرفض للجبر مطلقا دون الاعتناء بمن اتهم به .

ومع هذا فإننا نقول مقتدين بأستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي بأنه لا يوجد مبرر يبرر به أقوال الحلاج السابقة لمخالفتها ما جاء به الإسلام وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٥) (٦) .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٠ .

(٢) سورة المائدة آية ١٨ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٧٤ .

(٥) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٦) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٩١ . والعقيدة الحقة : ص ١٠٥ .

[٤] التبرؤ من القائلين بالجبر

بالإضافة إلى ما سبق فقد تبرأ أهل التصوف الحق ممن يقول بالجبر ذاهبين إلى أنه من الهالكين ومن الخارجين على حدود الملة والدين [١] .

ويكفي دليلاً على ذلك : ما جاء على لسان سهل بن عبد الله ٢٨٣ هـ حين سئل " عن رجل يقول أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما صديق أو زنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية ، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله وإسقاطا للأئمة عن نفسه وانخلاعا عن الدين " [٢] .

وبما جاء عن الجنيد – رحمه الله – ٢٩٧ هـ حين قال : " لو كنت حاكما لضربت عنق من سمعته يقول ... ليس لي فعل مع الله ، لأن ظاهر كلامه هدم أحكام التكاليف " [٣]

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٤٩ ، وغلطات الصوفية : ص ١٩٢ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٧٢ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ .

الفصل الثاني

- تنقية العقيدة في مجال النبوات والسمعيات

الفصل الثاني

تنقية العقيدة في مجال النبوات والسمعيات .

تمهيد :

سار الصوفية في مجال النبوات والسمعيات على نفس المنهج الذي ساروا عليه في مجال الإلهيات ، وقد برز ذلك واضحاً في إعلانهم عن موقفهم من مسائل النبوات والسمعيات مبينين أن موقفهم منها هو موقف السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ، ومحاربتهم الانحرافات التي ظهرت في الوسط الصوفي وتتعلق بمسائل النبوات والسمعيات كالقول باكتساب النبوة ، وعدم ختمها ، وتفضيل الأولياء على الأنبياء ، وختم الولاية ، وتفضيل الخاتم على الصحابة رضوان الله عليهم ، والقول بعصمة الأولياء ، وقدم الروح ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الفصل مبينا الجهود التي بذلها الصوفية في مواجهة هذه الدعاوى .

المبحث الأول

موقف الصوفية من مسائل النبوات

موقف الصوفية من مسائل النبوات لا يختلف عن موقفهم من مسائل الإلهيات ، وهو موقف السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ، يؤكد ذلك أقوالهم وعباراتهم والتي جاءت موجزة وبعيدة عن إثارة المشكلات التي كان يثيرها علماء الكلام ، فالصوفية أعلنوا أن النبوة ممكنة ، وأنها غير واجبة على الله " إذ لا يجب عليه شيء البتة "[1] ، وأنها محض اصطفاء من الله تعالى لا دخل للعبد فيها بشيء[2] .

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٤٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٦٤ – ١٦٥ .

وأعلنوا أن نبوة النبي تعرف بإرسال الله تعالى له ، وبأن يخلق الله تعالى له علما ضروريا فيعرف أنه رسول ، وأن يظهر الله له آيات وكرامات فيضطر إلى العلم أنه من عند الله ، وأن البشر يعجزون عن مثله ، وأن يخبره الله بما في قلبه وصدره فيضطر النبي إلى معرفة كلامه إذ الغيب لا يعلمه إلا الله ، وأن يدعو الناس إلى طاعة الله وينهى عن معاصيه ، وأن لا يخالف ما يدعو الناس إليه (١) .

ويؤمن أهل التصوف بأن نبي الله ﷺ نبي حق وقوله صدق ، وأن نبوته ﷺ ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، وأن الدليل على صدقه الكتاب الذي بين أيدينا ، والدليل على أنه معجز هو أن النبي ﷺ تحدى به البلغاء والفصحاء فعجزوا ، وأنه ﷺ بعث برسالته إلي العرب والعجم ، والجن والإنس ، وأن شريعته ﷺ ناسخة لكل الشرائع المتقدمة عليه ﷺ (٢) .

ويجمع أهل التصوف على عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام " من الشيطان ، ومن الجهل بالله تعالى ، والكذب وخلف القول بقصد أو بغير قصد ، وكذا تنزههم عن الكبائر إجماعاً وعن الصغائر ، وجوزوا السهو عليهم في الأفعال البلاغية بشرط أن لا يقروا عليه ، بل ينبهوا عليه على الفور لتظهر فائدة النسيان (٣) .

وأما فيما يتعلق بما أضيف إلى الأنبياء من ذلل ، فقد اختلفت أقوال الصوفية في ذلك :

فذهب كبار مشايخ الصوفية إلى أن ما جرى على الأنبياء إنما جرى على

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٥٩ . والتعرف : ص ٨٦ . وآداب المريدين : ص ٢٦ .

(٢) إحياء علوم الدين : جـ ١ ص ١٤٨ . وروضة الطالبين : ص ٥٦ . وقواعد العقائد للغزالي : ص ٩٨ ضمن مجموعة رسائل الغزالي ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٨ ، والغنية : جـ ١ ص ٩٦ .

(٣) روضة الطالبين : ص ٥٧ .

ظهورهم وأسرارهم مستوفاة بمشاهدة الحق ، وقالوا لا تصح الأعمال حتى يتقدمها العقود والنيات ومالا عقد فيه ولا نية فليس بفعل ، ومعاتبات الحق لهم إنما جاءت إعلاماً للأغيار ليعلموا عند إتيانهم المعاصي مواضع الاستغفار .

وذهب بعض آخر إلى إثبات هذه المعاصي وقالوا إنها كانت على جهة التأويل والخطأ فعوتبوا عليها ليعلموا مرتبتهم وارتفاع منزلتهم ، وأن ذلك زجر لغيرهم وحفظ لمواضع الفضل وتأديب لهم .

وذهب فريق ثالث منهم إلى أن هذه المعاصي كانت على جهة السهو والغفلة (١) .

وكما اختلف الصوفية حول ما أضيف إلى الأنبياء فيما يوهم الخطأ اختلفوا حول مسألة التفاضل بينهم وبين الملائكة (٢) : فسكت جمهور الصوفية منهم عن تفضيل الرسل على الملائكة وتفضيل الملائكة على الرسل ، وقالوا الفضل لمن فضل الله ، ليس ذلك بالجوهر ولا بالعمل ، ولم يروا أحد الأمرين أوجب من الآخر بخبر ولا عقل ، وفضل بعضهم الرسل ، وفضل فريق ثالث ومنهم الشبلي الملائكة (٣) .

ويجمع الصوفية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وأنه ﷺ أفضل الأنبياء جميعاً وأنه ﷺ أعلي المخلوقات منارا وأسماهم فخارا (٤) .

---

(١) التعرف : ص ٨٤ – ٨٥ . والجنة : ص ٣١ .

(٢) ذكر الإيجي أنه لا نزاع بين المتكلمين في أن الرسل أفضل من الملائكة السفلية ، وإنما النزاع في الملائكة العلوية فقال أكثر الاشاعرة : الأنبياء أفضل ، وعليه الشيعة ، وقالت المعتزلة والحليمي من الاشاعرة : الملائكة أفضل . انظر المواقف : ص ٣٦٧ ، وذكر الإمام الشعراني أن الإمام صفي الدين بن أبي منصور قال : " الذي نعتقده أن جميع الرسل بعد نبينا محمد ﷺ أفضل من الملائكة بأسرها ... وأن خواص الملائكة أفضل من عموم النبيين ، وأن عموم النبيين أفضل من جملة الملائكة " خلافا للمعتزلة . انظر اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٤٦ .

(٣) انظر التعرف : ص ٨٢ . وآداب المريدين : ص ١٩ . واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٤٦ – ٤٨ . وشطحات الصوفية : ص ٤٥ .

(٤) التعرف : ص ٨٣ .

ويذهب الصوفية إلى أن الأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ وفيها يأمر ﷺ بعدم تفضيله على الأنبياء كقوله ﷺ " لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى [١] ، إنما صدرت منه ﷺ على سبيل التواضع ليصح له تمام الشكر [٢] .

ويعتقد أهل التصوف بأن الله تعالى كما أرسل رسله فإنه أيدهم بالمعجزات ، وأن الله أيد نبينا ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين وعرف المنكر ، وقد عد بعض أهل العلم له ﷺ كثرة من المعجزات منها القرآن [٣] .

وكما يؤمن أهل التصوف بوقوع المعجزة يؤمنون بأن الكرامة وهي الفعل الخارق الذي يظهره الله على يد رجل من عباده الصالحين كرامة له " كالمشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه " [٤] جائزة عقلا واقعة نقلا في عصر النبي وفي غير عصره مزيدا لإيمان من وقعت لهم ، وتثبيتا ليقينهم وتكريما وتشريفا لهم [٥] .

ومع إيمان الصوفية بجواز الكرامة وبوقوعها فإنهم دعوا إلى كتم الكرامة وعدم الالتفات إليها ووجوب وزنها دائما بالشرع :

فأبو عمرو الدمشقي ٣٢٠ هـ يقول : " إن الله افترض على الأولياء كتمان الكرامة لئلا يفتتن بها الخلق " [٦] .

---

(١) الحديث ذكره الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٣٤٦ ، كتاب : الفضائل ، باب : في ذكر يونس عليه السلام وقول النبي ﷺ : " لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " عن أبي هريرة

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٤٩ والغنية : جـ ١ ص ٩٧ .

(٤) التعرف : ص ٨٦ .

(٥) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٨ .

(٦) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٧٣ .

ويحكم محمد بن على النسوى على مظهر الكرامة بالإدعاء فيقول : " من أظهر كرامته فهو مدع ، ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي " (١) .

وأما عن عدم الالتفات إليها فيدل عليه ما جاء عن أبي يزيد رحمه الله أنه قال : " كان في بدايتي يريني الحق الآيات والكرامات فلا ألتفتَ ، إليها فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلا " (٢) .

وعن وزنها بالشرع يقول الشعراني : " فما الذي يحفظ الولي من المكر الخفي الذي في الكرامات الحية فالجواب يحفظه من ذلك عدم رمي ميزان الشريعة من يده ليزن بها حاله في كل نفس لأن في الكرامات مكراً خفيا لا يشعر به إلا العارفون قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) (٤) .

والصوفية في الدعوة إلى كتم الكرامة يقفون في وجه هؤلاء الذين يحاولون قصر التصوف على الكرامات .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٤٠٠ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٢ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٠٦ .

المبحث الثاني

محـــاربة الانحـــرافات .

بعد الحديث عن موقف الصوفية من مسائل النبوات سوف يتحدث الباحث عن موقفهم من بعض الدعاوى الهدامة والتي جاءت على لسان بعض الأدعياء الذين انتسبوا إلى الطريق ، ومنها دعوى اكتساب النبوة ، وعدم ختمها وتفضيل الولاية عليها ، وختم الولاية ، وتفضيل الخاتم على الرسل والصحابة

أولا : القول باكتساب النبوة :

دعوى اكتساب النبوة دعوى قديمة ، فقد كان الفلاسفة يقولون إن النبوة ضرب من المعرفة يصل إليها الناس على السواء بواسطة النظر والتأمل " (١)

وقد تأثر بهذه الفكرة بعض فلاسفة الإسلام كالفارابي ٣٣٩ هـ وابن سينا (٢) كما دانت بها في المحيط الإسلامي بعض الفرق الغالية كالإسماعيلية ، وإخوان الصفا ، والباطنية الغالية (٣) ، ويذهب البعض إلى أنها انتقلت إلى الطريق الصوفي عن طريق الباطنية والإسماعيلية (٤) .

---

(١) نهاية الإقدام : ص ٤٦٢ ، والمواقف : ص ٣٣٧ – ٣٣٩ ، وفي الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د / إبراهيم مدكور : ص ٩٧ ، دار المعارف ، ط ١٩٦٨ م .

(٢) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه : ص ٩٧ ، وآراء المدينة الفاضلة للفارابي : ص ١١٤ – ١١٦ ، ودار المشرق – بيروت – لبنان ، ط ٧ (١٩٩٦ م) ، والنبوة بين المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين د / حامد الخولي : ص ٢٤ ، ط ٣ ، بدون دار طبع ، وتأملات في الفكر الإسلامي : د / محمد كمال جعفر : ص ٣٣٤ ، مكتبة دار العلوم ، ط (١٩٨٠ م) .

(٣) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه : ص ١٠٨ – ١٠٩ ، ودارسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة : عبد الله الأمين : ص ٨٨ ، دار الحقيقة – بيروت – لبنان ط ١ (١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ) ، ورسائل إخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٧٨ ، الرسالة السادسة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ط (١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م) ، وفضائح الباطنية للغزالي : ص ٢٧ ، دار البشير للنشر والتوزيع – عمان – الأردن ط بدون تاريخ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٢

(٤) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه : ص ١٠٩ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٢ .

وقد نسبت هذه الدعوى إلى بعض فلاسفة الصوفية ومن أشهر هؤلاء السهروردي المقتول [١] . فقد اتهمه ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، والذهبي ٧٤٨ هـ ، وابن حجر ٨٥٢ هـ ، والعقاد في العصر الحديث بأنه كان يقول بأن النبوة يمكن اكتسابها وأنه بناء على رأيه هذا طلب النبوة [٢] .

بل يذكر الذهبي أن الموفق يعيسي النحوي قال " لما تكلموا فيه قال له تلميذه إنك تقول النبوة مكتسبة فانزح بنا قال حتى نأكل بطيخ حلب ، فإن بي طرفا من السّلّ ثم خرج إلى قرية بها بطيخ ، فأقمنا أياما فجاء يوما إلى محفرة لتراب الرأس فحفر حتى ظهر له حصي فدهنه بدهن معه ، ولفه في قطن وحمله في وسطه أياما ثم ظهر كله ياقوتا أحمر ، فباع منه ووهب أصحابه ولما قتل كان معه منه [٣] .

---

(١) يحيى بن حيَ الشهاب السهروردي سماه بعضهم : عمر شهاب الدين السهروردي ، صاحب التلويحات وهياكل النور وحكمة الإشراق ، قال ابن خلكان : كان شافعي المذهب واتهم بانحلال العقيدة ، وقال الآمدي : اجتمعت به فرأيت علمه أكبر من عقله ، وقال غيره : كان أوحد زمانه في علم الحكمة ، عارفاً بالتصوف ، ظاهرا في أصول الفقه ، طاف البلاد وقدم حلب فناظر أهلها واستهتر بهم فأجمعوا على كيده ورتبوا فتاوى وكتبوا عليها بإهدار دمه فقتله الظافر غازي بعد اختصاصه به بأمر عمه صلاح الدين سنة ٥٨٦ هـ . انظر طبقات المناوي : جـ ١ ص ٧١٤ والأعلام للزركلي : جـ ٨ ص ١٤٠ . ووفيات الأعيان لابن خلكان : جـ ٦ ص ٢٧٣ ، تحقيق : د / إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ط ١٩٧٠ م .

(٢) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية : ص ١٠٣ ، قدم له وعرف به / حسنين مخلوف ، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيقي عفيفي عامر - عابدين - القاهرة ، ط : بدون تاريخ . وابن تيمية والتصوف : ص ٣٢٦ ، وتاريخ الإسلام للذهبي : جـ ٤١ ص ٧٤ - ٧٥ ، تحقيق / عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م) ، ولسان الميزان لابن حجر : جـ ٦ ص ٢٧٣ ، والتفكير فريضة إسلامية للعقاد : ص ١٢٥ ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط بدون تاريخ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء : جـ ٢١ ص ٢١١ ، تحقيق شعيب الأرناؤط ، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ط ٤ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) ، وأصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي : د / محمد على أبو ريان : ص ٣٤٨ ، دار المعرفة الجامعية ط ٢٠٠٢ م .

وقد اعتمد متهموه بذلك على أمرين :

الأول : الشروط التي وضعها للنبوة .

فالشروط التي وضعها لتحصيل النبوة هي نفس الشروط التي وضعها الفلاسفة لها ، ففي كتابه التلويحات يقول : " اعلم أن الشرط الأول في النبوة أن يكون مأمورا من السماء بإصلاح النوع .

الأمر الثاني : حصول أكثر العلوم من غير تعلم بشري .

الأمر الثالث : وطاعة هيولي العالم بما أراد من الزلازل والخسف والتحريكات والتسكينات .

الرابع : وكذلك فلديهم الإنذار بالمغيبات والأمور الجزئية الواقعة إما في الماضي والمستقبل .

والأول هو العمدة وغيرها من الخصال الثلاثة قد تجتمع في إخوان التجريد " (١)

الثاني : تصريحه بأن القوة المخيلة إذا زادت في الإنسان اتصل بالملأ الأعلى فيناجيه بالغيب :

وقد جاء ذلك في كثير من أقواله ففي التلويحات يقول : " فإذا قلت الشواغل فيقع للنفس خلسة إلى جانب القدس فانتقشت بنقش غيبي ، فقد ينطوي سريعا ، وقد يشرق على الذكر ، وقد يتعدى إلى الخيال فيتسلط الخيال على لوح الحس المشترك فيترسم فيه صورة في غاية الحسن والزينة على أكمل هيئة وأبهاها تناجيه بالغيب ، أو يترسم صورة الأمر الغيبي مشاهدة ، أو يتسطر على سبيل كتابة ، أو على طريق نداء هاتف غايب ، أو على غلبة ظن بالأمر الغيبي فيطلع ، وما بقي من الكلام محفوظا في النوم واليقظة فهو رؤيا صادقة ، أو وحي صريح (٢)

وقد صور ذلك بصورة واضحة في كتابه معتقد الحكماء فقال :" ويعتقدون

---

(١) شيخ الإشراق : التلويحات من مجموعات مصنفات شيخ إشراق جـ ١ ص ٩٥ ، والتلويح الأول في النبوات ، تحقيق هنري كربين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٣ – ١٠٤ ، وكتاب حكمة الإشراق : ص ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ .

أن الأنبياء عليهم السلام مبعوثون بالحق لمصلحة نظام العالم ، وليذكرّهم الآخرة ، فإن الناس غافلون عن الآخرة غير منصفين ... ولابد وأن يكون هذا الشخص شريف النفس عالما قادرا على مالا يقدر غيره في زمانه بشرف نفسه ، فإن النفس إذا كانت شريفة وقويت قوتها تؤثر في هذا العالم تأثيراً عظيما لأنها تتصل بروح القدس ، وتأخذ منه العلوم ، فتكتسب منها قوة نورانية وخاصة التأثير كالحديد إذا جاور النار تكتسب منه هيئة نورانية وخاضية الإحراق ، وقد يحصل هذه الدرجة للأولياء ، والأنبياء مخصوصون بمزيد درجة وهو أنهم مأمورون بإصلاح الخلق وأداء الرسالة دون الأولياء (١) .

ويقول أيضا : " اعلم أن أرباب الرياضة إذا حصل لهم العلوم وفكروا في معلوماتهم من مسبب الأسباب وما دونه من مبدعاته فكرا لطيفا ، ويضعف قواهم بتقليل الغذاء فيوافق فكرهم بالقلب وذكرهم باللسان ، وتارة يستعينون بنغمة رخيمة وبروايح طيبة وبرؤية أمور متناسبة ، فيحصل لهم أنوار روحانية حتى يصير ذلك ملكة ويصير سكينة ، فيظهر لهم أمور غيبية ويتصل بها النفس اتصالا روحانيا ويسري ذلك على المتخيلة على ما يليق بحال المتخيلة ، ويرى الحس المشترك فيرون الأشباح الروحانية على أحسن ما يتصور من الصور ويسمعون منه الكلام العذب ، ويستفيدون منه العلوم ، وقد يرون أشياء مكتوبة ، فلهم الحظ الأوفر والمقام الأعلى في الدنيا والآخرة (٢) .

جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى اكتساب النبوة

بالرغم من تأخر ظهور دعوى اكتساب النبوة في الوسط الصوفي فقد تنبه أهل التصوف الحق لها مبكرا حتى قبل ظهورها وتصدوا لها واستمر ذلك الأمر بعد ظهورها ، وقد تمثل ذلك في :

(١) رسالة في اعتقاد الحكماء : جـ ١ ص ٢٧٠ – ٢٧١ ضمن مجموعات مصنفات شيخ إشراق .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧١ .

[١] رفض الدعوى .

رفض أهل التصوف الحق دعوى اكتساب النبوة وأعلنوا أن النبوة أثرة علوية وحظوة ربانية ، وعطية إلهية لا تكتسب بجهد ، ولا تنال بكسب حتى يتوصل إليها بالنسك والرياضات كل من دب ودرج أو فكر وأدلج [١].

وقد اعتمد أهل التصوف في رفض هذه الدعوى على أمرين :

الأول : تناقضها مع القرآن الكريم :

فقد أخبر الحق سبحانه وتعالى في كثير من آي القرآن الكريم أن النبوة محض اصطفاء من الله تعالى لا دخل للإنسان فيها بأي أمر من الأمور : قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [٢] ، وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ [٣] [٤] ، وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [٥] [٦] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [٧] .

---

(١) الغزالي : معارج القدس ص ١٣٠ . منشورات دار الأفاق الجديدة – بيروت – لبنان ، ط ٥ (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، والمنقذ من الضلال : ص ٦٧ ، وكشف فضائح اليونانية لشهاب الدين السهروردي : ص ٧٦ ، تحقيق د / عائشة يوسف المناعي ، دار السلام للطباعة والنشر ، ط ١ (١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م) ، والفتوحات المكية : جـ ٢ ص ٣ الباب ٧٣ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٦٤ – ١٦٥ ، جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

(٣) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٤) معارج القدس : ص ١٣٠ .

(٥) سورة إبراهيم آية ١١ .

(٦) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٦٤ .

(٧) سورة الحج آية ٧٥ .

الثاني : تناقضها مع العقل .

فالعقل يقضي بأن النبوة لو كانت تنال بالمجاهدة والكسب لنالها كثير من العباد وحصلها ما لم يكن نبيا .

ويوضح ذلك الإمام الشعراني فيقول : " وإيضاح ذلك أن الله تعالى قد خلق الخلق على منازل بحسب ما سبق في علمه فجعل الملائكة ملائكة ، والرسل رسلا ، والأنبياء أنبياء ، والأولياء أولياء ، والمؤمنين مؤمنين كل ذلك مميز عنده سبحانه وتعالى لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ولا يتبدل أحد بأحد فليس لمخلوق تعمل في مقام لم يخلق عليه ، بل قد وقع الفراغ من ذلك فلا يجري أحد في مجرى أحد ، ولا يمشي أحد في مدرجة أحد إذ لو سلك أحد في مدرجة أحد لكانت النبوة مكتسبة وحصلها ما لم يكن نبيا وذلك غير واقع " (١) .

[٢] موقف الصوفية من السهروردي المقتول .

أما عن موقف الصوفية من السهروردي المقتول فنقول : إن كثيرا من أصحاب التراجم الصوفية لم يترجموا له ، فابن الملقن ٨٠٤ هـ لم يترجم له في طبقات الأولياء ، ونفس الشيء فعله الشعراني في الطبقات الكبرى والصغرى (٢)

وقد ذكر الشيخ زروق ٨٨٩ هـ في قواعده نصا مبهما يقول فيه : " حذر الناصحون من كتب السهروردي " (٣) ، ويعلق د / أبو الوفا التفتازاني على هذا النص قائلاً : " لعله يقصد المقتول " (٤) .

فإذا ما جئنا إلى الإمام المناوي ١٠٣١ هـ وجدناه لا ينكر سوى أن العلماء اختلفوا فيه ، وإن ذكر ما يدل على عدم قبوله له واتهامه له بما اتهمه به

---

(١) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٢٧ . والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٦٥ .

(٢) انظر طبقات الأولياء لابن الملقن ، والطبقات الكبرى والصغرى للشعراني .

(٣) قواعد التصوف : ص ١٢٩ ، القاعدة ٢٠٧ .

(٤) ابن سبعين وفلسفته الصوفية : ص ١٦٥ .

العلماء قائلا : " قدم حلب ... فناظر أهلها واستهتر بهم وشطح وتهتك بكلمات الحكماء والصوفية وجهر بذلك ، فأجمعوا على كيده ورتبوا فتاوى وكتبوا عليها بإهدار دمه ، فقتله الملك الظاهر غازي بعد اختصاصه به بأمر عمه صلاح الدين فقيل : خنق ، وقيل : حبس بمكان ومنع الطعام والشراب حتى مات " (١) .

وفي العصر الحديث ارتضى د / أبو الوفا التفتازاني ما ارتضاه الفقهاء وابن تيمية قائلاً : " وليس من شك في أن ما يذهب إليه السهروردي من أن مقام الحكيم المتوغل في التأله والبحث أعلى من مقام الأنبياء يعد سببا كافيا في هجوم فقهاء عصره ، وقد هاجمه ابن تيمية أيضا متهما إياه بادعاء النبوة " (٢) .

وعليه ومن خلال ما سبق فإن موقف الصوفية من السهروردي إما موقف المهمل له الغير معتني بالترجمة له ، أو المحذر من مطالعة كتبه ، أو المكتفي بذكر اختلاف الناس فيه ، أو الموافق لموقف الفقهاء منه متهما إياه بما اتهموه به من القول باكتساب النبوة ، وفي النهاية نقول إن السهروردي اتهم بالقول باكتساب النبوة ، وما اعتمد عليه متهموه بذلك من نصوص صريحة كاف في اتهامه بها ، خاصة إذا وضعنا في الحسبان ما ذكره الذهبي من أن تلميذه صارحه بها قائلاً له : " إنك تقول إن النبوة مكتسبة " (٣) ولم يدفع عن نفسه هذه التهمة .

[٣] التبرؤ من القائلين بكسب النبوة .

لم يكتف الصوفية بإعلان رفضهم لهذه الدعوى بل أضافوا إلى ذلك التبرؤ من القائلين بها ذاكرين أنها دعوى دنسة لا يقول بها إلا متفلسف " متكل على أفكاره الردية كل الاتكال يأخذ نفسه بالرياضة الفاسدة ويستروح إلى الأرباح الكاسدة ويخيل له أن النبوات مما يستعلي معاصمها بالاحتيال أو تنال معارجها

---

(١) طبقات المناوي : جـ ١ ص ٧١٤ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي : ص ١٩٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء : جـ ٢١ ص ٢١١ .

بالبحث والنظر والاستدلال " [١].

أو جماعة من الحمقى " لما رأوا الأنبياء قبل رسالتهم لابد وأن ينقطعوا ويتعبدوا على نية قوة الاستعداد للوحي ليرجعوا إلى الحالة التي كانوا عليها حين قدر الحق المقادير ، فلما نظر هؤلاء القوم إلى انقطاعهم وتعبدهم ثم حصول النبوة لهم ظنوا أن النبوة مكتسبة وهو وهم وسوء نظر " [٢].

أو قلة من الذين لا يقرون بالأنبياء ولا بالنبوة ، أو من يرون بأنها ليست من الله وإنما هي فيض من العقل والأرواح العلوية على بعض النفوس المنعوتة بالصفاء والتخلص من أسباب الطبيعة [٣].

ويكفي دليلا على ذلك ما ذكره الشعراني من أن المالكية وغيرهم قد أفتوا بكفر من قال إن النبوة مكتسبة [٤].

---

(١) كشف الفضائح اليونانية : ص ٧٦ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٢٧ .

(٣) الفتوحات المكية : جـ ٢ ص ٥٦٩ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٦٥ .

ثانيا : دعوى عدم ختم النبوة .

دعوى عدم ختم النبوة دعوى قديمة فقد كان اليهود يدينون بأن الزمان لم يخل أبداً من نبي يخلف موسى ومن نوعه ، وبأنه لابد لكل نبي خليفة يعيش أثناء حياته ويتولى الخلافة من بعده (١) ، كذلك دانت بها الغنوصية المسيحية والتي عبرت عنها المواعظ المنسوبة إلى القديس كليمانس (٢) .

وقد انتقلت هذه الدعوى إلى الوسط الإسلامي وظهرت في دوائر الفرق الغالية الذين زعموا " أن النبوة فيض دائم وأنها سلسلة تعاقبية لا تنقطع ومن ثم فالأنبياء لا ينقطعون " (٣) كالجناحية ، والمنصورية ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، وإخوان الصفا ، وغيرهم من فرق الشيعة الغالية (٤) ، ويذكر البعض أن هذه الدعوى سرت من خلال هذه الفرق إلى دوائر الصوفية المتفلسفين (٥) .

وقد نسبت هذه الدعوى إلى بعض الصوفية ومن أشهرهم السهروردي المقتول وابن عربي .

فالسهروردي بالإضافة إلى اتهامه بأنه كان يقول باكتساب النبوة ، فقد اتهم

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة المعارضة السياسية والدينية ص ١٤٨ – ١٤٩ ، ترجمة د / عبد الرحمن بدوي ، دار نجيل للطباعة والنشر ، ط ٥ (١٩٩٨ م) ، ونشأة التفكير الفلسفي في الإسلام : جـ ٢ ص ٢٩٠ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ٩٩ – ١٠٢ .

(٢) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٩٤ .

(٤) مقالات الإسلاميين : جـ ١ ص ٧٥ ، والملل والنحل : جـ ١ ص ١٨٥ ، والفرق بين الفرق : ص ٢٦٤ ، وفضائح الباطنية : ص ٢١ ، والمواقف : ص ٤١٩ ، والغنية : جـ ١ ص ١١٣ ، ورسائل إخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٢٥ الرسالة السادسة ، ونشأة التفكير الفلسفي في الإسلام : جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ومذاهب الإسلاميين : د / عبد الرحمن بدوي جـ ٢ ص ٩٢ ، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ، ط ١ (١٩٩٣ م) ، وغلاة الشيعة د / فتحي الزغبي : جـ ١ ص ١٧٩ – ١٨١ . ودراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة : ص ٨٨ .

(٥) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٢ .

أيضا بأنه كان يقول بعدم ختمها ؟ ... فقد ذكر المؤرخون أن الفقهاء رفعوا أمره إلى صلاح الدين وأبلغوه خوفهم منه على عقيدة الظافر وعلى سياسة ملكه فانتهى الأمر إلى دعوته للمناظرة بحضرة الملك فكان مما قاله في تلك المناظرة : " إن إرسال نبي بعد محمد ﷺ غير مستحيل " (١) .

وعن هذه الواقعة يذكر د / عبد القادر محمود أن العماد الأصفهاني ذكر أنه في سنة ٥٨٨ هـ أخذ السهروردي وتلميذه شمس الدين بقلعة حلب وقال له الفقهاء : " أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبيا وهذا مستحيل ، فقال لهم : ما حد لقدرته ، أليس القادر إذا أراد شيئا لا يمتنع عليه ؟ قالوا بلى ، قال : فالله قادر على كل شيء ، قالوا : إلا على خلق نبي فإنه مستحيل ، قال : فهل يستحيل مطلقا أم لا ؟ قالوا كفرت وعملوا له أسبابا لأنه بالجملة كان عنده نقص عقل لا علم ، ومن جملته أنه سمى نفسه المؤيد بالملكوت " (٢) .

ومن الذين اتهموا السهروردي بذلك أيضا د / محمد علي أبو ريان لكنه يرى أن آراء السهروردي في الإمامة هي التي تدل على ذلك ، ويعتمد في ذلك على نص أورده السهروردي في كتابه " حكمة الإشراق " وفيه يقول : " العالم ما خلا قط عن الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات " (٣)

وقوله عن هذا الشخص بأنه " خليفة الله في أرضه " (٤) ، ويفصل ذلك فيقول : " المراتب كثيرة وهم على طبقات وهي هذه : حكيم إلهي متوغل في التأله عديم البحث ، حكيم بحاث عديم التأله ، حكيم إلهي متوغل في التأله والبحث ، حكيم إلهي متوغل في التأله متوسط في البحث أو ضعيفه ، حكيم

(١) التفكير فريضة إسلامية : ص ١٢٥ .

(٢) العماد الأصفهاني : البستان الجامع لتواريخ الزمان ص : ٥٩٢ - ٥٩٣ نقلا عن الفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٤٤٢ .

(٣) حكمة الإشراق للسهروردي المقتول : ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٢ .

متوغل في البحث متوسط في التأله أو ضعيفه ، طالب للتأله والبحث ، طالب للتأله فحسب ، طالب للبحث فحسب ، فإن اتفق في الوقت متوغل في التأله والبحث فله الرئاسة وهو خليفة الله . وإن لم يتفق فالمتوغل في التأله المتوسط في البحث وإن لم يتفق فالحكيم المتوغل في التأله عديم البحث وهو خليفة الله ، ولا تخلو الأرض عن متوغل في التأله أبدا ، ولا رئاسة في أرض الله للباحث المتوغل في البحث الذي لم يتوغل في التأله فإن المتوغل في التأله لا يخلو العالم عنه وهو أحق من الباحث فحسب ، إذ لابد للخلافة من التلقي ، ولست أعنى بهذه الرئاسة التغلب ، بل قد يكون الإمام المتأله مستوليا ظاهرا مكشوفا ، وقد يكون خفيا وهو الذي سماه الكافة القطب فله الرئاسة وإن كان في غاية الخمول " [١] .

ويعلق د / أبو ريان على هذا النص قائلا : " وإذن فالإمام في نظره موجود في كل زمان وله من السلطة والخصال ما يعزوه الإسماعيلية إلى إمامهم من حقهم في التشريع من حيث التأويل والتعديل والتجديد [٢] ، ويقول أيضا : " وإذن فالنبوة في نظر السهروردي وهي ضرب من الإمامة – لا يمكن أن تنقطع فهي ضرورية الحصول من وقت إلى آخر لحفظ النظام ولمصلحة النوع " [٣] .

وأياما كان الدليل على إيمانه بدعوى عدم ختم النبوة فإن تسويته بين الأنبياء والأولياء في التلقي كاف في التدليل على ذلك ، فهو يقول في حكمة الإشراق : " وما يتلقي الأنبياء والأولياء وغيرهم من المغيبات فإنها قد ترد عليهم في أسطر مكتوبة ، وقد ترد بسماع صوت قد يكون لذيذا ... وقد يشاهدون صور الكاين ، وقد يرون صورا حسنة إنسانية تخاطبهم في غاية الحسن فتناجيهم بالغيب " [٤] .

---

(١) المرجع السابق : ص ١١ – ١٢ .

(٢) أصول الفلسفة الإشراقية : ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) حكمه الإشراق : ص ٢٤٠ .

ولعل ما يؤكد ذلك أن د / أبو الوفا التفتازاني وهو الصوفي قد ذكر أن السهروردي طلب أن يكون نبيا (١) .

أما ابن عربي فقد اتهمه ابن تيمية ، ود / مصطفي كامل الشيبي بأنه كان يؤمن بعدم ختم النبوة فابن تيمية يقول عنه : " كان الملاحدة من الصوفية على طريقة ابن عربي سلكوا مسلك ملاحدة الشيعة كأصحاب رسائل إخوان الصفا .... فصاروا يرون أن باب النبوة مفتوح لا يمكن إغلاقه (٢) .

ويقول د / مصطفي كامل الشيبي : " وقد قال ابن عربي بنبوة الأولياء التي نادى بها الغلاة ابتداء من أبي منصور العجلي " (٣) .

وقد اعتمدا في ذلك على مجموعة من النصوص منها : قوله في الفصوص : " إن الله لطف بعباده فأبقى لهم النبوة العامة التي لا تشريع فيها (٤). وقوله أيضا : " اعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ولهذا لم تنقطع ولها الإنباء العام أما نبوة التشريع والرسالة فمنقطعة (٥) .

وغيرها من النصوص الأخرى التي يصرح فيها ابن عربي بأن النبوة لم ترتفع بالكلية وأن الذي ارتفعت نبوة التشريع وأن هذا معنى " لا نبي بعده " (٦)

---

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي : ص ١٩٧ .

(٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٤٨٧ ، دار الباز للنشر والتوزيع – مكة المكرمة ، ط بدون تاريخ ، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية : ص ١٢٦ ، تصحيح وتعليق / محمود عبد الوهاب فايد ، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ، ط بدون تاريخ .

(٣) د / مصطفي كامل الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٧٧ ، دار المعارف ، ط بدون تاريخ

(٤) فصوص الحكم : جـ ١ ص ١٣٥ ، فص حكمة قدرية في كلمة عزيرية

(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٣٤ ، فص حكمه قدرية في كلمة عزيرية .

(٦) الفتوحات جـ ٢ ص ٥٨ الباب ٧٣ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام : ص ٥١٤ .

جهود الصوفية في مواجهة دعوى عدم ختم النبوة

في مواجهة هذه الدعوى بذل أهل التصوف جهوداً عدة تمثلت في :

[١] رفض الدعوى .

دعوى عدم ختم النبوة من الدعاوى التي تأخر ظهورها في الوسط الصوفي كالسابقة عليها ، وبالرغم من ذلك فقد وجدت منذ وقت مبكر عند الفرق الغالية الأمر الذي جعل أهل التصوف يتنبهون لخطورتها ، ومن ثم وجدناهم منذ وقت مبكر يعلنون رفضها ، وذلك من خلال قولهم بأن فرض شهادة الرسول ﷺ كما يقول المكي " أن نشهد أن محمداً رسول ﷺ خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، وكتابه خاتم الكتب ولا كتاب بعده ، وهو مهيمن على كل كتاب " (١) ، وأنه لا نسخ لشرعه (٢) ﷺ ، وأن هذه العقيدة هي التي أجمع عليها أهل الإسلام قاطبة (٣) .

وقد اعتمد أهل التصوف في رفض هذه الدعوى على مجموعة من الأمور منها

[أ] مخالفتها لنصوص القرآن .

فقد صرح الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بما لا يدع مجالا للشك بأنه ﷺ خاتم الأنبياء فقال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٤) (٥) .

وعن هذه الآية يقول الشيخ خليل الخطيب : " قال إمام العصر الشيخ سلامة العزامي : ومن رحمة الله العظمي على هذه الأمة نص الله تعالى في كتابه على أنه ﷺ خاتم النبيين وتواتر ذلك في سننه ﷺ لتعلم أمته أن كل من ادعى

---

(١) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٦٢ – ٣٦٣ .

(٢) لمع في الاعتقاد للقشيري : ص ٢٤ .

(٣) الغنية : جـ ١ ص ٩٦ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٧ ، والجنة : ص ٧٧ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

(٥) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٧ .

رسالة أو نبوة بعده سواء افترى شرعا جديدا أو ادعى أنه يؤيد الشريعة المحمدية فهو كذاب أفاك ضال مضل " (١) .

[ب] مخالفتها للسنة :

فقد صرح النبي ﷺ في كثير من الأحاديث من أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ومن هذه الأحاديث : ما جاء عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : " إنه سيكون في أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين " (٢) .

وروي الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " (٣) .

ومنها ما جاء عن أم كرز الكعبية أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ذهبت النبوة وبقيت المبشرات " (٤) .

وعن ابن عباس ﷺ قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة في مرضه والصفوف خلف أبي بكر فقال : " أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له " (٥) .

ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : قال :

---

(١) الجنة ص : ٧٧ .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده جـ ٥ ص : ٢٧٨ . وابن ماجة في سننه جـ ٢ ص : ٤٧٨ كتاب : الفتن ، باب : ما يكون من الفتن ، حديث رقم [٣٩٥٢] .

(٣) صحيح البخاري جـ ٢ ص : ٢٧٠ ، كتاب : الأنبياء ، باب : خاتم النبيين .

(٤) سنن ابن ماجة جـ ٢ ص : ٤٦٠ ، كتاب : تعبير الرؤيا ، باب : الرؤيا الصالحة ، حديث رقم [٣٨٩٦] .

(٥) سنن ابن ماجة جـ ٢ ص : ٤٦١ ، كتاب : تعبير الرؤيا ، باب : الرؤيا الصالحة ، حديث رقم [٣٨٩٩]

خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودع فقال : " أنا محمد النبي الأمي ، أنا محمد النبي الأمي ثلاثا لا نبي بعدي " (١) . وغيرها من الأحاديث الأخرى التي تصرح بختمه للنبوة ﷺ .

[ج] بعدها عن العقيدة المجمع عليها :

لقد انعقد الإجماع من عهده ﷺ إلى يومنا هذا على أنه ﷺ خاتم النبيين كما أنه ﷺ خاتم المرسلين وأن الله ختم بشرعه ﷺ جميع الشرائع فلا رسول بعده يشرع ولا نبي بعده يرسل إليه بشرع يتعبد به في نفسه إنما يتعبد الناس بشريعته إلى يوم القيامة (٢) .

[٢] موقف الصوفية من القائلين بعدم ختم النبوة .

بداية لا نجد مدافعين متحمسين عن السهروردي المقتول بل نسبت إليه التهمة وأيدتها أقواله على النحو الذي رأيناه، أما الرجل الذي وجد رجالاً يقفون معه ، ويصدون الغارة عنه ، ويفسرون أقواله بما يدفع التهمة عنه فهو ابن عربي إذ ترأس فريق المدافعين عنه صوفي بارز وعارف ورع هو الإمام الشعراني تسير على دربه الدكتورة سعاد الحكيم ، فهما على رأس المنافحين عنه والزابين على حوضه وقد بنيا دفاعهما على عدة محاور :

أ – تصريح ابن عربي بأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

فابن عربي في كثير من النصوص يصرح بأن النبي ﷺ ختم " به جميع الرسل عليهم السلام وختم بشرعه جميع الشرائع فلا رسول بعده يشرع ، ولا شريعة بعد شريعته تنزل من عند الله " (٣) ، وقد صرح أيضا بأن النبي ﷺ ختمت بنبوته النبوات وهذا يدحض الادعاء الذي ذكره الغامدي بأن ابن عربي لا

---

(١) مسند الإمام أحمد : جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٧

(٣) الفتوحات : جـ ٤ ص ٤٦٢ الباب ٤٦٢ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٧

يصرح بعدم ختم النبوة (١) .

ففي الفتوحات يقول : " إن باب الرسالة والنبوة قد أغلق " (٢) ، ويقول أيضاً : " لم يكتف رسول الله ﷺ بانقطاع الرسالة فقط لئلا يتوهم أن النبوة باقية في الأمة فقال ﷺ : إن النبوة والرسالة قد انقطعت فلا نبي بعدي ولا رسول " (٣)

ب - تصريح ابن عربي بأن النبوة المستمرة هي النبوة بمعناها اللغوي

وزيادة في نفي التهمة عنه صرح ابن عربي بأن النبوة الغير مهموزة (٤) والتي هي الولاية والرفعة هي المستمرة ، وأنها بهذه الصفة " غير منقطعة تستمر في الظهور بصورتين : الوراثة ، والولاية ، ومن أبرز خصائصها أنها دون تشريع يحكمها آخر الأنبياء محمد ﷺ " (٥) .

ج - تصريح ابن عربي بأن الوحي الذي يقصد استمراره من قبيل وأوحى ربك إلى النحل .

فقال : " وهذه النبوة سارية في الحيوان مثل قوله : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (٦) وكلهم بهذه المثابة ، فمن علمه الله منطق وتسبيح النبات والجماد وعلم صلاة كل واحد من المخلوقات وتسبيحه علم أن النبوة سارية في كل موجود يعلم ذلك أهل الكشف والوجود ، لكنه لا ينطلق من ذلك اسم نبي ولا رسول على

---

(١) الغامدي : عقيدة ختم النبوة ص ١٥٧ - ١٥٨ ، دار طيبة - المملكة العربية السعودية ، ط ١ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٢) الفتوحات : جـ ٣ ص ٥٥ الباب ٣١٤ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٣٨ الباب ٣١٠ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٨ .

(٤) النبوة في اللغة مأخوذة من نبا الشيء نبوا ارتفع وظهر ، ونبأ الرجل نبأ : أخبر ، والنبئ المخبر عن الله ﷻ . انظر المعجم الوسيط : جـ ٢ ص ٩٣٥ .

(٥) الفتوحات : جـ ٢ ص ٢٥٣ الباب ١٥٥ ، والمعجم الصوفي : ص ١٠٤١ - ١٠٤٢ .

(٦) سورة النحل آية ٦٨ .

واحد من هؤلاء "(١) .

د – تصريحه بأن الإلهام والمبشرات هما المتبقيان من النبوة .

كذلك صرح ابن عربي بأن الإلهام والمبشرات هما المتبقيان من النبوة وهذا دليل كاف على موافقته لما ثبت عنه ﷺ فقال : " إن الرسالة والنبوة بالتشريع قد انقطعت فلا رسول بعده ولا نبي ، أي مشرع ولا شريعة ... ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ، فشق ذلك على الناس ، فقال : لكن المبشرات ، فقالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ فقال : رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة .... فقد بقي للناس من النبوة هذا وغيره ومع هذا لا يطلق اسم النبوة ولا النبي إلا على المشرع خاصة فحجر هذا الاسم لخصوص وصف معين في النبوة ، وما حجر النبوة التي ليس فيها هذا الوصف الخاص وإن كان حجر الاسم فنتأدب ونقف حيث وقف ﷺ بعد علمنا بما قال وما أطلق وما حجر فنكون على بينة من أمرنا " (٢).

هـ – تصريحه بأن النبوة المستمرة هي الولاية .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد صرح بأن النبوة المستمرة هي الولاية ، وقد وضح ذلك حين فرق بين النبوة والولاية ذاهبا إلى أن النبوة المطلقة هي نبوة التشريع وأنها تقترن بالإنذار دائما ، أما الولاية أو النبوة العامة أو الوراثة فلا تقترن بالتشريع ولا بالإنذار وأنها غير مؤقتة ولها الاستمرار دائما فقال : " النبوة منزلة يعينها رفيع الدرجات .... ينزلها العبد .... وهي نبوة التشريع قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ

---

(١) الفتوحات : جـ ٢ ص ٢٥٤ الباب ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٣٧٦ الباب ١٨٧ ، وعنقا مغرب لابن عربي : ص ١٦ – ١٧ ، عالم الفكر – القاهرة ، ط ١ (١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م) .

(٣) سورة الشورى آية ٥٢ .

أمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٢) .

فالإنذار مقرون أبدا بنبوة التشريع ... وأما النبوة العامة فأجزاؤها لا تنحصر ولا يضبطها عدد فإنها غير مؤقتة لها الاستمرار دائما دنيا وآخرة " (٣)

ويوضح ذلك وبصورة أوضح فيقول : " والرسالة التي انقطعت تنزل الحكم الإلهي على قلب البشر بوساطة الروح فذلك الباب هو الذي سد والرسالة والنبوة التي انقطعت ، وأما الإلقاء بغير تشريع فليس بمحجور ولا التعريفات الإلهية بصحة الحكم المقرر أو فساده فلم تنقطع ، وكذلك تنزل القرآن على قلوب الأولياء ما انقطع ولهذا ذكر عن أبي يزيد أنه ما مات حتى استظهر القرآن أي أخذه عن إنزال وهو الذي نبه ﷺ فيمن حفظ القرآن يعني على هذا الوجه أن النبوة قد أدرجت بين جنبيه ولم يقل في صدره وهذا معنى استظهاره القرآن أي أخذه عن ظهر فله مثل هذا التنزل مستمر فيمن شاء الله من عباده لكن على هذا النعت والصفة يلقي الروح على من يشاء من عباده " (٤) .

و – حديث " لا نبي بعدي " وموقف ابن عربي منه .

أما عن موقف ابن عربي من حديث " لا نبي بعدي " فيقول : " ثبت أن رسول الله ﷺ قال إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ، فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأولياء مرارته فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته ، وإذا انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين الله فإن العبد على قدر ما يخرج به عن عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده لأنه يزاحمه في أسمائه " (٥) .

---

(١) سورة غافر آية ١٥ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) الفتوحات : جـ ٢ ص ٩٠ السؤال ٨٣ الباب ٧٣ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢٥٨ الباب ١٥٩ .

(٥) المرجع السابق جـ ٢ ص : ٢٢٩ ، الباب ٣٨ .

وهذا يبين أن ابن عربي كان يؤمن بأن النبوة قد ختمت كما يؤمن بأنها أعلى من الولاية بدليل حزن الأولياء على سد هذا الباب ، ومما يدل على ذلك قوله : " ولما علم رسول الله ﷺ أن في أمته من يجرع مثل هذا الكأس ، وعلم ما يطرأ عليهم في نفوسهم من الألم لذلك رحمهم فجعل لهم نصيباً ليكونوا بذلك عبيد العبيد فقال للصحابة " ليبلغ الشاهد الغائب " (١) ، فأمرهم بالتبليغ لينطلق عليهم أسماء الرسل التي هي مخصوصة بالعبيد ، وقال ﷺ : " رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها " (٢) (٣) .

وقال أيضا : " فإن مقام الرسالة لا يناله أحد بعد رسول الله ﷺ إلا بقدر ما بيناه فهو الذي أبقاه الحق تعالى علينا ، ومن هنا نعرف شرف العبودية ، وشرف المحدثين نقلة الوحي بالرواية ، ولهذا اشتد علينا غلق هذا الباب وعلمنا أن الله قد طردنا من حال العبودية الاختصاصية التي كان ينبغي لنا أن نكون عليها " (٤)

ويعطينا سببا آخر لتجرع الأولياء مرارة ختم النبوة فيقول : " وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة ، فلا ينطلق عليه اسمها الخاص بها فإن العبد يريد ألا يشارك سيده في اسم ، والله لم يتسم بنبي ولا رسول ، وتسمى بالولي واتصف بهذا الاسم فقال : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٦) ، وهذا الاسم باق جار

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٩ – ٩٠ ، باب : من كان مفتاحا للخير ، عن أبي بكرة ، حديث رقم [٢٣٣] ، وعن معاوية القشيري حديث رقم [٢٣٤] .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٩٠ ، باب : من كان مفتاحا للخير ، عن أنس بلفظ " نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ... " الحديث

(٣) الفتوحات : جـ ١ ص ٢٢٩ ، الباب ٣٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(٦) سورة الشورى آية ٢٨ .

على عباد الله دنيا وآخرة ، فلم يبق اسم يختص به العبد دون الحق بانقطاع النبوة والرسالة إلا أن الله لطف بعباده فأبقى لهم النبوة العامة التي لا تشريع فيها ، وأبقى لهم التشريع في الاجتهاد في ثبوت الأحكام ، وأبقي لهم الوراثة في التشريع فقال : " العلماء ورثة الأنبياء " (١) (٢) .

[٤] التبرؤ من القائلين بعدم ختم النبوة .

يضاف إلى ما سبق إعلان أهل التصوف الحق تبرأهم ممن يقول بعدم ختم النبوة ، وذلك من خلال حكمهم عليه بأنه ضال مضل يريد أن يضل الناس ، ووجوب مجانبته (٣) .

وكذلك حكمهم على من ادعى نزول جبريل عليه بالنبوة ، أو أن الله أمره بشيء مخالف لأمر شرعي تكليفي بأنه ملبس عليه من الشيطان ، وأنه مدع تضرب عنقه إن كان مكلفا وإلا ضربنا عنه صفحا (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٦ ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، حديث رقم [٢٢٣] .

(٢) الفصوص : جـ ١ ص ١٣٥ ، فص حكمة قدرية في كلمة عزيرية .

(٣) أستاذ السائرين : ص ١١٣ ، والجنة : ص ٧٧ .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٣٨ .

ثالثاً : دعوى تفضيل الولاية على النبوة .

من الدعاوى المنحرفة دعوى تفضيل الولاية على النبوة ، وقد دانت بها بعض الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستاني ، وبعض فرق الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، والغالية من الشيعة (١) .

وقد انتقلت هذه الدعوى إلى الوسط الصوفي عن طريق الكرامية ، فالهجويري يقول في كشف المحجوب : " إن فريقا من المشبهة الذين ينتمون إلى الطريق الصوفي نهجوا منهج مجسمة خرسان (٢) ، وقالوا بما قالوا من أن الأولياء أفضل من الأنبياء " (٣) .

ويذكر الطوسي في اللمع ، والسلمي في غلطات الصوفية ، والهجويري في كشف المحجوب : أن الذين دانوا بذلك من الصوفية اعتمدوا على شبه ثلاث :

الأولى : دعواهم أن المرسل إليه أفضل من الرسول .

ذكر الهجويري أن أول شبهة اعتمد عليها هؤلاء الملاحدة كما يسميهم دعواهم " أن العادة قد جرت بأنه إذا جاء رسول من ملك إلى شخص فلابد وأن يكون المبعوث إليه أفضل منه ، مثلما أن الأنبياء أفضل من جبريل " (٤) .

الثانية : التصور الخاطئ لقصة موسى مع الخضر عليهما السلام .

ذكر الطوسي وشاركه السلمي أن الذي أدى إلى ضلال هؤلاء تصورهم

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين : جـ ١ ص ١٢٠ . والفرق بين الفرق : ص ٢٢٧ . وشرح المقاصد : جـ ٥ ص ٧٧ ، والحكومة الإسلامية للخميني : ص ٤٨ ، تقديم د / محمد الخطيب ، دار عمار – الأردن ، ط ١٩٨٨ م .

(٢) مجسمة خرسان هم الكرامية ، وهم على ثلاثة أصناف : حقائقية ، وطرائقية ، وإسحاقية . انظر الفرق بين الفرق : ص ٢٢٧ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٧٤ . واللمع للطوسي : ص ٥٣٥ ، والتصوف الثورة الروحية : ص ٣٠٤ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : جـ ٣ ص ١٨٩ – ١٩٧ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٧٥ .

الخاطئ لقصة موسى مع الخضر عليهما السلام " وتفكرهم في ذلك برأيهم، إذ يقول ﷻ ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١) ثم قال لموسى عليه السلام مع تخصيصه بالكلام والرسالة ، وما كتبه له في الألواح ... يقول له الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٢) فيقول له موسى عليه السلام : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ (٣) فظنت هذه الطائفة الضالة أن ذلك نقص في نبوة موسى عليه السلام وزيادة للخضر عليه السلام على موسى في الفضيلة ، فأداهم ذلك إلى أن فضلوا الأولياء على الأنبياء عليهم السلام " (٤) .

الثالثة : دعواهم أن التلقي عند الأولياء أفضل منه عند الأنبياء .

ومن الشبه أيضا دعواهم أن التلقي عند الأولياء أفضل منه عند الأنبياء ذلك لأن " الأنبياء يوحى إليهم بواسطة والأولياء يتلقون علمهم من الحق " (٥) .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد نسب هذا القول لكل من الحكيم الترمذي وابن عربي ، وهاكم تصوير المذهبين :

فيذكر الشعراني أن فقهاء ترمذ " أخرجوا الحكيم الترمذي ﷺ إلى بلخ حين صنف كتابه " علل الشريعة " وكتاب " ختم الأولياء " وأنكروا عليه بسبب هذين الكتابين وقالوا فضلت الأولياء على الأنبياء " (٦) .

---

(١) سورة الكهف آية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف آية ٦٧ .

(٣) سورة الكهف آية ٧٣ .

(٤) اللمع للطوسي ص : ٥٣٥ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية ص : ١٨٦ – ١٨٨ .

(٥) رسالة الملامتية وغلطات الصوفية ص : ١٨٨ .

(٦) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٨ ، وجامع كرامات الأولياء : جـ ١ ص ١٣٧ ، ومقدمة كتاب معرفة الأسرار للحكيم الترمذي : ص ٢٣ – ٢٤ ، تحقيق د / محمد إبراهيم الجيوشي ، دار النهضة العربية ، ط ١٩٧٧ م .

أما ابن عربي فقد اتهمه ابن تيمية وغيره بأنه يقول بتفضيل الولاية على النبوة ، وقد اعتمدوا في ذلك على نصوص لابن عربي منها قوله :

مقام النبـــوة فـــي بـــرزخ
فويق الرسول ودون الولي (١)

وهناك نصوص أخرى سوف نذكرها أثناء الحديث عن دعوى ختم الولاية وتفضيل خاتم الأولياء على الأنبياء والرسل .

مواجهة الصوفية للفكرة .

في مواجهة دعوى تفضيل الولاية على النبوة بذل الصوفية جهودا عدة تمثلت فيما يلي :

[١] رد الشبه :

بعد تحديد الصوفية للشبه التي اعتمد عليها القائلون بأفضلية الولاية على النبوة قاموا بتفنيدها : فالهجويري فند الشبهة الأولى ذاهبا إلى أن تصور أن المرسل إليه أفضل من الرسول تصور خاطئ لأن الرسول إذا كان مرسلا إلى شخص وجب أن يكون أقل من المرسل إليه كما رسل جبريل إلى الرسل وكان كل منهم أفضل منه ، ولكن حين يكون الرسول إلى جماعة أو قوم فلا محالة أن يكون الرسول أفضل من تلك الجماعة كالأنبياء عليهم السلام مع الأمم " (٢) .

أما الشبهة الثانية فيرد الطوسي ومعه السني على مثيريها فيذكران أن اختصاص الله عبداً من عبيده بخصيصة من الخصائص لا يدل على تفضيله على غيره فقد " خص الله آدم عليه السلام بسجود الملائكة . وخص نوحا عليه السلام بالسفينة ،

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٦ – ٦٧ ، وهذه هي الصوفية : ص ١٢٩ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ٣٩٥ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٧٥ .

وصالحا بالناقة ... وخص نبينا ﷺ بانشقاق القمر " (١) .

كما أن الله قد خص غير الأنبياء بأشياء لم يخص بها الأنبياء " فقد ذكر الله تعالى مريم حيث يقول ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (٢) ولم تكن مريم نبية ، ولم يكن ذلك لغيرها من الأنبياء غليهم السلام ، ولا يجوز لقائل أن يقول إنها تزيد بالفضل على الأنبياء عليهم السلام .

وآصف بن برخيا : كان عنده علم من الكتاب حتى أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ، فكيف يجوز أن نقول : إنه أتم من سليمان عليه السلام مع ما آتاه الله تعالى من النبوة والفهم والملك ؟ ... والهدهد ... قد خص بمعرفة المياه ولم يخص بذلك غيره من الطيور وغيرها من الجن والإنس " (٣) ، فهذه تخصيصات ولا تدل على الفضائل (٤) .

وأما الشبهة الثالثة فقد رد عليها الطوسي والسلمي أيضا وذهبا إلى أنها دعوى خاطئة لما يلي :

أ – الأنبياء عليهم السلام لهم رسالة بالواسطة والتلقف معا ، أو أنهم يجمعون بين التلقي بواسطة وبلا واسطة ، وعليه فالنبوة أتم من الولاية والأنبياء أفضل من الأولياء .

ب – أن تلقي الأنبياء بعيد عن الاعتراض بخلاف تلقي الأولياء فربما تقع في أحواله الاغترارات .

ج – تلقي الأنبياء على الدوام والاستمرار ، وتلقي الأولياء وقت دون وقت .

د – كما أن للأنبياء عليهم السلام رسالة ونبوة ووحياً بنزول جبريل عليه السلام

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٣٦ .

(٢) سورة مريم آية ٢٥ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٣٦ .

(٤) رسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٨ .

وليس ذلك للأولياء [١] .

وعليه فدعوى أفضلية التلقي عند الأولياء باطلة ، وبالتالي فدعوى أفضلية الولاية على النبوة باطلة أيضاً .

[٢] رفض الدعوى .

رفض أهل التصوف هذه الدعوى وذلك بإعلانهم أنهم قاطبة يجمعون " على أن الأولياء في جميع الأوقات متابعون للأنبياء ومصدقون لدعوتهم والأنبياء أفضل من الأولياء " [٢] ، وأنه ليس في البشر من يوازي الأنبياء " لا صديق ولا ولي ولا غيرهم وإن جل قدره وعظم خطره " [٣] ، وأن نهايات الصديقين أول أحوال الأنبياء حسبما ذكر ذلك كل من البسطامي ، وأبي القاسم النصر آباذي والجيلاني ، والشعراني ، وابن عجيبة ، وعبر عنه شعراً أحد الصوفية فقال :

وحيث فيه ينتهــي الولــي
فمن هناك يبتدي النبي [٤]

وقد ظهر ذلك أيضا في إعلانهم أن جميع " ما أعطي الأولياء مما أعطي الأنبياء كزق فيه عسل ، ترشح منه قطرة ، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء ، وما في الظرف مثل ما لنبينا ﷺ " [٥] ، وقد عبر عن ذلك شعرا الشيخ خليل الخطيب فقال :

وإن أســمى ما ينال الأوليــاء
لدون أدنــى ما ينال الأنبيــا
بل إن ما أتــوه مثل قطــرة
قد رشحت من أبحر النبوة [٦]

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٣٧ ، رسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٨ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٧٤ ، واللمع للطوسي : ص ٤٧٧ .

(٣) التعرف : ص ٨٣ .

(٤) الفتوحات الإلهية : ص ٣٢٠ .

(٥) الرسالة : ص ٣٥٦ .

(٦) الجنة : ص ٤٤ – ٤٥ .

ويظهر ذلك أيضا حين يقولون بأن النبوة كلام إلهي " ووحي منه من يرده فهو كافر ، أما الولاية فهي حديث رباني ، وإلهام لمن تولاهم ، فمن رده لم يكفر ... وإنما يخيب ويحرم من بركة أهل الله وأحبائه " (١) .

وقد أقر ابن تيمية لمشايخ الصوفية بذلك فقال : " وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ... وأن أفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين ... وأئمة الأمة وجماهيرها " (٢) .

وقد استدل الصوفية على تفضيل النبوة على الولاية بالقرآن والسنة والإجماع والعقل :

فمن القرآن : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٣)

فقد رتب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية بين عباده السعداء وبين أن النبوة أعلى مرتبة في هذه المراتب (٤) .

وأما السنة : فقد أخبر النبي ﷺ أن أبا بكر وعمر خير الناس بعد النبيين فقال ﷺ : " هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين " (٥) (٦) .

وأما عن الإجماع فيقول الإمام القشيري : " فإن قيل ... هل يجوز تفضيل

---

(١) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) الفرقان : ص ١٠١ – ١٠٢ ، والتصوف في تراث ابن تيمية : ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .

(٣) سورة النساء آية ٦٩ .

(٤) التعرف : ص ٨٤ .

(٥) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٤٩ ، باب : في فضائل الصحابة ، حديث رقم [٩٥] عن علي ﷺ .

(٦) التعرف : ص ٨٣ .

الأولياء على الأنبياء عليهم السلام ؟ قيل فأما رتبة الأولياء فلا تبغ رتبة الأنبياء عليهم السلام للإجماع المنعقد على ذلك " (١) .

وأما العقل : فقد ساق الصوفية بعضا من الأدلة العقلية تدل على تفضيل النبوة على الولاية منها :

أ – أن العقل قاض بأن كل ولي من الأولياء ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ فكيف يجوز أن يفضل التابع المتبوع والمقتدي به (٢) .

ب – أن القول بتفضيل الولاية على النبوة من شأنه أن يجعل جاهلا من الجهلاء في رتبة أعلى من رتبة النبي ﷺ وهذا باطل (٣) .

[٣] توجيه النصوص التي يوهم ظاهرها تفضيل الولاية على النبوة

صدرت من بعض الصوفية بعض من الأقوال يوهم ظاهرها تفضيل الولاية على النبوة منها :

– قول أبي يزيد : " خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله " (٤) .

– وقول الشيخ عبد القادر الجيلاني : " معاشر الأنبياء أوتيتم لقبا وأوتينا مالم تؤتوه " (٥) .

وقد اعتذر أهل التصوف عن مثل هذه الأقوال فذهبوا إلى ما يلي :

[أ] إن هذه الأقوال إن صحت عنهم فإنها قد صدرت منهم في حال السكر والجذب والمجذوب ناقص حتى يصحو من سكره ويرجع إلى البقاء (٦) .

---

(١) الرسالة ص ٣٥٦ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥٣٦ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٧٥ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) نشر المحاسن الغالية : ص ٣٦٥ ، والفتوحات الإلهية : ص ٣٢٠ .

(٥) الفتوحات المكية : جـ ٢ ص ٩٠ الباب ٧٣ السؤال ٨١ .

(٦) نشر المحاسن : ص ٣٦٥ ، والفتوحات الإلهية : ص ٣٢١ .

[ب] إن هذه الأقوال يمكن تأويلها تأويلا يبعدها عن معناها الظاهر إلى معنى آخر يدل على تفضيلهم الأنبياء على الأولياء لا العكس .

فأبو يزيد حين قال خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله إنما كان يشكو بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام ، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض أي فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا (١) .

أو أنه دخل البحر ولم يخرج إلى ساحل بحر الشريعة بخلاف الأنبياء عليهم السلام فقد عرفوا البحر ، وخاضوه وخرجوا إلى البر يسلكوا الناس (٢) ، وهذا هو اللائق بأبي يزيد خاصة وقد ثبت عنه ، ما يدل على تفضليه الأنبياء على الأولياء كقوله : " جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلاً ثم رشحت منه رشاحة فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء " (٣) .

وأما قول الجيلاني : " معاشر الأنبياء أوتيتم وأوتينا ما لم تؤتوا " (٤) فإنه كان يقصد كما يقول ابن عربي : " أي حجر علينا إطلاق لفظ النبي وإن كانت النبوة العامة سارية " أي الولاية " سارية في أكابر الرجال " . أما قوله وأوتينا ما لم تؤتوه هو معنى قول الخضر الذي شهد الله تعالى بعدالته وتقدمه في العلم وأتعب الكليم .... موسى عليه السلام في طلبه مع العلم بأن العلماء يرون أن موسى عليه السلام أفضل من الخضر ، فقال له يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت فهذا عين معنى قوله : " أوتينا ما لم تؤتوا " ، وإن أراد ﷺ بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري : ص ١٥٢ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، دار المعارف ط ٢ ، تدون تاريخ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٣٢١ .

(٣) لطائف المنن لابن عطاء : ص ١٥٢ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٦٥ .

(٤) الفتوحات المكية : جـ ٢ ص ٩٠ – ٩١ الباب ٧٣ السؤال ٨١ .

أهل النبوة العامة فيكون قد صرح بهذا القول بأن الله أعطاه ما لم يعطهم فإن الله جعلهم فاضلا ومفضولاً فمثل هذا لا ينكر (١) .

[٤] تعقب من نسبت إليهم .

يبدوا أن الصوفية لم يكونوا مقتنعين بصحة ما نسب إلى الحكيم الترمذي بصدد هذه الفكرة ، ولذا عاملوه على خلاف معاملة واحد كالسهروردي المقتول إذ أثنوا أولا على الحكيم الترمذي وكان موضع تقدير أفرادهم وكتاب طبقاتهم فالسلمي ٤١٢ هـ يقول عنه بأنه من كبار مشايخ خراسان وله التصانيف المشهورة وبأنه ممن كتبوا الحديث ورووه (٢) .

ويصفه أبو نعيم بالاستقامة في الطريق واتباع الأثر والرد على المرجئة وغيرهم من المخالفين (٣) .

ويقول عنه الهجويري بأنه " كان ﷺ كاملا وإماما في فنون العلم ومن الشيوخ المحتشمين ..... (٤) .

ويقول عنه المناوي : " الزاهد ... تفرد بين الصوفية بكثرة الرواية ... كان صدراً معظما وصوفياً محدثاً ... قال الحافظ ابن النجار : كان إماماً من أئمة المسلمين الكبار في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث ... (٥) .

وفيما يخص الفكرة ونسبتها إلى الترمذي الحكيم فإن الهجويري والشعراني والمناوي رفضوا اتهام الحكيم بها وذهبوا إلى ما يلي :

أ – أن هذه مجرد تهمة لا أساس لها من الصحة ، وأن كلامه الذي جاء

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٥١ .

(٣) حلية الأولياء : جـ ١٠ ص ٢٣٣ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٣٥٣ .

(٥) طبقات المناوى : جـ ١ ص ٥٨٦ – ٥٨٧ .

في كتبه في ولاية النبي لا الولاية العامة [١] .

[ب] أن مذهب الحكيم الترمذي هو مذهب الجنيد وغيره من أهل التصوف الحق الذي يجمعون على أن الأولياء متابعون للأنبياء ومصدقون لدعوتهم ، وأن الأنبياء أفضل من الأولياء [٢] .

ومما يؤكد ما ذكره هؤلاء الصوفية أن الحكيم عقد بابا عن النبوة في كتابه " معرفة الأسرار " تحدث فيه باستفاضة عن هذا الموضوع بما ينفي عنه هذه التهمة ، فتحت عنوان – مراتب التفاضل كتب الحكيم يقول : " العقل جليل وأجل منه الإيمان ، وأجل من الإيمان الصديقية ، والصديقية بداية النبوة ... وأجل من الصديقية الحديث ، والحديث وسط النبوة ، ونهاية الحديث النبوة ... والنبوة تمام الدرجة ، والرسالة أجل من النبوة ، والخلافة في الرسالة أجل من الرسالة بلا خلافة " [٣] .

ويعلق د / الجيوشي على هذا النص فيقول : " وهذا نص صريح يعرض تصور الحكيم الترمذي لمنزلة النبوة ، وأن كل درجات الولاية دونها مكانة [٤] .

ومما يدل على ذلك أيضا قوله في كتابه " ختم الأولياء " ليس لأحد أن يفضل على الأنبياء أحدا لفضل نبوتهم ومحلهم [٥] .

وقد برأ ابن تيمية الحكيم الترمذي من هذه التهمة فقال : " ومن الأنواع التي في دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من بعض الوجوه ، فإن

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٥٨٧ ، والأجوبة المرضية ص : ٣٥٤ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٥٩ – ٤٦٠ ، ٤٧٤ .

(٣) معرفة الأسرار : ص ٦٦ – ٦٧ .

(٤) مقدمة معرفة الأسرار : ص ٢٥ .

(٥) الحكيم الترمذي : ختم الأولياء ص ٣٩٤ ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ .

هذا لم يقله أبو عبد الله الحكيم الترمذي ولا غيره من المشايخ المعروفين ، بل الرجل أجل قدراً وأعظم إيماناً من أن يفتري هذا الكفر الصريح (١) .

أما فيما يخص ابن عربي (٢) فنقول :

إن الإمام الشعراني ذكر أن هذه من جملة ما أشيع عن الشيخ وأن مراده " أن مقام ولاية النبي في نفسه أتم وأكمل من مقام رسالته (٣) .

وهو ما أكده ابن عربي في كتابه " الفصوص " فقال : " فإذا سمعت أحدا من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه ، أو يقول إن الولي فوق النبي والرسول فإنه يعنى بذلك في شخص واحد : وهو أن الرسول ﷺ من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول ، لا أن الولي التابع له أعلى منه ، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له فافهم " (٤) .

ويضاف إلى ذلك ما جاء عن ابن عربي من نصوص وفيها يصرح بأن الولاية أقل من النبوة من ذلك قوله : " اعلم أن الله قد سد باب الرسالة عن كل مخلوق بعد محمد ﷺ إلى يوم القيامة وأنه لا مناسبة بيننا وبينه ﷺ لكونه في مرتبة لا ينبغي أن تكون لنا " (٥) .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٧٤ ، والفرقان : ص ١٠٢ ، والتصوف في تراث ابن تيمية : ص ٢٢٦ – ٢٢٠ .

(٢) ذكر التفتازاني أن العلماء اختلفوا حول ولاية النبي ونبوته أيهما أفضل ، فذهب بعضهم إلى أن نبوة النبي أفضل ، وذهب البعض الآخر إلى أن ولايته أفضل ، انظر شرح المقاصد : جـ ٥ ص ٧٧ – ٧٨ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٣ ، والمعجم الصوفي : ص ١٠٤٠ .

(٤) فصوص الحكم : جـ ١ ص ١٣٥ الفص العزيري .

(٥) الفتوحات : جـ ١ ص ٤٢٩ فصل التشهد .

وقوله : " النبوة والرسالة خصوص رتبة في الولاية ... وهي أعلى من الولي الذي لا نبوة تشريع عنده ولا رسالة [١] .

[٥] التبرؤ من القائلين بتفضيل الولاية على النبوة .

بالإضافة إلى ما سبق فقد تبرأ الصوفية من القائلين بتفضيل الولاية على النبوة ، وذلك بحكمهم عليهم بالضلال والجهل ونقصان العقل والإلحاد كما جاء على لسان الطوسي والشعراني [٢] ، أو حكمهم على من زعم أن الرسول واسط يؤدي وأن المرسل إليهم أفضل بأنه كافر بالله كما ذكر ابن خفيف في معتقدة [٣]

ويكفي دليلا على ذلك ما قاله الهجويري في كشف المحجوب من أن " كل من يعتقد نفي تخصيص الأنبياء يصير كافرا ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين دعاة وأئمة ، والأولياء متابعون لهم بإحسان ومحال أن يكون المأموم أفضل من الإمام [٤] .

---

(١) الفصوص : جـ ١ ص ١٣٦ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٧٢ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥٣٥ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٧٢ .

(٣) معتقد ابن خفيف : ص ٨٥ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٧٥ ، جـ ١ ص : ٣٤٢ .

رابعا : ختم الولاية وأبرز القائلين بها .

ختم الولاية من الأفكار التي أثير حولها جدل واسع في الوسط الصوفي وخارجه وكانت مدعاة لتوجيه سهام النقد إلى التصوف وإلى القائلين بها ، وسوف يركز الباحث على شخصيتين كان لأفكارهما تأثير إزاء هذه الفكرة .

الأولى : هي الحكيم الترمذي .

ظهرت فكرة ختم الولاية بداية عند الحكيم الترمذي فابن تيمية يذكر أنه لم يقل بهذه الفكرة أحد قبله (١) .

وقد أكد هذا الكلام د / أبو العلا عفيفي ، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق والشيخ عبد الرحمن الوكيل ، وإن كنا لا نوافق الأخير في أسلوبه الذي عبر به حين قال : " والعنكبوت الأول الذي سال لعابه بهذه الأسطورة هو الحكيم الترمذي (٢)

وتقوم هذه الفكرة عنده على أن الله تعالى كما خص محمداً ﷺ بأن جعله خاتم الأنبياء فإنه صير في أمته بعد موته " أربعين صديقاً كلما مات واحد منهم خلفه من يقوم مقامه حتى إذا انقرض عددهم وأتي وقت زوال الدنيا ابتعث الله وليا واصطفاه " (٣) هو خاتم الأولياء .

ويأخذ خاتم الأولياء عند الحكيم الترمذي مكانة عالية فهو في نظرة " سيد الأولين وأنه أمان أهل الأرض ومنظر أهل السماء وخالصة الله وموضع نظره ، وسوطه في خلقه ، يؤدب بكلامه ، ويرد الخلق إلى طريقه ، ويجعل منطقه قيد قلوب الموحدين وفصلا بين الحق والباطل (٤) ، ومقام خاتم الأولياء في نظر

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٧ .

(٢) هذه هي الصوفية : ص ١٢٨ ، والتصوف الثورة الروحية : ص ٣٠٩ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ٣٨٧ .

(٣) ختم الأولياء : ص ٣٤٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٠٦ .

الحكيم قريب من مقام الأنبياء لا يكاد يلحق بهم (١) .

الثانية : ابن عربي :

يذكر د / أبو العلا عفيفي أن ابن عربي أغرم بهذه الفكرة آخذا إياها عن الحكيم الترمذي إلا أنه أضفى عليها تفصيلات كثيرة حتى وصل بها إلى نظرية جديدة متكاملة (٢) .

وتقوم هذه النظرية على أن الختم ختمان : ختم الولاية العامة وهو رسول رفعه الله إليه ينزل في آخر الزمان وليا يحكم بشرع محمد ﷺ ويختم بظهوره ولاية الرسل والأنبياء جميعاً ، فلا يظهر ولي بعده من الأفراد ، وهو أفضل أمة محمد ﷺ وهو عيسي عليه السلام (٣) .

وقد صرح ابن عربي بذلك في أكثر من موضع في الفتوحات فقال : " الختم ختمان : ختم يختم الله به الولاية العامة ، وختم يختم الله به الولاية المحمدية . أما ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسي عليه السلام فهو الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة (٤) ، وأنشد في ذلك شعرا فقال :

ألا إن ختــم الأوليــاء رســـول
وليس له فــي العالمــين ســـبيل
وهو الروح وابن الروح والأم مريم
وهــذا مقـــام ما إليــه ســبيل (٥)

وعن أفضليته على سائر أمة محمد ﷺ يقول : " كان من شرف النبي ﷺ

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٦٨ .

(٢) التصوف الثورة الروحية : ص ٣٠٩ – ٣١١ .

(٣) المعجم الصوفي : ص ٣٧٨ .

(٤) الفتوحات : جـ ٢ ص ٤٩ الباب ٧٣ السؤال ١٣ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٤ ص ١٩٥ الباب ٥٥٧ ، وجـ ١ ص ١٥٠ الباب ١٤ ، جـ ٣ ص : ٥١٤ الباب ٣٨٢ ، وجـ ٤ ص ٧٥ – ٧٦ الباب ٤٦٢ .

أن ختم الأولياء في أمته نبي مكرم وهو عيسى عليه السلام وهو أفضل هذه الأمة المحمدية أفضل من أبي بكر الصديق وغيره ، فإنه وإن كان وليا في هذه الأمة والملة المحمدية فهو نبي ورسول في نفس الأمر (١) .

وأما ختم الولاية المحمدية فقد صرح ابن عربي بأنها لرجل من العرب من أكرمها أصلا ويدا ، وأنه ليس المهدي المعروف المسمى بالمنتظر فإن ذلك من سلالته وعترته ﷺ والختم ليس من سلالته الحسية ولكن من سلالة أعراقه وأخلاقه ﷺ . (٢) .

ويذكر ابن عربي أنه وجد في زمانه وعرفه في سنة خمس وتسعين وخمسمائة وأنه قد شاهد بنفسه العلامة التي قد أخفاها الحق فيه عن عيون الناس وأنه كشفها له بمدينة فاس (٣) .

وقد صرح ابن عربي في كثير من النصوص بأنه هو خاتم الأولياء من هذه النصوص قوله :

أنا خاتم الولايـة دون شـك
لورث الهاشمـي مع المسـيح
كمـا أتـى أبو بكـر عشـيق
أجاهد كل ذي جسم وروح (٤)

وقوله أيضا :

جاء المبشـر بالرسـالة يبتغـي
أجر المجيء من الكريم المرسل
فأتى به ختـم الولايـة مثل مـا

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٨٥ الباب ٢٤ .

(٢) التصوف الثورة الروحية : ص ٣١٠ .

(٣) الفتوحات : جـ ١ ص ١٨٥ ، الباب ٢٤ ، والمعجم الصوفي : ص ٣٧٨ .

(٤) الفتوحات : جـ١ ص ٢٤٤ الباب ٤٣ .

ختـم النبـوة بالنبـي المرسـل

ولنا من الختمـين حـظ وافـر

ورثا أتانا في الكتاب المنزل (١)

وقوله أيضا :

منّ الإلـه علينـا فـي خلافتنـا

بخاتم الحكم لم يخصص به بشراً

ولا نريـد بـذا فخـرا فيلحقنـا

نقص لذلك أو يلحق بنا غيرا (٢)

مكانة خاتم الأولياء المحمدين .

صرح ابن عربي أن رتبة هذا الولي الخاتم دون رتبة عيسى عليه السلام صاحب ختم الولاية المطلقة ودون رتبة الأولياء المحمدين السابقين عليه ، أما رتبته بالنسبة لأولياء زمانه ومن يأتي بعده (٣) فهي أعلى " فلا ولي بعده إلا وهو راجع إليه (٤) ، كما أنه أعلم أهل زمانه بالله " لا يكون في زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله وبمواضع الحكم منه فهو والقرآن أخوان " (٥) ، وهو " خاتم المجتهدين إلى أن ينتهي إلى الختم العام الذي هو روح الله وكلمته ، فهو آخر متعلم وآخر

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٨٤ الباب ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٦٠ الباب ٣٩٧ ، والتصوف الثورة الروحية : ص ٣١٢ ، والرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر : ص ٨١ – ٨٣ .

(٣) خاتم الأولياء عند ابن عربي ليس آخر الأولياء مطلقا وإنما هو آخر الأولياء الذين يرثون العلم الباطن عن النبي ﷺ يقول ابن عربي : " ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الورث المحمدي لا التي تحصل من سائر الأنبياء ، فإن من الأولياء من يرث إبراهيم وموسى وعيسى فهؤلاء يوجدون بعد هذا الختم المحمدي ، وبعده فلا يوجد ولي على قلب محمد ﷺ ، الفتوحات : جـ ٢ ص ٤٩ السؤال ١٣ .

(٤) الفتوحات : جـ ١ ص ١٨٥ ، الباب ٢٤ ، والمعجم الصوفي : ص ٣٧٨ .

(٥) الفتوحات : جـ ٣ ص ٣٢٩ الباب ٣٦٦ .

أستاذ لمن أخذ عنه "[١] .

خاتمة :

هذه هي نظرية ختم الولاية عند كل من الحكيم الترمذي وابن عربي كما جاءت على لسانهم ، وقد ترتب على ظهورها عند كل منهما بعض الأمور الخطيرة من أهمها :

الأمر الأول : تفضيل خاتم الأولياء على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

الأمر الخطير فيما يتعلق بفكرة خاتم الأولياء هو إعلاء الحكيم من شأنه ودرجته على شأن ودرجة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتحت عنوان – الأعمال والدرجات – من كتاب " ختم الأولياء " كتب يقول : " قال قائل فهل يجوز أن يكون في الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ ، قال : إن كنت تعنى في العمل فلا ، وإن كنت تعني في الدرجات فغير مدفوع ، وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب ، وقسمة ما في الدرجات بالأعمال ، فمن الذي حرز رحمة الله تعالى عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ولا مجتبى ولا مصطفى "[٢] .

ثم ضرب المثل على ذلك بالمهدي وخاتم الأولياء فقال : " أو ليس المهدي كائنا في آخر الزمان ؟ ... أو ليس كائنا في آخر الزمان من له ختم الولاية ؟

وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف ، كما أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء فأعطى ختم النبوة ، فكذلك هذا الولي الذي هو آخر الأولياء في آخر الزمان [٣]

ويؤكد كلامه هذا حين يذكر بأن النصوص التي جاءت في تفضيل أبي

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٤٠٠ الوصل التاسع عشر من خزائن الجود .

(٢) ختم الأولياء : ص ٤٣٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

بكر وعمر إنما تفيد التفضيل في الأعمال فقط فيقول : " وإنما تقدم الأنبياء الخلق بالنبوة لا بالأعمال ، والأولياء بالصديقية لا بالأعمال ، وإنما تقدم محمد ﷺ سائر الأنبياء بما في قلبه لا بالأعمال فقد كان عمره يسيرا ، ولو كان بالأعمال لكان عمل عشرين سنة يدق في جنب عمر نوح ، وإنما رجح ميزان أبي بكر رضي الله عنه بالعمل لأنه عمل في أهل الردة ما لم يلحقه أحد " (١) .

ومما يؤكد ذلك أيضا قوله : " فأما تفاضل اليقين ووصول القلب إلى الله تعالى فغير مدفوع أن يكون لمن بعدهم – أي أبي بكر وعمر – مثلهما أو أكثر منهما (٢) .

الأمر الثاني : تفضيل خاتم الأولياء على الأنبياء والرسل .

اتهم ابن تيمية وتبعه آخرون في القديم والحديث ابن عربي بأنه كان يفضل خاتم الأولياء على الأنبياء والرسل (٣) ، وقد اعتمدوا في ذلك على ما يلي :

[١] ما جاء عن ابن عربي ويفيد أن الأنبياء يستفيدون العلم بالله عن طريق خاتم الأولياء .

وعن هذا الأمر يقول ابن تيمية : " ومن ذلك زعمه أن الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء وآخذون من مشكاته (٤)

ويدلل على ذلك بقول ابن عربي في فصوص الحكم " وليس هذا العلم إلا

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٣٩ ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٧ – ٧١ .

(٣) اتهم ابن عربي بالإضافة إلى ابن تيمية من العلماء المحدثين عبد الرحمن الوكيل ، وعبد الرحمن عبد الخالق ، وعبد الكريم الخطيب ، انظر مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٦ – ٧٤ ، والرد على المنطقيين : ص ٤٨٦ – ٤٨٩ ، وهذه هي الصوفية : ص ١٢٨ – ١٢٩ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ٤٠٣ – ٤٠٤ ، والتصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام : ص ١٨٦ – ١٩٢ .

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٧٤ .

لخاتم الرسل ، وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء أو الرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم ، حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فإن الرسالة والنبوة أعني نبوة التشريع ورسالته تنقطعان والولاية لا تنقطع أبدا ، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ (١) .

ويعلق عبد الرحمن الوكيل على هذا النص قائلا : " زعم ابن عربي في النص ... آنفا أن الرسل لا يستمدون أشرف علومهم إلا من خاتم الأولياء وهذا يستلزم تفضيل الولي الخاتم على الرسل بعامة وعلى النبي بخاصة " (٢) .

[٢] ما جاء عن ابن عربي ويفيد أن تمام الدين يكون على يد خاتم الأولياء .

وعن هذا الأمر يقول عبد الرحمن الوكيل : " الأمر الآخر هو أنه على يديه يتم الدين (٣) ، ويستدل على ذلك بما ذكره ابن عربي في الفصوص قائلا : " ولما مثل النبي ﷺ بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة فكان ﷺ تلك اللبنة غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة ، أما خاتم الأولياء فلا بدله من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثله به رسول الله ﷺ ويرى في الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب وفضة ، فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لبنة فضة ولبنة ذهب ، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين فيكمل الحائط (٤) .

---

(١) فصوص الحكم : جـ ١ ص ٦٢ .

(٢) هذه هي الصوفية : ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

(٤) فصوص الحكم : جـ ١ ص ٦٣ .

ويعلق عبد الرحمن الوكيل على هذا النص قائلا : " إن ابن عربي يشير إلى الحديث الصحيح الذي مثل فيه رسول الله ﷺ ما بعث به هو والأنبياء من قبله ببيت كانت تنقصه لبنة ، وأنه ﷺ هو الذي جاء بتلك اللبنة يعنى أنه هو الذي أتم الله به على المسلمين دينهم ، ولكن ابن عربي يزعم أن الدين كان ناقصا لبنتين فأتي محمد ﷺ بواحدة وأتى خاتم الأولياء .... بلبنة أخرى ، فلم يكمل دين الله إلا على يد خاتم الأولياء ، أين هذا الإفك من قول الحق جل وعلا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (١) (٢) .

وبعد فهذه هي أهم الأمور التي ترتبت على القول بخاتم الأولياء ، وسوف يبين الباحث موقف الصوفية منها ، ومن الأمور التي ترتبت عليها .

[أ] موقف الصوفية من فكرة ختم الولاية :

أما عن موقف الصوفية من فكرة ختم الولاية فنقول : " لا توجد نصوص تبين قبول الصوفية لهذه الفكرة أو رفضهم لها ، والذي تعرض لهذه الفكرة بالرفض هو ابن تيمية ومن سار على دربه ، فقد ذكر ابن تيمية أن دعوى ختم الولاية دعوى باطلة لا أصل لها ، ولم يذكرها أحد من المعروفين قبل الترمذي الحكيم ، كما أن لفظ خاتم الأولياء " لا يوجد في كلام أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله " (٣) ﷺ .

ويشير ابن تيمية إلى أن القول بها أدى إلى أن خاتم الأولياء هذا " صار مرتبة موهومة لا حقيقة له ، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف ، وقد ادعاها غير واحد ولم يدعها إلا من في كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى (٤)

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) هذه هي الصوفية : ص ١٢٩ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ٣٩٥ – ٣٩٧ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٤ ، ٦٧ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٧٢ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة : ص ٤٠٤ – ٤٠٨

[ب] موقف الصوفية من دعوى تفضيل أحد على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

أما عن موقف الصوفية من دعوى تفضيل خاتم الأولياء أو غيره على صحابة رسول الله ﷺ خاصة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم فنقول : " إن الصوفية رفضوا هذه الدعوى رفضا تاما سواء كان رفضهم هذا موجها لما ادعاه الحكيم الترمذي ، أو كان مجرد إعلان لموقفهم من مثل هذه الدعوى ، وقد ظهر ذلك من خلال :

١ - إعلانهم أن مقام الصحبة أعلى المقامات .

أعلن الصوفية أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أئمة الزهاد والعباد ، وأن مقامهم الذي هو مقام الصحبة أعلى المقامات وأشرفها لا يعلوه مقام آخر ، وأن لهذا المقام حرمة وتخصيصاً لمن شمله " وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته " (١) وأنهم " لما نسبوا إلى الصحبة التي هي أجل الأحوال استحالوا أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال " (٢) .

ويذكر الطوسي والمكي والغزالي وبصورة مجملة أن هذا هو اعتقاد أهل السنة جميعاً بما فيهم الصوفية (٣) .

ويفصل الجيلاني ذلك في الغنية فيقول : " ويعتقد أهل السنة أن أمة محمد ﷺ خير الأمم أجمعين ، وأفضلهم أهل القرن الذين شاهدوه وآمنوا به وصدقوه وبايعوه وتابعوه وقاتلوا بين يديه وفدوه بأنفسهم وأموالهم وعزروه ونصروه ، وأفضل أهل القرون أهل الحديبية الذين بايعوه بيعة الرضوان ، فهم ألف وأربعمائة رجل وأفضلهم أهل بدر هم ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا ، وأفضلهم

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه ، قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٥ ، وإحياء علوم الدين : جـ ١ ص ١٥١ .

الأربعون أهل دار الخيزران (١) الذين كملوا بعمر بن الخطاب ، وأفضلهم العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيده بن الجراح ، وأفضل هؤلاء العشرة الأبرار الخلفاء الراشدون الأربعة الأخيار " (٢) .

وقد استدل الصوفية على أفضلية الصحابة على غيرهم بالقرآن والسنة .

أولا : القرآن الكريم :

أثنى الحق سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن على صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ومنها قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾(٣)

وعن هذه الآية يقول الطوسي : " فقد وقع اسم السابقين على الجميع بظاهر الآية مع رضا الله تعالى عنهم وشهد لهم بأنهم راضون عنه ، والسابقون هم المقربون بنص الآية (٤)

ومنها قوله تعالى :﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ (٥) ،

وقوله جلا وعلا : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) هي دار الأرقم بن أبي الأرقم والتي كان يلتقي فيها رسول ﷺ بأصحابه في بداية البعثة ، وقد شهدت إسلام عمر ﷺ ، وقد اشترتها الخيزران وهي أم ولد بربرية تزوجها المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور أنجبت له الهادي والرشيد ، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٢٦٠ – ٢٦١ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط بدون تاريخ .

(٢) الغنية : جـ ١ ص ٩٧ – ٩٨ .

(٣) سورة التوبة آية ١٠٠ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ١٦٦ ، وقوت القلوب : جـ ١ ص ١٠١ .

(٥) سورة الحديد آية ١٠ .

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .

وعن هذه الآية يقول الإمام الجيلاني : " روى جعفر بن محمد عن أبيه محمد عن أبيه في قوله ﷻ " ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ في العسر واليسر والغار والعريش أبو بكر ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ عمر بن الخطاب ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ عثمان بن عفان ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ علي بن أبي طالب ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ طلحة والزبير حواريا رسول الله ﷺ ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ سعد وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيده بن الجراح هؤلاء العشرة ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ يعنى محمداً ﷺ ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ بأبي بكر ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ بعمر ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ بعثمان ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ بعلي بن أبي طالب ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ﴾ بالنبي ﷺ وصحابه : " الكفار " ... (٣) ، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على تبوأ صحابة رسول الله ﷺ المكانة العالية في الأمة الإسلامية .

ثانيا : السنة النبوية :

استدل الصوفية أيضا على أفضلية الصحابة على جميع المسلمين بكثير من الأحاديث النبوية والتي يدعو فيها النبي ﷺ بالاقتداء بأصحابه خاصة أبي بكر وعمر

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٣) الغنية : جـ ١ ص ١٠١ .

كقوله ﷺ : " اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر [١] [٢] ، وقوله ﷺ : " خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " [٣] ، وقوله ﷺ : " إن الله عز وجل اختار أصحابي على العالمين ، واختار من أصحابي أربعة فجعلهم خير أصحابي وفي كل أصحابي خير ، واختار أمتي على الأمم واختار من أمتي أربعة قرون ... [٤] الحديث [٥] .

وغيرها من الأحاديث الأخرى التي تدل على أن الصحابة أفضل هذه الأمة في الأعمال والدرجات .

٢ - إعلان الصوفية أن أبا بكر ﷺ أفضل الأولياء المحمدين .

بالإضافة إلى ما سبق فقد أعلن أهل التصوف بأنهم يجمعون كما يجمع المسلمون جميعاً من أهل السنة والجماعة بأن أبا بكر هو " أفضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ ، وأنه " أفضل الأولياء المحمدين بعد الأنبياء والمرسلين [٦] .

ويذكر الشعراني أنه يدخل " في قولنا إن أبا بكر أفضل الأولياء المحمدين أولياء الأمم السالفة فأبو بكر أفضل منهم بناء على عموم رسالته ﷺ في حق من تقدمه وفي حق من تأخر عنه بالزمان [٧] ، ولا يخرج من ذلك أحد من الأولياء

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٥ ص ٣٨٢ ، ٣٨٥ عن حذيفة ، والبيهقي في سننه الكبرى : جـ ٨ ص ١٥٣ ، كتاب قتال أهل البغي ، باب ما جاء في تنبيه الإمام على من يراه أهل للخلافة بعده ، والترمذي في سننه : جـ ٥ ص ٢٧١ ، كتاب المناقب ، باب مناقب أبي بكر

(٢) اللمع للطوسي : ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) صحيح البخاري : جـ ٢ ص ٢٨٧ ، كتاب الفضائل ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ .

(٤) الحديث ذكره المتقي الهندي في كنز العمال : جـ ١١ ص ٥٤٠ حديث رقم [٣٢٥٢٨] ، [٣٢٥٢٩] .

(٥) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(٦) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٧٢ .

(٧) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٧٣ .

إلا عيسى عليه السلام فإنه أفضل من أبي بكر بيقين لنبوته ﷺ (١) .

وقد شهد ابن تيمية للصوفية بذلك حين ذكر أن كبار مشايخ الصوفية " كلهم يجزمون بتقديم أبي بكر وعمر كما يجزمون بإمامتيهما (٢).

والصوفية في تفضيلهم أبي بكر يعتمدون على مجموعة من الأمور منها :

أ – ورود كثير من الأحاديث النبوية تدل على أنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ .

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال كنا نقول : " خير الناس بعد النبي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ولا ينكر ذلك علينا " (٣) (٤) .

وبما أخرجه ابن ماجة في سننه عن عبد الله بن سلمة قال : سمعت عليا يقول : " خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، وخير الناس بعد أبي بكر عمر (٥)

ب – الإجماع على أفضليته رضي الله عنه .

فقد أطبق السلف الصالح كما يذكر الشعراني من الصحابة والتابعين على احترام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وتعظيمهم على هذا الترتيب (٦) .

ويضاف إلى ما سبق استخلافه ﷺ للصلاة بالناس في مرضه الذي مات

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) منهاج السنة النبوية : جـ ٤ ص ٧٧ ، والتصوف في تراث ابن تيمية : ص ٢٢٩ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٢ ص ٢٩٧ ، كتاب الفضائل ، باب مناقب عثمان بن عفان .

(٤) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٧٣ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(٥) سنن ابن ماجة : جـ ١ ص ٥١ ، باب : فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث رقم [١٠٦] .

(٦) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٧٣ .

فيه ﷺ ، وثباته ﷺ يوم وفاته ، فقد قوي ﷺ حين ذهلت الجماعة ، فكان ﷺ هو الحقيق بالتقدم لأن الإمام أو صاحب التقدم والإمامة " لا يكونَن إلا صاحياً غير سكران " (١) .

موقفنا من دعوى الحكيم الترمذي :

موقفنا من هذه الدعوى هو موقف أهل السنة والجماعة ، وهو موقف أهل التصوف الحق أيضا ، وهو رفض القول بتفضيل أحد من الناس على صحابة رسول الله ﷺ لعدة أمور :

[١] مخالفة هذه الدعوى لنصوص القرآن والسنة الدالة على علو درجة الصحابة وعلى أن أفضلهم وأفضل الأولياء المحمدين بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وبعده عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

[٢] مخالفة هذه الدعوى لما أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وجميع المسلمين بما فيهم الصوفية .

[٣] عدم اعتماد الترمذي على نصوص تدل على ما ذهب إليه .

[٤] أن الأحاديث التي روت فضائل الصحابة جاءت مطلقة ولم يفهم الصحابة ولا من جاء بعدهم منها أن النبي ﷺ كان يقصد الأعمال فقط لا الدرجات كما يقول الترمذي .

[٥] تناقض الحكيم الترمذي مع نفسه في هذه الدعوى ، فالحكيم تارة يقول بأن أبا بكر فضل بعمله فقط وبناء عليه يبني على ذلك رأيه في أن خاتم الأولياء أفضل من أبي بكر في الدرجات التي هي أعمال القلب ، ولكننا نراه يعود تارة أخري فيعلى من درجة أبي بكر على الجميع بما فيهم خاتم الأولياء فيما يتعلق بأعمال القلب فقال : " عن بكر بن عبد الله المزني قال : لم يفضل أبو بكر

---

(١) المرجع السابق نفسه .

الناس بكثرة صومه ولا صلاته إنما فضلهم بشيء كان في قلبه " (١) .

ويقول أيضا : " وإنما برز أبو بكر على جميع أصحابه بتصديق رسول الله ﷺ ولذلك سمي صديقاً ، والصديق ما لم يكن له قلب الصديقين لا يصل إلى تصديق المرسلين ، وهو قلب اصطفاه الله تعالى وطهره ومكن الصدق له هناك في مقعد صدق عند مليك مقتدر " (٢) .

ومع هذا فإننا نقول كما قال ابن تيمية فيه بأنه رحمه الله كان ذا قدر جليل وإيمان عظيم وكان فيه فضل ومعرفة ، وأنه إن كان أخطأ في كتابه ختم الأولياء بما ذكره في هذه الدعوى فإنه ذكر فيه أيضا من الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة (٣) .

وبما قاله فيه أيضا الإمام المناوي في الطبقات بأنه " كان صدرا معظما وصوفيا محدثاً مفخماً .... غزير المعارف " (٤) .

محاولة دفاع هشة :

حاول البعض الدفاع عن الحكيم الترمذي وذكروا أنه كان يقصد من قوله خاتم الأولياء عيسى بن مريم ، وبالتالي فهو أفضل من أبي بكر وعمر من حيث رسالته (٥) .

لكننا نقول : إن الحكيم صرح بأن خاتم الأولياء الذي يقصده ليس بنبي وإنما هو قريب من الأنبياء ، وبالتالي فليس هو عيسى عليه السلام فقد قال : " قال قائل وما صفة ذلك الخاتم الذي له إمامة الولاية ورياستها وختم الولاية ؟ قال ذلك من

---

(١) ختم الأولياء : ص ٤٤٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٤٥ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٦٧ ، ٧٤ .

(٤) طبقات المناوي : جـ ١ ص ٥٨٦ .

(٥) المعجم الصوفي لسعاد الحكيم : ص ٣٨١ .

الأنبياء قريب يكاد يلحقهم "(١) .

وإذا كان الحكيم يقصد عيسى عليه السلام فلماذا لم يصرح به وقد صرح بأن المهدي أفضل من أبي بكر ؟

جـ - موقف الصوفية من نصوص ابن عربي الموهمة بتفضيل الخاتم على الأنبياء والرسل .

ذكرنا من قبل أن ابن تيمية ومن تبعه من العلماء اعتمدوا في اتهام ابن عربي بهذه التهمة على أمرين :

الأول : ما جاء عنه ويفيد استمداد الأنبياء والرسل وجميع الأولياء العلم بالله عن طريق خاتم الأولياء .

الثاني : ما جاء عنه ويفيد أن تمام الدين يكون على يد خاتم الأولياء .

الرد على الدعوى الأولى :

رد هذه الدعوى كثير من العلماء سواء كانوا من داخل التصوف أو خارجه ومن هؤلاء الكاشاني ، وبالي أفندي ، ود / أبو العلا عفيفي ، ومحمود الغراب ، ود / سعاد الحكيم وغيرهم في القديم والحديث ذاهبين إلى ما يلي :

[١] خاتم الأولياء هو روح النبي ﷺ .

ذكر الكاشاني ، ود / أبو العلا عفيفي ، ومحمود محمود الغراب أن ابن عربي عندما قال : " حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء "(٢) . إنما كان يقصد روح خاتم الأولياء لا شخصه وهي بعينها الروح المحمدي (٣) .

---

(١) ختم الأولياء : ص ٣٦٨ .

(٢) فصوص الحكم بشرح الكاشاني : ص ٥٦ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٣) التصوف الثورة الروحية : ص ٣١٠ - ٣١١ ، والرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر ص ٧٦

فالكاشاني بعد أن يذكر نص ابن عربي السابق يعقب عليه قائلا : " أي الرسل كلهم يأخذونه من خاتم الرسل وهو يأخذ من باطنه من حيث إنه خاتم الأولياء لكن لا يظهر لأن وصف رسالته يمنعه ، فإذا ظهر باطنه في صورة خاتم الأولياء يظهره " (١)

ويزيد الأمر وضوحا حين يصرح بأن خاتم الأولياء هو خاتم الرسل محمد ﷺ فيقول : " فخاتم الرسل من حيث الحقيقة هو خاتم الولاية ، ومن حيث كونه خاتما للولاية معدن هذا العلم وعلوم جميع الأولياء والأنبياء وهو مقامه المحمود الذي يبعثه فيه ، فاعلم ذلك حتى لا تتوهم أنه محتاج في علمه إلى غيره ، وهو معنى قوله " فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرنا إلا من مشكاة خاتم الأولياء فكيف من دونهم من الأولياء " ... " (٢) .

ويستدل أصحاب هذا الاتجاه على ما ذهبوا إليه بمجموعة من الأمور منها :

أولا : تصريح ابن عربي بأن خاتم الأولياء روح النبي ﷺ .

فقد قال في الفتوحات : " وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ وهو الممد لجميع الأنبياء والرسل سلام عليهم أجمعين والأقطاب من حيث النشئ الإنساني إلى يوم القيامة (٣) .

ثانيا : تصريحه بأن النبي ﷺ هو أعلم الخلق بالله

كذلك استدلوا على ما ذهبوا إليه بأن ابن عربي صرح في كثير من النصوص بأن النبي ﷺ " أعلم الخلق بالله " (٤) ، وأن " منزلته ﷺ في العلوم

---

(١) فصوص الحكم بشرح الكاشاني : ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٧ .

(٣) الفتوحات : جـ ١ ص ١٥١ الباب ١٤ ، وجـ ١ ص ١٤٤ الباب ١٢ .

(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٦٩٦ ، جـ ٣ ص ٥٥٦ الباب ٣٩٤ .

الإحاطة بعلم كل عالم بالله من العلماء متقدميهم ومتأخريهم [١] ، وأن الله خصه " بعلوم لم تجتمع في غيره منها أنه أعطاه أنواع ضروب الوحي كلها فأوحى إليه بجميع ما سمي وحيا كالمبشرات والإنزال على القلوب والآذان ، وبحالة العروج وعدم العروج وغير ذلك ، وخصه بعموم علوم الأحوال كلها فأعطاه العلم بكل حال وفي كل حال [٢] ، وأنه " ما أخذ أحد إلا منه ولا أخبر رسول إلا عنه [٣] وأن كل علم " إنما هو ميزان محمدي في كل زمان ورسول ونبي من آدم إلى يوم القيامة [٤] .

وقد جمع محمود محمود الغراب كثيراً من النصوص الدالة على ذلك في كتابه : " الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر " فليرجع إليه [٥] .

[٢] خاتم الأولياء عيسى عليه السلام :

ذهبت د / سعاد الحكيم في رد هذه التهمة عن ابن عربي إلى أنه كان يقصد خاتم الولاية العامة الذي هو عيسى عليه السلام لا خاتم الولاية المحمدية فتقول : " إن عبارة ختم الأولياء " أو " ختم الولاية الخاصة " توقع القارئ في مغالطات كثيرة إذ أن ابن عربي يستعملها أحيانا دون تحديد ، ويندفع في إضفاء أرفع الأوصاف على شخص ختم الولاية وهو يقصد " الختم العام " ... " [٦] .

وتقول أيضا : " لقد نقد ابن تيمية فكرة " ختم الولاية " عند ... ابن عربي .... وغاب عن ذهنه أن ختم الولاية ليس وليا يظهر في آخر الزمان يختم

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٤٣ الباب ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٤٥ الباب ٣٣٧ .

(٣) المرجع السابق : جـ٣ ص ٣٥٠ الباب ٣٦٧ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٤٥٦ – ٤٥٧ الباب ٣٧٣ .

(٥) الرد على ابن تيمية : ص ٧٦ – ٨١ .

(٦) المعجم الصوفي : ص ٣٧٧ .

الأولياء ، كلا إنه رسول نزل وليا فهو ولي رسول " عيسي " ... " (١) .

ولأجل عدم الوقوع في الخطأ تدعو وتنبه " إلى ضرورة دراسة كل مقطع ترد فيه عبارة " ختم الولاية " دون تخصيص لإرجاعها من خلال صفات الختم إلى شخصه (٢) .

[٣] خاتم الأولياء لا يفضل الأنبياء .

ذكر بالي أفندي بأننا لو فرضنا أن ابن عربي كان يقصد خاتم الولاية المحمدية ، فإن ذلك لا يلزم منه أفضليته على الرسل وإنما يثبت فضيلته ويثبت في الوقت ذاته أفضلية الرسول ﷺ على جميع الرسل حيث جعل من أمته ﷺ من يستفيد الرسل منه العلم فيقول : " والمراد بقوله " من وجه يكون أعلى " بيان زيادة خاتم الأولياء من الوجه المذكور ، وإنما يثبت فضيلته من حيث هو متبوع على التابع إذا لم يكن متبوعية ذلك المتبوع من التابع ، فكان التابع من حيث إنه تابع أفضل من المتبوع من حيث إنه متبوع لكون المتبوعية من إعطاء التابع ، فكما أن الله أعلى وأشرف على معلوماته فكذلك ختم الرسل فتابعيته بختم الأولياء تابعية صاحب القوى قواه في أخذ مراداته ، فكان خاتم الأولياء مرتبة من مراتب ختم الرسل وهو معنى قوله " حسنة من حسنات خاتم الرسل " ... " (٣) .

واستدل على ذلك بأن ابن عربي صرح بأن خاتم الأولياء يستمد من النبي ﷺ فقال : " فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه فإنه الولي الرسول النبي ، وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد للمراتب وهو حسنة من حسنات الرسول محمد ﷺ مقدم الجماعة وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة " (٤) .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٨١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٧٧ .

(٣) حل المواضع الخفية من شرح بالي أفندي : ص ٥٧ ضمن كتاب فصوص الحكم بشرح الكاشاني .

(٤) فصوص الحكم : جـ ١ ص ٦٤ .

كما أن ابن عربي صرح بأن ذلك التفضيل من باب ما جاء في أسرى بدر وبما جاء في تأبير النخل فقال : " وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى ، وقد ظهرت في ظاهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر في أسارى بدر بالحكم فيهم ، وفي تأبير النخل ، فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء وفي كل مرتبة " (١) .

وفي النهاية فإننا نقول بأن ابن عربي وإن كان من الممكن أن نلتمس له العذر بأنه كان يقصد روح الرسول ﷺ أو عيسى عليه السلام ، فإننا نوجه له اللوم وحده ولا نلوم غيره ، لأنهم تعاملوا مع ظاهر النص وظاهر النص يؤيدهم ، ونقول أيضا بأنه كان من الواجب عليه أن يحدد لنا من هو خاتم الأولياء الذي يقصده خاصة وأنه يفرق في كثير من الأحيان بين خاتم الولاية العامة وخاتم الولاية الخاصة .

الرد على الدعوى الثانية .

وأما دعوى أن ابن عربي كان يقول بأن تمام الدين يكون على يد خاتم الأولياء ، فقد رد عليها الكاشاني ذاهبا إلى أن هذا تمام مثال لا تمام حقيقي قائلا : " وإنما يكون على ما ذكره ، لأن الرؤية من عالم المثال ، وهو تمثل كل حقيقة بصورة تناسبه فتمثل حال النبي ﷺ في نبوته في صورة اللبنة التي يكمل بها بنيان النبوة فكان خاتم الأولياء ، ولما لم يظهر بصورة الولاية لم يتمثل له موضعه باعتبار الولاية ، فلا بد من خاتم الولاية باعتبار ظهوره وختمه للولاية أن يرى مقامه في صورة اللبنة الذهبية من حيث إنه متشرع بشريعة خاتم الرسل ، ويرى مقامه في صورة اللبنة الفضية باعتبار ظاهره فإنه يظهر تابعا للشريعة المحمدية

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٦٢ – ٦٣ .

، على أنه آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه " [١] .

وأيا ما كان الأمر فإننا نأخذ على ابن عربي تعمده الغموض والذي كان سبباً في اتهامه بكثير من التهم فضلا عن إثارته قضايا كثيرة لم يثرها السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ومشايخ الصوفية من قبله .

(١) فصوص الحكم بشرح الكاشاني : ص ٥٩ .

خامساً : دعوى عصمة الأولياء .

من الأفكار المنحرفة فكرة عصمة الأولياء ، وبالرغم من أن الطوسي والسلمي لم يعداها ضمن الأخطاء التي وقع فيها أدعياء التصوف ، فقد اعترف السيد أحمد الرفاعي بوقوع بعض الغالين في القول بها حين قال لأحد أصدقائه ناصحا له " ولا تعمل عمل أهل الغلو فتعتقد العصمة في المشايخ " (١) .

واعترف الشيخ محمد زكي إبراهيم بوقوع بعض المتصوفة أو المستوصفة في هذا العصر في القول بها (٢) .

ويبدو أن هذه الفكرة سرت إلى الوسط الصوفي عن طريق الشيعة الإماميه فقد كانوا " يعتقدون أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدا وسهوا ، كما يجب أن يكون معصوما من السهو والنسيان " (٣) .

وقد تصدي أهل التصوف الحق لهذا الدعوى وبذلوا جهودا عدة في مواجهتها منها :

١ – العصمة لا تكون إلا لنبي

أعلن أهل التصوف في كثير من المواضع في القديم والحديث بأن العصمة لا تكون إلا للملائكة والأنبياء وهي شرط في نبوة النبي ، بأنه لا معصوم في العالم بعد الأنبياء ، وأنه لو صحت العصمة لأحد لكان نبيا ولا نبوة بعد سيدنا

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع : ص ٣٨٧ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٦٧ .

(٣) الشيخ محمد رضا المظفر : عقائد الإمامية ص ١٠٤ دار الزهراء للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ، ط ٥ (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م) ، وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين : جـ ٣ ص ٢٢٦ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١٠ (١٩٣٦) ، وفجر الإسلام لأحمد أمين : ص ٤٢٤ الهيئة المصرية العامة مهرجان القراءة للجميع ط ١٩٩٦م ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ٥٤

محمد ﷺ (١) .

٢ - الحفظ للأولياء .

مع إعلان الصوفية بأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء أعلنوا أيضا أن للأولياء مرتبة أقل من مرتبة العصمة هي الحفظ .

يقول القشيري : " ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً (٢) .

والحفظ يطلق في المفهوم الصوفي ويرد به معان ثلاثة .

الأول : عدم النظر إلى النفس وعدم القدرة على الإغواء .

وعن هذا المعنى يقول الكلاباذي : " الولاية ولايتان : ولاية تخرج من العداوة وهي لعامة المؤمنين ، وولاية اختصاص واصطفاء ويكون صاحبها محفوظا عن النظر إلى نفسه ، فلا يدخله عجب ، ويكون مسلوبا من الخلق بمعنى النظر إليهم بحظ فلا يفتتونه ، ويكون محفوظ عن آفات البشرية ، وإن كان طبع البشرية قائما معه باقيا فيه ، فلا يستحلى حظا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه في دينه ، واستحلاء الطبع قائم فيه ، وهذه خصوصية الولاية من الله للعبد ومن كان بهذه الصفة لم يكن للعدو إليه طريق بمعنى الإغواء لقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٣) (٤) .

---

(١) التعرف : ص ٨٩ ، والرسالة القشيرية : ص ٩٥ ، وقواعد التصوف : ص ٩١ القاعدة ١٤٦ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٢٠ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٣٦٠ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٥٩ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٢ .

(٣) سورة الحجر آية ٤٢ .

(٤) التعرف : ص ٨٨ – ٨٩ .

الثاني : عدم الإصرار على الذنب .

يؤمن الصوفية بأن الولي قد يقع في الذنب سواء كان صغيراً أو كبيرا لعدم عصمته (١) .

فالإمام الجنيد حين يسئل : " أيزني الولي ؟ يسكت مليا ثم يجيب وكان أمر الله قدرا مقدوراً " (٢) .

ويوصي الجيلاني أحد مريدية بعدم استبعاده الوقوع في المعصية فيقول : " إياك أن تستبعد وقوعك في الكبائر ولو توالت عليك المراقبة آناء الليل وأطراف النهار لأن باب العصمة مسدود على غير الأنبياء " (٣) .

ومع اعتراف الصوفية بإمكان وقوع الولي في الذنب صغيرا أو كبيرا ، فإنهم يرون أن الحفظ الذي يمنحه الله للولي يمنعه من الاستمرار في المعصية ، وذلك لأن الإصرار على المعصية وإدمانها ينفي الولاية (٤) .

وهو ما صرح به الكلاباذي والقشيري ، والشيخ زروق في قواعده ، وهو ما عبر عنه الشيخ خليل الخطيب شعرا فقال

ولا تنافي في الزلة الولايـــة

وقد تزول فارجه الوقاية (٥)

والذي يدعو إلى الإعجاب والتقدير والاحترام ما نادي به الشيخ خليل الخطيب في كتابه الجنة حين ذكر بأننا ما دمنا قد جوزنا على الأولياء الوقوع في

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٩ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٣٦٠ ، وقواعد التصوف : ص ٦٢ قاعدة ١٤٦ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٤) التعرف : ص ٨٩ ، والرسالة القشيرية : ص ٣٥٩ ، قواعد التصوف : ص ٥٠ – ٥١ قاعدة ٨٣

(٥) الجنة : ص ٤١ .

الذنب فإن من الواجب علينا " احتياطا لديننا واستبراء لعرضنا وإرضاء لربنا أن لا نقتدي بهم فيما يشكل علينا من فعلهم وقولهم بل نعرض ما جاءوا به على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما ساغ فيهما استسغناه وعلنا به وإلا رفضناه وكنا بذلك متبعين لآثارهم مهتدين بأنوارهم ، والخلاصة أن عملهم إن لم يكن له أصل في الشريعة رفض لأنهم غير معصومين والشريعة حجة عليهم وليس أحد منهم حجة على الشريعة " (١) .

الثالث : عدم الردة .

أما المعنى الثالث من معاني الحفظ هو عدم الردة وقد حدد ذلك الهجويري فقال : " إن الأولياء ليسوا معصومين لأن العصمة ليست شرطا لهم ، ولكنهم محفوظون من الآفة التي يقتضي وجودها نفي الولاية ، ونفي الولاية والعياذ بالله مرتبط بالردة لا بالمعصية " (٢)

[٣] التفريق بين العصمة والحفظ .

خلط بعض من العلماء بين العصمة والحفظ ظنا منهم أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما ، ومن ثم اتهموا الصوفية جميعاً بأنهم يقولون بعصمة الأولياء (٣) .

وقد تنبه الصوفية إلى ذلك فذكروا أن هناك فروقا كثيرة بين العصمة والحفظ منها :

أ – العصمة تمنع من الوقوع في المعصية والذنب ، بخلاف الحفظ فإنه لا يمنع من الوقوع في الذنب لكنه يمنع من الإصرار عليه .

ب – العصمة تكون قبل النبوة وبعدها ، بخلاف الحفظ فإنه يكون مع الولاية لا قبلها .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤١ – ٤٢ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٥٩ .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ١ ص ٥٤ ، والصلة بين التصوف والتشيع : ص ٣٥٨

ج – العصمة لا تتخلف عن المعصوم بخلاف الحفظ فإنه قد يتخلف [١] .

د – العصمة هبة ومنحة ، بخلاف الحفظ فإنه كسب وأثر للاجتهاد والاحتياط والورع [٢] .

هـ – وأضاف الشعراني فرقا آخر فقال : " الفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من المباح لهوى أنفسهم ، بخلاف الأولياء فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه لهوى أنفسهم كغيرهم وإنما يفعلونه على جهة التشريع أنه مباح فهو واجب عليهم حينئذ يعني فعل المباح إذ التبليغ واجب عليهم " [٣] .

٤ – توجيه بعض النصوص التي يوهم ظاهرها عصمة الأولياء .

ورد عن أبي الحسن الشاذلي [٤] في حزب البحر أنه قال : " نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الظنون والشكوك والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب ، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا " [٥] .

---

(١) المنح القدوسية : ص ٥٣ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٦٧ .

(٣) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٤ .

(٤) على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي ، وشاذله قرية من إفريقية ، الضرير الزاهد نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية كان كبير المقدار على المنار ... صحب الشيخ نجم الدين الاصفهاني وابن مشيش وغيرهما ، وحج مرات ومات بصحراء عيذاب قاصدا الحج فدفن هناك في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة ، انظر الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٣٦٣ ، وطبقات المناوي : جـ ٢ ص ١٢٦ – ١٣٦ ، قال عنه : ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن : " هو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين ، زين العارفين ، أستاذ الأكابر ، والمنفرد في زمانه بالمعارف السنية والمفاخر ، العالم بالله ، الدال عليه ، زمزم الأسرار ومعدن الأنوار ، والقطب الغوث الجامع : تقي الدين أبو الحسن على بن عبد الله ابن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ " . لطائف المنن : ص ٧٥ .

(٥) حزب البحر ضمن كتاب قضية التصوف المدرسة الشاذلية : ص ١٣٩ ، وأبو الحسن الشاذلي لعلي سالم عمار : ص ٢٤٩ ، مطبعة دار التأليف ، ط ١ (١٩٥١ م) .

وقد أنكر العلماء عليه ذلك وقالوا : " العصمة لا تكون إلا للأنبياء فكيف يجوز للشاذلي أن يسألها ، ما ذلك إلا من الجهل المبين ؟ (١) .

وقد أجاب الشعراني ، وعلي سالم عمار عن هذه الشبهة بمجموعة من الأجوبة منها :

[أ] العصمة في كلام أبي الحسن لا تعني سوى الحفظ .

قال الإمام الشعراني : " إنه لا ينبغي الاعتراض على الشيخ لأن في ضمن سؤال العصمة يعنى الحفظ وعلمه أنه غير معصوم ، ولو أنه رأى نفسه كالأنبياء ما سأل ربه ذلك " (٢) .

ومما يؤكد أن الشاذلي كان يقصد من العصمة الحفظ أن لفظ العصمة ورد في القرآن في أكثر من موضع بمعنى الحفظ والوقاية من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (٣) ، وقوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ (٤) ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٥) . وغير ذلك كثير .

[ب] أن الشاذلي بطلبه العصمة لم يقصد حرفية العصمة ليشارك الأنبياء مراتبهم وليس هناك محل لهذا الظن خاصة ، وأنه بين بما لا يدع مجالا للشك أن النبوة أعلى وأفضل من الولاية : " فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء وما

---

(١) الأجوبة المرضية : ص ٤٨٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

(٣) سورة الأحزاب آية ١٧ .

(٤) سورة يونس آية ٢٧ .

(٥) سورة هود آية ٤٣ .

لهم الإحاطة بمقامهم ، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء " (١) .

[ج] أن الشاذلي كان يرجو بطلبه العصمة كمال التوحيد ففي حزب البر يقول الإمام الشاذلي : " يا الله يا عظيم يا علي يا كبير : نسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك ، والطف بنا فيهما لطفا علمته يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيب عبيدا لك في جميع الحالات ، وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين في المحيا والممات (٢) .

[د] أن بعض مفسري حزب البر قال إن الشيخ لعله أراد بالعصمة الطهارة من الرجس الذي قال الله فيه بالنسبة لآل البيت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣) ، وهو أحدهم (٤) .

[هـ] أن الشاذلي ما كان يجهل مدي العصمة التي سألها لنفسه ، وما كان يجهل عصمة الأنبياء عليهم السلام ، فإن الفضل بيد الله والشاذلي الذي يعلم هذا كله لا ينصرف ذهنه إلى أنه معصوم ولا إلى مشاركة النبيين في مقاماتهم أو عصمتهم ، إلا إننا وقد أمرنا بمتابعة النبي ﷺ ومتابعة أصحابه وأهل السلف والنبيين ، في الأقوال والأفعال ، وجب علينا أن نتابعهم في الدعاء ، وقد ورد في دعاء السلف " اللهم إنا نسألك بكل ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من كل ما استعاذ بك منه " (٥) .

أما وقد كان النبي ﷺ يطلب من الله إصلاح دينه الذي فيه عصمة أمره فلا

---

(١) أبو الحسن الشاذلي : ص ٢٦١ .

(٢) حزب البر " المعروف بالحزب الكبير " ضمن قضية التصوف المدرسة الشاذلية : ص ١٤٧ ، وأبو الحسن الشاذلي : ص ٢٦١ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

(٤) أبو الحسن الشاذلي : ص ٢٦١ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٦٢ .

غضاضة على الشاذلي إذا سأل هذه العصمة أي الحفظ .

وقد كان أيضا من دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في حزبه السيف المشهور : " اللهم ارزقني التوفيق والتسديد والعصمة " [١] .

وعليه ومن خلال ما سبق فإن الشاذلي ما كان يقصد من سؤاله إلا الحفظ ، وأنه في سؤاله هذا كان مقتفيا أثر النبي ﷺ والسلف الصالح .

ونختم كلامنا في هذه القضية بنص للإمام القشيري ينادي فيه جميع مريدي التصوف بعدم الاعتقاد بعصمة المشايخ قائلا : " ولا ينبغي للمريد أن يعتقد العصمة في المشايخ بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم فيحسن الظن بهم " [٢]

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٦٢ – ٢٦٣ ، والأجوبة المرضية : ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٣٦١ .

المبحث الثالث

موقف الصوفية من مسائل السمعيات

السمعيات وهي الأمور التي جاءت عن طريق السمع ، قد أجمع الصوفية على الإيمان بها وبجملة ما ذكر الله تعالى في كتابه وجاءت به الروايات عن النبي ﷺ ، والتي من جملتها الروح فالصوفية يؤمنون بأنها مخلوقة ، وبأنها بعد مفارقة الجسد باقية ، وأنها تعاد إلى الأبدان عند السؤال ، وكذا يؤمنون بسؤال القبر وبعذابه ونعيمه ، وأن السؤال والعذاب والنعيم للروح والجسد معاً (١) .

ويجمع الصوفية على أن عود الجسم بجميع أجزائه وعوارضه حق كما كان قبل الموت ، سواء كان الميعاد جمعا للأجزاء بعد تفرقها أو عودتها بعد عدمها بالكلية ما عدا عجب الذنب ، وأن الميعاد روحاني جسماني ، وبأن المعاد هو الجسم بعينه وذلك لأن الإعادة إن لم تكن على صورة الابتداء فما هي إعادة ، مخالفين بذلك الفلاسفة الذين قالوا بأن الميعاد روحاني فقط ، والمعطلة الذين رفضوا الميعاد (٢) .

وأقر الصوفية بما بعد الموت من حشر ووقوف بين يدي الله للحساب ، وبالشفاعة في الآخرة وأنها حق وأنها أنواع أعظمها الشفاعة في فصل القضاء والإراحة من طول الموقف وهي مختصة بالنبي ﷺ بعد تردد الخلق إلى نبي بعد نبي (٣) .

ويؤمن أهل التصوف بالميزان الذي توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى

---

(١) التعرف : ص ٧٢ ، ولمع في الاعتقاد للقشيري : ص ٢٦ ، وقواعد العقائد : ص ٩٨ ، والغنية ٨٧ – ٨٨ ، واليواقيت : جـ ٢ ص ١٣٢ ، ١٣٩ .

(٢) اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٣٨ ، والمواقف : ص ٣٧١ – ٣٧٤ .

(٣) التعرف : ص ٧٠ ، والرسالة : ص ٨٨ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٣٠ ، وحياة القلوب : ص ٣٩

وبالصراط وهو الجسر الممدود على ظهر جهنم ، وبالحوض الخاص بنبينا ﷺ خلافاً للمعتزلة الذين أنكروا ذلك [١]

ويؤمن الصوفية بأن الجنة والنار حق ، وأنهما مخلوقتان الآن خلافا للمعتزلة الذين قالوا أنهما يخلقان يوم الجزاء ، وكذا يؤمنون بأنهما باقيتان لا تفنيان وبأن أهل الجنة والنار خالدون فيهما [٢] .

وبعد فهذا هو موقف الصوفية وبإيجاز من أهم مسائل السمعيات ، وهو يؤكد ما ذكرناه سابقا من أن الصوفية سلفيون سنيون ، وبعيدون كل البعد عن الفرق المخالفة والفلاسفة ، ولم يبق إلا أن نبين موقف الصوفية من القول بقدم الروح الذي قال به بعض المتصوفة وتصدى لهم أهل التصوف الحق بالرد والتصحيح .

---

(١) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٢٩ ، والتعرف : ص ٧٠ ، والغنية : جـ ١ ص ٩٢ – ٩٤ ، اليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٦٠ – ١٦٤ ، والمواقف : ص ٣٨٤ .

(٢) التعرف : ص ٧١ ، والغنية : جـ ١ ص ٩٥ .

المبحث الرابع

القول بقدم الروح وموقف الصوفية منه

قدم الروح من المسائل التي شغلت عقول الفلاسفة من قديم الزمان ، وقال بها من فلاسفة اليونان فيثاغورس ٥٧٢ – ٤٩٧ ق . م " وجماعته [١] ، ويعد أفلاطون من أشهر فلاسفة اليونان الذين قالوا بقدم الروح ومن أشهر دعاتها ، فالروح من وجهة النظر الأفلاطونية ذات طبيعة إلهية وأنها من العالم الخالد ، وأنها كانت " موجودة قبل وجود البدن وكان لها نحو من أنحاء الوجود العقلي وتمايز بعضها عن بعض تمايز الصور المجردة عن المادة بعضها عن بعض [٢]

ويذكر العلماء أن هذه النزعة قابلتها نزعة أخرى هي النزعة الأرسطية والتي تزعمها أرسطو تلميذ أفلاطون رأت " أن الروح حادثة تخلق مع البدن ولا يمكن أن توجد باستقلال عنه " [٣] .

وقد اعترف الصوفية الكبار من أمثال الطوسي والكلاباذي والسلمي والهجويري والغزالي بوقوع بعض الصوفية في القول بقدم الروح ، وبأنها لا تعذب ومنهم الحلمانية والفارسية [٤] .

ويذكر الكلاباذي أنهم اعتمدوا في ذلك على قوله تعالى ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [٥] ، فقالوا : " أمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق كأنهم قالوا : إنما صار

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني : جـ ٢ ص ٧٧ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ٢٣ ، ٢٤ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٢) الملل والنحل : جـ ٢ ص ٨٧ ، ومعراج السالكين للغزالي : ص ٦٨ – ٧٦ .

(٣) الملل والنحل : جـ ٢ ص ٨٧ ، ١٢٦ ، ونشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : ص ١٠٧ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٥٥٤ ، والتعرف : ص ٨٢ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٩٤ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٣ – ٥٠٤ ، وروضة الطالبين : ص ٣٨ .

(٥) سورة الإسراء آية ٥٨ .

الحي حيا بقوله : كن وليس الروح معنى في الجسد حالا مخلوقاً كالجسد " [١]
وقد تصدى الصوفية لهذه الدعوى وبذلوا جهودا عدة في مواجهتها تمثلت في :

[١] رفض الدعوى .

رفض أهل التصوف الحق ومشايخهم الكبار دعوى قدم الروح وأعلنوا في القديم والحديث بأنها حادثة ومخلوقة " ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية " [٢] ، وبأن الله " ما خلق شيئا أكرم منها " [٣] ، وأنها غير متناسخة ولا تخرج من جسم فتدخل في غيره [٤] ، وأن من قال " بقدمها فهو مخطئ خطأ جسيما " [٥] ، وهو أشبه " بمن يغالط في الحقيقة " [٦] .

ويذكر الإمام الشعراني أن الصوفية بالإضافة إلى ما سبق قاموا بتأليف كثير من الكتب في الرد على القائلين بقدم الروح ، ومن هؤلاء أبو عمرو الدمشقي ٣٢٠ هـ ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك الطوسي والكلاباذي ، والقشيري والهجويري ، والغزالي ، والسهروردي صاحب العوارف ، واليافعي ، والشعراني فهم وإن لم يفردوا لذلك مؤلفات خاصة كأبي عمرو الدمشقي فإنهم ذكروها في كتبهم وبينوا موقف الصوفية الرافض لهذه الدعوى .

وقد استدل الصوفية على بطلان القول بقدم الروح وعلى صحة القول بحدوثها بأدلة نقلية وأخرى عقلية :

---

(١) التعرف : ص ٨٢ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٢١٦ .

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٤٧ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٥٥٥ ، والمضنون به على غير أهله للغزالي : ص ٨٥ ، ضمن مجموعة رسائل الغزالي ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٥) الرسالة القشيرية : ص ٨٨ .

(٦) كيمياء السعادة للغزالي : ص ١١٢ ، ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

أما الأدلة النقلية :

فمنها قوله تعالى ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ (١) .

وعن هذه الآية يقول ابن عطاء : " خلق الله الأرواح قبل الأجساد " لقوله تعالى : ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ يعنى الأرواح ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ يعنى الأجساد (٢) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (٣) .

وعن هذه الآية يقول الإمام الغزالي : " حدثت ... عند استواء النطفة قبول النفس من واهبها كما قال ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ " ... " (٤) .

ومنها قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (٥)

وعن هذه الآية يقول الهجويري : " اعلم أن العلم بماهية الروح ضروري وأن العقل عاجز في كيفيتها ... وقد أثبت الله تعالى أولا عينها في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ، ثم نفي عنها القدم في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (٦) .

أما الأدلة العقلية :

رفض الصوفية القول بقدم الروح لما يترتب على القول بذلك من أمور تتنافى مع العقل منها :

أ – أن القول بقدم الروح يؤدى إلى إثبات قديمين وهذا غير معقول لأمرين :

---

(١) سورة الأعراف آية ١١ .

(٢) التعرف : ص ٨١ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) معارج القدس : ص ١١٢

(٥) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٦) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٢ .

الأول : أن القديم لا يكون محدودا .

الثاني : ولأن وجود ذاتين يجعل من أحدهما حداً للآخر [١] .

ب – أن القول بقدم الروح يؤدي إلى القول بحلول القديم في المحدث وهو باطل ، كما أنه يؤدي إلى قلب الحقائق كأن يصير القديم محدثا والمحدث قديما لأن كل ما يتصل بشيء يكون مثله .

جـ – أن القول بقدم الروح يؤدي إلى جعل صفة الحق صفة الخلق ، وهذا محال لأن الصفة القديمة للحق لا تصير صفة للخلق [٢] .

[٢] التبرؤ من القائلين بقدم الروح .

بالإضافة إلى ما سبق وكعادة أهل التصوف الحق دائما فقد تبرؤوا من القائلين بقدم الروح ، وذلك برمي الطوسي والهجويري ومن بعدهما الغزالي هؤلاء الذين قالوا بقدم الروح بالغلط والتيه وبالمكابرة والابتداع والضلال والتوهم والجهل لتفكرهم في كيفية ما رفع الله عنه الكيفية ونزهه عن إحاطة العلم [٣]

ويشتد الأمر عندما يرمي ابن خفيف ويشاركه الهجويري هؤلاء بالإلحاد والكفر العظيم لمضاهاة قولهم هذا قول النصارى في المسيح عليه السلام [٤] .

---

(١) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٥ – ٥٠٦ .

(٢) المضنون به على غير أهله : ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٥٤ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٦ – ٥٠٨ ، ورسالة المضنون به على غير أهله : ص ١٢٣ .

(٤) معتقد ابن خفيف : ص ٨٣ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٠٨ .

الباب الثالث

جهودهم التصحيحية في المجال النفسي

الفصل الأول

طريقة القوم في توجيه النفس

الفصل الأول

طريقة القوم في توجيه النفس

تمهيد :

حظيت النفس لدى الصوفية باهتمام بالغ وعناية شديدة ، ويرجع ذلك إلى اهتمام القرآن والسنة بها ، ويكفي دليلا على ذلك أنها ذكرت في القرآن الكريم في ٢٩٨ آية مفردة ومثنى وجمعا ومضافة [١] .

كما أنها نالت ملاحظات الصوفية وذلك لأنها في نظرهم " حجاب بين العبد وبين ربه ، وأن منشأ هذا الحجاب يرجع إلى المذموم من أخلاقها [٢] .

وقد دعت هذه النظرة إلى المناداة بمجاهدتها ورياضتها لتهذيبها وتخليصها من آفاتها وتخليقها بالأخلاق الحميدة ، ومع أن الصوفية قد لاحظوا النفس ملاحظة دقيقة ، ووضعوا منهجا سليما لعلاجها ، فقد وقعت من بعض الصوفية بعض الأخطاء المتعلقة بمجاهدة النفس ورياضتها ، الأمر الذي هب من أجله أهل التصوف الحق يصححون هذه الأخطاء ويحاربون أي انحراف من شأنه أن يعيق عملية المجاهدة والرياضة ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

---

(١) ذكر محمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : أن كلمة نَفْسٌ وردت ٦١ مرة ، ونَفْسًا ٢٤ مرة ، ونفْسَكَ ١٠ مرات ، وَنَفْسِهِ ٤٠ مرة ، ونَفْسِهَا ٢ ، ونَفْسِي ١٣ مرة ، والنفوس ١ مرة ، ونفوسكم ١ مرة ، والأنْفُسُ ٦ مرات ، وأنفُسِكُمْ ٤٩ مرة ، وأنفسنا ٣ مرات ، وأنفسهم ٩١ مرة ، وأنفُسِهِن ٤ مرات ، انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : ص ٧١٠ – ٧١٤ ، دار الجيل – بيروت – لبنان ، ط (١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م) ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١١٩ .

(٢) مقدمة أصول الملامتية : ص ١١٠ ، ومدخل إلى التصوف الإسلامي د / أبو الفا التفتازاني : ص ١٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ط ١٩٧٩ م .

المبحث الأول

التعـــريف بالنفـــس

في هذا المبحث سوف يتحدث الباحث عن التعريف بالنفس في اللغة وفي الاصطلاح .

أولا : النفس في اللغة .

تطلق النفس في اللغة ويراد بها معان عدة : فتطلق ويراد بها الروح فيقال : خرجت نفس فلان أي روحه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (١) ، وجملة الشيء وحقيقته فيقال : قتل نفسه أي أوقع الهلاك بذاته كلها .

والنفس الدم كقول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوســنا
وليست على غير الظبات تسيل

وإنما سمي الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه .

والنفس بمعنى الأخ ومنها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢).

والنفس بمعنى عند وشاهدها قوله سبحانه : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ (٣) أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما في نفسك .

والنفس يعبر بها عن الإنسان جميعه كقولهم عندي ثلاث أنفس (٤) .

والنفس العين التي تصيب المعين .

---

(١) سورة الزمر آية ٤٢ .

(٢) سورة النور آية ٦١ .

(٣) سورة المائدة آية ١١٦ .

(٤) لسان العرب : جـ ٨ ص ١١٩ – ١٢٢ بتصرف ، ومختار الصحاح : ص ٦٧٢ .

وتطلق ويراد بها أيضا الخلق فيقال : فلان ذو نفس أي خلق [١] .

ثانيا : النفس عند الفلاسفة .

للنفس عند الفلاسفة تعريفات عدة : فقد عرفها أفلاطون بأنها " جوهر بسيط محرك للبدن "[٢] ، وعرفها أرسطو بأنها " كمال أول لجسم طبيعي آلي " [٣]

ويشرح يوسف كرم هذا التعريف فيقول : " وهو يعني بقوله " كمال أول " أن النفس صورة الجسم الجوهرية وفعله الأول ، كما أن قوة الإبصار صورة الحدقة ، أما الأفعال الثانية فهي التي تصدر عن المركب بفضل النفس أي هي الحاصلة باستعمال الوظائف ، وبقوله " الجسم طبيعي " أن الجسم الحي يختلف عن الجسم الصناعي الذي ليس له وجود ذاتي ، والموجود بالذات أجزاؤه ، وبقوله " آلي " أنه مؤلف من آلات أي أعضاء وهي أجزاء متبايفة مرتبة لوظائف متباينة [٤] .

وعرفها أيضا بأنها " ما به نحيا ونحس ونتنقل في المكان ونعقل أولا [٥] .

ويعلق يوسف كرم على هذا التعريف أيضا فيقول : " هذا تعريف بالمعلولات الصادرة عن النفس ، وهو أبين بالإضافة إلينا من التعريف الأول المأخوذ من العلة ، ولتعدد الأنواع لا تؤخذ واو العاطفة " نحيا ونحس و .... "

---

(١) المعجم الوسيط : جـ ٢ ص ٩٨٠ .

(٢) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ٢ ص ٤٨١ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ١٥٦ ، وانظر في النفس لأرسطو طاليس : ص ٢٩ – ٣٠ ، ترجمة د / عبد الرحمن بدوي ، الناشر وكالة المطبوعات الكويت ، ودار القلم – بيروت – لبنان ، ط بدون تاريخ ، ونظرية النفس بين ابن سينا والغزالي : د / جمال رجب سيدبي ص ٣٤ – ٤٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠٠٠ م .

(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية كرم : ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، وفي النفس لأرسطو طاليس : ص ٣٤ .

على التركيب بل على التفصيل ، فإن النفس مبدأ الحياة على جميع أنحائها متى وجدت هذه الأنحاء كلها أو بعضها [١] .

وقد جمع ابن سينا بين تعريف أفلاطون وتعريفي أرسطو " فقال مع " أفلاطون " إن النفس جوهر روحاني ، وقال مع " أرسطو " إن النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى " [٢] .

والنفس عند الفلاسفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها النباتية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويغتذى ، والغذاء جسم من شأنه أن يتشبه بطبيعة الجسم الذي قيل إنه غذاؤه ، ويزيد فيه مقدار ما يتحلل أو أكثر أو أقل .

والثاني النفس الحيوانية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة .

والثالث النفس الإنسانية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي من جهة ما يدرك الأمور الكلية [٣] .

ثالثاً : النفس عند المتكلمين

اختلف المتكلمون حول النفس واتجهوا في ذلك اتجاهات عدة من أهمها :

الاتجاه الأول : ذهب أصحابه إلى أن النفس عرض من الأعراض ومن هؤلاء جعفر بن حرب فقد كان يقول : " النفس عرض من الأعراض يوجد في

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ١٥٦ .

(٢) المعجم الفلسفي لجميل صليبا : جـ ٢ ص ٤٨١ – ٤٨٢ ، والشفا لابن سينا " النفس " : ص ١٠ ، ص ٢٢ – ٢٦ ، تصدير ومراجعة د / إبراهيم مذكور ، وتحقيق الأب الدكتور جورج قنواتي ، وسعيد زايد ، الهيئة العامة للكتاب ، ط (١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م) ، ونظرية النفس بين ابن سينا والغزالي : ص ٣٤ – ٣٩ .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني : جـ ٢ ص ٢٠٥ ، والمعجم الفلسفي لجميل صليبا : ص ٤٨١ – ٤٨٣

هذا الجسم وهو أحد الآلات التي يستعين بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبههما ، وأنها غير موصوفة بشيء من صفات الجواهر والأجسام (١) ، وممن ذهب إلى ذلك أيضا العلاف ، والباقلاني (٢) .

الاتجاه الثاني : ذهب أصحابه إلى أن النفس جوهر ليست جسمانية ولا جسما وإنما تعلقها بالبدن تعلق التدبير والتصرف " (٣) ، وممن ذهب إلى ذلك معمر بن العطار أحد شيوخ المعتزلة وجعفر بن مبشر (٤) .

الاتجاه الثالث : ذهب أصحابه إلى التوقف وقالوا : " لا ندري الروح جوهر أو عرض ، واعتلوا في ذلك بقول الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (٥) ، ولم يخبر عنها ما هي ، ولا أنها جوهر ولا أنها عرض " (٦) .

الاتجاه الرابع : ذهب أصحابه وهم جمهور المتكلمين " على أنها جسم مخالف بالماهية للجسم الذي يتولد منه الأعضاء نوراني علوي خفيف حي لذاته ، نافذ من جواهر الأعضاء ، سار فيها سريان ماء الورد في الورد ، والنار في الفحم ، لا يتطرق إليه تبدل ولا انحلال ، بقاؤه في الأعضاء حياة ، وانتقاله عنها إلى عالم الأرواح موت (٧) .

---

(١) مقالات الإسلاميين : جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل : جـ ٥ ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، والإنصاف للإمام الباقلاني : ص ١٧ ، تحقيق محمد زاهد بن الحسن العسكري ، الناشر مكتبة الخانجي – بالقاهرة ، ط ٣ (١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م) .

(٣) المواقف : ص ٢٥٨ .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل : جـ ٥ ص ٢٠٢ ، ومقالات الإسلاميين : جـ ٢ ص ٣٠ .

(٥) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٦) مقالات الإسلاميين : جـ ٢ ص ٢٨ .

(٧) شرح المقاصد : جـ ٣ ص ٣٠٥ .

وقد رجح هذا الرأي كثير من العلماء منهم الإيجي ، وابن حزم ، وابن قيم الجوزية فقال : " وهذا القول هو الصواب ، وهو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة [١] .

رابعا : النفس في المنظور الصوفي :

يوضح الإمام القشيري مفهوم النفس عند الصوفية فيقول " النفس ... عند القوم : ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع ، وإنما أرادوا ما كان معلولا من أوصاف العبد ومذموما من أخلاقه وأفعاله [٢] .

وقال أيضا : " ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة " [٣] .

وما ذكره القشيري ذكر مثله الحكيم الترمذي ، والهجويري ، والغزالي ، والسهروردي في عوارف المعارف ، وابن عجيبة [٤] .

ويذهب الصوفية أيضا إلى أن النفس وخاصة النفس الأمارة أعدى أعداء الإنسان ، وأنها أعدى له من إبليس وأنها " عقبة في طريق الزاهد بين العارجين

---

(١) ابن قيم الجوزية : الروح ص ٢٤٢ ، حققه محمد إسكندر بلدا ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط (١٩٨٢ م – ١٤٠٢ هـ) ، والفصل في الملل والأهواء والنحل : جـ ٥ ص ٢٠٢ ، والمواقف : ص ٢٦١ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٨٧ .

(٤) الحكيم الترمذي : بيان الفرق بين الصدر والقلب ص ٦٦ ، تحقيق د / أحمد عبد الرحيم السايح ، مركز الكتاب للنشر ، ط ١ ١٩٩٨ م ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٢٧ ، وإحياء علوم الدين : جـ ٣ ص ٦ ، وعوارف المعارف : ص ٢١٩ ، ومعراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة : ص ٤٧ ، مكتبة أم القرى ، ط (١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م) .

إلى مواطن النور " (١) .

والنفس عند الصوفية باعتبار أصلها نفس واحدة ذات مراتب ومقامات سبع تنتقل النفس بينها بالمجاهدة والرياضة هي :

[١] النفس الأمارة بالسوء .

[٢] النفس اللوامة .

[٣] النفس الملهمة .

[٤] النفس المطمئنة .

[٥] النفس الراضية .

[٦] النفس المرضية .

[٧] النفس الكاملة (٢) .

وبعد فهذا هو تصور الصوفية للنفس باختصار شديد ، وسوف يتحدث الباحث بعد ذلك في المباحث التالية عن مجاهدة النفس ، ورياضتها لتخليصها من صفاتها المذمومة ، وتخليقها بالأخلاق الحميدة ، والرقي بها عن مرتبة الأمر بالسوء إلى مراتبها الأخرى واحدة بعد الأخرى حتى يصل إلى مرتبة الكمال .

---

(١) الطريق الصوفي : ص ٦٥ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٦٣ ، وحياة القلوب : ص ٥٨ .

(٢) الفرق بين الصدر والقلب : ص ٦٥ – ٦٦ ، واصطلاحات الصوفية : ص ١١٠ – ١١١ ، والتعريفات للجرجاني : ص ٢٧١ ، وتحفة الإخوان في آداب الطريق للشيخ الدردير : ص ٢٩ – ٣٠ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط ١ (١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م) ، وأبو البركات سيدي أحمد الدردير للدكتور عبد الحليم محمود : ص ٨٣ – ٨٤ ، دار المعارف ، ط بدون تاريخ ، وقضية التصوف المدرسة الشاذلية : ص ٤٠٢ ، وأعذب المسالك المحمودية للشيخ محمود خطاب السبكي : جـ ٢ ص ٩٧ – ١١٥ تحقيق سعيد عبد الفتاح ، ومراجعة اشيخ محمد البلتاجي ، مطابع الأهرام التجارية – قليوب – مصر ط ١ ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .

المبحث الثاني

المجاهدة ووسائلها والانحرافات المتعلقة بها وجهود الصوفية في مقاومتها

تمهيد :

مجاهدة النفس مطلب شرعي دعا إليه الحق ، ودعا إليه رسول الله ﷺ :

فقد قال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٣) .

وقال ﷺ : المجاهد من جاهد نفسه في الله (٤) (٥) ، وقال ﷺ ناصحا أحد الصحابة : " أعنى على نفسك بكثرة السجود (٦) ، وبين النبي ﷺ قيمة مجاهدة النفس بامتلاكها عند الغضب فقال : " ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " (٧) (٨) .

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣) سورة النازعات آية ٤٠ – ٤١ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه : جـ ٣ ص ٨٩ ، كتاب : فضائل الجهاد ، باب : ما جاء في فضل من مات مرابطا ، وقال حديث حسن صحيح .

(٥) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٣١ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ ، كتاب : الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ٦٨ ، كتاب الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٤ ص ٤٣٩ ، كتاب : البر والصلة والأدب ، باب : فضل من يمسك نفسه عند الغضب ، والإمام مالك في الموطأ : جـ ٢ ص ٧١٠ ، كتاب : حسن الخلق ، باب : ما جاء في الغضب حديث رقم [١٢] صححه وخرج أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية لفيصل عيسى البابي الحلبي ، ط بدون تاريخ .

(٨) حياة القلوب : ص ٢٩٤ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٧٤ .

وامتثالا لما دعا إليه الحق سبحانه وتعالى ، ودعا إليه الرسول ﷺ ، نادى الصوفية أتباعهم ومريديهم بمجاهدة النفس لتخليتها من أخلاقها المذمومة ، وتخليقها بالأخلاق الحميدة ، والتنقل بين مراتبها ، والوصول إلى الله تعالى الذي هو اسمى غاية السلوك ، فما هي المجاهدة وما هي وسائلها ؟ وما مدى شرعية هذه الوسائل ؟ .

المجاهدة في اللغة :

تأتي المجاهدة في اللغة بمعنى بذل الوسع والطاقة ، فيقال : " جهد : جهدا : جد ،ويقال : جهد في الأمر ... طلب حتى وصل إلى الغاية .... واجتهد : بذل ما في وسعه " (١) .

وتأتي : بمعنى المقاتلة فيقال : " جاهد العدو مجاهدة وجهادا : قاتله ، والجهاد : شرعا قتال من ليس لهم ذمة من الكفار .... " (٢) .

المجاهدة في الاصطلاح الصوفي :

ذكرت للمجاهدة تعاريف عدة :

فقد عرفها الإمام القشيري بأنها " فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٣) (٤) .

وعرفها الإمام الغزالي بأنها " معاقبة النفس عند المعصية وتثقيل الأوراد عليها عند التواني والكسل ... وإلزامها فنونا من الوظائف جبرا لما فات :" (٥) .

وعرفها الجرجاني وعماد الدين الأموي بأنها " محاربة النفس الأمارة

---

(١) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ومختار الصحاح : ص ١١٤ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٩٩ .

(٥) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٥ .

بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع (١) .

وعرفت بأنها إلزام العبد " كل جارحة من جوارحه السبع الفطام .. حتى يستطيع ... أن يسيطر على جوارحه ولا يقع تحت تأثير رغبة النفس وينفذ ما يمليه عليه نور قلبه ويوافق عقله ويواكب تفكيره " (٢) .

وبعد فهذه بعض تعريفات الصوفية ويلاحظ أنها جمعت بين وسائل المجاهدة وهو ما سوف يوضحه الباحث فيما بعد ، وبين الغاية منها والتي تتمثل في تخلية النفس عن الأخلاق المذمومة ، والسيطرة عليها أملا في انكشاف الحجب عن القلب ليصبح مهيئا للفيوضات والتجليات .

وسائل المجاهدة :

النفس عند الصوفية كما قلنا متفاوتة المراتب ولذا فقد وضع الصوفية لكل طائفة منها ما تصلح به من القواعد والوسائل التي تنتهي بها إلى تحسين خلقها ، وقد استقى الصوفية هذه القواعد والوسائل من القرآن والسنة وبما جاء عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين وهذه الوسائل هي :

[١] فطم النفس عن المألوفات .

من أولى وسائل المجاهدة فطم النفس عما ألفته واعتادت عليه من العادات والوقوف معها عند ما دعا إليه الشرع وما أمر الله به تعالى حتى تتحرر من عبادة العادة (٣) .

وهذه الوسيلة أشار إليها الجنيد حين قال : " ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات (٤) .

---

(١) التعريفات : ص ٢٣١ ، وحياة القلوب : ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

(٢) الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية : ص ٣١٥ .

(٣) فتوح الغيب : ص ١٦ ، والطريق الصوفي : ص ٦٧ .

(٤) حياة القلوب : ص ٢٩٥ .

وما ذكره الجنيد ذكر مثله القشيري عند تعريفه للمجاهدة ، وذكر مثله أيضا الجيلاني ، وعماد الدين الأموي [١] ، وذكروا أيضا أن النفس لا تألف بربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها [٢] .

[٢] مخالفة النفس .

وهي تعنى رفض ما تهواه النفس من أمان وإلزامها بما يشق عليها [٣] .

وهو ما دعا الحق إليه سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [٤] .

وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ حين قال : " أخوف . ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي عن الآخرة [٥] [٦] .

وامتثالا لما دعا إليه الحق سبحانه وتعالى ودعا إليه المصطفي ﷺ دعا الصوفية إلى " ذبح النفس بسيوف المخالفة [٧] ، وأعلنوا أن ذلك من أجل الأعمال وأفضلها ، وأن العبد لا يجد الطريق إلا بذلك لأن في موافقتها هلاك العبد ، وفي مخالفتها نجاته ، وسعادته في الدنيا والآخرة .

---

(١) الرسالة : ص ٩٩ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٥٩ ، وحياة القلوب : ص ٢٩٨ .

(٢) الطريق الصوفي : ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) سورة النازعات آية ٤٠ – ٤١ .

(٥) الحديث أخرجه ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال : جـ ٥ ص ١٨٣١ عن جابر بن عبد الله وقال : " وهذه الأحاديث التي أوليتها لعلي بن أبي علي عن محمد بن المنكدر عن جابر وغيره كلها غير محفوظه ، دار الفكر ، ط ١ (١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م) .

(٦) الرسالة : ص ١٥١ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٢٨ ، والإحياء : جـ ٣ ص ١٠٦ .

(٧) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٢٧ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٦١ .

وقد ضرب الصوفية المثل والقدوة العملية في المخالفة : فالسري ٢٥٣ هـ تطالبه نفسه ثلاثين سنة أن يغمس جزرة في دبس فلم يطعها (١) .

واشتهى إبراهيم بن شيبان ٣٣٠ أن يتناول شعبة عدس فلم يستطع (٢)

والحكايات في ذلك كثيرة وهي تعطينا صورة مشرقة لهؤلاء الصوفية الذين طبقوا عمليا ما نادوا به نظريا فتحقق لهم ما أرادوا .

[٣] المراقبة .

وهي تعني ملاحظة النفس عند الخوض في الأعمال فينظر " ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه (٣) .

وقد دعا الحق سبحانه وتعالى إليها حين أخبرنا سبحانه بعلمه بكل أحوالنا وبمراقبته لنا : فقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٦) (٧) .

وكذلك دعا إليها ﷺ حين طالب بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه ، فإن لم يكن العبد يرى ربه فليعلم أن الله يراه فقال ﷺ وهو يتحدث عن الإحسان والذي

---

(١) الرسالة : ص ١٥٣ ، والإحياء : جـ ٣ ص ١٠٩ .

(٢) طبقات المناوي : جـ ١ ص ٥٠٤ .

(٣) الإحياء : جـ ٤ ص ٦١٢ ، والرسالة : ص ١٨٩ ، وحياة القلوب : ص ٢٥١ .

(٤) سورة الرعد آية ٣٣ .

(٥) سورة العلق آية ١٤ .

(٦) سورة النساء آية ١ .

(٧) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٠٧ .

قال الصوفية بأنه درجة المراقبة " اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (١) (٢) .

وانطلاقا من دعوة الحق سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ إليها ، فقد اتخذها الصوفية وسيلة من وسائل المجاهدة ، وأعلنوا أن أفضل " ما يلزم المرء به نفسه في هذه الطريقة " المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم " (٣) لما للمراقبة من أثر عظيم في عصمة الجوارح ، ولما تورثه من هيبة وتعظيم لله تعالى واللذان " يورثان الانزجار عن المناهي والانقياد للأوامر " (٤) ، وخلوص السر والعلانية لله تعالى (٥) .

[٤] المحاسبة :

تطلق المحاسبة ويراد بها " مطالبة النفس ومحاسبتها على جميع حركاتها وسكناتها (٦) ، وهي على وجهين :

الأول : المحاسبة في مستدبر الأعمال وهي التي أشار إليها الحق سبحانه وتعالى في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ (٧) ، وأشار إليها المصطفي ﷺ حين قال : " إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة " (٨) (٩) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٨ ، كتاب : الإيمان ، باب : سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة

(٢) الرسالة : ص ١٨٩ ، والإحياء : جـ ٤ ص ٦٠٧ .

(٣) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٠٨ .

(٤) حياة القلوب : ص ٢٥١ .

(٥) الرسالة : ص ١٩١ .

(٦) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٢٠ .

(٧) سورة الحشر آية ١٨ .

(٨) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٢ ص ٢٨٢ عن أبي هريرة ، وابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٤٣٣ ، كتاب : الأدب ، باب الاستغفار حديث رقم [٣٨١٥] .

(٩) الإحياء : جـ ٤ ص ٦١٩ .

وأشار إليها عمر بن الخطاب حين قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا (١)

الثاني : المحاسبة في مستقبل الأعمال وتعني النظر " بالتثبت قبل الزلل ليبصر ما يضره مما ينفعه فيترك ما يضره على علم ، ويعمل بما ينفعه على علم (٢) ، وهي التي أشار إليها الحق سبحانه تعالى في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

وأشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت " (٤) (٥) .

وانطلاقا من دعوة الحق سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ إلى محاسبة النفس دعا الصوفية إليها وأعلنوا أنها " أصل الدين بعد الإيمان بالله تعالى " (٦) ، وأنها تؤدي إلى خفة الحساب في الآخرة ، وعلى العكس من ذلك فترك محاسبة النفس يؤدي إلى مشقة الحساب في الآخرة (٧) .

[٥] اللوم والمعاتبة .

من وسائل المجاهدة وسيلة اللوم والمعاتبة وهي تعني توبيخ النفس حين تنحرف أو تهم بالانحراف ليعيدها إلى الصراط المستقيم ويقيمها عليه ويلزمها به ، وكذلك توبيخها وهي تسعى وانية أو بطيئة في مجال الخير ليفجر فيها ينابيع

---

(١) المحاسبي : الرعاية ص ٥٠ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، ط ٢ بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، والإحياء : جـ ٤ ص ٦٠٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه : جـ ٢ ص ٥٨٠ ، كتاب : الزهد ، باب : ذكر الموت والاستعداد له حديث رقم [٤٢٦٠] عن شداد بن أوس .

(٥) الرعاية : ص ٤٩ .

(٦) حياة القلوب : ص ١٤٨ .

(٧) الإحياء : جـ ٤ ص ٦١٩ – ٦٢٠ .

النشاط والاجتهاد حتى تزداد من الخير وتجتهد في ميدان البر (١).

وقد دعا الحق سبحانه وتعالى إلى لوم النفس صراحة حين أقسم بها فقال تعالى: ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٢).

وانطلاقا من دعوة الحق سبحانه وتعالى إلى لوم النفس دعا الصوفية إلى اتخاذها وسيلة من وسائل المجاهدة وأعلنوا أن " من أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا " (٣).

وقد رويت عن الصوفية روايات كثيرة تفيد قيامهم بلوم نفوسهم من ذلك ما روي عن عبد الله البجلي من أنه كان يكثر من البكاء في الليل ويقول: " أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى ! واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى ! واعبيداه إن كانت النار لك مقبلا ومأوى ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى ؟ " (٤).

المبالغة في لوم النفس وموقف الصوفية منها

لوم النفس واحدة من وسائل المجاهدة في الطريق الصوفي، وقد اتسم الصوفية بالاعتدال فيه حتى ظهرت الملامتية، وهي فرقة صوفية أسسها جماعة من كبار مشايخ الصوفية وهم حمدون القصار (٥)، وأبو حفص النيسابوري (٦)

---

(١) د / أحمد الشرباصي : موسوعة من أخلاق القرآن : مج ١ جـ ٢ ص ١٣٨، دار الرائد العربي - بيروت - لبنان، ط ١ (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

(٢) سورة القيامة آية ١، ٢.

(٣) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٤٨.

(٤) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٦٤٧.

(٥) أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار النيسابوري توفي سنة ٢٧١ هـ، انظر طبقات الصوفية للسلمي : ص ٢٩.

(٦) أبو حفص عمرو بن سلمة توفي سنة ٢٦٨ هـ، وقيل سنة ٢٧٠ هـ، انظر طبقات المناوي : جـ ١ ص ٤٦٨.

وعبد الله بن منازل (١) .

ويذكر السلمي في رسالته " الملامتية وغلطات الصوفية " أن مذهب الملامتية كان يقوم في بداية أمره على الإقبال على الطاعات واستعمال السنن في جميع الأوقات وملازمة الآداب في كل الأحوال ، والبعد عن الدعاوى ، والدعوة إلى ستر أحوالهم ، وترك التزين للخلق بكل حال ، ومخالفة النفس في كل حال ، والاجتهاد في إسقاط الجاه ونظر الخلق إليهم بعين التعظيم ، وغيرها من الأمور الأخرى التي ذكرها السلمي والتي تدل على رغبة هؤلاء القوم في بداية أمرهم إلى إخفاء المظاهر التي تنم عن الحياة الروحية وبخاصة ما يشير منها إلى الصلة بين العبد وربه . بل والظهور بين الناس بالمظاهر التي يبدو أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع استجلابا لملامة الناس وتأنيبهم (٢) .

ويعتبر هذا الأصل هو المدخل الذي دخل منه الغلاة فغيروا طريقة الملامتية وحرفوها ، فالهجويري يذكر أن الملامتية في وقته اندس في وسطهم كثير من الأدعياء تركوا العبادات واختاروا مخالفة الشرع بدعوى سلوك طريقة الملامتية رغبة منهم في قبول الناس لهم مخالفين في ذلك ما كان عليه أهل الملامة الأول الذين كان غرضهم صرف أنظار الناس عنهم لا إقبالهم عليهم (٣) .

وبالإضافة إلى ما ذكره الهجويري ذكر السهروردي أن هؤلاء الأدعياء من الملامتية انتهجوا منهج الإباحة وزعموا أنهم ما دامت ضمائرهم قد خلصت إلى الله تعالى فلا داعي للارتسام بمراسم الشريعة (٤) .

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن منازل توفي سنة ٣٢٩ هـ ، انظر طبقات الأولياء لابن الملقن : ص ٢٥٠ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٥٠ ، ومقدمة أصول الملامتية : ص ٧٧ – ٩٨ .

(٢) أصول الملامتية : ص ١٤٢ – ١٧٤ ، ومقدمة أصول الملامتية : ص ٨١ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٧١ .

وقد تصدى أهل التصوف لهؤلاء الذين بالغوا في لوم النفس حتى أوصلتهم المبالغة إلى ترك التكاليف الشرعية ، وممن تصدى لهؤلاء الهجويري ، والمقدسي ، والسهروردي صاحب عوارف المعارف فقد رفض هؤلاء الصوفية هذا الاتجاه المنحرف عند الملامتية بل حتى الاتجاه المعتدل عندهم محل نظر عند المقدسي ، وذكروا أن فعلهم هذا " ضلالة واضحة وآفة ظاهرة وجنون صادق ... ومقصودهم من رد الخلق قبول الخلق " (١) .

وأن طريقتهم " طريقة مخوفة نهي الشرع عن سلوكها " (٢) ، وأنها عين الرياء وعين النفاق لأنه يسلك بالتكلف قبول الخلق وإن كان في الظاهر يريد ردهم (٣) .

وقد اعتمد هؤلاء القوم في رفض هذا الاتجاه على ستة أصول ذكرها المقدسي في كتابة " صفوة التصوف " وهي :

الأول : إن المبالغة في الملامة أدت إلى وقوع هؤلاء الأدعياء في فعل الحرام وهو مخالف لما جاء عن النبي ﷺ من التحذير من الوقوع في المتشابهات فضلا عن الوقوع في الحرام ، فعن عامر الشعبي قال : سمعت النعمان بن بشير يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : " الحلال بين والحرام بين وبينهما متشابهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى وإن حما الله محارمه " (٤) (٥) .

---

(١) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٢) صفوة التصوف : ص ٤٧٣ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٩ ، كتاب : الإيمان ، باب : من استبرأ لدينه ، وابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٤٩٠ ، كتاب : الفتن ، باب : الوقوف عند الشبهات ، حديث رقم [٣٩٨٤] .

(٥) صفوة التصوف : ص ٤٧٣ – ٤٧٤ .

الثاني : أن الملامتي بفعله هذا يضع نفسه مواضع التهم وهو مخالف لما كان عليه ﷺ من حرص على أن لا يكون في موضع تهمة ، فعن أم المؤمنين صفية بنت حيي قالت : " كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته ، ثم قمت فانطلقت فقام معي يقبلني وكان مسكنها في دار أسامة فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا فقال رسول الله ﷺ : " على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي " قالا سبحان الله يا رسول الله قال : " إن الشيطان يجري من الإنسان مجري الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا " (١) (٢) .

الثالث : فعل الملامتي فيه تكلف وهو مخالف لما نهى عنه النبي ﷺ من عدم التكلف فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : " سمعت رسول ﷺ يقول : " افترض الله تعالى عليكم فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها ... " (٣) ... " (٤) .

الرابع : فعل الملامتي هذا يدعو إلى الريبة وهو مخالف لما حذر منه النبي ﷺ حين قال : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " (٥) ... (٦) .

الخامس : إن الملامتي تسره السيئة وتسوءه الحسنة وهو بفعله هذا يخالف

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٢) صفوة التصوف : ص ٤٧٥ – ٤٧٦ .

(٣) الحديث ذكره البرهان فوري في كنز العمال : جـ ١ ص ٣٨١ ، كتاب : الإيمان والإسلام ، باب : في الاعتصام بالكتاب والسنة ، حديث رقم [١٦٥٦] .

(٤) صفوة التصوف : ص ٤٧٧ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ١ ص ٢٠٠ عن ابن عباس ، جـ ٣ ص ٧٣ عن أنس بن مالك ، والحاكم في المستدرك : جـ ٢ ص ١٣ ، كتاب : البيوع عن الحسن بن علي ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٦) صفوة التصوف : ص ٤٧٧ – ٤٧٨ .

ما وصف به النبي ﷺ المؤمن . فعن أبي أمامة أن رجلا سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟ قال : " إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن " (١) ... (٢)

كما أن فعل الملامتي مخالف لما أخبر به النبي ﷺ من كراهية المؤمن اطلاع الناس على معاصيه وآثامه ، فعن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " (٣) ... (٤) .

السادس : مخالفة ذلك لما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم وعن التابعين وعن أئمة المسلمين ، وهذه الفرقة خالفت جميع هذه النصوص وارتكبت ما حذر صاحب الشريعة منه ، وجعلت ذلك طريقة نعوذ بالله من الخذلان (٥) .

وهكذا رفض أهل التصوف الحق هذه المبالغة في لوم النفس لمخالفتها لما جاء عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين ، وهو ما يؤكد حرصهم وهم يجاهدون أنفسهم على أن تكون الوسائل شرعية جاءت بها الآيات ونادت بها السنة وطبقها الصحابة والتابعون .

[٦] المعاقبة :

وهي تعني حرمان النفس مما كان سببا في وقوعها في المعصية مع إلزامها بما يؤدي إلى منعها من الوقوع فيها فترة أخرى (٦) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٥ ص ٢٥٢ عن أبي أمامة ، والحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ١٤ ، كتاب : الإيمان عن أبي أمامة ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

(٢) صفوة التصوف : ص ٤٧٨ – ٤٧٩ .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ٤٢١ ، كتاب البر والصلة ، باب تفسير البر والإثم والإمام أحمد في مسنده جـ ٤ ص ١٨٢ ، عن زيد بن الحباب الأنصاري ، وبرواية أخرى عن النواس بن سمعان

(٤) صفوة التصوف : ص ٤٧٩ .

(٥) المرجع السابق : ص ٤٧٩ – ٤٨٠ .

(٦) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٢١٣ .

ويقتدي الصوفية في ذلك بما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد روي أن الواحد منهم كان إذا وقع منه شيء عاقب نفسه .

من ذلك ما روي عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه " فاتته صلاة العصر في جماعة ... فتصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم " (١) .

وروي أن أبا طلحة ﷺ " اشتغل قلبه في الصلاة في حائط فتصدق بالحائط كفارة لذلك " (٢) .

وروي أن ابن عمر ﷺ " أخر ليلة صلاة المغرب .. فأعتق رقبتين " (٣)

وقد جاءت روايات كثيرة تفيد قيام الصوفية بمعاقبة أنفسهم على ما ارتكبوه من تقصير أو مخالفات منها : ما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء من أن واحدا من الصوفية " نظر نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش " (٤)

ويحكى عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع (٥) .

المبالغة في المعاقبة وموقف الصوفية منها " الامتناع عن النكاح " .

رغب بعض الصوفية عن النكاح بدعوى مجاهدة النفس ومعاقبتها الأمر الذي أدى بالبعض إلى اتهام الصوفية جميعا بأنهم ينادون بترك النكاح رغبة عن السنة ، وقد رفض أهل التصوف الحق هذه الدعوى وهذا الاتهام ، وقاموا

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٢٤ .

(٣) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٢١٤ .

(٤) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٢٣ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

بتوضيح موقف الصوفية من هذه المسألة ردا على الراغبين عنها وعلى المتهمين وجاءت أقوالهم على النحو التالي :

أولا : الزواج تعتريه أحكام الإسلام .

ذكر الصوفية كغيرهم من أهل السنة والجماعة أن الزواج من الأمور التي تعتريها أحكام الإسلام : فتارة يكون واجبا إذا تاقت نفس المريد إلى النكاح ولم يقدر على قمع شهوته بالجوع وغض البصر وخاف على نفسه العنت (١) .

ويكون مندوبا في حق من وجد القدرة على الإنفاق وكانت لديه القدرة على الجماع ولكن لا يخاف على نفسه الوقوع في الزنا أو في مقدماته (٢) .

ويكون الزواج مكروها في حق من فقد القدرة على الإنفاق وهو قادر على الجماع لكن لا يخشى على نفسه من الوقوع في الزنا أو مقدماته ، ويستحب له أن يصبر حتى يجد النفقة على الزواج قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (٣) ... (٤) .

ويكون الزواج حراما في حق من فقد القدرة على الجماع والنفقة وانعدام الباعث عليه والدافع إليه وخاف إن تزوج أن يقع في المحظور كأن يجد نفسه مضطراً إلى كسب رزق من طريق غير مشروع فإنه يجب عليه في هذه الحالة أن لا يقدم على الزواج صيانة لدينه حتى تتوفر له أسبابه أو يقضي الله أمرا كان مفعولا (٥) .

---

(١) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٧٠ ، والإحياء : جـ ٣ ص ١٦٣ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٠٦ – ٦٠٧ .

(٣) سورة النور آية ٣٣ .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٠٤ ، والتصوف الإسلامي الصحيح : مهندس عبد العزيز منصور ص ٢٣٦ ، سلسلة بحوث في التصوف ، ط ١٩٩٦ م .

(٥) التصوف الإسلامي الصحيح : ص ٢٣٦ .

ثانيا الامتناع عن النكاح بدعة .

أعلن أهل التصوف أن من الأمور المبتدعة ترك النكاح رغبة عنه وذما له مع توفر الدواعي ورغبة عن السنة ، بل إن المكي عد تركه مع القدرة عليه تركا للدين واستدل على ذلك بقوله ﷺ : " من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا " (١) (٢) .

والذي يدعو إلى العجب ويدحض الزعم بأن الصوفية امتنعوا عن الزواج رغبة عن السنة ما ذكره المكي من أن الزواج أحد وسائل الحصول على الولاية فيقول : " وفي الخبر : من نكح لله وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى ، وهذا أدنى حال تنال به الولاية ، لأنها مقامات ولكل مقام عمل من الصالحات " (٣)

ثالثا : الخلاف حول الزواج المباح .

اختلف الصوفية حول الزواج المباح وهو الذي يكون توقان صاحبه برداً وسلاما لكمال تقواه وقهره هواه هل هو أفضل أم التجريد ؟ واتجهوا في ذلك اتجاهات عدة :

الاتجاه الأول : فضل أصحابه الزواج ومن هؤلاء الإمام الجنيد فقد كان يقول : " أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى الطعام " (٤) ، واستدلوا على ذلك بمجموعة من الأدلة منها :

١ - أن الزواج سنة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء والصحابة والصالحين : فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " خير هذه الأمة أكثرها

---

(١) الحديث ذكره البرهان فوري في كنز العمال : جـ ١٦ ص ٢٩٧ ، كتاب الترهيبات ، باب : الترغيب في النكاح ، حديث رقم [٤٤٤٦١] .

(٢) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٦٨ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٤٧٣ .

نساءً "[١] ، وقال أيضاً : " لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج "[٢] .

وجاء عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لأبي الزوائد : " ما يمنعك من النكاح إلا عجوز أو فجور "[٣] .

وكان ابن مسعود يقول : " لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزبا "[٤] .

٢ – أمر النبي ﷺ به وندبه إليه في كثير من الأحاديث منها قوله ﷺ : " ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعينه على آخرته "[٥] .

٣ – أن الزواج قد يثمر عنه ولد يموت فيكون فرطا صالحا يثقل به ميزانه ، أو يعيش فيوحد الله ويذكره ويدعو لأبيه بعد موته . وقد روي عن عمر ﷺ أنه كان يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد [٦] .

٤ – تفضيل المتجردين المتزوجين عليهم ، ومما يدل على ذلك ما جاء عن بشر بن الحارث وكان من الذين امتنعوا عن الزواج أنه كان يقول : " ما فضلني أحمد بن حنبل إلا بثلاثة أشياء : بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسي ، واتساعه للنكاح وضيقي عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسي "[٧] . ورؤي في المنام فقال : " عاتبني ربي ﷻ وقال يا بشر ما كنت أحب أن تلقاني عزبا "[٨] .

---

(١) عوارف المعارف : ص ١٠٧ .

(٢) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٠٧ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٥ ص ٢٨٢ عن ثوبان .

(٦) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٧٥ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٠٧ .

(٧) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٨) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٤٧٣ .

الاتجاه الثاني : ذهب أصحابه ومنهم إبراهيم بن أدهم وأبو سليمان الداراني وبشر بن الحارث إلى اختيار التجريد ، وكان إبراهيم بن أدهم يقول : " من تعود أفخاد النساء لا يفلح " (١) ، وعللوا ذلك بمجموعة من الأمور منها :

١ – فساد الزمان والمكاسب وقلة صلاح النساء .

٢ – إباحة العزوبة وتفضيلها لهذه الأمة في آخر الزمان ، واستدلوا على ذلك بما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : " خير الناس في آخر الزمان خفيف الحال ، قيل يا رسول الله ما خفيف الحال ؟ قال : " الذي لا أهل له ولا ولد له " (٢) (٣)

٣ – أن التجريد أجمع لهم الصوفي وألذ لعيشه وذلك لأن الصوفي دائم الشغل بنفسه فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه وتكل إرادته وتفتر عزيمته ، كما أن المرأة تدعوه إلى الرفاهية والدعة وتمنعه عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ، ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار وكل هذا بعيد عن المتجرد (٤) .

الاتجاه الثالث : قال أصحابه إننا نقطع اختيارنا عن كلا الحالين لنرى ماذا يتأتى من حكم التقدير وحجاب الغيب ، فإذا كان نصيبنا التجريد فإننا نجتهد فيه بعفة ،وإن كان التزويج فإننا نتابع السنة ونجتهد في فراغ قلوبنا (٥) .

الاتجاه الرابع : ذهب أصحابه ومنهم المكي والهجويري والغزالي إلى أن

---

(١) عوارف المعارف : ص ١٠٥ ، كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦١١

(٢) الحديث ذكره العجلوني في كشف الخفا : جـ ١ ص ٤٦٤ ، حديث رقم [١٢٣٥] ، وقال رواه أبو يعلي في مسنده عن حذيفة مرفوعا ، وقال الجليلي ضعفه الحفاظ بسبب روّاد بن الجراح وحكم عليه الصنعاني بالوضع لكن أورده الحافظ بلفظ " خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد " ... وهو إن صح محمول على جواز الترهيب " .

(٣) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦١٠ .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٠٥ .

(٥) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦١٢ .

الزواج المباح يرجع أمره إلى حرية المريد واختياره لعلمه بما يحتاج إليه فإن شاء التجريد تجرد ، وإن شاء الزواج تزوج [١] .

وعليه ومن خلال ما سبق يتبين لنا :

١ - أن الصوفية لم يرغبوا عن النكاح أو يرغبوا عن سنة النبي ﷺ .

٢ - أن الصوفية نادوا بوجوب الزواج إذا توفرت دواعيه وخاف المريد على نفسه الوقوع في الفتنة والعنت .

٣ - أن الصوفية نادوا بحرمة الزواج إذا لم يكن للمريد القدرة عليه وتعين أنه إذا تزوج وقع في الحرام ، وأنه يكون مكروها إذا غلب على ظن المريد الوقوع في الحرام إن تزوج .

٤ - أن الصوفية اختلفوا في الزواج المباح ، واتجهوا في ذلك الاتجاهات السابقة ، وإن كنا نرجح الرأي القائل بترك الأمر لاختيار المريد لعلمه بحاله ، وإن كنا نرى كما يرى الغزالي أن الجمع بين العبادة والنكاح أفضل :

أ - لأن النكاح ليس مانعا من التخلي للعبادة .

ب - ولجمعه ﷺ بين فضل العبادة والنكاح فلقد كان ﷺ مع تسع من النسوة متخليا للعبادة ، كما كان ﷺ مع علو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته ﷺ [٢]

---

(١) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٧٥ ، والإحياء : جـ ٣ ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) الأحياء : جـ ٢ ص ٥٧ .



المبحث الثالث

الرياضة أصولها والانحرافات المتعلقة بها ومحاربة الصوفية لها

تمهيد :

اتفقت كلمة الصوفية في كل نصوصهم على ضرورة وحتمية الرياضة والمجاهدة إيمانا منهم بأن النفس يمكن بالرياضة والمجاهدة التحكم فيها والسيطرة عليها و " تغيير صفاتها الناقصة وتبديل عادتها المذمومة " (١) .

وبعد أن تحدث الباحث في المبحث السابق عن المجاهدة ووسائلها ، سوف يتحدث في هذا المبحث عن الرياضة وأصولها .

الرياضة في اللغة .

الرياضة في اللغة تأتي بمعنى التذليل فيقال " راض الدابّة يروُضها روْضا ورياضة وطأها وذللها (٢) و" راض نفسه ... واستراضت طابت وانبسطت (٣)

الرياضة في الاصطلاح الصوفي .

تطلق الرياضة ويراد بها في المفهوم الصوفي " تمرين النفس على الخير ونقلها من الخفيف إلى الثقيل باللطف والتدريج إلى أن يرتقي إلى حالة يصير ما كان عنده من الأحوال والأعمال شاقا سهلا هينا " (٤) .

ويعرفها الإمام الغزالى بتعريف آخر فيقول : " الرياضة حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ... فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود

---

(١) الشيخ عبد القادر عيسى : حقائق عن التصوف ص ١١٠ ، دار العرفان - سوريا - حلب ، ط ١٢ (١٤١٢ هـ - ٢٠٠١ م) .

(٢) لسان العرب : جـ ٩ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٤٠٦ .

(٤) روضة الطالبين للغزالي : ص ٧٩ ، ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

فطريقه أن يتكلف فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا ... "(١)

أصـــول الرياضـــة :

للرياضة عند الصوفية أصول حددوها وحصروها وهي الجوع ، والسهر والصمت ، والخلوة ، ودوام الذكر ، والتزام الأوراد ، والسياحة ، ولزوم الشيخ المربي ، والخدمة (٢) .

وسوف يتكلم الباحث عن كل واحدة من هذه الأصول بصورة موجزة ، ثم يعقب بذكر الانحرافات المتعلقة بكل أصل من هذه الأصول متي وجدت ومحاربة الصوفية لها وهاهي على الترتيب :

الأصل الأول : الجوع

الأصل الأول من أصول الرياضة عند الصوفية الجوع وهو لا يعني الامتناع كلية عن الطعام ، وإنما يعني الإمساك مدة معينة عنه ، أو على مقدار معين كأكلة واحدة كل يوم (٣) .

والناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ قد دعيا إلى الإقلال من الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما : فقد قال الله تعالى : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ (٤) (٥) ، وقال ﷺ : "ما ملأ

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ٩٤ ، وآداب المريدين : ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ١٠٧ – ١٢٢ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٢٩ – ٤٨٠ ، وحياة القلوب : ص ٢٩٧ – ٢٩٨ ، والطريق الصوفي : ص ٧٠ .

(٣) الرسالة : ص ١٤١ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٥٦٩–٥٧٠ ، وعوارف المعارف : ص ١٢٨ .

(٤) سورة الأعراف آية ٣١ .

(٥) الرسالة : ص ١٤٠ .

ابن آدم وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد فاعلا ، فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث لنفسه (١) (٢) .

والصبر على الجوع خلق من أخلاق السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، فقد رويت عنهم روايات كثيرة تفيد ذلك منها :

ما جاء عن أبي بكر ﷺ من أنه كان يطوي ستا ، وكان عبد الله بن الزبير يطوي سبعة أيام ، وكان قوت أبي ذر في كل جمعة صاعاً من شعير (٣).

وروي عن الإمام مالك أنه كان يأكل كل ثلاثة أيام أكلة واحدة ، ويقول استحي من ترددي للخلاء بين يدي الله ﷻ (٤) .

وروي عن الإمام البخاري أنه كان يقلل الأكل حتى انتهى أكله إلى تمرة واحدة في كل يوم (٥) .

وانطلاقا من ذلك كله دعا الصوفية إلى التقليل من الطعام وأعلنوا أنه " طعام الزاهدين (٦) ، وأنه البضاعة التي ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروها ولا يشتروا غيرها (٧) .

والصوفية في الدعوة إلى الجوع بينوا أنهم لا يدعون إليه من أجل ذاته ، وإنما من أجل ما يترتب عليه من ثمار من أهمها إذلال النفس ورقة القلب

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٣٠٤ ، كتاب : الأطعمة ، باب : الاقتصاد في الأكل والشراب ، حديث رقم [٣٣٤٩] .

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٣) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٣٨٩ – ٣٩١ .

(٤) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٨٢ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٧ .

(٧) الرسالة : ص ١٤١ ، وآداب المريدين : ص ٩٩ .

وإضعاف الهوى ، وتخليص النفس من آفاتها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء إلى غير ذلك من الفوائد ، والتي من أجلها العلم السماوي :

قال أبو سليمان الداراني : " عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي " (١) .

الغلو والإفراط في الجوع وموقف الصوفية منه

التقليل من الطعام أو الجوع وسيلة من وسائل رياضة النفس في الطريق الصوفي وقد أخطأ البعض فهم هذه الوسيلة " واعتادوا القليل من القوت وظنوا أن كل من رفق بنفسه أو تناول شيئا من المباحات أو أكل شيئا من الطيبات أن ذلك علة وسقوط من المنزلة " (٢) ، وتوهمت جماعة أخرى أن النفس إذا انكسرت بترك الطعام يؤمن شرها ... فعمدوا إلى ترك الطعام وواصلوا الليالي والأيام وظنوا أن ذلك حال " (٣) .

وقد تصدى أهل التصوف لهؤلاء المخطئين وبذلوا جهودا عدة في مواجهتهم تمثلت فيما يلي :

[١] رفض الغلو .

رفض أهل التصوف هذا الغلو وأعلنوا أنه خطأ محض من هؤلاء لعدم تأدبهم بشيخ مجرب يوقفهم على ما يحتاجون إليه ، وظنهم الخاطئ أن النفس بمنعها عن الطعام فقط يؤمن شرها (٤) .

وقد اعتمدوا في رفض هذا الغلو وهذا الإفراط في الجوع على مجموعة

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص : ١٣٥ ، ١٠٧ ، ١٣٤ – ١٤٢ ، كشف المحجوب جـ ٢ ص : ٥٧٠ – ٥٧١ ، وقوت القلوب : جـ ١ ص ١٤١ ، وعوارف المعارف : ص ١٢٩ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٥٢٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٢٧ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨١ – ١٨٢ .

س الأمور :

الأول : مخالفة ذلك للوسطية التي دعا القرآن إليها :

من أولى الأسباب التي أدت إلى رفض أهل التصوف هذا الغلو مخالفته لما دعا إليه الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إلى الوسطية في الأكل والشراب قال تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ (٢) (٣) .

وعن الآية الأولى يقول أبو طالب المكي : " اعلم أن ما زاد على الخبز فهو فاكهة يتفكه به ، فإن كان لابد من التفكه بفاكهة مع الخبز فهو التوسط في الإدام مثل الخبز وثلثين لأن أعلى الإدام اللحم والحلو ، وأدناه الملح والخل ، فلم يأمر سبحانه بأعلاه لأنه يشق على الأغنياء ، ولم يأمر بالأدنى لأنه يشق على الفقراء وتوسط في الأمر بينهما فقال عز من قائل : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (٤) (٥) .

الثاني : مخالفة الغلو لما جاء عن النبي ﷺ .

ومن الأمور التي اعتمد عليها أهل التصوف في رفض هذا الغلو ما ثبت عن النبي ﷺ من محاربته لمثل هذا الانحراف ، فقد روي أن رسول الله ﷺ " لما علم ....من حال بعض الصحابة أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه " (٦)

---

(١) سورة المائدة آية ٨٩ .

(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٤ ، وقواعد التصوف : ص ١٥٦ القاعدة ٩٣ .

(٤) سورة المائدة آية ٨٩ .

(٥) قوت القلوب : جـ ٣ ص ٤٠٠ .

(٦) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٤ ، وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : " قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار -

كما ثبت أنه ﷺ نهى عن الوصال في الصوم فقال ﷺ : " لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر ، قالوا فإنك تواصل يا رسول الله ، قال لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقين " (١) .

كما نادى النبي ﷺ بالوسطية في كل شيء فقال ﷺ : " خير الأمور أوساطها " (٢) (٣) .

وعن هذا الحديث يقول الإمام الغزالي : " وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط " (٤) .

ويقول أيضاً : " ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط فصار الوسط مطلوبا في جميع الأحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله ﷺ : " خير الأمور أوساطها " (٥) (٦) .

الثالث : الامتناع يؤدي إلى التوك .

ومن أسباب رفض أهل التصوف لظاهرة الغلو في الجوع ما ذكره

= وتقوم الليل فقلت بلى يا رسول الله قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله " صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٣٧ – ٣٣٨ ، كتاب : الصيام ، باب : حق الجسم في الصوم .

(١) صحيح البخاري : جـ ١ ص ٣٣٦ ، كتاب : الصوم ، باب : الوصال .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البيهقي في الشعب جـ ٥ ص ٢٦١ ، باب : الاقتصاد في النفقة ، حديث رقم [٦٦٠١] عن مطرف ، دار الكتب العلمية ، ط ١ (١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م) .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٤ – ١٥٥ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) الحديث سبق تخريجه .

(٦) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٥ .

الطوسي والسلمي أن الإفراط في الترك قد يؤدي إلى ترك الفرائض ، بل يذكر الطوسي أنه رأى جماعة من الصوفية كانوا يتقللون من الطعام حتى فاتتهم الفريضة ، بل يذكر أيضا أنه رأى جماعة أخرى أدى التقلل بهم إلى أن بعضهم كان يغشى عليه وكان يحتاج بعد ذلك إلى أن يدارى ، ويرفق به أياما حتى يقدر أن يصلي الفريضة (١) .

[٢] الغاية من التقلل ترويض النفس .

لما دعا الصوفية إلى التقلل من الطعام كان غرضهم من ذلك مجاهدة النفس ورياضاتها ، أما هؤلاء فكان مقصودهم من التقليل التقليل ذاته ، ومن ثم قام أهل التصوف مرة أخرى يؤكدون أن الغاية من التقليل ترويض النفس ، ويوضح ذلك الإمام الغزالي فيقول : " فإذا كانت النفس جموحا متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في إيلامها بالجوع كما يبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها ... ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ويمنعه الفواكه والشهوات ، وقد لا يمتنع هو منها لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ، ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماع والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر نفسه والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال " (٢) .

ويستدل على ذلك فيقول : " والذي يدل على أن تفسير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا في نفسه وإنما هو مجاهدة

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٢٧ – ٥٢٨ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٥ .

متنائية عن الحق بالغة رتبة الكمال أن رسول الله ﷺ لم يكن له تقدير وقت لطعامه : " قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ : " يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم (١) (٢) .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة قالت " قال لي رسول الله ﷺ ذات يوم يا عائشة هل عندكم شيء قالت فقلت يا رسول الله ما عندنا شيء قال فإني صائم ، قالت : فخرج رسول الله ﷺ فأهديت لنا هدية أو جاء زور ، قالت : فلما رجع رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله أهديت لنا هدية أو جاءنا زور وقد خبأت لك شيئا ، قال : ما هو ؟ قلت : حيس ، قال : هاتيه فجئته به فأكل ثم قال : " قد كنت أصبحت صائما " (٣) .

ويسوق الغزالي كثيرا من الراويات عن الصوفية الكبار تدل على أنهم ما كانوا يجوعون أنفسهم من أجل الجوع وإنما كان ذلك من أجل رياضة النفس :

من ذلك ما جاء عن إبراهيم بن أدهم أنه " دفع إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا فقيل : يا أبا إسحاق بهذا كله ؟ قال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال " (٤)

ومنها : ما روي عن معروف الكرخي أنه كان " يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل ، فقيل له : إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : " إن أخي بشراً قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة ، ثم قال : إني ضيف في دار مولاي مالي والاعتراض والتميز ؟ " (٥) .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ٣٣٧ ، كتاب : الصيام ، باب : الصوم في شعبان ، ومسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٤٦٧ ، كتاب الصيام باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٤٦٧ . كتاب : الصيام ، باب : جواز صيام النافلة .

(٤) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

ومن ذلك أيضا ما جاء عن سهل بن عبد الله أنه قيل له : " كيف كنت في بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات منها : أنه كان يقتات ورق النبق مدة ومنها : أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ فقال آكل بلا حد ولا توقيت " (١)

ويقول الإمام الغزالى معلقا على هذا النص : " وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت أني آكل كثيرا بل أني لا أقدر بمقدار واحد ما آكله " (٢) .

ويضيف السهروردي إلى ما ذكره الغزالى فيقول : " اعلم أن هذا المعنى من الطي والتقليل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحداً من الأنبياء ، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته ، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر ، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى في ذلك " (٣) .

وقال ابن عجيبة : " إنه لا ينبغي الإفراط فيه – أي في الجوع – فخير الأمور أوساطها " (٤) .

الأصل الثاني : السهر .

السهر الأصل الثاني من أصول الرياضة وهو نوعان :

سهر العين لعمارة الوقت ودوام الترقي في المنازل العالية والتعرف على النفس .

وسهر القلب ويقظته من نوم الغفلة للقرب من منازل المشاهدة (٥) .

وقد دعا الحق سبحانه وتعالى إلى السهر وبين أن قيام الليل يذهب السيئات

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) عوارف المعارف : ص ١٢٩ .

(٤) الفتوحات الإلهية : ص ٢٤٥ .

(٥) أعذب المسالك : جـ ١ ص ١٨٨ .

فقال تعالى : " ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) ، ومدح الحق سبحانه وتعالى أهل الليل من المؤمنين فقال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢) (٣) .

ودعا النبي ﷺ إلى قيام الليل ، بل ضرب المثل والقدوة في ذلك ، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن المغيرة قال : " كان النبي ﷺ ليقوم حتى ترم قدماه أو ساقاه ، فيقال له فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا " (٤) ، وقد جاءت روايات كثيرة تفيد حرص الصحابة والتابعين والعلماء على قيام الليل من ذلك :

ما جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه كان إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح (٥) .

ونقل عن سعيد بن المسيب أنه كان يصلي الصبح بوضوء العشاء (٦) ، كذلك روي عن الإمام الشافعي وأبي حنيفة قيامهم الليل كله (٧) .

وانطلاقا من ذلك دعا الصوفية إلى قيام الليل مبينين أنه صفة من صفات الأبدال وعلامة الصدق في طلب الطريق (٨) .

وضرب الصوفية المثل العملي في ذلك ، فقد روى أن بشر الحافي ٢٢٧هـ كان يقوم الليل كله ، فقيل له ألا تستريح هجعة ؟ فقال : إن رسول الله كان يقوم

---

(١) سورة هود آية ١١٤ .

(٢) سورة الذاريات آية ١٨ .

(٣) قوت القلوب : جـ ١ ص ٧٦ – ٧٧ ، والإحياء : جـ ١ ص ٥١١ ، وعوارف المعارف : ص ١٧٨ .

(٤) صحيح البخاري جـ ١ ص ١٩٨ ، كتاب : الصلاة ، باب : قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه .

(٥) الإحياء : جـ ١ ص ٥٤٧ .

(٦) عوارف المعارف : ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(٧) الإحياء : جـ ١ ص ٥٤٧ – ٥٤٨ .

(٨) قوت القلوب : جـ ١ ص ٨٢ ، والأنوار القدسية : ص ٧٤ .

حتى تنفخت قدماه مع أن الله أخبره أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف ينام الذي لا يعلم ما يصنع به ؟ " (١) .

وقال الجنيد : " أتى على السري ٢٥٣ هـ نيف وثلاثون سنة ما رئي مضطجعا إلا في علة الموت " (٢) .

أخطاء السهر وتصحيح الصوفية لها .

السهر أو القيام للصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وقراءة القرآن ، والاستغفار وخاصة وقت السحر كما قال تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣) وسيلة من وسائل الرياضة ، ويهدف الصوفية منها تهذيب النفس ، ورقة القلب ، والقرب من الله تعالى ، فقد قال مالك بن دينار : " إذا قام العبد يتهجد من الليل ورتل القرآن كما أمر قرب الجبار تعالى منه " (٤) .

وقد أخطأ البعض فهم المقصود من هذه الوسيلة وغالوا فيها ظنا منهم أن السهر مقصود لذاته وألزموا أنفسهم عدم النوم (٥) .

وقد رفض أهل التصوف هذا الغلو ونادوا بالاعتدال في السهر وذلك بأن يكون القيام أو السهر بين نومتين ، أو يغالب القائم نفسه من أول الليل ويتنفل فإذا غلبه النوم نام وإذا انتبه توضأ وصلى فيكون له قومتان ونومتان ، ويكون ذلك أفضل ما يفعله ، ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة (٦)

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذا الغلو على ما جاء عنه ﷺ من أحاديث

---

(١) أعذب المسالك : جـ ١ ص ١٣١ .

(٢) آداب المريدين : ص ١٠٢ .

(٣) سورة الذاريات آية ١٨ .

(٤) قوت القلوب : جـ ١ ص ٨٠ ، والغنية : جـ ١ ص ٣٥١ .

(٥) عوارف المعارف : ص ١٨٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

تفيد قيامه ﷺ بمحاربة مثل هذا الفعل ، ودعوته ﷺ إلى عدم التشدد والغلو من ذلك : ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال : " دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين سارتين ، فقال : ما هذا ؟ قالوا لزينب تصلى فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر قعد " (١)

وأخرج أيضا عن عروة بن الزبير أن أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى مرت بها وهي عند رسول الله ﷺ فقلت هذه الحولاء بنت تويت وزعموا أنها لا تنام الليل ، فقال رسول الله ﷺ : " لا تنام الليل خذوا من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا " (٢) .

وأخرج أيضا عن أم المؤمنين عائشة أن النبي ﷺ قال : " إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلىّ وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه " (٣) (٤) .

وهكذا رفض الصوفية هذا الغلو لنهي النبي ﷺ عنه ، ويقاس على ذلك كل ما يدل على المبالغة من وضع ملح في العين أو غير ذلك من المبالغات .

الأصل الثالث : الصمت .

الأصل الثالث من أصول الرياضة الصمت وهو في اللغة بمعنى السكوت (٥) وهو لا يعنى في المفهوم الصوفي " حبس اللسان عن الكلام إطلاقاً ، أو فترات مقررة

---

(١) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٣١٥ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب أمر من نعس في صلاته .

(٢) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٣١٥ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب أمر من نعس في صلاته .

(٣) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٣١٥ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب أمر من نعس في صلاته .

(٤) عوارف المعارف : ص ١١٨ ، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ٥١٠ – ٥١١ .

(٥) مختار الصحاح : ص ٣٦٩ .

كما في الرهبنة المسيحية [١] ، وإنما يقصد به التحفظ في القول وعدم الاسترسال في اللغو ، أو البوح بالسر ، وعدم الكلام إلا عند الضرورة وقول الحق [٢] .

والصمت صمتان : صمت باللسان ، وصمت بالجنان ، وكلاهما لابد منه في الطريق فقد قيل : " من صمت لسانه ، وصمت قلبه تجلى له سره وكلمه ربه " [٣]

وقد دعا الحق سبحانه وتعالى إلى عدم الكلام إلا فيما يفيد فقال تعالى : ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٤] .

ودعا إليه النبي ﷺ فقال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " [٥] .

وكذلك دعا إليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : فعن معاذ بن جبل أنه قال : " كلم الناس قليلا وكلم ربك تعالى كثيرا لعل قلبك يرى الله تعالى [٦] .

وروي أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يمسك في فمه حجرا ليقل كلامه [٧]

---

(١) التصوف الثورة الروحية : ص ١٤٥ .

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٢٠ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٠٠ – ٦٠١ .

(٣) ابن علوية المستغانمي : المنح القدوسية : ص ١٩٧ – ١٩٨ ، تحقيق / سعود القواص ، دار ابن زيدون – بيروت ، ط بدون تاريخ .

(٤) سورة النساء آية ١١٤ .

(٥) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ٥٤ ، كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٣٨ – ٣٩ ، كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار .

(٦) الرسالة : ص ١٢٢

(٧) المرجع السابق نفسه .

وقال الإمام الشافعي :

قالوا سـكت وقد خوصمت قلت لهـم
إن الكـلام لبـاب الشـر مفتـاح
في الصمت عن أحمق أو جاهل شرف
وفيه أيضا لصون العرض إصلاح (١)

وانطلاقا من ذلك كله دعا الصوفية إلى الصمت إلا عن الذكر ، وقول الحق ، وأعلنوا أنه الطريق إلى التوبة ، والنطق بالحكمة ، والسلامة في الدين ، والصلاح في سائر الأعمال ، والوصول إلى أعلى الدرجات ، وصلاح القلب ، وتجنب الوقوع في الآفات (٢) .

الأصل الرابع : الخلوة .

الخلوة هي الأصل الرابع من أصول الرياضة في الطريق الصوفي وهي في اللغة تطلق ويراد بها الانفراد في مكان خال بعيد ، أو تطلق على المكان ذاته الذي ينفرد فيه المختلي (٣)

والخلوة في المصطلح الصوفي لا تبتعد عن معناها في اللغة فهي تطلق ويراد بها عندهم العزلة عن الخلق في مكان بعيد " إيثار لصحبة المولى " (٤) ، ويضيف الصوفية إلى الخلوة المكانية الخلوة القلبية ، والتي تعنى انفراد القلب بالله بحضوره معه ، وعدم ملاحظة الخلق بالكلية (٥) .

---

(١) أعذب المسالك : جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) الرسالة : ص ١٢٢ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٠٦ ، وآداب المريدين : ص ٧٣ ، ولواقح الأنوار القدسية للشعراني : ص ٣٨٢ ، والفتوحات الإلهية : ص ٢٤٥ .

(٣) القاموس المحيط : جـ ٤ ص ٣٢٦ – ٣٢٧ ، ومختار الصحاح : ص ١١٨ .

(٤) أعذب المسالك : جـ ١ ص ١٥٩ .

(٥) إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ٥٧ ، واصطلاحات الصوفية للكاشاني : ص ١٧٠ ، والتعريفات للجرجاني : ص ١١٣ .

والخلوة المكانية هذه ذكر الصوفية أنها إما أن تكون أربعين يوما لقوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [١] [٢] ، وقد تكون ثلاثين يوما وهي المدة التي جاور فيها النبي ﷺ في غار حراء [٣] ، وقد تكون عشرة أيام وهي أقل مدة للخلوة لاعتكافه ﷺ العشر الأواخر من رمضان [٤] .

ويعتمد الصوفية في الدعوة إلى الخلوة على ما جاء في القرآن الكريم من دعوة الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ إليها فقد قال الله تعالى مخاطباً إياه : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [٥] .

وعن هذه الآية يقول الشيخ عبد القادر عيسي : " كل أمر أمر به ﷺ تشريع له ولأمته إلا فيما خص به ، وخصوصياته معروفة ، وهذا الأمر في هذه الآية المذكورة عام له ولأمته " [٦] .

ويعتمد الصوفية أيضا على ما جاء في السنة من أحاديث تفيد قيامه ﷺ بالخلوة في غار حراء ، وأخرى تفيد دعوته ﷺ إلى الخلوة مبينا فيها مكانتها وفضلها .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت " أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٢) عوارف المعارف : ص ١٢١ .

(٣) أخرج الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٨٠ – ٨١ ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ " جاورت بحراء شهرا " الحديث .

(٤) قواعد التصوف : ص ٦٧ القاعدة ١١٢ .

(٥) سورة المزمل آية ٨ .

(٦) حقائق عن التصوف : ص ٢٠٠ .

ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ، ويتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء " (١) .

إشكال ورد .

ذكر الشيخ عبد القادر عيسى أنه ربما يقال : أمر الغار كان قبل الرسالة ولا حكم إلا بعد الرسالة ، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذا الحديث على مشروعية الخلوة ، ولكنه يجيب على هذا الإشكال ذاهبا إلى ما يلي :

[١] أن الخلوة لو لم تكن من الدين لنهي عنها ﷺ

[٢] أن الرسول ﷺ ما ترك هذه الخلوة بعد أن خرج من الغار فكان بعدئذ يخلو في العشر الأواخر من رمضان وقد سماه الفقهاء اعتكافاً (٢) .

ومن الأحاديث أيضا ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال : " قال رجل : أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : " مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله " ، قال ثم من ؟ قال : " رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره ... " (٣) (٤) .

ومنها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ..... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " (٥) (٦) .

---

(١) صحيح البخاري : جـ ١ ص ٦ ، كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحي ، وصحيح مسلم : جـ ١ ص ٧٨ - ٧٩ ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

(٢) حقائق عن التصوف : ص ٢٠٥ .

(٣) صحيح مسلم : جـ ٢ ص ١٥٠ ، كتاب الإمارة ، باب فضل الجهاد والرباط .

(٤) حياة القلوب : ص ١٣٦ .

(٥) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ١٢٦ كتاب الرقاق ، باب البكاء من خشية الله .

(٦) حقائق عن التصوف : ص ٢١٤ .

وعن هذه الحديث يقول الشيخ عبد القادر عيسى " أليس هذا الحديث دليلا قاطعا على مشروعية الخلوة لذكر الله تعالى " (١) .

وما دعا إليه الحق سبحانه وتعالى ودعا إليه رسوله ﷺ دعا إليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين ، فعن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه قال : " خذوا بحظكم من العزلة " (٢) .

وجاء عن الإمام الشافعي أنه كان يقول : " من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فعليه بالخلوة (٣) ، وقال الإمام النووي ٦٧٦ هـ : " الخلوة شأن الصالحين وعباد الله العارفين " (٤)

وانطلاقا من ذلك كله دعا الصوفية إليها ذاهبين إلى أنها " حانوت العبادة " (٥) ، و" جليس الصديقين " (٦) ، و" اختيار العاقلين " (٧) ، والطريق إلى سلامة الدين ، واستراحة القلب ، وخير الدنيا والآخرة (٨)

ويهدف الصوفية من الخلوة بالإضافة إلى ما سبق تهذيب النفس " ورياضتها على طاعة الله (٩) ، والتخلص من المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبا

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) أعذب المسالك : جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ٢٠٨ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : جـ ٢ ص ١٧٤ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، دار الدعوة الإسلامية ، ط ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٢٦ .

(٦) الرسالة : ص ١٠٣

(٧) المرجع السابق : ص ١٠٤ .

(٨) المرجع السابق نفسه .

(٩) حقائق عن التصوف : ص ٢٠٦ .

بالمخالطة كالغيبة والنميمة والرياء [١] .

ويضاف إلى ما سبق التمكن من عبادة التفكر وحصول القرب " والظفر بمواهب المنة وهي أربعة كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة ، وتحقيق المحبة ، ولسان الصدق في الكلمة قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [٢] [٣] .

أخطاء الخلوة وتصحيح الصوفية لها

الخلوة واحدة من وسائل رياضة النفس وقد أخطأ البعض فهم هذه الوسيلة ، وظنوا أن الخلوة مقصودة لذاتها ، وأنهم بدخول كهوف الجبال " يهربون من الخلق أو يأمنوا في الجبال والفلوات من شر نفوسهم " [٤] .

ودخلت الخلوة جماعة أخرى لا لرياضة النفس وإنما طلبا للحصول على ما حصل عليه أولياء الله من الأحوال الشريفة ، وطائفة أخرى " هاموا على وجوههم ودخلوا البراري والبوادي بلا زاد ولا ماءولا آلة طريق " [٥] ، وطائفة أخرى دخل عليهم الشيطان وفتح لهم بابا في الغرور " ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص " [٦] .

وقد تصدى أهل التصوف لهم وبذلوا جهودا عدة في مواجهتهم تمثلت فيما يلي

١ - إعلان أهل التصوف أن دخول الخلوة لمجرد الخلوة أو للحصول على ما حصل عليه أولياء الله من الأحوال الشريفة ، أو ليقال عنهم أنهم أصحاب

---

(١) الإحياء : جـ ٢ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، وقواعد التصوف : ص ٦٨ القاعدة ١١٢ .

(٢) سورة مريم آية ٤٩ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ٢١٠ ، وإيقاظ الهمم : ص ٥٩ - ٦٣ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) المرجع السابق : ص ٥٢٨ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٢ .

(٦) عوارف المعارف : ص ١٢٤ .

خلوة " عين الاعتلال ومحض الضلال " [١] ، وذكروا أن مشايخ الصوفية الذين دخلوا الخلوة لم يدخلوها لمجرد الاختلاء أو هروبا من الخلق وإنما " حداهم إليه داعي العلم وقوة الحال فورد على قلوبهم ما أذهلهم وشغلهم عن المعارف وأخذهم عن الطعام والشراب ، وجذبهم الحق إليه جذبة أغناهم بها عمن سواهم [٢] .

ويذكر الطوسي أن من لم يكن " مصحوبه قوة الحال وغلبةُ الوارد ثم يتكلف ويحمل على نفسه مالا تطيقه يظلم نفسه ، فيدخل على نفسه الضرر ولا يدرك ما فاته ، ويفوته ما معه ، فمن فعل شيئا من ذلك بتكلفه ويتوهم أنه قد وصل إلى شيء من مراتب المخصوصين فهو في غلط " [٣] .

٢ – إعلانهم أن الأئمة الكبار الذين كان هذا دأبهم لم يدخلوا الخلوة فجأة وبلا زاد كما فعل هؤلاء القوم بدعوى التوكل وإنما كانت " لهم بدايات وتأدبوا بآداب ، وراضوا أنفسهم قبل ذلك بالمجاهدات ، وكانوا مستقلين بأحوالهم ، لم يبالوا بالقلة ولم يستوحشوا من الوحدة ، فكم من موتة ماتوا وكم من مرارة ذاقوا ؟ حتى استوت أحوالهم في الخراب والعمران والسهل والجبل والجماعة والوحدة ، والعز والذل ، والجوع والشبع ، والحياة والموت ... فمن فعل شيئا من ذلك وتوهم أنه قد نطق بشيء من أحوال المتوكلين فهو في غلط " [٤] .

٣ – إعلانهم أن أئمة الصوفية الكبار كانوا يهدفون من الخلوة سلامة الدين وتفقد أحوال النفس ، وإخلاص العمل لله ، أو كانوا يهدفون كما قال بعضهم الاستقامة والتقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات ، وكف الجوارح عن المكروهات لا الكرامة [٥] .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٢٨ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٢ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٥٢٩

(٥) عوارف المعارف : ص ١٢٤ .

ويذكر السهروردي أن وقوع الكرامة أو عدم وقوعها على يد الصادقين لا يقدح في حالهم ، وإنما يقدح فيه الانحراف عن حد الاستقامة ، كما يذكر أن دخول الخلوة طلبا للكرامة يعد مدخلا عظيما يدخل منه الشيطان يسول له أنواع الطغيان ويوهم أنه على حسن الحال ، الأمر الذي يؤدي إلى " بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه ، وينكر الحدود والأحكام ، والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول ﷺ ثم يندرج من ذلك إلى تلحد وتزندق (١)

٤ – ومن بين الجهود التي بذلها الصوفية في مواجهة هذه الأخطاء المتعلقة بالخلوة دعوتهم المختلي بالتعلم قبل الاختلاء فقد قال النخعي وغيره " تفقه ثم اعتزل " (٢) ، وذكروا أن من اعتزل قبل العلم " فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس " (٣) .

ويضاف إلى ما سبق إعلانهم أنه " لا خير في عزلة العوام والجهال الذين لا يحسنون العبادة في الخلوة " (٤) .

وأخيرا فقد نادى الصوفية المختلي بالعبد عن الرغبة في الظهور والقبول لدي الناس ، وذكروا أن ذلك " من أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق " (٥) .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الإحياء : جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٢٦ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

الأصل الخامس : الذكر .

الذكر ركن قوى في " طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق " [١] .

والذكر في اللغة يطلق ويراد به معان متعددة فيطلق ويراد به " الحفظ ... والشيء يجري على لسان " [٢] ، و" الصيت ... والثناء والشرف والصلاة لله ... والكتاب فيه تفصيل الدين " [٣] ، والثناء باللسان على الله تعالى [٤] .

والذكر ذكران : ذكر القلب وهو شهودنا ليلا ونهاراً أننا بين يديه وهو يرانا ويرى أفعالنا وأقوالنا وخواطرنا .

وذكر اللسان : وهو وسيلة إلى حصول هذا الذكر [٥] ، وذكر اللسان له ألفاظ وصيغ كثيرة ومتنوعة منها الذكر بلا إله إلا الله ، والتسبيح والتحميد ، والاستغفار ، والصلاة على النبي ، وقراءة القرآن والذكر بأسماء الله الحسنى [٦]

والذكر بنوعيه القلبي واللساني مطلب قرآني نبوي ، فقد دعا الحق سبحانه إلى ذكره والإكثار منه فقال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [٨] .

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٢٢١ .

(٢) لسان العرب : جـ ٥ ص ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٣) القاموس الوسيط : جـ ٢ ص ٣٦ – ٣٧ .

(٤) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

(٥) الرسالة : ص ٢٢١ ، والتعرف : ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٦) الإحياء : جـ ١ ص ٤٦٠ – ٤٦٣ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٤٦ ، وحقائق عن التصوف : ص ١٥٠ ، وأصول الوصول : الشيخ محمد زكي إبراهيم جـ ١ ص ٣٧ ، سلسة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية ، ط ٤ ١٩٩٥ م – ١٤١٦ هـ .

(٧) سورة البقرة آية ١٥٢ .

(٨) سورة الأنفال آية ٤٥ .

ودعا النبي ﷺ في كثير من الأحاديث إلى ذكر الله تعالى من ذلك :

ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " (١) .

وأخرجه الإمام الترمذي في سننه عن عبد الله بن بُسرْ أن رجلا قال يا رسول الله : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به قال : " لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله " (٢) .

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : " مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت " (٣) (٤) .

وما دعا إليه الحق سبحانه وتعالى ودعا إليه رسوله ﷺ دعا إليه السلف الصالح رضوان الله عليهم ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لم يفرض الله تعالى على عبادة فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها ، فقال عز من قائل : ﴿ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٦٦ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى .

(٢) سنن الترمذي : جـ ٥ ص ١٢٦ ، كتاب الدعاء ، باب ما جاء في فضل الذكر .

(٣) صحيح البخاري : جـ ٢ ص ١١٤ ، كتاب الدعاء ، باب فضل ذكر الله عز وجل .

(٤) الأنوار القدسية : ص ٢٩ .

(٥) سورة النساء آية ١٠٣ .

آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) (٢) .

وقال أبو هريرة ﷺ : " إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم " (٣) .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أجمع العلماء " سلفا وخلفا على استحباب ذكر الله " (٤) بالقلب واللسان ، وقد حكى هذا الإجماع الإمام الشعراني من الصوفية وحكاه من خارج دائرة التصوف الإمام النووي (٥) .

وانطلاقا من ذلك كله نادى الصوفية أتباعهم ومريديهم بالإكثار من الذكر ليلا ونهارا ، سرا وعلانية إجلالا لله تعالى وعبودية له ، ومعلنين أن الذكر سيف المريدين " به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات " (٦) ، وبه يخرجون من ميدان الغفلة ، وأنه يورث الإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، ويذيب قسوة القلب ويورث المحبة والمراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه (٧) .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أعلن أهل التصوف بأن الذكر هو منشور الولاية " الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل " (٨) .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤١ .

(٢) حقائق عن التصوف : ص ١٢٢ .

(٣) الإحياء : جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٤) الأنوار القدسية : ص ٣١ .

(٥) الإمام النووي : الأذكار ص ٢٨ ، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد ، دار إحياء الكتب العربية ، ط بدون تاريخ ، وحقائق عن التصوف : ص ١١٧ .

(٦) الرسالة : ص ٢٢٢ .

(٧) الرسالة : ص ٢٢٣ ، وحياة القلوب : ص ١٥٠ .

(٨) الرسالة : ص ٢٢١ .

شبه وأخطاء الذكر وتصحيح الصوفية لها .

الذكر في الطريق ركن قوى فهو كما يقولون منشور الولاية " الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل " (١) .

والذكر أيضا وسيلة هامة من وسائل رياضة النفس ، وقد أثيرت حوله بعض الشبه ، ووقع البعض في أخطاء تتعلق به ، وقد تصدى أهل التصوف لهذه الشبه وهذه الأخطاء فقاموا بتفنيد الشبه وتصحيح الأخطاء ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في الصفحات التالية .

أولا : شبه الذكر وتفنيد الصوفية لها :

أثيرت حول الذكر بعض الشبه في القديم ، وما تزال تثار في عصرنا الحاضر من أهمها :

الشبه الأولى : دعوى بدعية الذكر بالاسم المفرد .

ذكر بعض العلماء أن الذكر بالاسم المفرد مظهرا أو مضمرا بدعة في الشرع ، وخطأ في القول واللغة ، فإن الاسم المجرد ليس هو كلاما لا إيمانا ولا كفرا ، كما أن الثابت في الصحيح عن النبي ﷺ أن أفضل الكلام بعد القرآن أربع سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر " (٢) .

دفع الشبهة :

أجاب الصوفية عن هذه الشبهة وذكروا أن الذكر بالاسم المفرد جائز وأن الزعم بأنه بدعه زعم خاطئ بل هو عين البدعة ، واستدلوا على مشروعية الذكر بالاسم المفرد بالقرآن والسنة وبأقوال علماء الأمة :

---

(١) الرسالة : ص ٢٢١ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ٤ ص ٢٩٤ .

أولا القرآن الكريم :

ذكر الصوفية بأن الحق سبحانه وتعالى نادى في كثير من آيات القرآن الكريم إلى ذكره باسمه من ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (١) ، والاسم الجامع الأشهر لربنا ﷻ هو " الله " ، وإليه تعود جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٢) ، والدعاء ذكر ، والذكر دعاء وكلاهما يشمل ترديد اسمه تعالى مفردا مجردا كما جاءت أسماء الله الحسنى بالنص الصحيح الجاري على الألسن في كل الروايات مفردة مجردة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ (٣) ، أي اذكره باسمه " الله " أو اسمه " الرحمن " أو غيرها من أسمائه الحسنى ، وكلها أسماء مفردة مجردة ، وحكم واحد منها يجري عليها جميعا (٤)

وعن سبب نزول هذه الآية يقول الإمام القشيري : " اعلم أن سبب نزول هذه الآية أن رجلا من المشركين سمع النبي ﷺ والمسلمين يدعون الله تعالى مرة ، ويذكرون الرحمن الرحيم مرة ، فقال : ما باله ينهانا عن عبادة الأصنام وهو يدعو إلهين اثنين يقول مرة الله ، ومرة الرحمن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ (٥) ، وأراد به ولله التسميات " (٦) .

---

(١) سورة المزمل آية ٨ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٣) سورة الإسراء آية ١١٠ .

(٤) أصول الوصول : جـ ١ ص ٥٠ ، وحقائق عن التصوف : ص ١٥١ ، والإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٠٧ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٦) القشيري : شرح أسماء الله الحسنى ٥٩ ، دراسة وتحقيق / طه عبد الرؤف سعد ، وسعد حسن محمد على ، دار الحرم للتراث ، - القاهرة ، ط ١ (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م) .

ثانياً : السنة النبوية .

استدل الصوفية أيضا على مشروعية الذكر بالاسم المفرد بمجموعة من الأحاديث النبوية رأوا أنها تؤيدهم فيما يذهبون إليه من هذه الأحاديث :

ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله " (١) ، وفي رواية أخرى : " لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله " (٢) .

وعن هاتين الروايتين يقول الشيخ عبد القادر عيسى : " فهذا اسم مفرد ورد ذكره مكررا في هذا الحديث ... " (٣) ، ويقول الشيخ محمد زكي إبراهيم : " أي ذكرا وأمرا ونهيا ، ولو لم يكن في الباب إلا هذا الدليل لكفى " (٤) .

ومنها ما ثبت في صحاح السير أنه ﷺ كان يمر على بلال وهو يعذب ويقول أحد أحد ، فلم ينكر عليه ، بل كان يكررها ﷺ وهو المشرع الأعظم ، وهذا أوضح الأدلة على صحة الذكر بالاسم المفرد (٥) .

ومنها ما جاء عن أسماء بنت عميس قالت : قال لي رسول الله ﷺ : " ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب الله الله ربي لا أشرك به شيئا " (٦) (٧) .

---

(١) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٧٣ ، كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان .

(٢) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٧٣ ، كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٥١ .

(٤) أصول الوصول : جـ ١ ص ٤٩ .

(٥) ذكر ابن إسحاق أن الذي مر على بلال هو ورقة بن نوفل وأنه سمعه يقول " أحد أحد " فكان يقول " أحد أحد والله يا بلال " . انظر سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ٣٠٥ ، مطبعة الأنوار المحمدية ، ط بدون تاريخ ، وأصول الوصول : جـ ١ ص ٤٩ ..

(٦) الحديث أخرجه أبو داود في سننه : جـ ٢ ص ١٨٢ ، كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار حديث رقم [١٥٢٥] .

(٧) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٥ ص ٢٩٣ .

ثالثاً : نص كثير من العلماء على صحة الذكر بالاسم المفرد .

ومن الأدلة التي استدل بها الصوفية على مشروعية الذكر بالاسم المفرد نص كثير من العلماء من غير الصوفية على جوازه ومن هؤلاء الزمخشري في الكشاف ، والنووي ... والفخر الرازي [١] ، وغيرهم من العلماء في القديم والحديث .فالزمخشري يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [٢] : " أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿ وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم يا أبا المكارم ... يا سخي ، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا يا الله " [٣] .

ويقول الإمام النووي في شرحه لحديث " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله ... وهذه كلها وما في معناها على ظاهرها " [٤] .

وأما الفخر الرازي فيذكر أن الذكر بلفظ الجلالة " الله " جائز ، ونص على جواز الذكر بالاسم المضمر " هو " ، بل أقام مجموعة من الأدلة على أفضلية الذكر به على غيره من أسماء الله الحسنى ، وذكر أن " من أسماء الله ما يمكن ذكره وحده كقولنا يا الله ، يا رحمن ، يا حي ، يا حكيم ، ومنها ما لا يكون كذلك كقولنا : محيي ومميت وضار ، فإنه لا يجوز إفراده بالذكر ، بل يجب أن يقال يا

---

(١) المرجع السابق نفسه ، وحقائق عن التصوف : ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٣) الزمخشري : الكشاف : جـ ٢ ص ١٤٨ ، تحقيق / محمد مرسي عامر ، مراجعة د / شعبان محمد إسماعيل ، الناشر : دار المصحف شركة ومطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة ، ط ٢ (١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م) .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي : جـ ٢ ص ١١٦ كتاب الإيمان باب في الريح التي تكون قرب القيامة

محيي يا مميت ، يا ضار يا نافع " [١] .

رابعاً : أدلة أخرى .

ساق الصوفية أدلة أخرى على جواز الذكر بالاسم المفرد منها :

١ – أن الذاكر بلفظ " الله " أو بلفظ " الرزاق " أو " رزاق " مثلا ملاحظ أن هذا الاسم أحد جزأي جملة خبرية تقديرها مثلا : " الله الرزاق " أو " ربي الرزاق " أو نحو ذلك فالاسم المجرد هنا خبر لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ لخبر محذوف ، كما يجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره " أذكر الله الرزاق " ، وقد يكون الذاكر ملاحظا ياء النداء ، فيكون الاسم المجرد منادى حذفت منه ياء النداء بلاغة إن لم يكن قد نطق بها ، ولكل ذلك أشباه في القرآن والسنة معروفة عند أهل اللغة [٢] .

٢ – أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي رغبت في الذكر جاءت عامة ومطلقة لم تخص ذكراً معينا ، ولم يرد نص شرعي يحرم الذكر بالاسم المفرد " [٣] ، وغيرها من الأدلة الأخرى التي ذكرها الصوفية وغيرهم على جواز الذكر بالاسم المفرد .

الشبهة الثانية : دعوى بدعية الحركة في الذكر .

من الشبه التي أثيرت حول وسيلة الذكر أيضا القول بأن الحركة والتمايل أثناء الذكر لم يرد بها نص شرعي وإنما ورد الحث على ذكر الله من غير تمايل

دفع الشبهة :

أجاب الصوفية عن هذه الشبهة وذكروا أن الحركة في الذكر وهي التمايل

---

(١) الرازي : مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٣٦٩ – ٣٧٠ ، جـ ١ ص ١٨٩ – ٢٠١ ، دار الغد العربي – مصر ، ط ١ (١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م) .

(٢) أصول الوصول : جـ ١ ص ٤٩ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٥١ .

يمينا وشمالا – مباحة شرعا ، والأمر بالذكر مطلقا يشمل جميع الأحوال ، فمن ذكر الله تعالى قاعدا أو قائما ، أو جالساً أو ماشيا ، متحركا أو ساكنا ، فقد قام بالمطلوب ونفذ الأمر الإلهي (١) .

ومع إعلان الصوفية بجواز الحركة في الذكر ، فقد رفضوا رفضا تاما الخروج عن حد الاعتدال ، وذكروا أن من خرج عن التمايل إلى التكسر والرقص فقد خرج عن المباح إلى دائرة الحرام (٢) .

أدلة الصوفية على جوز الحركة .

استدل الصوفية على جوز الحركة في الذكر بمجموعة من الأدلة :

منها : ما جاء عن أنس بن مالك أنه قال :" كانت الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله ﷺ ويقولون بكلام لهم : محمد عبد صالح فقال ﷺ " ماذا يقولون ؟ فقيل : إنهم يقولون محمد عبد صالح (٣) .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة قالت جاء حبش يزفنون (٤) في يوم عيد في المسجد فدعاني النبي ﷺ فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي أنصرف عن النظر إليهم (٥).

ويعلق الشيخ عبد القادر عيسى على الحديث الأول فيذكر أنه دال على مشروعية الحركة وذلك لأنه ﷺ " لما رآهم في تلك الحالة لم ينكر عليهم ،

---

(١) حقائق عن التصوف : ص ١٥٧ .

(٢) د / سيد عبد الحليم : الشيخ محمد أبو خليل سيرة ومناقب : ص ٨٠ ، ط : ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م بدون دار طبع .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٣ ص ١٥٢ عن أنس بن مالك .

(٤) يزفنون بمعنى يرقصون فيقال : زفن زفنا رقص ، وهم زفانة حفّانة يرقصون ويجرفون الطعام انظر المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٤٢٠ .

(٥) صحيح مسلم : جـ ١ ص ٣٥٣ ، كتاب صلاة العيدين ، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد

والمعلوم أن الأحكام الشرعية تؤخذ من قوله ﷺ وفعله وتقريره ، فلما أقرهم على فعلهم ولم ينكر عليهم تبين أن هذا جائز .

وفي الحديث دليل على صحة الجمع بين الاهتزاز المباح ومدح رسول الله ﷺ ، وأن هذا الاهتزاز بالذكر لا يسمى رقصا محرما ، بل هو جائز لأنه ينشط الجسم للذكر ، ويساعد على حضور القلب مع الله تعالى إذا صحت النية ، فالأمور بمقاصدها ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى "(١) .

ومنها : ما جاء عن الإمام علي ﷺ في وصف أصحاب النبي ، فقد روي عنه أنه قال : " والله لقد رأيت أصحاب النبي ﷺ ... لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا ... قد باتوا لله سجدا وقياما ، يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا - أي تحركوا- كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبتل والله ثيابهم "(٢) .

وعن هذه الرواية يقول الشيخ عبد القادر عيسى : " ويهمنا من عبارة الإمام علي ﷺ قوله " مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، فإنك تجده صريحا في الاهتزاز ويبطل قول من يدعي أنه بدعة محرمة ، ويثبت الحركة في الذكر "(٣)

ويضاف إلى ما سبق إفتاء العلماء من الصوفية وغيرهم بجواز الحركة في الذكر ، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد عن أقوام يتمايلون ويتواجدون ؟ فقال : " دعوهم مع الله تعالى يفرحون ، فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم ومزق النصب فؤادهم ، وضاقوا ذرعا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم ولو ذقت عذرتهم "(٤) .

---

(١) حقائق عن التصوف : ص ١٥٧ .

(٢) حلية الأولياء : جـ ١ ص ٧٦ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه : ص ١٥٩ .

وقال بعضهم وقد سئل عن الحركة والتمايل :

ما في التواجد إن حققت من حرج
ولا التمايل إن أخلصت مـن باس
فقمت تسعى على رجل وحق لمن
دعاه مولاه أن يسعى على الراس [١]

الشبهة الثالثة : دعوى بدعية الاجتماع في الذكر وموقف الصوفية منها

من الدعاوى التي أثيرت حول الذكر ادعاء البعض بدعية الاجتماع للذكر وقد أجاب الصوفية عن هذه الدعوى فذكروا أنه مستحب يحبه الله ورسوله ، وأن أفضل العبادات " عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله ، ويجالسونه بذكرهم " [٢] .

وقد استدل الصوفية على مشروعية الاجتماع على الذكر بمجموعة من الأدلة :

منها ما رواه مسلم والترمذي مرفوعا " لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده " [٣] .

ومنها ما ذكره الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال :" إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله ﷻ تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا " [٤] .

ومنها : ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ قال : " ما من قوم

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الأنوار القدسية : ص ٣٠ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٧٣ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ، والترمذي في سننه : جـ ٥ ص ١٢٨ ، كتاب الدعاء ، باب ما جاء في فضل الذكر .

(٤) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ١١٤ ، كتاب الدعاء ، باب فضل ذكر الله ﷻ .

اجتمعوا يذكرون الله ﷻ لا يريدون بذلك إلا وجه الله ، إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات " (١) .

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " خرج علينا النبي ﷺ فقال : " يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة ، قالوا وأين رياض الجنة ؟ قال : " مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله " الحديث ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " (٢) (٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تفيد صراحة مشروعية الاجتماع للذكر ، ومنها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : " ما يجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده ، فقال : إنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة " (٤) (٥) .

ثانيا : أخطاء الذكر ومحاربة الصوفية لها :

وقعت من بعض الصوفية بعض الأخطاء المتعلقة بوسيلة الذكر منها :

١ – تشويه حلقات الذكر بالرقص وآلات الطرب .

شوه جماعة من الدخلاء الذين نسبوا إلى التصوف " جمال حلقات الأذكار بما أدخلوا عليها من بدع ضالة وأفعال منكرة ، تحرمها الشريعة الغراء كاستعمال

(١) مسند الإمام أحمد : جـ ٣ ص ١٤٢ عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ٤٩٤ – ٤٩٥ ، كتاب الدعاء والتهليل والذكر .

(٣) الأنوار القدسية : ص ٣٠ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٧٤ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر .

(٥) حقائق عن التصوف : ص ١٣٦ .

آلات الطرب ... والغناء الفاحش " [١] ، والرقص المضطرب [٢] .

ويذكر أهل التصوف الحق أن الذكر بما أدخله هؤلاء الدخلاء " لم يعد وسيلة عملية لتطهير القلب من أدرانه وصلته بالله بل صار لتسلية النفوس الغافلة وتحقيق الأغراض الدنيئة " [٣] .

وقد تصدى أهل التصوف لهذه الأخطاء وعالجوها ، وقد تميزت المعالجة الصوفية بالهدوء وعدم التسرع في الرفض ، وقد ظهر ذلك من خلال :

التفريق بين التمايل والحركة الاضطرارية والرقص المتعمد .

فرق الصوفية بين هذه الأنواع الثلاث :

فذكروا أن التمايل يمينا وشمالا " لأجل النشاط فهو جائز كما فعله أصحاب الرسول ﷺ وأتباعه أجمعين " [٤] .

كما ذكروا أن الحركة المضطربة التي تحدث للذاكر نتيجة لقوة الوارد وغلبة الحال لا تعد " رقصا ولا دبيبا بالقدم ... بل هو ضهر للروح ، والشخص الذي يسمي هذا رقصا يبعد كثيرا عن الصواب " [٥] .

وأما الرقص والترقيص وهو الارتفاع والانخفاض عمدا بذكر الله تعالى [٦] فقد ذكر الصوفية أن هذا الرقص ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الرقص الحرام .

وهو رقص " العوام بمحضر النساء والشبان ... ويلحق به : ما خلا من ذلك

---

(١) حقائق عن التصوف : ص ١٥٨ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٤٨ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٥٨ .

(٤) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٤٦٣ .

(٥) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦٥ .

(٦) الفتوحات الإلهية : ص ١٩٢ .

لكن قصد به التصنع والرياء وإظهار الحال والتظاهر بما ليس فيه حقيقة " [١]

وعن هذا النوع من الرقص يقول الهجويري : " وجملة القول أن الرقص قبيح شرعاً وعقلا ومحال أن يفعله أفضل الناس " [٢] .

ويقول أيضا : " اعلم أنه ليس للرقص أصل في الشريعة والطريقة ، لأنه باتفاق جميع العقلاء لهو حين يكون جدا ، ولغو حين يكون هزلا ، ولم يمدحه أحد من المشايخ " [٤] .

ويذكر ابن عجيبة أن هذا النوع " حرام لما يؤدي إليه من الفساد ، وما يهيج من الطباع الدينة والنفوس الشيطانية ... وليس هو طريق أهل الكمال بل الكمال السكون والوقار وخفض الصوت والاستماع فإنه أسلم لسوء الظن بمن يفعل ذلك وإن كان صادقا إذا لا سلامة من الخلق " [٥] .

ونأتي إلى أحد الصوفية المعاصرين وهو الشيخ محمد زكي إبراهيم فنجده لا يختلف مع ما ذكره الهجويري في القرن الخامس ، وابن عجيبة في القرن الثالث عشر الهجري فهو يقول صراحة " فأما استخدام الطبل والزمر والغناء فيما يسمي حلقات الذكر فليس من دين الله سواء عند أئمة الصوفية أو غير الصوفية ، وإنما هو من الدخيل والدسيس الذي تسلل إلى التصوف فأفسده وأساء إليه " [٦]
ويقول أيضا : " إن الرقص والطبل والزمر لا شك لهو ولعب فإذا اتخذناه دينا ، كان افتراءً على الله وهو تعالى يقول ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ [٧]

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦٥ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٦٦٣ – ٦٦٤ .

(٥) الفتوحات الإلهية : ص ١٩٢ بتصرف .

(٦) أبجدية التصوف : ص ٤٨ .

(٧) سورة الأنعام آية ٧٠ .

والله لا يأمر بترك شيء هو قربة إليه ، فإذا كرر الأمر كان معنى هذا أنه شيء يغضب به غضباً مضاعفا لما فيه من تعد عن حدوده تعالى وعلى حدوده ، يقول شاعر الصوفية :

يا عصبة ما ضر أمة أحمــد
وســعى على فسادها إلاّهــي
طار ، ومزمار ، ونغمة شادن
أتكون قط عبادة بملاهــي ؟ !

وإنما يعبد الله بما شرع وفيما شرع الله تعالى سعة وكفاية ، ومتعة روحية بغير حدود ، والعبادة جد كلها ، وهو تعالى يقول : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (١) ومن شاء لهوا مباحا ، فليبتعد به عن العبادة والتصوف " (٢) .

تحريم مشيخة الطرق الصوفية ذلك الرقص .

يذكر الشيخ محمد زكي إبراهيم في كتابه : أبجدية التصوف أن مشيخة الطرق الصوفية المعاصرة " أصدرت عدة منشورات ، تنهي فيها عن هذا العبث " (٣) ،

ويذكر أيضا أن بعضا من أصحاب الأهواء أصروا على المخالفة ووقفوا ضد التنفيذ الواقعي لهذه المنشورات (٤) .

الثاني : الرقص المباح .

النوع الثاني من الرقص كما يذكر ابن عجيبة هو الرقص المباح وهو الذي

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٧ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٤٨ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق نفسه .

يفعله " الصالحون وأهل السنة من غير وجد ولا تواجد وإنما يفعلونه راحة لنفوسهم وتنشيطا لقلوبهم بشرط الزمان والمكان والإخوان خاليا من حضور ما تقدم من النساء والشبان فهذا مباح إذ لا موجب للتحريم فيه إذ علة التحريم هو ما تقدم وهو خال من ذلك " (١) .

ويستدل ابن عجيبة على إباحة ذلك النوع من الرقص بما ثبت عن قيام جعفر بن أبي طالب بالرقص بين يدي رسول الله ﷺ حين قال له : " أشبهت خلقي وخلقي " (٢) .

وبما جاء في صحيح مسلم من رقص الأحباش في مسجد رسول الله فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " جاء حبيش من الحبشة يزفنون يوم عيد في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فوضعت كفي على منكبيه فجعلت أنظر إلى لعبهم " (٣) .

قال ابن عينيه والزفن الرقص ، فثبت أن الرقص في أصلة مباح ، ولو كان حراما لذاته ما فعل بين يدي رسول الله ﷺ " (٤)

الثالث : الرقص المطلوب " الحركة يمينا وشمالا "

وهو رقص الصوفية " أهل الذوق والحال ، إما وجدا أو تواجد ، وسواء

---

(١) الفتوحات الإلهية : ص ١٩٢ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البيهقي في سننه الكبرى : جـ ٨ ص ٥ ، كتاب : النفقات ، باب : الخالة أحق بالحضانة من العصبة ، جـ ١ ص ٢٢٦ ، كتاب : الشهادات ، باب : من رخص في الرقص إذا لم يكن فيه تكسر وتخنث عن علي ﷺ بلفظ : " أتينا رسول الله ﷺ أنا وجعفر وزيد فقال لزيد : أنت أخونا ومولانا فجعل فحجل ، وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي فحجل ، ثم قال لي أنت مني وأنا منك فحجلت وراء حجل جعفر " .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٣٥٣ ، كتاب : صلاة العيدين ، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد عن أم المؤمنين عائشة .

(٤) الفتوحات الإلهية ص : ١٩٢ .

كان ذلك في حضرة الذكر أو السماع ، ولا شك أن دواء القلوب من الغفلة وجمعها بالله مطلوب بأي وجه أمكن ما لم يكن بمحرم مجمع على تحريمه فلا دواء فيه .

وقال السيوطي : كيف ينكر الذكر قائما ، وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ﴾ [(١)] وإن انضاف إلى هذا القيام رقص ونحوه فلا إنكار عليهم ، وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن جماعة من أكابر الأئمة منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ... وقد تواتر النقل عن الصوفية قديما وحديثا شرقا وغربا أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله ويرقصون ، ولم يبلغنا عن أحد من العلماء المعتبرين أنه أنكر عليهم " [(٢)] .

وعليه ومن خلال ما سبق نجد .

١ - أن الصوفية رفضوا الرقص إذا اقترن بلهو وآلات طرب وكان الرقص بمحضر النساء وأعلنوا أن ذلك حرام لما يؤدي إليه من الفساد وما يهيج من الطباع الدنية والنفوس الشيطانية .

٢ - أن الصوفية حين يقولون بإباحة الرقص فإنهم يقصدون بذلك :

الأول : الحركة الاضطرارية التي تحدث للإنسان عند الفرح أو الوجد .

الثاني : التمايل يمينا وشمالا وهو الذي ثبت وجوده عند صحابة رسول الله ﷺ .

٣ - وفي النهاية نقول إن ما يفعله بعض الصوفية الآن من الذكر على أنغام الموسيقي وما يقترن به من اختلاط الرجال بالنساء حرام شرعا ومرفوض من أهل التصوف الحق .

---

(١) سورة آل عمران أية : ١٩١ .

(٢) الفتوحات الإلهية ص : ١٩٤ .

[٢] تحريف أسماء الله أثناء والذكر .

شوه جماعة من الدخلاء أيضا جمال الذكر وذلك " بتحريف الأذكار ونطقها نطقا غير صحيح وذلك كنطق " لا إله إلا إله " بـ " لا إيله إلا الله " أو بـ " لا يلها إلا الله " وكنطق لفظ الجلالة " آلله آلله " بمد الهمزة مع التفخيم الغليظ كصوت من في حلقه حجر ، وقصر الجلالة مع السكون وتارة يقولون " آله آله " ... (١) ، وقد تصدى أهل التصوف لهؤلاء وبذلوا جهودا عدة في مواجهة هذه الانحرافات تمثلت في :

[أ] ضبط الأذكار .

حتى لا يقع الذاكر في خطأ التحريف في أسماء الله أثناء الذكر بين أهل التصوف الحق كيفية النطق بالاسم المذكور .

ضبط الذكر بـ " لا إله إلا الله " .

ذكر أهل التصوف أنه لكي يكون الذكر بـ " لا إله إلا الله " ذكرا صحيحا بعيدا عن التحريف فإنه لابد وأن " يمد لام النفي بقدر الحاجة ، وتحقق الهمزة المكسورة ولا يمد عليها أصلا ، ويمد على اللام التي بعدها مدا طبيعيا ، وينطق بالهاء بعدها مفتوحة بغير مد بالكلية ، ثم ينطق بالهمزة من حرف الاستثناء مكسورة مخففة بغير مد أيضا ، ولا يمد على لام الألف بعدها مداً ثم ينطق بالجلالة فيمد على اللام ويقف على حرف الهاء بالسكون إن وقف ، وكذلك ينبغي اجتناب المد على حرف الهاء من " إله " فيتولد منه ألف وذلك تحريف للقرآن ، وكذا النطق بالهاء من الجلالة مضمومة ممدودة حتى ينشأ منها واو (٢) .

ضبط الذكر بلفظ الجلالة " الله " .

وأما ضبط لفظ الجلالة " الله " فقد ذكر أهل التصوف أنه يجب " على كل

---

(١) أعذب المسالك المحمودية : جـ ١ ص ٦٠٢ – ٦٠٣ ، وأبجدية التصوف : ص ٥٠ – ٥١ .

(٢) الأنوار القدسية للشعراني : ص ٢٤.

عاقل مصدق برسالة الرسول الأكرم أن يأتي به على الوجه الذي نطق به سيد الأولين والآخرين وأجمع عليه أكابر أئمة المسلمين الراشدين وضبطه فحول المحققين حذرا من تحريف الضالين " (١) .

وحاصل ما قاله المحققون في ضبط الاسم الشريف : " أنه يجب على الذاكر به أن يحقق الهمزة مع قصرها وترقيقها ، وتفخيم الجلالة ومدها مدا طبيعيا لا غير في حالة الوصل ، وأما في حالة التوقف فتجوز الزيادة إلى ست حركات ، وأما قصرها عن المد الطبيعي فلا يجوز مطلقا لا في حال الوصل ولا حالة الوقف ولا يُعَدُّ ذكرا ولا ثواب لفاعله بل عليه العقاب حيث حرف أسماء الله تعالى اختيارا ، ولا تنعقد به يمين ، وهو لحن مبين مخرج له عن الإسمية " (٢)

وهكذا بقية الأسماء ضبطها الصوفية وبينوا كيف يمكن نطقها نطقا صحيحا حتى لا يقع الذاكر في اللحن .

[ب] التحذير من اللحن في الذكر :

كما حذر الصوفية من اللحن في الذكر ، فذكروا أن اللحن في الذكر يبطله ، لأن ألفاظ الذكر ألفاظ قرآنية يجب نطقها كما جاءت في القرآن الكريم (٣) .

يقول الإمام الشعراني : " وليحذر الذاكر من اللحن في " لا إله إلا الله " فإنها من القرآن (٤) .

ويقول الشيخ محمد الغمري ٩٦٥ هـ : " لا يجوز إبدال الهمزة ياء لا في تلاوة القرآن ولا في الذكر اختيارا لأنها تصير " لا يله يلله " وهذا خلاف ما

---

(١) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٤٥٥ .

(٢) المراجع السابق : جـ ١ ص ٤٥٦ .

(٣) الأنوار القدسية : ص ٢٤ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

أنزل الله في كلامه الفصيح [١] .

[ج] اللحن في الذكر بدعه محرمة .

يضاف إلى ما سبق إعلان أهل التصوف الحق من أمثال الإمام القشيري ، والشيخ علي بن ميمون ٧١٩ هـ والشعراني ، والشيخ محمد الأسنوى ١٢٧٦ هـ ، ومن صوفية العصر الحديث الشيخ محمد زكي إبراهيم أن اللحن في الذكر بدعة محرمة ، وأن جميع أئمة التصوف أجمعوا " على أنه حرام موبق " [٢] ، وأنه من الإلحاد في أسمائه ، وينادي الإمام القشيري بعدم موافقة هؤلاء الذين يحرفون كلام الله أثناء الذكر فيقول : " اعرضوا عن أهل الإلحاد في دينه .... لا تسلكوا سبيلهم ولا توافقوهم على طريقهم وخالفوهم في مذاهبهم " [٣] .

ولم يكتف أهل التصوف بما سبق بل نادوا أيضا بتأديب من يلحن في الذكر وحكمـوا عليه بأنه يستحق " الطرد وشديد النكال من القوي المنتقم ذي الجلال " [٤] .

الأصل السادس : التزام الأوراد .

الالتزام بالأوراد أصل من أصول الرياضة في الطريق الصوفي ؛ والورد يطلق في اللغة ويراد به الوظيفة من قراءة ونحو ذلك من الصلاة ليلا أو نهاراً [٥]

والورد يطلق ويراد به في الطريق الصوفي مجموعة من الأذكار والعبادات يأمر الشيخ تلميذه بأدائها صباحاً ومساء ، ومن أفضلها ما دعا إليه كتاب الله

---

(١) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٤٥١ .

(٢) أبجدية التصوف : ص ٥٠ ، والأنوار القدسية : ص ٢٤ ، وأعذب المسالك : جـ ١ ص ٤٤٩ .

(٣) شرح أسماء الله الحسنى : ص ٥٩ – ٦٠ .

(٤) أعذب المسالك : جـ ١ ص ٤٧١ – ٤٧٢ ، وأبجدية التصوف : ص ٥٠ .

(٥) لسان العرب : جـ ٤ ص ٤٧٣ ، ومختار الصحاح : ص ٧١٦ .

وبينت السنة فضلها ومثوبتها كالاستغفار والصلاة على النبي وكلمة التوحيد (١)

وقد استدل الصوفية على مشروعية الأوراد بالقرآن والسنة ، وبما جاء عن السلف الصالح من التزامهم بأفعال معينة في أوقات معينة وهو ما أصطلح عليه العلماء بالأوراد .

أما القرآن : فقد طالب الحق سبحانه وتعالى في كثير من الآيات بالتسبيح والذكر في أوقات بعينها من ذلك قوله تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) (٣) .

أما السنة : فقد طالب النبي ﷺ بالتحميد والثناء على الله دبر كل صلاة فقال ﷺ : " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء (٤) (٥) .

وأقر النبي ﷺ مثل هذا الفعل ، فعن أنس قال : بينما رجل يقرأ سورة الكهف إذ رأى دابته تركض ، فنظر فإذا مثل الغمامة أو السحابة ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك فقال له ﷺ :" هي السكينة نزلت للقرآن أو تنزلت على القرآن (٦) (٧)

وبالرغم من نص الصوفية على أن الالتزام بما ورد عنه ﷺ أفضل من

---

(١) حقائق عن التصوف : ص ١٨٧ ، وأصول الوصول : جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) سورة الطور آية ٤٨ – ٤٩ .

(٣) قوت القلوب : جـ ١ ص ٢٢ ، والإحياء : جـ ١ ص ٥١١ .

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ٢٣٠ ، كتاب : الصلاة عن فضالة بن عبيد الأنصاري ، وقال حديث على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه .

(٥) أصول الوصول : جـ ١ ص ٨٠ .

(٦) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٢ ص ٨١ عن أسيد بن حضير ، والبخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ٢٣٠ كتاب : فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن

(٧) أصول الوصول : جـ ١ ص ٨٧ .

غيره ، فإنهم ذكروا أن النبي ﷺ أباح للناس أن يدعوا الله بما شاءوا من الأدعية من ذلك :

ما جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : " التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : إذا صلى أحدكم فليقل التحيات لله " الخ " ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو " (١) ، ولم يشترط واردا ولا غيره " (٢) .

ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال سمع النبي ﷺ رجلا يقول : " اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فقال رسول الله ﷺ لقد سأل الله باسمه الأعظم والذي إذا سئل به أعطي ، وإذا دعي به أجاب (٣) .

وعن هذا الحديث يقول الشيخ محمد زكي إبراهيم : " ففي الحديث والأحاديث التي قدمنا أمور :

الأول : أن النبي ﷺ سمع بأذنه من يدعو بغير المأثور عنه ، ثم لم ينكر عليه لا تصريحا ولا تلويحا لا بالعبارة ولا بالإشارة ، فالإنكار على ذلك اليوم بدعه مستقبحة .

الثاني : أن النبي ﷺ أقر هذا الاجتهاد في الدعاء وحبذه بثنائه وكافأ عليه وبذلك ندب أو أباح على الأقل الاجتهاد في الدعاء بنجو الأجزاب والأوراد ، وجعله سنة إقرارية ، أخذ بها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم .

الثالث : أنه بناء على ذلك يجوز لمن يستطيع ومن لم يستطع التعبد بالمأثور أن يتعبد بغير المأثور من أوراد وأحزب (٤) .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٥١ ، كتاب : الصلاة ، باب : ما يتخير من الدعاء بعد التشهد .

(٢) أصول الوصول : جـ ١ ص ٨٠ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٤٤٦ ، كتاب : الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم .

(٤) أصول الوصول : جـ ١ ص ٨٤ .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد اعتمد الصوفية في الدعوة إلى الالتزام بالأوراد على ما جاء عن الصحابة وعن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين من ذلك :

ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : " جزأت الليل ثلاثة أجزاء ، ثلثا أصلي وثلثا أنام وثلثا أستذكر فيه حديث رسول الله ﷺ " (١) .

وروي عن التابعين أن منهم من كان ورده في كل يوم ثلثمائة ركعة أو أربعمائة ركعة وكان منهم من كان ورده ستمائة ركعة إلى ألف ركعة (٢) .

وروي أن كرز بن وبرة كان يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين " (٣) .

وانطلاقا من هذا كله نادي الصوفية أتباعهم ومريديهم إلى الالتزام بالأوراد الشرعية ، ونادوا أيضا بالإكثار منها وعدم الاقتصار على العدد المذكور وعللوا ذلك بأن " قلب السالك في ابتداء سيره كالطفل الصغير ، فكما أن الطفل كلما كبر زيدت له كمية الغذاء ، كذلك كلما كبر المريد في سيره إلى الله تعالى زاد ذكره لله لأن الذكر غذاء القلب وحياة له " (٤) .

ولم يكتف الصوفية بذلك بل نادوا أيضا بعدم ترك الأوراد بحجة كثرة الأعمال . أو لعدم حضور القلب ، يقول ابن عطاء الله السكندري : " إحالتك الأعمال على وجود الفراغ رعونة النفس " (٥) .

ويقول أيضا : " لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود الذكر أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع

---

(١) اللمع للطوسي : ص ١٨٨ .

(٢) قوت القلوب : جـ ١ ص ٨٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) حقائق عن التصوف : ص ١٩٠ .

(٥) ابن عطاء الله السكندري : الحكم ص ١٠٨ ، تحقيق : أحمد عز الدين عبد الله خلف ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط بدون تاريخ .

وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز "(١) .

ونادي الصوفية أيضا بعدم ترك الورد بدعوى بلوغ صاحبه مراتب الكمال بل ضربوا المثل في الالتزام فقد روي أن رجلا رأى الجنيد وفي يده سبحه ، فقال له أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة ؟ فقال : " نعم سبب وصلنا إلى ما وصلنا فلا نتركه أبدا " (٢) .

وأخيرا فإن الصوفية نادوا أيضا بقضاء المريد ورده إذا فاته لسبب من الأسباب ، واستدلوا على ذلك بما جاء عن النبي ﷺ من أنه قال " من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل (٣) (٤) .

والصوفية في الدعوة إلى الالتزام بالأوراد يهدفون إلى مجموعة من الأهداف منها " تصفية النفس من أخلاقها المذمومة استعداداً لتلقي الواردات والمنح (٥) ، والسعادة في الدنيا والقرب من الله وحرز الشرف حين العرض على رب العباد في الآخرة وما أسماه من هدف (٦) .

أخطاء الأوراد وتصحيح الصوفية لها :

من وسائل الرياضة الأوراد ، وهي إما منصوص عليها كالتسبيح والتحميد

---

(١) المرجع السابق : ص ١١٤ .

(٢) الرسالة : ص ٤٣١ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٣٠٠ ، كتاب ، المساجد ومواضع الصلاة باب : جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض .

(٤) حقائق عن التصوف : ص ١٩٢ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٥ ص ٢٦٢ .

(٦) قوت القلوب : جـ ١ ص ١٥٦ ، وأعذب المسالك : جـ ٢ ص ٣٧٥ .

والذكر والصلاة على النبي وقراءة القرآن ، وكلمة التوحيد ، أو من وضع الصوفية واجتهادتهم (١) .

وقد استغل البعض قول الصوفية بجواز استحداث أوراد لم يكن منصوص عليها وقاموا بوضع بعضا من الأوراد " كانت أقرب إلى الطلسمات منها إلى الدعاء ... وأكثروا فيها من الحروف والكلمات التي تشبه أوائل السور ، كما بالغوا بإلزام المريدين بها " (٢) .

وقد تصدى أهل التصوف الحق لهؤلاء وأعلنوا رفضهم لما أحدثوه من أوراد غير مفهومة كما أعلنوا " أن المبالغة في إلزام المريدين بالأوراد وجعلها شريعة صوفية يهتمون بها ويحفظونها أكثر من حفظهم للمأثور أمر يخالف الشرع والذوق .... ويضاف إلى ذلك أن التكرار المستمر للورد يفقده القيمة التربوية للنفس إذا تعتاده وترِدده بلا شعور يقظ ولا تأثر ولا استفادة (٣) .

وقد اعتمد الصوفية في رفض ذلك الفعل على مجموعة من الأمور منها :

١ - مخالفة ذلك لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعنه يقول المكي : " ومما أحدثوا السجع في الدعاء والتغريب فيه ولم يرد به الكتاب ولا نقل عن رسول الله ﷺ ... وروينا عن رسول الله ﷺ " إياكم والسجع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل (٤) (٥) .

---

(١) قوت القلوب : جـ ١ ص ٢٢ - ٢٢٣ ، والإحياء : جـ ١ ص ٥١١ ، وحقائق عن التصوف : ص ١٨٧ ، وأصول : جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) الحديث ذكره الزبيدي في الإتحاف : جـ ١ ص ٢٤٧ ، وذكر الزبيدي أيضا أن النبي ﷺ حذر ابن رواحة منه فقال له : " إياك والسجع يا ابن رواحة الإتحاف : جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٥) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٣٧ .

٢ – مخالفة ذلك لما جاء عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين فلم ينقل عنهم ذلك ، بل كانوا ينهون عن الاعتداء في الدعاء ويتجنبون مجاوزة ما أخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة [١]

ومما يدل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يدعو بدعاء يغّمق فيه فقال : " يا بنيّ إياك والحديث والاعتداء في الدعاء " [٢] .

٣ – مخالفة ذلك لما أجمع عليه مشايخ الصوفية الكبار فقد ثبت أنهم كانوا ينهون عن ذلك ويدل عليه ما ذكره المكي فقال : " مر بعض السلف بقاص يدعو ويسجع في دعائه ويتعمق فقال له ويلك على الله تبالغ ! أشهد لقد رأيت حبيباً العجمي [٣] يدعو وما يزيد على قوله : " اللهم اجعلنا جيدين ، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة وفقنا للخير ، قال والناس يبكون من كل ناحية وكنا نتعرف إجابة دعائه وبركته ، وكان أبو يزيد البسطامي يقول سلْه بلسان الحكمة ، وقال الحسن ادع بلسان الاستكانة والافتقار لا بالفصاحة والانطلاق " [٤]

الأصل السابع : السفر .

السفر واحد من أصول الرياضة في الطريق الصوفي ، وهو في اللغة يعني الانتقال من مكان إلى آخر [٥] .

والسفر في الطريق الصوفي سفران : سفر البدن ، وسفر القلب .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) أبو محمد وقيل أبو مسلم حبيب بن عيسى بن محمد العجمي الفارسي أصلا البصري سكنا ، مات سنة ١١٩ هـ ، طبقات الأولياء لابن الملقن : ص ١٤٨ .

(٤) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٥) لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٣ .

وسفر البدن يطلق ويراد به الانتقال من بقعة إلى أخرى للاعتبار وترويض النفس [١] .

أما سفر القلب فهو عبارة عن توجه القلب والانتقال من صفة إلى صفة [٢]

والسفر من أجل الاعتبار دعا إليه الحق سبحانه وتعالى ، ودعا إليه المصطفى ﷺ :

فقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [٤] ، وقال ﷺ مبينا فضل السفر من أجل طلب العلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة " [٥] .

وانطلاقا من دعوة الحق سبحانه وتعالى ودعوة النبي ﷺ إلى السفر طلبا للعبرة والعلم علت أصوات الصوفية بالدعوة إليه :

فقد أوصى محمد الكتاني ٣٢٢ هـ بعض الفقراء فقال له : " اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، وأن لا تموت إلا بين منزلين " [٦] .

وبين الصوفية أن العلة من الدعوة إلى السفر ترويض النفس وتهذيبها ، وأن " يعيشوا مع الله ﷻ بلا علاقة ولا واسطة " [٧] ، وهو أسمي غايات السلوك والذي من أجله نادى الصوفية بالسفر .

---

(١) الرسالة : ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، واصطلاحات الصوفية : ص ١١٠ .

(٣) سورة الأنعام آية ١١ .

(٤) سورة النمل آية ٦٩ .

(٥) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٦ ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم .

(٦) الرسالة : ص ٢٩٠ .

(٧) المرجع السابق : ص ٢٩١ ، وعوارف المعارف : ص ٨٧ - ٩٠ .

أخطاء السفر وتصحيح الصوفية لها :

السفر أو السياحة وسيلة من وسائل رياضة النفس ، ويهدف الصوفية منها النظر والاعتبار ، وتخليص النفس من الأوصاف المذمومة ، ولقاء المشايخ للتعلم والتأدب [١] وفي ذلك يقول الشيخ أبو إسحاق إبراهيم النازي :

زيـــارة أربـــاب التقـــى مرهـــم
ومفتاح أبواب الهدايـــة والخـــير

فزر وتأدب بعـــد تصـــحيح نيـــة
تأدب مملوك مع المالك الحر [٢]

وقد اخطأ بعض الصوفية فهم المقصود من هذه الوسيلة ، فيذكر الطوسي أن طبقة أخرى من الغالطين سافروا وساحوا ولاقوا المشايخ ، وبدلا من أن تهذب السياحة نفوسهم إذ بهم يتطاولون على أبناء الطريق مدعين أنهم لقوا مالا يلقى قرناؤهم ، ونظروا إلى مالا ينظر جلساؤهم ، وعدوا أنفسهم مستقلين [٣] .

وقد خطأ الطوسي هؤلاء وأعلن أنهم غلطوا وأنهم لم يفهموا الغاية من السفر والسياحة ولقاء المشايخ ، ذاكرا أن الغاية من ذلك تبديل الأخلاق المذمومة بأخرى محمودة ، والتأدب بآداب المشايخ والأخذ عنهم والائتمار بأمرهم وليس الغرض منها التطاول على العامة والافتخار عليهم [٤]

---

(١) الرسالة : ص ٢٩٠ ، وعوارف المعارف : ص ٨٧ – ٨٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٥٢٥ .

(٤) المرجع السابق : ص ٥٢٦ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٠ – ١٨١ .

الأصل الثامن : لزوم الشيخ المربي [١] .

الأصل التاسع : الخدمة .

الخدمة هي الأصل التاسع من أصول الرياضة في الطريق الصوفي وهي تأتي في اللغة بمعنى القيام بحاجة الغير فيقال : " خدمه خدمة قام بحاجته فهو خادم وهي خادمة [٢] .

والخدمة نوعان : خدمة المشايخ ، وخدمة الإخوان وهي إعانتهم على ما يعرض لهم من أمور دينية أو دنياوية بما يقدر عليه من نفس ومال وجاه [٣]

والخدمة في الطريق الصوفي من الأهمية بمكان ويكفي دليلا على مشروعيتها ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ أتى بطعام وهو بمر الظهران فقال : لأبي بكر وعمر : كلا ، فقالا : إنا صائمان ، فقال : ارحلا لصاحبيكما اعملا لصاحبيكما أدنوا فكلا " [٤] .

ويعلق السهروردي على هذا الحديث فيقول : " يعنى أنكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدمكما فكلا واخدما أنفسكما " [٥] .

وقد استدل المقدسي ٥٠٧ هـ بهذا الحديث على أن خدمة الرجل لنفسه ولأصحابه أفضل من صوم النافلة [٦] .

---

(١) سوف يتحدث الباحث عن ذلك وبصورة مفصلة في الفصل الثاني من الباب الرابع .

(٢) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٢٤٤ ، ومختار الصحاح : ص ١٧١ .

(٣) الفتوحات الإلهية : ص ١٧٤ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٢ ص ٣٣٦ عن أبي هريرة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ٤٣٣ ، كتاب : الصوم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخان ولم يخرجاه .

(٥) عوارف المعارف : ص ٧٧ .

(٦) صفوة التصوف : ص ٢١٧ .

وجاء عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزل منزلا في يوم حار شديد الحر ، فمنا من يتق الشمس بيده وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ﷺ : " ذهب المفطرون اليوم بالأجر (١) (٢)

ويهدف الصوفية من الخدمة مجموعة من الأهداف التربوية السامية ، كاختبار المريد وامتحانه " وتمحيص قصده والتأكد من حسن نيته وسلامة صدره (٣) وإعانة الإخوان المشتغلين بالعبادة والاحتفاظ بها " عن البطالة التي تميت القلوب " (٤) ، وتخليص النفس من الأخلاق الذميمة وإكسابها الأوصاف الجملية والأحوال الحسنة والأخلاق الحميدة (٥) .

ويضاف إلى ما سبق حصول البركة للخادم بخدمة الأولياء ، وتعوده ببركتها طاعة رب العالمين والوصول إليه ، فقد قال أحمد بن أبي ورد ٢٦٣ هـ : " وصل القوم بخمس : بلزوم الباب وترك الخلاف والنفاد في الخدمة والصبر على المصائب وصيانة الكرامات " (٦) .

وعليه ومن خلال ما سبق نجد أن الصوفية سلكوا وسائل عدة لمجاهدة النفس ورياضتها وحرصوا أن تكون هذه الوسائل شرعية ، حتى تحقق أهدافها المرجوة منها ، كما قاموا بمحاربة الانحرافات المتعلقة بالمجاهدة والرياضة .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٤٥٤ ، كتاب : الصيام ، باب : أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل .

(٢) عوارف المعارف : ص ٧٧ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٥ ص ٤٧ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٨٣ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) طبقات الأولياء لابن الملقن : ص ٤٩ .

شبه حول الرياضة وتفنيد الصوفية لها .

أثيرت حول الرياضة بعض الشبه وقد تصدي الصوفية لها وقاموا بتفنيدها من هذه الشبه :

[١] الادعاء بأن الرياضة تحريم لما أحله الله .

ادعى البعض أن رجال التصوف يحرمون ما أحل الله تعالى من اللذائذ والمتع وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) (٣) .

وقد أجاب الشيخ عبد القادر عيسى عن هذه الشبهة فذكر :

أولا : أن رجال التصوف لم يريدوا بالامتناع عن الطيبات تحريم ما أحل الله إذ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله تعالى ، ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرض عين ، وأن للنفس أخلاقاً سيئة وتعلقات شهوانية توصل صاحبها إلى الردي وتعوقه عن الترقي في مدارج الكمال ، وجدوا لزاما عليهم أن يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى بحرمانها مما أحله الله لها .

ثانيا : أن حرمان النفس من المباحات لا يقصد به حرمانها على الإطلاق حتى مما لابد منه لصلاح النفس والبدن ، لأن رفض ذلك رد على الله أمره وحكمه (٤) .

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٧ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٠٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

[٢] الادعاء بتأثر الصوفية في الرياضة بالبوذية والبراهمية والنصرانية

ومن الدعاوى أيضا ادعاء البعض " أن التصوف في مجاهداته ينحدر من أصل بوذي (١) ، أو براهمي (٢) ، ويلتقي مع الانحرافات الدينية في النصرانية وغيرها التي تعتبر تعذيب الجسد طريقا إلى إشراق الروح وانطلاقها " (٣) .

وقد أجاب الشيخ عبد القادر عيسى عن هذه الشبهة أيضاً فذكر :

أولا : أن التصوف لم يكن في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا دينا جديدا ، ولكنه تطبيق لدين الله واقتداء كامل برسول الله ﷺ .

ثانياً : أن هذه الشبهة سرت على هؤلاء المتسرعين لأنهم وجدوا في التصوف اهتماماً بتزكية النفس وتربيتها وتصعيدها ومجاهدتها على أسس شرعية وضمن نطاق الدين الحنيف ، فقاسوا تلك الانحرافات الدينية على التصوف قياساً أعمي دون تمحيص أو تمييز ، ففرق كبير إذا بين المجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله تعالى ، وبين المغالاة والانحراف وتحريم الحلال وتعذيب الجسد كما عليه البوذيون الكافرون والبراهمية والنصرانية .

ثالثا : أنه إذا وجد في تاريخ التصوف من حرم الحلال أو قام بتعذيب الجسد على غرار الانحرافات الدينية في البوذية أو البراهمية فهو مبتدع ومبتعد عن طريق التصوف ، ولذا ينبغي التفريق بين التصوف والصوفي ، فليس الصوفي بانحرافه ممثلا للتصوف ، كما أن المسلم بانحرافه لا يمثل الإسلام (٤)

---

(١) البوذية تنسب إلى " جوتاما بوذا " الذي ولد عام ٥٦٠ ق . م ، وتوفي في عام ٤٨٠ ق . م ، ومن أهم مبادئها الدعوة إلى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا الزائلة ، انظر الأديان الوثنية القديمة للدكتور أحمد عجيبة : ص ١١٠ – ١١٢ ، ط ١٤١٢ هـ – ٢٠٠١ م ، بدون دار طبع

(٢) البراهمية أو البرهمانية تنسب إلى " براهمان " وقد ظهرت هذه الديانة فيما بين سنتي ٨٠٠ – ٦٠٠ ق . م " ومن أهم مبادئها : القول بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح ، والقول بحلول روح الإله في الإنسان ، انظر الأديان الوثنية القديمة : ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ١٠٩ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٠٩ – ١١١ .

المبحث الرابع

مشاعر النفس الوجدانية وموقف الصوفية منها

تمهيد :

تعيش نفس الصوفي حالة روحية إذا أثارها باعث روحي أو وارد حق هذه الحالة يسميها الصوفية بالوَجْد ، ويطلق عليها أستاذنا د / عبد الله الشاذلي " لانفعال الروحي للنفس " هذه الحالة طالها بعض الانحرافات كمحاولات البعض ادعائها ، كما أثير حول بعض العوامل المؤدية إليها وهو السماع ، وحول بعض النتائج المترتبة عليها وهو الشطح بعض الشبه والتساؤلات ، وقد حاول الصوفية من أهل السنة والجماعة تصحيح هذه الانحرافات والإجابة عن هذه الشبه ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه من خلال النقاط التالية :

أولا : ادعاء الوَجْد والتواجد وموقف الصوفية منهما .

الوَجْد في اللغة : يطلق ويراد به معاني متعددة منها حصول المطلوب ونشيء ، والغنى ، والغضب ، والحب والحزن والواجد من أسماء الله تعالى (١)

والوَجْد في الاصطلاح الصوفي : ذكر الطوسي أن الصوفية اختلفوا حول ما هو (٢) ؟ ويمكن لنا من خلال قراءة ما كتبه الصوفية حول تعريفه أن نقول :

( ) تاج العروس : جـ ٢ ص ٥٢٣ – ٥٢٥ ، ومختار الصحاح : ص ٧٠٩ – ٧١٠ ، والمعجم الوسيط : جـ ٢ ص ١٠٢٤ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٣٧٥ ، هذا وقد ذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن الصوفية سلكوا في تعريف الوجد مسالك ثلاثة :

الأول : تعريف الوجد بسببه : ومن ذلك تعريف عمرو بن عثمان المكي حين قال : " لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنها سر الله تعالى عند المؤمنين " اللمع للطوسي : ص ٣٧٥ .

الثاني : تعريف الوجد بالآثار المترتبة عليه ، ومن ذلك ما عرفه به الإمام الجنيد فقال : " الوجد : هو المصادفة بقوله عز وجل : " ووجدوا ما عملوا حاضرا " سورة الكهف آية ١٤٩ " وعرفه =

إن الوجد حالة شعورية يعيشها الصوفي عند ورود وارد قوي يزعج قلبه فيحدث ذلك الوارد في الواجد مجموعة من الأشياء كالبكاء ، والوجل ، والحزن ، والخوف ، والصعق ، والزفير والشهيق ، والغشية ، والصراخ والصيحة (١) ، ومع أن هذه الأمور أمور مباحة لوجود ما يدل عليها من القرآن والسنة وفعل السلف الصالح رضي الله عنهم :

فمن القرآن : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) .

وأما السنة : فمنها ما جاء عنه ﷺ من بكائه ﷺ وحزنه وخوفه عند قراءة آيات من كتاب الله تعالى من ذلك : قوله ﷺ " شيبتني هود والواقعة " (٤) . والشيب يحصل من الحزن والخوف وهما من آثار الوَجْد .

وروي أن ابن مسعود ﷺ قرأ على رسول الله ﷺ سورة النساء فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء

- الكلاباذي فقال : " الوجد : هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بين العبد وبين الله عز وجل " انظر اللمع للطوسي : ص ٣٧٥ ، والتعرف : ص ١٣٢ ، والرسالة : ص ٦٢ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦١ .

الثالث : التعريف بالسبب والآثار . وهو ما عرفه به ذو النون المصري فقال : " الوجد : وارد قوي يزعج القلب ، فمن أصغى له بحق تحقق ومن أصغى له بنفس تزندق " انظر كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٥٣ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٥٤ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٣٢ – ١٣٤ .

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٧٧ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦١ – ٦٦٢ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦١ – ٤٦٢ ، وعوارف المعارف : ص ١٠٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٣ .

(٣) سورة الأنفال آية ٢ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في سننه : جـ ٥ ص ٧٦ ، كتاب : التفسير ، باب : تفسير سورة الواقعة عن ابن عباس وقال هذا حديث حسن غريب .

شَهِيدًا ﴾ (١) قال " حسبك " وكانت عيناه تذرفان بالدموع (٢) .

وروي الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ " تلا قول الله ﷻ في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (٣) الآية ، وقول عيسي ﷺ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكي ، فقال الله ﷻ يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل ﷺ فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (٥) .

وكذلك روي عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا قرأوا القرآن بكوا أو غشي عليهم ، من ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه سمع رجلا يقرأ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ (٦) فصاح صيحة وخر مغشيا عليه (٧) .

وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ : ﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٨) فغشي عليه (٩) .

---

(١) سورة النساء آية ٤١ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ١١٩ ، كتاب : التفسير ، باب : تفسير سورة النساء .

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٦ .

(٤) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٥) صحيح مسلم : جـ ١ ص ١٠٧ كتاب الإيمان ، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم .

(٦) سورة الطور آية ٧ ، ٨ .

(٧) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٢ .

(٨) سورة المرسلات آية ٣٥ - ٣٦ .

(٩) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٤ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٢ .

بالرغم من هذا كله فقد استغل بعض الأدعياء وقوع بعض هذه الأشياء من أهل التصوف الحق فراحوا يدعونها رياءاً ونفاقاً ، وهو الأمر الذي تنبه له أهل التصوف الحق وتصدوا له وقاموا بجهود عدة في مواجهته منها :

[١] رفض ادعاء الوَجْد والتواجد .

رفض أهل التصوف ادعاء الوجد والتواجد وذهبوا إلى أن مثل هذا الفعل " تصنع وليس بحق " (١) ، وأنه من فعل الشيطان كما ذكر الحسن البصري حين بكي رجل في مجلسه وارتفع صوته بالبكاء فقال : " إن الشيطان ليبكي هذا الآن " (٢)

وذكر القشيري والهجويري ومن بعدهما الغزالي أنه حرام محض (٣)

ولم يكتف الصوفية بمجرد إعلان الرفض بل طبقوا ذلك وبصورة عملية حين قام مشايخ الصوفية يوجهون أتباعهم ومريدهم إلى خطورة مثل هذا الصنيع ، فالفضيل بن عياض ١٨٧ هـ يقول : " لابنه وقد سقط يا بني إن كنت صادقا لقد فضحت نفسك وإن كنت كاذبا فقد أهلكت نفسك (٤) .

ونفس الشيء يفعله سعيد بن عثمان الحيري ٢٩٨ هـ مع أحد أتباعه وإن كانت عبارته أشد من عبارة الفضيل وذلك لأنه حكم على المدعي بالإشراك فقال له : " يا بني إن كنت صادقاً فقد أظهرت كتمانه ، وإن كنت كاذبا فقد أشركت " (٥)

ولم يقف الأمر عند التحذير بل وصل في بعض الأحيان إلى التهديد بالطرد : فقد حكي أن شابا كان يصحب الجنيد ٢٩٧ هـ " فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما إن فعلت ذلك لم تصحبني ، فكان بعد ذلك

---

(١) تلبيس إبليس : ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الرسالة : ص ٦١ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦٣ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٠ .

(٤) تلبيس إبليس : ص ٢٥٧ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٣٨٠ .

يضبط نفسه [١].

ويرجع رفض الصوفية لهذه الظاهرة إلى مجموعة من الأمور منها :

الأول : رفض النبي ﷺ مثل هذا الفعل ، فعن أنس قال : وعظنا رسول الله ﷺ يوما فإذا رجل قد صعق فقال النبي ﷺ : " من ذا الملبس علينا ديننا إن كان صادقاً فقد شهر نفسه ، وإن كان كاذبا فمحقه الله " [٢] [٣] .

الثاني : أنه يؤدي إلى ذنوب كثيرة نص السهروردي عليها في " عوارف المعارف " : منها أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له ، والكذب على الله من أقبح الزلات .

ومنها : أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن والإغرار خيانة ، قال عليه السلام : " من غشنا فليس منا " [٤] .

ومنها : أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه ، فيفسد عقيدته في غيره ممن يظن به الخير من أمثاله فيكون سببا إلى فساد العقيدة في أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته فينقطع عنه مدد الصالحين .

ومنها: أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته في قيامه وقعوده فيكون متكلفا مكلفا للناس بباطله [٥] ، إلى غير ذلك من الذنوب التي يؤدي إليها ادعاء الوجد

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٥٨ ، والرسالة : ص ٣٤٥ ، وكشف المحجوب جـ ٢ ص ٦٥٦ .

(٢) الحديث ذكره ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال : جـ ٥ ص ١٩٨٥ ، وقال : حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الخالق ، ثنا عبد الوهاب الوارق ، عبد المتعال بن طالب ، ويوسف بن عطية ، وعن ثابت عن أنس قال : " وعظ النبي " الحديث ، ثم قال ولعبد المتعال أحاديث ولم أرها إلا مستقيمة والبلاء في هذا الحديث من يوسف بن عطية لا منه .

(٣) آداب المريدين : ص ١٠٥ ، وتلبيس إبليس : ص ٢٥٤ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ١ ص ٥٥ ، كتاب : الإيمان ، باب : قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا ، والحاكم في المستدرك : جـ ٢ ص ٩ كتاب : البيوع

(٥) عوارف المعارف : ص ١١٩ ، وآداب المريدين : ص ١٠٥ – ١٠٦ .

والتواجد والتي أدت إلى رفض الصوفية لهذه الظاهرة .

[٢] العمل على كتم الوجد .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد عمل مشايخ الصوفية على كتم الوجد وعدم إظهاره وذلك مخافة أن تدعوهم نفوسهم إلى محبة إطلاع الناس عليهم ، وحتى لا يستغل الشيطان ذلك المدخل فيدخل إليهم منه ، ومما يدل على ذلك : ما جاء عن أيوب السختياني أنه كان " إذا تحدث فرق قلبه مسح أنفه وقال ما أشد الزكام " (١)

ومع دعوة الصوفية إلى كتم الوجد وقيامهم بذلك عمليا ، فقد ذكروا ووافقهم في ذلك ابن الجوزي أنه إذا غلب الوجد على الواجد ولم يقدر على دفعه ولم يدر ما يجرى عليه بأن هذا يكون " من جنس قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ موسَى صَعِقًا ﴾ (٢) (٣) .

واستدل ابن الجوزي على ذلك بما جاء عن عبد الله بن وهب بأنه قرئ عليه كتاب أهوال القيامة فخر مغشيا عليه فلم يتكلم بكلمة واحدة حتى مات بعد أيام (٤) ، وعلق ابن الجوزي على هذه الرواية قائلا : " وقد مات خلق كثير من سماع الموعظة وغشي عليهم " (٥) .

[٣] رفض المخالفات الشرعية .

أعلن أهل التصوف الحق من أمثال الطوسي ، والهجويري ، والغزالي ، والسهروردي صاحب العوارف ، وعماد الدين الأموي أن ما يحدث من تمزيق

---

(١) تلبيس إبليس : ص ٢٥٨ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٣) تلبيس إبليس : ص ٢٥٩ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) المرجع السابق نفسه .

بعض الصوفية ثيابهم أثناء الوجد عمل " يمنعه الشرع " [١] ، ولا أصل له في الطريقة ولا يجوز عمله البتة " في حالة الصحة لأن ذلك لا يكون إلا إسرافا "[٢] و" إتلافا للمال وإنفاق المحال ، [٣] ، وأنه لا رخصة فيه " إلا عند خروج الأمر عن الاختيار .... فهذا لا يوصف بالتحريم [٤] .

ومما يدل على ذلك ما ذكره الطوسي في اللمع فقال : " سئل إبراهيم المارستاني رحمه الله عن الحركة عند السماع وتخريق الثياب ، فقال بلغني أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فمزق واحد قميصه .... فأوحى الله تعالى إلى موسى قل له : مزق لي قلبك ولا تمزق ثيابك " [٥] .

والملفت للنظر أن ابن الجوزي استشهد هو أيضا بهذا النص على رفض مثل هذا الفعل ، وهو ما يؤكد اتفاق أهل التصوف الحق مع أصحاب الاتجاه السلفي في رفض كل ما يحدث من مخالفات شرعية بدعوى الوجد والتواجد مع احتفاظ الصوفية بالأسبقية في الرفض [٦] .

ثانيا : شبه وأخطاء السماع وموقف الصوفية منها :

السماع يطلق ويراد به في اللغة إحساس الأذن بالأصوات ، والطاعة والانقياد ، والغناء ، أو ما يصل إلى السمع كالموسيقي والإنصات إليها [٧] .

والسماع يطلق ويراد به في الطريق الصوفي " سماع القرآن والأحاديث

---

(١) حياة القلوب : ص ٢٢٧ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦٦ ، وآداب المريدين : ص ١١١ – ١١٢ .

(٣) عوارف المعارف : ص ١١٩ .

(٤) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٢٤٧ ، والرسالة : ص ٣٤٤ .

(٦) تلبيس إبليس : ص ٢٤٦ .

(٧) لسان العرب : جـ ١ ص ٢٦ – ٣٢ ، ومختار الصحاح : ص ٣١٤ .

والأشعار الدينية التي تدعو إلى القيام بواجبات الشرع ونواهيه والتذكر الدائم بالوعد والوعيد (١) ، وإلى إثارة النفس سواء ما كان منها بلحن أو بغير لحن . وقد أثيرت حوله بعض الشبه منذ وقت مبكر وما تزال تثار إلى الآن منها :

الشبهة الأولى : عدم شرعية السماع .

من الشبه التي أثيرت حول السماع شبهة عدم شرعيته وخاصة ما يسمى بالغناء وهو الشعر المؤدي بالألحان فقد اتهم الصوفية بأنهم أضافوا هذا النوع إلى " موضوع الذكر وعدوه من صميم العبادات والطقوس المعتبرة في الشريعة الصوفية (٢) .

موقف الصوفية من دعوى عدم شرعية السماع

قلنا إن السماع يطلق ويراد به عند الصوفية سماع القرآن والحديث وسماع الشعر ، وسماع الشعر بالألحان وهو ما يسمي بالغناء ، وقد تحدث الصوفية عن موقفهم من هذه الأنواع :

أولا : سماع القرآن والأحاديث .

لا خلاف بين المسلمين صوفية وغير صوفية في أن سماع القرآن والأحاديث مشروع ، فالهجويري في كشف المحجوب يذكر أن " جميع أهل الإسلام من مطيع وعاص مأمورون بالاستماع إلى القرآن " (٣) .

وقد أكد هذا الكلام السهروردي حين أشار إلى أن هذا السماع هو السماع الحق الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان ، وبأنه محكوم لصاحبه بالهداية

---

(١) د / فاطمة فؤاد : السماع عند الصوفية ص ٣٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٩٧ م ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٥٦ ، والتعريفات : ص ١٣٨ .

(٢) محمد أحمد لوح : تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي جـ ١ ص ٣١٤ ، دار الهجرة للنشر والتوزيع ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، وتلبيس إبليس : ص ٣٢٠ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٠ .

واللب ، وبأنه " سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع " (١)

وما ذكره الهجويري والسهروردي أشار إليه ابن قيم الجوزيه في مدارج السالكين حين ذكر بأن سماع القرآن هو السماع الذي مدحه الله في كتابه ، وأمر به وأثنى على أصحابه وذم المعرضين عنه ولعنهم ، وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا ، وبأنه " أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه ... وهو سماع خاصة الخاصة المقربين ، وأنه حاد يحد القلوب إلى علام الغيوب " (٢) .

ثانيا : سماع الشعر .

أما عن سماع الشعر فقد ذكر الصوفية أنه مباح في الجملة إلا ما كان منه محرما كالغيبة والبهتان والفواحش وذم أحد وكلمة الكفر فهو حرام كله نظما ونثرا (٣) ، وقدا استدل الصوفية على إباحة سماع الشعر بمجموعة من الأدلة منها :

١ – مدحه ﷺ للشعر :

من ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : " إن من الشعر لحكمة " (٤) ، وقوله ﷺ : " أصدق كلمة قالها العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل " (٥) (٦)

---

(١) عوارف المعارف : ص ١٠٨ .

(٢) مدرج السالكين : جـ ١ ص ٤٢٧ – ٤٢٩ بتصرف .

(٣) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٦ .

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٤ ص ٧٣ كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز ، وابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٤١٧ كتاب الأدب باب الشعر عن أبي بن كعب حديث رقم [٣٧٥٥] وعن ابن عباس حديث رقم [٣٧٥٦] ، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ : جـ ٢ ص ٧٧٣ كتاب الكلام باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله بلفظ " إن من البيان لسحرا "

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٢ ص ٣١٩ كتاب الفضائل باب أيام الجاهلية عن أبي هريرة ، والإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٣٠٣ ، كتاب الشعر عن أبي هريرة .

(٦) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٥ .

٢ – إنشاد الشعر بين يديه ﷺ .

ومن الأدلة التي استدل بها الصوفية على إباحة سماع الشعر إنشاد الشعر بين يديه ﷺ وسماعه له ، وعدم إنكاره ﷺ ، فقد أنشد كعب بن زهير بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته المسماة بالبردة والتي يقول في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليـــوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبـــول [١]

كما كان ﷺ " يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه ويفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح عن رسول الله ﷺ ويقول رسول الله ﷺ " إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ [٢] ... [٣] .

٣ – إنشاد الصحابة للشعر وسماعهم له .

ومن الأدلة أيضا ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم من قولهم للشعر وترديدهم له ، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال قالت : فدخلت عليهما فقلت : يا أبت كيف تجدك ويا بلال كيف تجدك ، قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امـــرئ مصبح في أهلـــه

والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٧٤ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ٤١ كتاب المغازي باب حديث الإفك عن أم المؤمنين عائشة ، ومسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٣٩٥ كتاب الفضائل باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ عن أم المؤمنين عائشة بلفظ " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله "

(٣) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بواد وحولي إذخرٌ وجليــل

وهــل أردن يوما مياه مجنة

وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : " اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها " (١) (٢) .

ثالثا : سماع الشعر بالألحان (٣) .

اختلف الصوفية حول سماع الشعر بالألحان واتجهوا في ذلك اتجاهات عدة

الاتجاه الأول : كره أصحابه سماع الشعر بالألحان ، ويذكر الطوسي والهجويري أن قوما كرهوا ذلك لأخبار رويت عن بعض المتقدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، وقوم كرهوا ذلك للمريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما هم فيه من الخطر إن استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا إلى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا في البلية (٤) .

---

(١) صحيح البخاري : جـ ٢ : ص ٣٣٧ – ٣٣٨ باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٣٤٦ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٦ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

(٣) اختلف الفقهاء حول سماع الشعر بالألحان أو ما يسمى بالغناء وافترقوا في ذلك إلى فريقين :

الأول : ذهب أصحابه ومنهم جعفر الصادق ، وابن حزم وغيرهما إلى جواز السماع ، وكان ابن حزم يقول : لا يصح في هذا الباب شيء أبدا وكل ما فيه موضوع . انظر الرسالة : ص ٣٣٧ ، وعوارف المعارف : ص ١٠٨ – ١٠٩ ، وحياة القلوب : ص ٢٢٤ .

الثاني : ذهب أصحابه ومنهم الإمام الشافعي ومالك وأبو حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء إلى عدم جوازه ، وكان الإمام الشافعي يقول : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته . انظر الإحياء : جـ ٢ ص ٤١٧ – ٤١٨ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، وكشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٥٩ – ٦٦٠ .

الاتجاه الثاني : ذهب أصحابه إلى أنه حرام مطلق لأنه مصيدة الشيطان لإضلال العباد (١) .

الاتجاه الثالث : اتجه فريق ثالث من كبار مشايخ الصوفية أمثال المحاسبي والسرى السقطي ، والنورى ، والجنيد ، والشبلي ، والقشيري ، والهجويري ، والغزالى ، والسهروردي صاحب العوارف ، وعماد الدين الأموي وغيرهم (٢) إلى أن حكم السماع على وجوه : فقد يكون حراما محضاً إذا كان تأثيره في القلب حراما " أو اقترن بما نهى رسول الله ﷺ عنه كالأوتار والمزامير والمعازف ... والطبل المنهي عنه بالأخبار الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ (٣) .

وقد يكون حلالا " إذا كان تأثيره في القلب حلالا ... وإذا كان مباحا فهو مباح ... (٤) .

أدلة الصوفية على إباحة سماع الغناء .

استدل أهل التصوف الحق من أصحاب الاتجاه الثالث على إباحة سماع الغناء ما لم يقترن به ما يؤدي إلى حرمته بأدلة من القرآن ، ومن السنة ، وبما جاء عن السلف الصالح

أولا : القرآن الكريم : استدل أصحاب هذا الاتجاه على مشروعية سماع الغناء بكثير من أي القرآن منها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٥) ، وعن هذه الآية يقول الطوسي : " ففي مذمته للأصوات المنكرة

---

(١) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٦٠ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٣٤٩ – ٣٥١ ، والرسالة : ص ٣٤٠ – ٣٤٤ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤١٨ – ٤٢٠ ، وعوارف المعارف : ص ١٠٨ – ١١٠ ، وحياة القلوب : ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٣٤٨ ، والرسالة : ص ٣٣٦ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٥٠ .

(٥) سورة لقمان آية ١٩ .

محمدة للأصوات الحسنة ولا يميز بينهما إلا بالسماع وهو الإصغاء والاستماع بحضور القلب ، وإدراك الفهم وزالة الوهم " (١) .

ومنها قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾(٢) وعن هذه الآية يقول القشيري : " الألف واللام في قوله " القول " تقتضي التعميم والاستغراق ، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الأحسن (٣) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (٤) ، وعن هذه الآية يقول الإمام القشيري : " جاء في التفسير أنه السماع .... وجاء عن مجاهد .... أنه السماع من الحور نعين بأصوات شهية : نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، نحن الناعمات فلا نبأس أبداً " (٥) ، وغيرها من الآيات الأخرى التي ساقها الطوسي ، والقشيري وأبو نجيب السهروردي ، وشهاب الدين السهروردي واستدلوا بها على إباحة السماع .

ثانيا : السنة النبوية : كما استدل الصوفية على إباحة سماع الغناء بما جاء في السنة النبوية من سماع النبي ﷺ له وعدم إنكاره من ذلك : ما جاء في الحديث أن أبا بكر دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بالدف والنبي ﷺ مسجى فانتهرهما أبو بكر ﷺ فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال " دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد " (٦) (٧) ، وعن هذا الحديث يقول

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٤٤

(٢) سورة الزمر آية ١٧ – ١٨ .

(٣) الرسالة : ص ٣٣٥ .

(٤) سورة الروم آية ١٥ .

(٥) الرسالة : ص ٣٤٢ ، واللمع للطوسي : ص ٣٤٥ ، وآداب المريدين : ص ١٠٢ ، وعوارف المعارف : ص ١١٠ .

(٦) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٦٩ ، كتاب : العيدين والتجمل فيه باب : الحراب والدرق يوم العيد .

(٧) حياة القلوب : ص ٢٢٥ .

الطوسي : " ولو كان محظورا لكان سواء في العيد وغير العيد " (١) .

ومنها : ما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار فجاء النبي ﷺ فقال : " أهديتم الفتاة ؟ " فقالت : نعم ، قال : " فأرسلت من يغنني ؟ قالت : لا ، فقال النبي ﷺ فلو أرسلتم من يقول : " أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم " (٢) (٣) ، وقد ذكر الطوسي أن الأخبار في ذلك تكثر .

أدلة أخرى .

ساق الصوفية مجموعة أخرى من الأدلة على إباحة سماع الغناء :

١ – منها أن الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان (٤) .

٢ – ومنها أنه قد رويت أخبار عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم منهم عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم تفيد إباحتهم السماع (٥) . وجاءت أخبار أخرى تفيد سماع كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي له (٦)

وقال الغزالي : " وقال أبو طالب المكي : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٥٩٧ ، كتاب : النكاح ، باب : الغناء والدف

(٣) الرسالة : ص ٣٣٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ٣٣٦ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٣٤٧ ، والرسالة : ص ٣٣٧ .

(٦) الإحياء : جـ ٢ ص ٤١٨ .

فيها بذكره كأيام التشريق " [١] .

٣ – إباحة كثير من العلماء له [٢] . وغيرها من الأدلة الأخرى التي ساقها الصوفية على إباحة سماع الغناء إذا لم يقترن به ما يؤدي إلى تحريمه .

تحريم السماع .

أعلن أهل التصوف الحق من أصحاب الاتجاه الثالث أن السماع يحرم بخمسة عوارض :

العارض الأول : في المسمع .

أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته .

العارض الثاني : في الآلة .

بأن تكون من شعار أهل الترف أو المخنثين وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة ، وما عدا ذلك يبقي على أصل الإباحة كالدف ، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : في نظم الصوت وهو الشعر .

فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجوم أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ أو على الصحابة وغيرهم فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٣٤٧ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٢٠ – ٤٢٧ .

وصف المرأة بين الرجال ، فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة بعينها فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته ، فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأسا .

العارض الرابع : في المستمع .

وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان في غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر ، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضربه .

العارض الخامس : في المستمع أيضا .

وذلك بأن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولو غلبت عليه شهوة فيكون محظورا ، ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وطريقته وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة ، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة (١) .

---

(١) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٣٧ – ٤٤٠ ، وعوارف المعارف : ص ١٠٩ – ١١٠ ، وحياة القلوب : ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

يقول أبو على الدقاق : " السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم وهو مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم ، كما أنه مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم " (١) .

وعليه ومن خلال ما سبق نجد أن الصوفية يحرمون السماع في حالات خمس :

١ – أن يكون المغني امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الذي تخشى فتنته .

٢ – أن يقترن السماع بالآت نهى الشرع عنها كالمزامير والأوتار وطبل الكوبة .

٣ – أن يكون في الكلام الذي يتغني به شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على رسول الله ﷺ أو على الصحابة رضي الله عنهم أو وصف امرأة لا يحل لها وصفها .

٤ – أن تكون الشهوة غالبة على المستمع .

٥ – أن يكون من العوام .

وعليه ومن خلال ما سبق أيضا فإن الصوفية لم يجمعوا على إباحة السماع والذين أباحوه على الإطلاق رفض أهل التصوف الحق قولهم واتهموهم بالابتداع والجهل ومخالفة مشايخهم ، كما أنهم لم يترددوا في إعلان حرمة السماع إذا ما قصد منه المفاسد .

الشبهة الثانية : تفضيل الصوفية السماع على القرآن .

ومن الشبه التي أثيرت حول السماع أيضا الادعاء بأن الصوفية يفضلون سماع الغناء على سماع القرآن فابن الجوزي يقول في تلبيس إبليس : " وقد نشب السماع بقلوب خلق منهم فآثروه على قراءة القرآن ورقت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن " (٢) .

---

(١) الرسالة : ص ٣٤٠ .

(٢) تلبيس إبليس : ص ٢٤٩ .

وينشد ابن قيم الجوزية شعرا في ذلك فيقول :

تلـــي الكتاب فأطرقوا لا خيفة
لكنـــــه إطـــراق ســـاه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا
والله ما رقصـــوا من أجل الله
دف ومزمـــار ونغمـــة شـــاهد
فمتى شهدت عبادة بملاهـــي ؟
ثقـل الكتاب عليهـــم لما رأوا
تقيـــده بأوامــــر ونـــواهـــي
وعليهم خف الغنـــا لما رأوا
إطلاقه في اللهـــو دون مناهي
يا فرقة ما ضـــر دين محمـــد
وجنى عليـــه وملّه إلاّ هي (١)

وقداتهم بذلك من الصوفية يوسف بن الحسين الرازي ، وأبو سهل الصعلوكي ٣٦٩ هـ (٢) .

موقف الصوفية من هذه الشبهة :

أما عن موقف الصوفية من هذه الشبهة فنقول : إن الإمام الطوسي ومن بعده الإمام الغزالي قد تنبها إلى هذه الشبهة وأجابا عنها بما يلي :

أولا : اختلاف الصوفية حول السماع وتفضيل كثير منهم سماع القرآن على كل سماع .

ذكر الطوسي أن الصوفية اختلفوا في السماع على طبقات فطبقة اختاروا

---

(١) مدارج السالكين : جـ ١ ص ٤٣١ .

(٢) تلبيس إبليس : ص ٢٥٠ ، وطبقات المناوي : جـ ١ ص ٥٨٩ .

سماع القرآن ولم يرواغير ذلك (١) ، وقد احتجوا على ذلك بالقرآن والسنة :

فمن القرآن : قوله تعالى : ﴿ مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

ويذكر الطوسي أن الله سبحانه وتعالى ذكر المستمعين للقرآن في مواضع من كتابه على وجهين :

فوجه منها : قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أهواءهم ﴾ (٣) ، فهؤلاء كانوا يستمعون القرآن بآذانهم ولم يحضروا بقلوبهم فذمهم الله ﷻ بذلك وطبع على قلوبهم وهم الذين قال الله ﷻ : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ (٤) .

والوجه الثاني : هم الذين وصفهم الله ﷻ فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٥) . فهؤلاء الذين سمعوا القرآن لأنهم حضروا بقلوبهم عند استماعهم القرآن فمدحهم الحق بذلك (٦) .

ومن السنة : قوله ﷺ لابن مسعود ﷺ : " اقرأ ، فقال : أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال أنا أحب أن اسمع من غيري " (٧) . وأنه ﷺ قرأ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٥٢ .

(٢) سورة الزمر آية ٢٣ .

(٣) سورة محمد آية ١٦ .

(٤) سورة الأنفال آية ٢١ .

(٥) سورة المائدة آية ٨٣ .

(٦) اللمع للطوسي : ص ٣٥٣ .

(٧) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ١١٩ ، وكتاب : التفسير ، باب : تفسير سورة النساء .

عِبَادُكَ ﴾ (١) فبكى (٢) ، وغيرها من الأحاديث الأخرى التي ساقها الطوسي للتدليل على اختيار هؤلاء القوم سماع القرآن على كل سماع .

كما ساق الإمام القشيري في الرسالة كثيراً من الروايات التي تدل على تأثر الصوفية عند سماع القرآن من ذلك : ما ذكره أحمد بن مقاتل حين قال : " كنت مع دلف الشبلي في مسجد في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك ، وهو يصلي خلف إمام له وأنا بجانبه ، فقرأ الإمام ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٣) فزعق زعقة ، قلت طارت روحه ، وهو يرتعد ويقول بمثل هذا يخاطب الأحباب (٤) .

ثانيا : اختيار البعض سماع القصائد على سماع القرآن .

ذكر الطوسي والغزالي أن فريقا آخر من الصوفية اختاروا " سماع القصائد ... والأبيات من الشعر (٥) على سماع القرآن ، ويرجعان ذلك لمجموعة من الأمور :

الأول : أن هذه الطائفة زعمت أن القرآن كلام الله وكلامه صفته ، وهو حق لا يطيقه البشر إذا بدا ، لأنه غير مخلوق لا تطيقه الصفات المخلوقة ، بل به تزين الأشياء ، وهو أحسن الأشياء ، ومع حسنه لا تُسْتَحْسَنَ المستحسنات ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٦) ،وقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٧) فكذلك لو أنزله الله

---

(١) سورة المائدة آية : ١١٨ .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

(٣) سورة الإسراء آية ٨٦ .

(٤) الرسالة : ص ٣٤٤ – ٣٤٥ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٢ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٣٥٦ .

(٦) سورة القمر آية ١٧ .

(٧) سورة الحشر آية ٢١ .

تعالى على القلوب بحقائقه ، وكشفت للقلوب ذرة من التعظيم والهيبة عند تلاوته لتصدعت وذهلت ودهشت وتحيرت " (١) .

الثاني : أن هؤلاء القوم لما رأوا في المتعارف بين الخلق أن أحدهم ربما يختم القرآن ختمات ولا يجد رقة في قلبه عند التلاوة ، فإذا كان مع القراءة صوت حسن ، أو نغمة طيبة شجية وجد الرقة وتلذذ بالاستماع ، ثم إنه إذا كان ذلك الصوت الحسن والنغمة الطيبة على شيء غير القرآن أيضا فوجد تلك الرقة وذاك التلذذ والتنعم ، علموا أن الذي هو ذا يظنون من الرقة والصفاء والتلذذ والوجد أنه من القرآن لو كان كذلك لكان في حين التلاوة ووقت القراءة غير منقطع منهم على الدوام (٢) .

الثالث : أن النغمات الطيبة موافقة للطبائع ، ونسبته نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والقرآن كلام الله تعالى ونسبته نسبة الحقوق لا نسبة الحظوظ ، وهذه الأبيات والقصائد أيضاً نسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، وهذا السماع وإن كان أهله متفاوتين في درجاتهم وتخصيصهم فإن فيه موافقة للطبع وحظا للنفس ، وتنعما للروح تشاكله بتلك اللطيفة التي جعلت في الأصوات الحسنة ، والنغمات الطيبة ، وكذلك الأشعار فيها معان دقيقة ، ورقة وفصاحة ولطافة وإشارات ، فإذا علقت هذه الأصوات والنغمات على هذه القصائد والأبيات يشاكل بعضها بعضا بموافقتها ومجانستها ، ويكون أقرب إلى الحظوظ ، وأخف محملا على السرائر والقلوب ، وأقل خطرا لتشاكل المخلوق بالمخلوق (٣) .

الرابع : وأمر آخر يذكره الإمام الغزالي وهو أن جميع الآيات القرآنية لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له فمن استولى

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٣٥٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٥ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ (١) ... وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها ، وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه والأبيات إنما يضعها الشعراء إعرابا بها عن أحوال القلب ، فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى التكلف ... فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها (٢) .

الخامس : وهو أهمها من وجهة نظري يذكره الإمام الطوسي وهو أن من اختار سماع القصائد اختارها لحرمة القرآن وتعظيم ما فيه من الخطر : لأنه حق ، والنفوس تخنس عندها وتموت عن حركاتها ،وتفني عن حظوظها وتنعمها إذا أشرقت عليها أنوار الحقوق بتشعشعها وأبدت بها عن معانيها ، فقالوا : ما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا أرواحنا متنعمة بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة فانبساطنا بمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا بذلك إلى كلام الله ﷻ الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدا وإليه يعود (٣) .

وغيرها من الأمور الأخرى التي ذكرها الطوسي والغزالي والتي تدل على أن هؤلاء القوم ما اختاروا ذلك الأمر إلا مراعاة لحرمة القرآن وتعظيم ما فيه .

ونختم كلامنا بهذا النص الذي ذكره الإمام القشيري في رسالته فقال : " قال إبراهيم الخواص وقد سئل : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يجد ذلك في سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه " (٤) .

---

(١) سورة النساء آية ١١ .

(٢) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٤ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ٣٥٧ ، والإحياء : جـ ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٨ .

(٤) الرسالة : ص ٣٤٣ .

إباحة السماع مطلقا وموقف الصوفية منه

اندس في الوسط الصوفي ومنذ وقت مبكر جماعة من الدخلاء والأدعياء أباحت السماع مطلقاً دون قيد أو شرط ، وقد أشار إليهم الهجويري في كشف المحجوب (١) ، وكذا السهروردي في عوارف المعارف فقال : " ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه المقيمين على الإصرار " (٢) .

ويذكر البعض أن المولوية المنسوبة إلى جلال الدين الرومي كانوا مولعين بالسماع مطلقا وكانوا " يقيمون طريقهم على ... السماع والرقص وقراءة الأشعار "(٣)

ويذكر د / عامر النجار أن بعض الرفاعية ، والدسوقية والشاذلية أباحوا السماع مطلقا وأقاموا عليه الذكر مخالفين بذلك مشايخهم الذين أنكروا ذلك وكرهوه (٤) ، ويشير أيضا إلى أن بعض أبناء الطرق الصوفية في العصر الحاضر ولعوا بالعزف والغناء ، وأصبحت حلقات الذكر سماعا للموسيقي وابتعدت " الطرق الصوفية عن أصولها الحقيقية التي نادي بها ورسمها أصحابها الأجلاء لأتباعهم (٥) .

وقد تصدي أهل التصوف الحق لمثل هؤلاء الأدعياء في كل وقت وجدوا فيه وأعلنوا رفض مثل هذا الاتجاه : فالإمام القشيري يذكر بأن هذا السماع سماع اللاهين والساهين واللاغين ، وأن مشايخ الصوفية تجل رتبتهم عن " أن يستمعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغو ، أو

---

(١) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) عوارف المعارف : ص ١٠٩ .

(٣) هامش كشف المحجوب : هامش جـ ٢ ص ٦٤٦ .

(٤) الطرق الصوفية في مصر : ص ٦٣ .

(٥) المرجع السابق : ص ٦٤ .

يستمعوا على صفة غير كفء (١) .

وإذا كان الإمام القشيري قد اتهم هؤلاء بالسهو واللغو ، فقد اتهمهم الهجويري بأنهم جهلة أهلكوا أنفسهم وأهلكوا غيرهم ، وبأنهم آفة من آفات كل عصر يوجدون فيه (٢) .

ثالثا : الشطح وموقف الصوفية منه :

ظهر . في الوسط الصوفي ظاهرة أسماها العلماء ومعهم الصوفية بالشطح والشطح في لغة العرب (٣) هو الحركة فيقال " شطح يشطح إذا تحرك ويقال للبيت الذي يحوزون فيه الدقيق المشطاح قال الشاعر :

قف بشط الفرات مشرعة الخيل
قبيـل الطـريـق بالمشـطاح
بالطواحين من حجارة بطريق
بدير الغـزلان ديـر المـلاح

ويقال شطح الماء إذا كثر في النهر وفاض من حافتيه " (٤) .

والشطح في الاصطلاح الصوفي يعرفه الطوسي فيقول : " الشطح : معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته " (٥) .

وعرفه الجرجاني فقال : " الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة

---

(١) الرسالة : ص ٣٣٧ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٤٦ .

(٣) ذكر الزبيدي في تاج العروس أن كلمة " شطح " لم يتعرض لها أكثر أئمة اللغة وأنها من الكلمات العامية التي اشتهرت بين المتصوفة ، كما يذكر أن بعض أهل الصرف ذكروا أنها اسم صوت لزجر العريض من أولاد الماعز . انظر تاج العروس : جـ ٢ ص ١٧٣ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، والمعجم الوسيط : جـ ١ ص ٥٠٨ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٤٥٣ ، وغلطات الصوفية : ص ١٩٧ .

ودعوى " (١) .

والعبارات الشاطحة يقسمها الغزالي إلى صنفين :

أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجب والمشاهدة بالرؤية والمشابهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، وذلك كقول الحلاج : أنا الحق ، وقول البسطامي : سبحاني :

الصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس ورائها طائل وهي : إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة (٢) .

وبالرغم من اعتراف الصوفية بأن الشطح ظاهرة نفسية تحدث عند غلبة الوجد وشدته ، فقد تصدوا لها وبذلوا جهودا عدة في مواجهتها تمثلت فيما يلي :

١ – رفض الظاهرة .

رفض أهل التصوف الحق ظاهرة الشطح ذاكرين أن " الشطح خروج عن الحق " (٣) ، وأنه " من الدعاوى الكاذبة " (٤) ، وأنه " ذلة وهفوة " (٥) ، وخروج عن حدود حكم الكتاب والسنة " إذا هما لا يحكمان إلا السوي من البشر

---

(١) التعريفات للجرجاني : ص ١١٢ .

(٢) الإحياء : جـ١ ص ٦٣ – ٦٤ بتصرف .

(٣) الرسالة : ص ٤١٣ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٨٨ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٥١٨ .

والمسلم الذي تسمح له ظروفه النفسية بتطبيق الأحكام عليه " [١] .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد ذكروا أن الشطح ظاهرة نقص لا ظاهرة كمال ، وأنه " لا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه [٢] .

ويرجع رفض أهل التصوف لهذه الظاهرة لعدة أمور :

الأول : مخالفة هذه الظاهرة لما جاء عن النبي ﷺ ولما أثر عن الأنبياء السابقين فقد نهي رسول الله ﷺ عن مثل ذلك الفعل فقال : " ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كانت فتنة عليهم " [٣] ، وقال ﷺ : " كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله " [٤] .

وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره ، وقال عيسي عليه السلام : لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء ، وفي لفظ آخر : من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا وإن لها أهلا ، فأعط كل ذي حق حقه " [٥] .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٤٨ .

(٢) الإحياء : جـ ١ ص ٦٤ ، وتنبيه المغترين : ص ٩ ، ودرر الغواص للشعراني : ص ٦٢ ، المكتبة الأزهرية ، ط ١٤١٨ هـ - ١٩٨٢ م .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه : جـ ١ ص ٧ ، باب : النهي عن الحديث بكل ما سمع عن عبد الله بن مسعود أنه قال : " ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " .

(٤) الحديث ذكره الزبيدي في الإتحاف : جـ ١ ص ٣٤٤ .

(٥) الإحياء : جـ١ ص ٦٤ - ٦٥ .

الثني : أن الشطح ظاهرة محدثة لم تكن موجودة عند السلف الصالح فالناطق بعبارات الشاطحة ناطق بما لم ينطق به السلف الصالح " (١) .

الثلث : أن الشطح يؤدى إلى وقوع الشاطح في كثير من الأخطاء (٢)

الرابع : خطورة هذه العبارات على العوام ، فقد أدت كما يذكر الغزالي إلى ترك جماعة من الناس أعمالهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى (٣) .

الخامس : أن العبارات الشاطحة يستلذها الطبع ، وأنها تؤدى إلى ادعاء درك المقامات والأحوال (٤) ، وغيرها من الأسباب الأخرى التي ذكرها أهل التصوف الحق .

٢ - أهل الشطح أهل نقص وبداية لا أهل كمال ونهاية .

بالإضافة إلى ما سبق فقد اعتبر أهل التصوف الحق هؤلاء الشاطحين أهل نقص وبداية لا أهل كمال ونهاية :

فالإمام الجنيد وهو الذي دافع عن أبي يزيد البسطامي والشبلي وشرح كثيرا من أقوالهما الشاطحة اعتبر حالهما أقل من حال أهل التمكين ، كما أعلن أن حالهما حال أهل البدايات : فعن أبي يزيد يقول : " إن أبا يزيد مع عظيم حاله وعلوّ إشارته لم يخرج عن حال البداية ولم أسمع منه كلمة تدل على كمال النهاية (٥) .

وكان الشبلي يجئ إلى الجنيد فيسأله فلا يجيبه ويقول : " يا أبا بكر : هو ذا أشفق عليك وعلى ثباتك لأن هذا الاضطراب والانزعاج والحدة والطيش

---

(١) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٤٨ .

(٣) الإحياء : جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٠ .

(٥) اللمع للطوسي : ص ٤٧٩ .

والشطح ليست من أحوال المتمكنين وهي منسوبة إلى أحوال أهل البدايات والإرادات (١)

٣ – عدم صلاحية أهل الشطح للقدوة والتربية .

كذلك أعلن أهل التصوف الحق أن الشطح " نقص ونزول عن درجة المشيخة وصاحبها لا يصلح للتربية " (٢) ، ومما يدل على ذلك ما ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب حين قال : " قال بعض العارفين نظرت إلى هؤلاء الشاطحين فما وجدت إلا جاهلا مغرورا ، أو خاسئا حبوار .. " (٣) أو صوفيا شاطحا تائهاً غالطاً يجاوز بك الكتاب والسنة ... وهؤلاء تائهون ... لم يجعلوا أئمة للمتقين " (٤)

ويعلق أستاذنا أ / د : عبد الله الشاذلي على هذا النص قائلاً : " وما دام الأمر كذلك وأنهم أرباب بدايات وإرادات فإنه لا يقتدي بهم كشيوخ مربين " (٥)

٤ – التماس العذر للشاطحين .

بالرغم من رفض الصوفية لظاهرة الشطح واعتبار أهلها أهل بداية ونقص لا أهل نهاية وكمال ، وإعلانهم عدم صلاحية الشاطحين للقدوة والتربية ، فقد تلمسوا العذر لهم ، ودعوا إلى عدم التسرع في رميهم بالكفر والزندقة ، واعتبروا التسرع في ذلك تعنتا وجسارةً وزلةً " من العالم وهفوة من الحكيم ، وخطأ بيناً من العاقل " (٦) ، ورأوا أن السلامة للعالم في رفع الإنكار عنهم وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى " (٧)

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٨٨ ، واليواقيت والجواهر : جـ ٢ ص ٩٣ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٠ .

(٣) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٣٧ ، ص ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٠٥ بتصرف .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٠ .

(٦) اللمع للطوس : ص ٤٧٥ .

(٧) المرجع السابق : ٤٥٤ .

وقد دعا الصوفية أيضا إلى الرجوع إليهم لسؤالهم عن هذه العبارات والتعرف عليها وعلى مراد أصحابها منها (١) ، وقدم الصوفية مجموعة من الأعذار عن هذه الشطحات منها :

أ – أن هذه الكلمات إن صحت نسبتها إليهم فربما تكون صدرت منهم في حال الغلبة والسكر بواردات الأحوال والسكر بسبب مباح يسقط التكليف في الشرع (٢) ، وهو ما اعتذر به ابن تيمية أيضا عن الشاطحين فقال : " إن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء سكر وغيبة عن السوى ، والسكر وجد بلا تمييز فقد يقول في تلك الحال : سبحاني ، أو ما في الجبة إلا الله ، أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد البسطامي أو غيره (٣) .

ب – أو أنها صدرت منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ (٤) .

ج – ومن الأعذار ما ذكره الطوسي في اللمع فقال : " إنه ربما تصحف على الحكيم ، لأنه الحكمة ربما تجري ، ويحضرها من لا يقف على معانيها ولا يلحق فهمه مقاصد المتكلم بها فعند ذلك تجري على الألسنة بضد معناها فيلحق الحكيم عند ذلك نقص عند من لا يقف على مراميه ، ويُشكل عليه معانيه ولم يشرف على مكانه ولا يَسأل عن بيانه ، لأن الغامض من العلوم لا يدرك إلا بالغامض من الفهوم ، والتصحيف الذي يقع في الحكمة يقع من وجهين : فوجه منها : تصحيف في الحروف وذلك أيسره ، والوجه الثاني : تصحيف المعنى : وهو أن يتكلم الحكيم بكلمة من حيث وقت حاله ، فلا يكون للمستمع لذلك الحال والوقت فيصحف معناه ، فيعبر عنها من حيث ما يليق بحاله ووقته ومقامه

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٥٧ ، وحقائق عن التصوف : ص ٤٢٧ .

(٢) نشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٦ ، ومشكاة الأنوار للغزالي : ص ١٢

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٧٦ .

(٤) تحدثنا عن ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول فليرجع إليه .

ووجده فيغلط في ذلك ويهلك .

سمعت أبا عمرو بن علوان يقول : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : كنت أصحب هذه الطائفة وأنا حدث فكنت أسمع منهم كلاما لم أفهم عنهم ما يقولون ، إلا أن قلبي قد سلم من الإنكار عليهم فبذلك نلت ما نلت " (١) ، وغيرها من الأعذار الأخرى التي اعتذر بها أهل التصوف الحق عن أصحاب الشطح .

وقد اعتمد الصوفية في تلمس العذر لهؤلاء الشاطحين على ما جاء عن النبي ﷺ في تلمسه العذر لبعض المخطئين :

من ذلك ما ذكره ابن هشام في سيرته عن أبي لبابة بن المنذر حين استشاره بنو قريظة لما استنزلهم النبي ﷺ على حكم سعد بن معاذ " فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح ، ثم ندم على ذلك وعلم أنه قد خان الله ورسوله فانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت (٢) .

ويعلق الكلاباذي على هذا النص فيقول : " فهذا لما غلب عليه الخوف من الله ﷻ ، حال بينه وبين أن يأتي رسول الله ﷺ ، وكان هو الواجب عليه لقول الله ﷻ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآءوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ (٣) . وليس في الشريعة ارتباط بالسواري والعمد ، وقال النبي ﷺ لما أن استبطأه " أما لو جاءني لاستغفرت له فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ، فلما علم الله صدقه ، وأن ذلك صدر منه لغلبة الخوف عليه غفر له ، فأنزل الله توبته فأطلقه النبي ﷺ ، فأبو لبابة ﷺ لما أن غلب عليه الخوف لم يمكنه ملاحظة السبب وهو استغفار الرسول ﷺ لقوله تعالى

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٧٥ ، ومشكاة الأنوار : ص ١٢ ، ونشر المحاسن : ص ٢٨٦ - ٣٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) سورة النساء آية ٦٤ .

: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ سورة النساء آية ٦٤ ، ولم يمكنه مراعاة الأدب ، والأدب : أن يعتذر إلى من أذنب إليه وهو الرسول ﷺ (١) .

كما نجد أن الرسول ﷺ قال : " في ختام حديث فرح الله بتوبة العبد حين ضرب المثل برجل ضلت ناقته وختم على لسان الرجل : " ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، وأخطأ من شدة الفرح " (٢) . فقوله ﷺ " أخطأ من شدة الفرح " التماس العذر للرجل في شدة الانفعال بالسرور ، كما أن حكم الطلاق في إغلاق لا يقع لشدة الغضب بنص قول رسول الله ﷺ (٣) .

وقد رفع القلم عن ثلاث أحدهم السكران حتى يفيق (٤) . ولو كان السكر بحرام ما رفع إذ لا رخص في المحرمات فثبتت أحكام استثنائية على الشدة في الطرفين (٥) ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تفيد تلمسه ﷺ العذر للمخطئين ما لم يكونوا قد أتوا حدا من الحدود ، فما كان النبي ﷺ يتلمس عذرا لأحد من هؤلاء .

---

(١) التعرف : ص ١٣٤ – ١٣٥ ، وسيرة ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٩١ كتاب التوبة باب في الحض على التوبة والفرح بها عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ : " لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى منها شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح .

(٣) أخرج ابن ماجة في سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " لا طلاق ولا عتاق في إغلاق " : جـ ١ ص ٦٤٢ كتاب الطلاق باب طلاق المكره والناس .

(٤) وأخرج ابن ماجة في سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أيضا أن رسول الله ﷺ قال : " رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق : جـ ١ ص ٦٤١ كتاب الطلاق باب طلاق المعتوه والصغير والنائم .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٤٥ ، والأجوبة المرضية : ص ٤٧٩

٥ - تأويل العبارات الشاطحة :

العبارات الشاطحة : إما أن تكون صدرت من صاحبها في حال صحو أو في حال سكر ، وإما أن تكون عبارات لا يمكن تأويلها بوجه من الوجوه ووقع الإجماع الضروري على أن مثلها كفر ، وإما أن تكون عبارات يمكن تأويلها (١)

فأما إذا كانت العبارة صادرة في حال الصحو ، وكان لا يمكن تأويلها ووقع الإجماع الضروري على أن مثلها كفر فقد أجمع الصوفية على أن مثل هذا الكلام مردود على صاحبه ومعتقده كافر إلا إذا ثبتت توبته (٢) .

أما إذا كانت صادرة في حال السكر واحتملت الكلمات التأويل فقد اتفقت كلمتهم أيضاً على عدم رمي صاحبها بالكفر " لا سيما في حق من لم يعرف منه تهاون في الدين (٣) .

وبالرغم من اتفاقهم على عدم رمي صاحب هذه العبارات بالكفر ، فقد اختلفوا حول تأويل هذه العبارات إلى فريقين :

الفريق الأول : ذهب أصحابه ومنهم الكلاباذي ، والغزالي ووافقهما من خارج دائرة التصوف ابن تيمية إلى التوقف عن التأويل وأرجعوا ذلك إلى مجموعة من الأمور : منها أن صاحب الحال هو أقدر الناس على التعبير عنه وترجمته ترجمة تتفق مع حاله (٤) ، ومما يدل على ذلك ما ذكره الغزالى من أن بعض الصوفية سمع قائلا يقول :

قال الرسـول غـدا تزور
فقلـت تعقـل ما تقـول

---

(١) الأجوبة المرضية : ص ٤٩٠ .

(٢) حقائق عن التصوف : ص ٤٢٧ .

(٣) الأجوبة المرضية : ص ٤٩١ .

(٤) التعرف : ص ١٠٨ ، ومشكاة الأنوار : ص ١٢ – ١٥ ، ومجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ص ١٧٦ .

فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء نونا فيقول الرسول غدا نزور حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة والسرور ، فلما أفاق سئل عن وجده مم كان ؟ فقال : ذكرت قول رسول الله ﷺ : " إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعه مرة [(١)] [(٢)] .

ومنها : أن الخوض في العبارات إثارة لشبه وفتن في الطريق نائمة فلا داعي لإيقاظها أو تحريكها بمحاولات المتكررة للفهم والتأويل خاصة وأن السائرين على الطريق ليسوا على درجة صدق وعلم واحدة ، وأن تأويلها احتمالي لا قطعي [(٣)] .

الفريق الثاني : ذهب أصحابه ومنهم الإمام الجنيد والطوسي واليافعي والشعراني ، ومن المحدثين الشيخ عبد القادر عيسى ، ود / عبد الله الشاذلي إلى جواز تأويل العبارات الشاطحة ، بل وفي بعض الأحيان ذهبوا إلى ضرورة أو وجوب تأويلها وحملها على محامل حسنة وصحيحة [(٤)] .

وذكر الشيخ عبد القادر عيسى أن النبي ﷺ وهو الذي أوتي الفصاحة والبلاغة ووضوح اللفظ قد احتاج في بعض الأحيان إلى تأويل كلامه بحمل معانيه على غير ما يفيده ظاهره وعليه فإن كلام غيره من أمته ممن لم يبلغ شأوه في البيان والفصاحة من باب أولى قابل للتأويل محتمل للتفسير [(٥)] .

ويرى د / عبد الله الشاذلي أن تأويل مثل هذه العبارات له أهمية خاصة

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه جـ ٢ ص ٦٠٤ ، كتاب : الزهد ، باب : صفة الجنة .

(٢) الإحياء : جـ ٢ ص ٤٤٨ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٣ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٤٥٣ – ٥١٨ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٣ – ٣٠٨ ، والأجوبة المرضية : ص ٢٩١ – ٥٢٠ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ٩ ، وحقائق عن التصوف : ص ٤٢٠ ، والتصوف في الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٥) حقائق عن التصوف : ص ٤١٨ .

تكمن فيما يلي :

أ - أن التأويل سيطلعنا على كثير من أسرار الواجدين وأذواقهم وسيكشف لنا عن مبطون الحقائق وراء العبارات مما يزيل عنهم الوهم ويدفع الشك والريب عن أصحابها .

ب - أن التأويل سيفيدنا علما بأحوال هؤلاء وطبيعة تلك الحال ولا حرج إذا نأى المؤول عن مراد صاحب اللفظة لأنه أخطأ في ذات القائل لا في المقول الروحي وموضوعه الإلهي .

ج - وأيضا فإن كشف النقاب عن شطحات فيها ادعاء ومبالغة وخروج عن الصواب وتعمد بث فكرة معينة وهو يصيب ويخطئ أمر له قيمته الدينية في محاربة المدعين ، وقد بين القرآن كثيرا من الأفكار الضالة والملحدة ليحذر منها المسلمين وليعرف قائليها بالحق والصواب (١) .

٦ - نماذج من العبارات الشاطحة وتأويل الصوفية لها :

بعد أن بينا موقف الصوفية من العبارات الشاطحة نسوق بعض النماذج لهذه العبارات وتأويل الصوفية من أصحاب الفريق الثاني لها :

النموذج الأول : جاء على لسان أبي يزيد وفيه يقول : " بطشي أشد من بطشه بي " (٢) ، يقول الشعراني : " ومما أنكروه على أبي يزيد قوله لما سمع قارئا يقرأ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (٣) فقال : بطشي أشد من بطش الله ، قال المنكر هذا كلام من لم يشم من الإسلام شمة فلا يجوز ذكره .

والجواب : أنه لا ينبغي الإنكار على أبي يزيد بسبب ذلك بل يجب حمله على تمجيد الله تعالى وعلمه بسعة حلمه وعلمه وعفوه .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥٥ .

(٢) تلبيس إبليس : ص ٣٤٥ ، شطحات الصوفية : ص ٣٠ .

(٣) سورة البروج آية ١٢ .

وإيضاح ذلك أن بطش الحق تعالى بعباده المسلمين كله رحمه وتأديب لهم حتى بإدخالهم النار للتطهير فهو مخلوط بالرحمة ... ، وأما بطش العبد فهو محض انتقام ليس فيه رحمة لضيق العبد وحصره ، حتى يود أنه لو قدر على خنق من كلمه كلاما يضره لفعل ... ، فبهذا الاعتبار كان بطشه بأخيه أشد نكاية من بطش الله تعالى بعبده ، فهو مدح لله تعالى بالرحمة والشفقة لازم له ولا عجز تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وبالجملة : فالتحقيق أن يقال بطش العالم كله من جملة بطش الله تعالى بخلقه ، ولكن بطشه بالواسطة أشد من بطشه بلا واسطة (١) .

النموذج الثاني : ذكره الإمام الشعراني أيضا ولكن عن الشبلي فقال " ومما أنكروه على الشبلي : قوله يوما في مجلسه إن لله تعالى عبادا لو بصقوا على النار لأطفؤها ، قال ابن القيم : وهذا من الخرافات والهذيانات وهو من جنس ما قاله أبو يزيد : من أنه لو شاء لأطفأ النار بطرف مرقعته وكلاهما من إناء واحد يغترف " (٢)

وقد أجاب الإمام الشعراني عن هذا أيضا فقال : " إنه لا ينبغي الإنكار على هذين الوليين لاحتمال أن يريدا فعل ذلك بإرادة الله تعالى وحوله وقوته ، لا بحولهما ولا قوتهما فإن ذلك بعيد في الفعل ، بل لو صب كل منهما على النار كذ كذا ألف راوية من الماء ما أطفأها ، ويصح أن يكون مراد الشبلي غير ذلك من الأوجه الصحيحة التي تخفي على أمثالنا " (٣) .

النموذج الثالث : ذكره الإمام اليافعي في نشر المحاسن الغالية فقال : " ومن ذلك ما اشتهر عن أبي الغيث بن جميل ﵁ أنه جاء إليه جماعة من الفقهاء

---

(١) الأجوبة المرضية : ص ٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

فقال لهم : مرحبا بعبيد عبيدي ، فاستعظموا منه ذلك ورجعوا منكرين عليه فلقوا الشيخ إسماعيل بن محمد الحضرمي فذكروا له ذلك ، فقال : صدق أنتم عبيد الهوى والهوى عبده (١) .

ونكتفي بهذه النماذج الثلاثة ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى كتاب اللمع للطوسي ، ونشر المحاسن الغالية لليافعي والأجوبة المرضية للشعراني فإن فيها الكثير من العبارات الشاطحة والتي أولها الصوفية بما يرفع الإنكار عنها وعن أصحابها (٢) .

وعليه ومن خلال ما سبق :

فإن الصوفية وقفوا من هذه الظاهرة النفسية موقفا اتسم بالاعتدال والوسطية والمرونة والواقعية :

فهم في البداية أعلنوا أن هذه الظاهرة ممكنة الحدوث لكنها تدل على نقص صاحبها ، وأنه صاحب بداية لا نهاية ، ومع هذا فلم يتسرعوا برمي أصحابها بالكفر والزندقة كما فعل غيرهم بل راحوا يتلمسون الأعذار لأصحابها ، وحاول البعض منهم تأويل هذه العبارات بما يرفع الإنكار عنها وعن صاحبها ، الأمر الذي جعل أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي يبدي إعجابا بهذا الموقف قائلا : " فالنظرة القاضية بإقرار الشطح كحالة نفسية مع صدور الحكم عليها بأنها نقص في السلوك ونزول عن درجة المشيخة وصاحبها لا يصلح للتربية هي النظرة الجديرة القمينة بالإعجاب والاحترام المصيبة لعين الحق والنصفة " (٣) .

---

(١) نشر المحاسن الغالية : ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٢) اللمع للطوسي : ص ٤٥٩ – ٥١٨ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٢٨٦ – ٣٠٨ ، والأجوبة المرضية : ص ٣٩١ – ٥٢٠ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٣ ص ١٥١ .

الفصل الثاني

تركيز التصحيح على الاستقامة ظاهرا وباطنا

الفصل الثاني
الاستقامة
تركيز التصحيح على ظاهرا وباطنا .

تمهيد :

للإنسان ظاهر وباطن وقد دعا القرآن والسنة النبوية إلى أن يكون ظاهر الإنسان كباطنه ، وباطنه كظاهره ، وبينا أن أي فصل بينهما يؤدي إلى الوقوع في الرياء والنفاق [١] .

واقتداءاً بما دعا القرآن والسنة إليه نادي الصوفية بالعمل على استقامتهما وتوجيه العناية إلى إصلاحهما ، وقد سلك الصوفية في ذلك مسلكين :

الأول : بيان الطريق إلى استقامة الظاهر والباطن [٢]

الثاني : محاربة الانحرافات التي من شأنها الفصل بين الظاهر والباطن أو التي تؤدي إلى الإعلاء من شأن واحد منهما على الآخر ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

الظاهر والباطن في اللغة .

الظاهر في اللغة يطلق ويراد به الشيء البين الواضح فيقال : " ظهر الشيء ظهورا تبين وبرز بعد الخفاء ، وأظهر الشيء بينه ويقال أظهر فلانا على السرّ : أطلعه عليه .... والظاهر من أسمائه عز وجل "[٣] .

أما الباطن : فيطلق ويراد به داخل كل شيء [٤] ، فبطن الجنة وسطها ،

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) للظاهر والباطن في الطريق الصوفي أنواع أخرى غير ظاهر الإنسان وباطنه سوف يبينها الباحث فيما بعد .

(٣) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٦٠٦ ، ومختار الصحاح : ص ٤٠٦ .

(٤) القاموس المحيط : جـ ٤ ص ٢٠٤ .

وبطن الوادي داخله ، وبطن الأمر عرف باطنه ، والباطن من أسماء الله تعالى ، و " بطن بفلان صار من خواصه .... و" استبطن " الشيء دخل في بطنه أو طلب ما في بطنه [١] ، وبَطَنَ الشيء بطونا خفي ... والوادي والبيت بطنا : توسطه وجال فيه " [٢] .

الظاهر والباطن في الاصطلاح الصوفي :

الظاهر يطلق ويراد به في الطريق الصوفي العلم الذي يكلم الجسد بالحس والعقل أو يسوس الظاهر بمكاسب الإدراك الحسي والعقلي ، وهو يعمل في ميدان الرواية والأحاديث والأحكام الظاهرة ، وينظر إلى مصالح البدن والأولاد ومن تلزمه نفقته .

وأما الباطن فيطلق ويراد به العلم الذي يعرفهم صنع الصانع في المصنوع وهو الذي يناجي أرواحهم ويأخذ بهم إلى الله تعالى وينال به العارف علوم الدراية ويرتبط بالإيمان ارتباطا كثيرا ، ويثمر لهم علوم اليقين والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والإنابة والتقوى إلى آخر ما يتعلق بالقلب من مقام أو حال [٣]

ويوضح ذلك الطوسي فيقول : " العلم ظاهر وباطن أما العلم الظاهر : فهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهره ... كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه هي العبادات .

وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها

وأما الأعمال الباطنة : فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة ...

---

(١) مختار الصحاح : ص ٥٦ .

(٢) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٨٢ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ١٩٨ – ١٩٩ .

ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد ... فإذا قلنا : علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة وهي القلب .

كما أننا إذا قلنا : علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء ... فالعلم المستنبط هو العلم الباطن ، وهو علم أهل التصوف " (١) .

أنواع الظاهر والباطن :

للظاهر والباطن في الطريق الصوفي أنواع متعددة من أهمها :

النوع الأول : ظاهر الإنسان وباطنه :

وهو الذي عبر عنه النبي ﷺ فقال : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم " (٢) (٣) .

وعبر عنه على بن أبي طالب فقال : " من كان ظاهره أرجح من باطنه خفت موازينه يوم القيامة ، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقلت موازينه يوم القيامة " (٤) ، وهو الذي جاء على لسان أبي حفص النيسابوري ٢٧٠ هـ حين قال : " حسن أدب الباطن عنوان حسن أدب الظاهر " (٥) .

وهو الذي أشار إليه الجيلاني ٥٦١ هـ حين قال : " اشغل ظاهرك بالحكم

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٤٣ – ٤٤ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : جـ ٢ ص ٤٢٢ كتاب الأدب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله .

(٣) المكي : علم القلوب ص ٢٨٣ ، تحقيق : د /عبد القادر عطا ، مكتبة القاهرة ، ط بدون تاريخ

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) طبقات الصوفية للسلمي : ص ٢٩ .

وباطنك بالحق عز وجل " (١) .

النوع الثاني : الشريعة والحقيقة :

يطلق الظاهر والباطن في الوسط الصوفي أيضا على الشريعة والحقيقة :

يقول الهجويري : " الشريعة والحقيقة هاتان عبارتان لهؤلاء القوم يعبرون بأحدهما عن صحة حال الظاهر وبالثانية عن إقامة حال الباطن " (٢) .

ويعرفهما القشيري فيقول : " الشريعة أمر بالتزام العبودية . والحقيقة مشاهدة الربوبية . والشريعة جاءت بتكليف من الخالق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضي وقدر وأخفى وأظهر " (٣) .

وسوف يتحدث الباحث عن جهود الصوفية في العمل على استقامة ظاهر الإنسان وباطنه ، وعن جهودهما في العمل على استقامة الشريعة والحقيقة في المباحث التالية :

---

(١) الفتح الرباني : ص ٥٤ .

(٢) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٢٦ – ٦٢٧ .

(٣) الرسالة : ص ٨٢ – ٨٣ .

المبحث الأول

المشاكلة بين الظاهر والباطن

من الأهداف التي وضعها الصوفية نصب أعينهم الربط والمشاكلة بين ظاهر وباطن المريد بحيث يكون ظاهره " في الاستقامة كباطنه لا يزيد أولهما عن ثانيهما في مظاهر الإخلاص " (١) ، وحتى يتحقق ذلك نادى الصوفية بأن يتجه المريد إلى ظاهره وباطنه فيعمل على إصلاحهما بالمجاهدة ، ونادوا في الوقت ذاته بأن يصير الإصلاح في كل منهما في وقت واحد لا أن يتم الإصلاح في واحد منهما بعد الآخر ، وقد وضع الصوفية منهجا يسير عليه المريد استمدوا أصوله ومعالمه من الكتاب والسنة ومن أقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ونبدأ ببيان منهج الصوفية في إصلاح الظاهر ونثني بعد ذلك ببيان منهجهم في إصلاح الباطن .

أولا : إصلاح الظاهر .

نادى الحق سبحانه وتعالى بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه فقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٢)

وقال ﷺ : " ما أمرتكم به فخذوه ، وما نهيتكم عنه فانتهوا (٣) ، وفي رواية أخرى يقول ﷺ : " ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا (٤) .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ ، وطبقات الصوفية للسلمي : ص ٢٩ ، والطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ١٣٧ ، والفتوحات الإلهية : ص ١٦١

(٢) سورة الحشر آية ٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ١٧ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ حديث رقم ١

(٤) سنن ابن ماجة : جـ ١ ص ١٧ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ حديث رقم ٢ .

وانطلاقاً من ذلك ذكر الصوفية أن إصلاح الظاهر يكون باجتناب النواهي وامتثال الأوامر ، أو بعبارة أخرى يكون بترك المحرمات وفعل الواجبات كما نص على ذلك سعيد الحيري ٢٩٨ هـ ، وشاه الكرماني ٣٠٠ هـ ، ، وبنان الجمال ٣١٦ هـ ، وأبو العباس السياري ٣٤٢ هـ ، ومحمد بن خفيف الشيرازي ٣٧١ هـ ، والغزالي ٥٠٥ هـ ، وابن عجيبة وغيرهم من مشايخ الصوفية في القديم والحديث (١) .

١ – إصلاح الظاهر باجتناب النواهي .

نظر الصوفية فوجدوا أن الإنسان إنما يعصى الله بالوقوع فيما نهى عنه بجوارحه الظاهرة ، ومن ثم نادى الصوفية بما نادى به القرآن الكريم ، ونادت به السنة ، ونادى به المسلمون جميعاً بأن يحفظ الإنسان جوارحه السبع : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل عن المعاصي : " فلا يتحرك شيء منها في معصية الله تعالى " (٢) ، مع القيام بتهذيبها " وتصريفها في أنواع المصالح (٣)

فالعين مثلا يمنعها المريد من النظر إلى المحرمات والمنكرات ، ويمعن النظر بها في نكون من أجل الاعتبار والاستدلال بآياته على قدرته وعظمته (٤)

امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ**

---

(١) الرسالة : ص ٤٠٧ ، ٤٢٨ ، ٤٠٤ ، ٤١٩ ، وطبقات المناوى : جـ ١ ص ٥٩٥ ، ٦١٧ ، وروضة لطالبين : ص ٦٩ ، والفتوحات الإلهية : ص ١٦٢ .

(٢) بداية الهدية للغزالي ضمن مجموعة رسائل الغزالى : ص ٦٠ .

(٣) الفتوحات لإلهية : ص ١٦٢ .

(٤) بداية الهدية : ص ٦٠ ، وحياة القلوب : ص ٥٣ ، والفتوحات الإلهية : ص ١٦٣ .

(٥) سورة النور آية ٣٠ ، ٣١ .

انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١) .

وكذلك يحفظ المريد سمعه عن الفحش والغيبة والنميمة والمناكر ، ويشغله بسماع الذكر والوعظ والحكمة وسماع كلام الله وسنة رسوله ﷺ وما يعود إليه بالفائدة دينا ودنيا (٢) .

ويحفظ لسانه عن الكذب ، وخلف الوعد ، وبطنه من تناول الحرام ، ويحفظ فرجه ويديه ورجليه عن كل ما حرم الله تعالى (٣).

٢ – إصلاح الظاهر بامتثال الأوامر .

حفظ الظاهر وإصلاحه كما يكون باجتناب النواهي وترك المحظورات ، يكون بامتثال الأوامر والطاعات ، وهي إما فرائض أو نوافل وينطلق الصوفية في هذا من قول الله تعالى في الحديث القدسي: " ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها " (٤) (٥) .

ويذكر الإمام الغزالي أن الذي يعين العبد على القيام بأداء الفرائض والنوافل " مراقبته لجوارحه في لحظاته وأنفاسه من حين يصبح إلى حين يمسي ، وعلمه باطلاع الله عليه ، والاجتهاد في أن لا يراه مولاه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره ، وأن يوزع أوقاته ويرتب أوراده من صباحه إلى مسائه " (٦) .

---

(١) سورة الأنعام آية ١١ .

(٢) بداية الهداية : ص ٦٠ – ٦١ ، وحياة القلوب : ص ٥٠ – ٥٣ ، والفتوحات الإلهية : ص ١٦٢ – ١٦٤ .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ١٧٩ – ٢٥٥ ، وبداية الهداية : ص ٦٢ – ٦٤ .

(٤) الحديث سبق تخريجه .

(٥) بداية الهداية : ص ٢١ .

(٦) المرجع السابق نفسه ، وروضة الطالبين : ص ٦٩ .

وينص الإمام الجيلاني على أن المريد إذا فعل ذلك صلح ظاهره فيقول : " الشرع يهذب الظاهر والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن " (١) .

ثانيا : إصلاح الباطن :

إصلاح الباطن يمر عند الصوفية بمرحلتين

الأولى : مرحلة التخلية .

ويعني بها عند الصوفية تخلية القلب من الأخلاق والخواطر الردية والمذمومة وذلك لأن القلب كما يرى الصوفية " لا ينبت الأعمال الصالحة ولا يصير منبعا للحكم إلا بعد تنقيته من عيوبه وتطهيره من الصفات المذمومة والشهوات الردية .... مما هو منبت الفواحش ومغارس السوء " (٢) ، كما أن الخبائث إذا كثرت على القلب ولم يعمل الإنسان على التخلص منها " أظلم القلب وقسا وظهر منه على الجوارح الذنوب والمعاصي وقلة المبالاة بخشية الله تعالى ويظهر على الوجه الخزي والإجرام وقلة الحياء والمقت ، لأن أعمال الجوارح رشح القلب (٣) .

والصوفية في الدعوة إلى تخلية القلب عن الأخلاق المذمومة نهجوا منهجا خاصا يبدأ من تحديدهم مفهوم الآفة ، وبيان الأسباب المؤدية إلى الوقوع فيها ، وتحديد كيفية التخلص منها (٤) .

فالغرور مثلا وهو أحد آفات القلب يذكر الغزالي في الإحياء أنه قد هيمن على كثير من المتصوفة في عصره ، ويذكر أنه أدى ببعضهم إلى الاكتفاء بالزي الصوفي عن المجاهدة والرياضة ، وأدى بالبعض الآخر إلى المناداة بالاستغناء

(١) الفتح الرباني : ص ٤٧ .

(٢) حياة القلوب : ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٥ ، وبداية الهداية : ص ٦٠ .

(٤) انظر الرعاية : ص ٣٤٣ – ٣٨٢ ، والإحياء : جـ ٣ ص ٥٨٦ – ٦٤٢ .

عن الشريعة (١) .

ولعلاج آفة الغرور يبدأ الإمام الغزالي بتعريف الغرور فيقول : " الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة الشيطان (٢) ، ثم بعد أن يعرف الإمام الغزالي الغرور يحدد لنا الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع فيه ، ويربط بينها وبين العلاج منها ، فيذكر أن الغرور قد يكون سببه الحياة الدنيا وإيثارها على الآخرة ، وعلاجه يكون " بأن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٣) ، وفي قوله ﷺ : ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٤) (٥) .

وأما إذا كانت غرته راجعة إلى انتسابه إلى التصوف والصوفية فيكون علاجها ، بأن يعلم أن مجرد الانتساب إلى الطريق والتزيي بالزي الصوفي ليس كافيا ، وإنما يجب عليه الاجتهاد في المجاهدة والرياضة وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية حتى يحظى بما حظي به أهل التصوف الحق ، وأن يعلم أن العبادة لا تسقط عن المسلم أبدا مهما كانت درجته أو ولايته ، وأن يرد كل عقيدة تخالف ما جاء في القرآن والسنة فإذا فعل ذلك انتفت غرته (٦)

وما فعله الصوفية وخاصة الغزالي في الإحياء مع آفة الغرور فعلوه مع كل الآفات داعين إلى التخلص منها بالوقوف عليها وعلى الأسباب المؤدية إليها آملين في تطهير القلب منها ومن جميع الآفات .

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٥٨٨ .

(٣) سورة النحل آية ٩٦ .

(٤) سورة الأعلى آية ١٧ .

(٥) الإحياء : جـ ٣ ص ٥٨٨ ، والرعاية : ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٦) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٦ - ٦٣١ .

الثانية : مرحلة التحلية .

بعد تخلية المريد باطنه من الأمراض والآفات تبدأ مرحلة أخرى هي مرحلة تحلية القلب بالصفات المحمودة والترقي به في المقامات والأحوال [١] .

والمقامات في الوسط الصوفي تعنى " الوظائف والآداب الشرعية التي يكون عليها المريد المسترشد ويتوصل بالاتصاف بها الاتصاف بما بعدها [٢] ، وهي كما عدها الطوسي [٣] التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا [٤] .

ويرى الصوفية أنه لابد من تخطي هذه المقامات الواحد بعد الآخر ، واشترطوا على المريد أن لا ينتقل من " مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل ، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، ومن لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد " [٥] . وهذه المقامات تكمن قيمتها في أنها كما يرى الصوفية " مصفية للنعوت والصفات النفسية [٦] .

---

(١) حياة القلوب : ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٤ .

(٣) اختلف الصوفية في عد المقامات : فعدها الطوسي سبع مقامات ، وعدها المكي تسع وهي عنده على النحو التالي : التوبة والصبر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة ، وعدها الغزالي عشر مقامات وهي : التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل ، والمحبة ، وعدها السهروردي عشر مقامات هي التوبة والورع والزهد والصبر والفقر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا .

انظر اللمع للطوسي : ص ٥٦ ، وقوت القلوب : جـ ٣ ص ٣ ، والإحياء : جـ ٤ ص ٣ – ٦٤٨ ، وعوارف المعارف : ص ٢٢٥ – ٢٣٩ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٥٦ .

(٥) الرسالة : ص ٥٦ ، وعوارف المعارف : ص ٢٢٦ .

(٦) نشر المحاسن الغالية : ص ١٨٥ .

فالتوبة تؤدي " إلى انتباه القلب عن رقدة الغفلة والإقلاع عن قبيح المعاملة (١) وكبح لجام النفس عن متابعة الشهوات ، والعزم على عدم العود في المستقبل والأخذ في جميل الرجعة (٢) ، كما أنها تجب الذنوب كما قال المصطفى ﷺ " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " (٣) (٤) .

ويمنع الورع من الوقوع في الشبهات ، ومن تشتت القلب عن الله ﷻ (٥)

ويصفي الزهد السالك عن الرغبة في الدنيا والتي هي رأس كل خطيئة (٦)

ويمكن الصبر من " ملازمة الواجب في الإعراض عن المنهي عنه والمواظبة على المأمور به " (٧) ، والثبات مع الله تعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة (٨) .

ويقتضي التوكل الاعتماد الكامل على الله تعالى " والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر (٩) ، وهو يقتضي أيضا الرضا الذي هو آخر المقامات والذي يقتضي : " أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال (١٠) .

---

(١) الرسالة : ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٣ ،

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ٢ ص ٥٧٧ ، كتاب : الزهد ، باب : ذكر التوبة ، حديث رقم [٤٢٥٠] .

(٤) حياة القلوب : ص ١٢٢ ، وحقائق عن التصوف : ص ٢٣٤ .

(٥) الرسالة : ص ١١٠ ، واللمع للطوسي : ص ٧٠ .

(٦) نشر المحاسن الغالية : ص ١٨٥ .

(٧) اللمع للطوسي : ص ٧٧ .

(٨) الرسالة : ص ١٨٤ .

(٩) اللمع : ص ٧٨ .

(١٠) المرجع السابق : ص ٨١ .

وأما الأحوال : فهي عند القوم " معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اكتساب (١) ، وهي كما عدها الطوسي (٢) ، المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة واليقين (٣) .

وتأتي أهمية الأحوال في أنها تنقي صاحبها من الأخلاق المذمومة وتخلقه بالأخلاق المحمودة ، فحال المراقبة وهو أول الأحوال ينفي الخواطر المذمومة المشغلة ، ويؤدي إلى الغناء في " ما دون الحق ، ومتابعة المصطفي ﷺ في أفعاله وأخلاقه " (٤) ، ويقتضي القرب " دوام ذكره في علانيته وسره " (٥) ، وأن يري السالك صنائع الحق ومننه عليه ، ويغيب عن رؤية أفعاله ومجاهداته (٦)

ويؤدي حال الحب إلى صفاء الود وكثرة الذكر لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره كما قال سمنون (٧) ، ويؤدي أيضا إلى " إيثار المحبوب على جميع المصحوب ... وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب ومواطأة القلب لمرادات الرب " (٨) .

وتأتي أهمية الخوف في أنه يؤدي " إلى الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا (٩)

---

(١) الرسالة : ص ٥٧ .

(٢) اختلف الصوفية أيضا في الأحوال وفي عدها كما اختلفوا قبل ذلك في المقامات ، فبينما يعدها الطوسي على النحو الذي ذكرناه ، يعدها السهروردي في عوارف المعارف على النحو التالي : المحبة ، والشوق ، والأنس ، والقرب والحياء والاتصال والقبض والبسط ، والفناء ، والبقاء ، انظر عوارف المعارف : ص ٢٣٩ – ٢٤٨ .

(٣) اللمع للطوسي : ص ١٠٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦) التعرف : ص ١٢٦ .

(٧) اللمع للطوسي : ص ٨٦ .

(٨) الرسالة : ص ٣٢١ .

(٩) المرجع السابق : ص ١٢٧ .

وإلى الرجاء " في ثواب الله وفي سعة رحمته [١] ، وهما معا يقتضيان الشوق إلى الجنة وإلى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه " [٢] .

ويقتضي حال الشوق الأنس بالله تعالى ، وهو يقتضي الطمأنينة ، وتقتضي الطمأنينة المشاهدة وهي أسمى ما يصبوا إليه السالكون وعنها يقول أبو سعيد الخراز : " فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه وتلاشي كل شيء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ولم يبق في القلب إلا الله ﷻ " [٣] .

والمشاهدة تقتضي اليقين : " وهو الذي يملأ القلب نورا وينفي عنه كل ريب ويمتلئ القلب به شكرا ومن الله تعالى خوفا " [٤] ، وبعده لا يبقى في القلب شائبة ويصلح ويستقيم .

وهكذا رسم الصوفية الطريق إلى صلاح الظاهر والباطن وما على المريد إلا السير على ما رسموه حتى يتحقق له ما أرادوه ، وحتى يستقيم ظاهره مع باطنه ، وحتى يصبح الظاهر " عنوان حسن الباطن " [٥] .

---

(١) اللمع : ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٠٠ .

(٤) الرسالة : ص ١٧٨ .

(٥) الفتوحات الإلهية : ص ١٦١ .

المبحث الثاني

التلازم بين الحقيقة والشريعة

استقامة الحقيقة مع الشريعة أو التلازم بينهما هدف من أهداف الطريق الصوفي وغاية من غاياته ، ويدل على ذلك إعلان الصوفية أنه لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ، وأن قيمتهما في اقترانهما ببعضهما البعض فلا حقيقة بلا شريعة لأن الحقيقة بلا شريعة نفاق ، ولا شريعة بلا حقيقة لأن الشريعة بلا حقيقة رياء (١) .

ويوضح ذلك أبو طالب المكي فيقول : " الظاهر والباطن علمان أصلان لا يستغني أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل منهما بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه " (٢) .

ويؤكد ذلك الدسوقي حين يعلن أن أبوته لا يستحقها إلا الجامع بين الحقيقة والشريعة فيقول : " من لم يكن متشرعا متحققا نظيفا عفيفا شريفا فليس من أولادي ولو كان ابني لصلبي ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدي وإن كان من أقصى البلاد " (٣) .

ويزداد الأمر وضوحا عندما يعلن الشيخ زروق في قواعده بأنه " لا تصوف إلا بفقه ، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه ، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه ، ولا هما إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه

---

(١) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٢٧ ، وحقائق عن التصوف : ص ٣٨٢ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٢) علم القلوب : ص ٥٣ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٨١ ، والأجوبة المرضية : ص ٢١٨ .

فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ... " [١].

ويؤكد حرص الصوفية على أن تكون الشريعة ملازمة للحقيقة بالإضافة إلى ما سبق مجموعة من الأمور الأخرى منها :

١ – الدعوة إلى تعلم العلوم الشرعية :

نادى أهل التصوف الحق بوجوب تعلم المريد العلوم الشرعية قبل سلوك الطريق الصوفي ، وأعلنوا أن أحسن أحوال المريد " أن يرجع بداية إلى العلم الظاهر وكتب الحديث " [٢].

ونادى الإمام الجيلاني بأن يكون تحصيل العلم الشرعي على يد شيخ متخصص في العلوم الشرعية فقال " الشيوخ اثنان : شيخ الحكم وشيخ العلم ، شيخ من الخلق يدلك على باب قرب الحق ﷻ ، بابان لابد لك من الدخول فيهما باب الخلق وباب الخالق ، باب الدنيا وباب الآخرة ، باب الخلق أولا وباب الحق ثانيا، ما ترى الباب الأخير حتى تجوز من الباب الأول ، اخرج بقلبك من الدنيا حتى تدخل إلى الآخرة ، اخدم شيخ الحكم حتى يدخل بك إلي شيخ العلم [٣].

ويرجع الصوفية دعوتهم المريدين بداية إلى تعلم العلوم الشرعية إلى مجموعة من الأمور : منها : حثه ﷺ في كثير من الأحاديث على طلب العلم كقوله ﷺ " طلب العلم فريضة على كل مسلم " [٤] [٥] ، وقوله ﷺ : " من سلك

---

(١) قواعد التصوف : ص ٤ القاعدة رقم ٤ ، وص ١٩ القاعدة ٣٢ ، وحقائق عن التصوف : ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

(٢) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٢٥ ، والرسالة : ص ٣٧٩ – ٣٨٠ ، وروضة الطالبين : ص ١١

(٣) الفتح الرباني : ص ١٣٢ – ١٣٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص : ١١١ – ١١٢ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٦ – ٨٧ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم

(٥) الفرق بين الصدر والقلب : ص ٣٥ .

طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم " (١) .

ومنها : أن تعلم الشريعة فضلا عن كونه مطلباً دينياً فإنه حصن للسالك في جميع مراحل سلوكه إذا بدأ بها فإنه يؤمن عليه من الزلل والخطأ ولهذا وجدنا السري السقطي يدعو للإمام الجنيد فيقول له " جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث (٢) .

ويشرح المكي قول السري السابق فيقول : " أي أنك إذا بدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الأصول والسنن ثم تزهدت وتعبدت وتقدمت في علم الصوفية كنت صوفيا سنيا ، وأما إذا كان العكس وابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن العلم والسنن فخرجت إما شاطحا أوغالطا لجهلك بالأصول والسنن (٣) .

ومنها : أن تعلم العلم الشرعي يؤدي إلى عدم تشوش المريد باطنا وظاهرا ويمكنه من تأدية ما افترضه الله عليه من فرائض وما سنه له النبي ﷺ حسبما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ فيكون العمل موافقا للعلم ، فقد قيل : إذا تجرد العلم عن العمل كان عقيما ، وإذا خلا العمل عن العلم كان سقيما (٤) .

وقد طبق الصوفية ذلك وبصورة عملية فوجدنا كثيراً منهم يصرحون بمن تلقوا العلم الشرعي عليهم : فأحمد بن محمد الروذ باري مثلا يقول : " كان أستاذي في التصوف الجنيد ، وفي الفقه أبو العباس بن شريح ... وفي الحديث إبراهيم الحربي (٥) .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٨٦ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم .

(٢) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) آداب المريدين : ص ٣٢ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١١٢ .

(٥) الرسالة : ص ٤١٦ .

ويكفي دليلا على ذلك ما ذكره الإمام الشعراني من أن أبا الحسن الشاذلي وأبا العباس المرسى وغيرهما من مشايخ الصوفية كانوا لا يدخلون أحدا في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ، فإن لم يتبحر فيها فلا يأخذون العهد عليه أبدا [١] .

٢ – التبحر في العلم شرط المشيخة .

أجمع أهل التصوف الحق على أنه : " لا يصلح للتصدر في طريق الله ﷻ إلا من تبحر في الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ... وغير ذلك فكل صوفي فقيه ولا عكس " [٢] .

ويجعل الدسوقي تعلم الشريعة شرطا للاقتداء فيقول : " احكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم أن يقتدى بكم ما سميت الحقيقة حقيقة إلا لكونها تحقق الأمور بالأعمال وتنتج الحقائق من بحر الشريعة " [٣] .

ويري الدسوقي ومشايخ الصوفية في القديم والحديث أن الشيخ إذا لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة لا يصح الاقتداء به ولا اتباعه في الطريق الصوفي لعدم تحقق حاله " [٤] .

٣ – الشريعة طريق الحقيقة .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الصوفية أعلنوا أيضا أن الشريعة هي أصل الحقيقة وأنها أساسها : " التي يترقى السالك منها إلى درج الحقيقة فلا يصح طلب الحقيقة من غير معرفة الشريعة لأنه لا يدخل إلى الحقيقة إلا من باب الشريعة [٥]

---

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤٣ .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٩ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٨٦ .

(٤) الأجوبة المرضية : ص ٢١٧ ، وحقائق عن التصوف : ص ٣٩٣ .

(٥) الأجوبة المرضية : ص ٢١٧ .

يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي : " الشريعة كالشجرة والحقيقة ثمرتها ، فلابد لكل واحدة من الأخرى ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه " (١) .

ويقول أيضا : الشريعة أصل الحقيقة ، والحقيقة فرع ، الشريعة جامعة لكل مشروع والحقيقة جامعة لكل علم خفي وجميع المقامات مندرجة فيهما " (٢)

وما ذكره الشيخ الدسوقي أشار إليه عماد الدين الأموي ٧١٤ هـ ، واليافعي ٧٦٨ هـ (٣) ، وأشار إليه الشعراني وبصورة واضحة فقال : " اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس " (٤) .

٤ – التبرؤ من المنادين بالفصل .

ويأتي في النهاية إعلان أهل التصوف الحق التبرأ من المنادين بالفصل بين الحقيقة والشريعة :

وبداية فقد رمي أهل التصوف من ينادي بالفصل بينهما بأنه جاهل تحذر مصاحبته " (٥) ، وبأن " من اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع " (٦) .

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٢١ .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٣) حياة القلوب : ص ٣٣٦ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٧٧ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٨ .

(٥) الرسالة : ص ٣٩٦ ، وحقائق عن التصوف : ص ٣٩٢ .

(٦) طبقات المناوي : جـ ١ ص ٥٨١ .

ويصل التبرؤ إلى قمته عندما يحكم كثير من أهل التصوف الحق من أمثال المكي والقشيري والجيلاني وعماد الدين الأموي على كل من ينادي بالفصل بين الحقيقة والشريعة ، أو ينادي بالاكتفاء بالحقيقة فقط بالزندقة والإلحاد وذهاب الدين [١] .

ويقول الترمذي : " من اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم الظاهر ليقيم به الشريعة فهو زنديق " [٢] .

---

(١) قوت القلوب : جـ ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، والرسالة : ص ٨٢ ، والفتح الرباني : ص ٧٧ ، وحياة القلوب : ص ٣٣١ ، والأجوبة المرضية : ص ٢٢٠ .

(٢) بيان الفرق بين الصدر : ص ٣٧ .

المبحث الثالث

محـــاربة الانحـــرافات

بعد أن تحدث الباحث في المبحثين السابقين عن الطريق الذي رسمه الصوفية لاستقامة الظاهر والباطن بالمعنى الأول والثاني ، يتحدث في هذا المبحث عن جهود الصوفية في مواجهة الانحرافات التي تتعلق بالظاهر والباطن كالمبالغة في الاهتمام بظاهر الإنسان على حساب باطنه ، وهو ما عرف بقصر التصوف على الرسوم والمظاهر ، أو المبالغة في الاهتمام بالحقيقة على حساب الشريعة ، وهو ما عرف بدعوى الاستغناء بالحقيقة أو بدعوى سقوط التكاليف .

أولا : المبالغة في الاهتمام بالظاهر .

اعترف أهل التصوف بدخول بعض الأدعياء في الوسط الصوفي اهتموا بالمظاهر اهتماما بالغا وتشبهوا بالصوفية في حركاتهم الظاهرة فقط كلبس الصوف والمرقعات وفي أحوالهم الظاهرة أيضا في السماع والرقص والجلوس على السجادات وفي خفض الحديث إلي غير ذلك من الشمائل [١] .

ويذكر الغزالي أن اهتمام هؤلاء بالمظاهر جعل بعضا منهم يظنون أنهم بمجرد ارتدائهم الزي الصوفي يصيرون صوفية ، وأدى بالبعض الآخر إلى ترك المجاهدات والرياضات ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية [٢] .

وقد تصدى أهل التصوف الحق لهؤلاء الأدعياء وبذلوا جهودا عدة في مواجهتهم تمثلت فيما يلي :

---

(١) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٦ – ٦٢٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ٣ : ص ٦٢٧ ، واللمع للطوسي : ص ٥٢٩ .

١ – المبالغة رياء .

من أولى الجهود التي بذلها الصوفية في مواجهتهم هؤلاء الذين بالغوا في الاهتمام بالظاهر على حساب الباطن اعتبارهم هذه المبالغة واقعة تحت طائلة الرياء الذي حذر منه الحق سبحانه وتعالى حين جعله صفة من صفات المنافقين ، وبين أن عملهم من أجل الناس لا من أجله سبحانه فقال تعالى : ﴿ يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) ، وحذر منه سبحانه وتعالى أيضا حين تبرأ من الذين يقصدون غيره من العمل فقال : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه برئ وهو للذي أشرك " (٢) .

وحذر منه ﷺ حين قال : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل له فليطلب ثوابه من عند غير الله ،، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك (٣) (٤) .

وحذر منه السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين فقد روي أن عمر ﷺ رأى رجلا يطأطئ رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب " (٥) .

وروي أن أبا أمامة الباهلي ﷺ رأى رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك (٦) .

---

(١) سورة النساء آية : ١٤٢ .

(٢) سنن ابن ماجة : جـ ٢ ص ٥٦٤ كتاب الزهد باب الرياء والسمعة حديث رقم [٤٢٠٥] .

(٣) سنن ابن ماجة : جـ ٢ ص ٥٦٤ كتاب الزهد باب الرياء والسمعه حديث رقم [٤٢٠٣] .

(٤) الرعاية : ص ١٨٦ ، والإحياء : جـ ٣ ص ٤٥٤ .

(٥) الإحياء : جـ ٣ ص ٤٥٩ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

٢ – الصوفية قصاد حقيقة لا رسوم .

يذكر أستاذنا د / عبد الله الشاذلي أن الأدعياء لما تستروا وراء لبس الزهاد ومن بعدهم الصوفية ، اندفع رجال الحركة الروحية يحاربون المدعين بين صفوفهم من ناحية ، ويركزون على بواطن وقلوب السالكين من ناحية أخرى ، ويعلنون على الملأ أنهم ليسوا طلاب رسم ولا دعاة زي إنما هم قصاد حقيقة وباحثون عن معان لا قوالب ، وعلى المريدين أن يدركوا أن العبرة ليست بالشارة ولا بالخرقة ولا بالخشونة ، وإنما القصد هو تصفية النفس وجلاء القلب حتى تزول عن عين البصيرة الغشاوة لترى أنوار الحق بالمكاشفة ، كما أنها من باب أولى ليست بالنعومة أو الرقة وإنما المطلوب رقة القلب وشفافية الروح التي تواصل العروج إلى حظائر القدس (١) .

وقد اقتضت هذه الغاية من الزهاد والصوفية من بعدهم مجموعة من الأمور :

الأول : قيامهم بتوجيه اللوم على كل لون من ألوان الثياب ما دام صاحبه لا يحترم صفاء الباطن ، ويتوجه بكليته إلى تجلية نفسه ، أو يشم . . مما يرتديه تصنعا أو ادعاءاً حتى ولو كان الثوب هو اللباس الأبيض الذي ورد أن النبي ﷺ فضله على ألوان الثياب عامة (٢) .

وقد كان الحسن البصري هو أول من تنبه لذلك ، فعن أبي مالك الكوفي " عن الحسن أنه جاء من يلبس الصوف وعليه جبة صوف وعمامة صوف ورداء صوف فجلس فوضع بصره في الأرض فجعل لا يروغ رأسه وكأن الحسن خال فيه العجب ، فقال الحسن ها إن قوما جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا والله دينهم بهذا الصوف ، ثم قال : إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من زي المنافقين

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) روي أن رسول الله ﷺ قال : " خير ثيابكم البيض فكفنوا فيها موتاكم والبسوها " سنن ابن ماجة : جـ ١ ص ٤٦٤ كتاب الجنائز باب فيما يستحب من الكفن حديث رقم [١٤٧٢] ، وانظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٤ .

قالوا : يا أبا سعيد وما زي المنافقين ؟ قال : خشوع اللباس بغير خشوع القلب [١]

ولم يقتصر هجوم الحسن على الأدعياء فحسب بل تجاوزهم إلى الصادقين " درءاً للشبه وقطعاً للمفاسد وسداً لأبواب الرياء " [٢] ، فقد روي أن فرقد السبخي أتي الحسن فأخذ الحسن بكسائه وقال " يا فريقد يا ابن أم فريقد إنما البر ما وقر في الصدور وصدقه العمل " [٣] .

وقد توالي هجوم الصوفية الشديد على المظهر والرسم بعد الحسن البصري ، فقد روي أن أبا محمد بن أخي معروف الكرخي " دخل على أبي الحسن بن سيار وعليه جبة صوف ، فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك ؟ صوف قلبك والبس القُوهي على القوهي " [٤] .

ويرى أبو سليمان الداراني رجلا قد لبس الصوف فيقول له : " إنك قد أظهرت آلة الزاهدين ، فماذا أورثك هذا الصوف ؟ فسكت الرجل ، فقال له : يكون ظاهرك قطنيا وباطنك صوفيا " [٥] .

ولم يكتف الصوفية بذلك بل راحوا يعلنون أن لبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة " [٦] ، وأن الصوفي " إذا اهتم بظاهره وأهمل باطنه لا يرجى منه خير " [٧] ، وأورثه ذلك الحسرة والندامة والعتب والملامة والنار يوم القيامة [٨]

---

(١) تلبيس إبليس : ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٨٤ .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٣ ص ٢٧١٣ - ٢٧١٤ ، دار الغد العربي ، ط ٢ ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٧١٤ ، والقُوهِيُّ ضرب من الثياب البيض ، مختار الصحاح : ص ٥٥٨ .

(٥) تلبيس إبليس : ص ٢٠١ .

(٦) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٤٠ .

(٧) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٤٢ .

(٨) طبقات الصوفية للسلمي : ص ١٢٧ .

وكذلك أعلنوا وعلى لسان محمد بن عبد الخالق الدينوري أن هؤلاء الأدعياء " ما زينوا الظواهر إلا بعدما خربوا البواطن " (١) .

ولأجل ذلك نادى الغزالي بعدم الاقتداء بهم لأن في الاقتداء بهم الهلاك (٢)

الثاني : عدول كثير من مشايخ الصوفية عن لبس الصوف ، فلبسوا الخز والكتان وتجملوا بفاخر الثياب ليس كرها في الزي الصوفي ، وإنما ليثبتوا لهؤلاء أن التزيي بالزي الصوفي ليس هو الغاية وإنما الغاية الوصول إلى الحقيقة ، وممن فعل ذلك الحسن البصري ، ومالك بن دينار ، وسفيان الثوري ، وتميم الداري ، وبشر بن الحارث ، وأبو الحسن الشاذلي ، وأبو العباس المرسى وغيرهم " (٣) .

ثانيا :: الاستغناء بالحقيقة عن الشريعة .

اعترف أهل التصوف الحق أمثال الطوسي والسلمي والقشيري والهجويري والغزالي وشهاب الدين السهروردي وغيرهم بأن بعض الضلال الأدعياء الذين انتسبوا إلى التصوف زورا وبهتانا وافقوا الملاحدة من القرامطة أتباع حمدان قرمط ، وغيرهم من فرق الشيعة الغالية في القول بأنه " إذاانكشفت الحقيقة ارتفعت الشريعة " (٤) ، أو بعبارة أخرى أن الخدمة تلزم العبد " إلى أن يصير .... وليا .... فإذا صار وليا ارتفعت الخدمة " (٥) ، وقالوا إن الارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام " (٦) .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٢٩ .

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٧ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ١ ص ٢٧٨ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٦٢٧ ، واللمع : ص ٥٣١ ، ورسالة الملامتية وغلطات الصوفية : ص ١٨٥ ، والرسالة : ص ٣٧ ، والإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٥) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٥٣ .

(٦) عوارف المعارف : ص ٧١ ، والوجود الحق : ص ٢٤٩ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٢٩ .

وقد تصدى أهل التصوف الحق لهذي الدعوى وبذلوا جهودا عدة في مواجهتها من أهمها :

١ – رفض وإبطال الدعوى .

رفض أهل التصوف الحق دعوى الاستغناء بالحقيقة عن الشريعة أو دعوى سقوط التكاليف وذلك من خلال إعلانهم أنهم يجمعون على أن جميع ما فرض الله تعالى في كتابه وأوجبه على رسوله ﷺ فرض واجب وحتم لازم على العقلاء البالغين لا يجوز التخلف عنه ، ولا يسع التفريط فيه بوجه من الوجوه لأحد من الناس من صديق وولي وعارف وإن بلغ أعلى المراتب وأعلى الدرجات وأشرف المقامات وأرفع المنازل ، وأنه لا مقام للعبد تسقط معه آداب الشريعة من إباحة ما حظر الله ، أو تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله ، وسقوط فرض من غير عذر أو علة " (١) شرعية كفقد عقل أو عدم البلوغ .

وكذلك أعلنوا أن التكاليف لا تسقط عن أحد ما دامت البشرية موجودة فإذا انهدمت البشرية " وتخلصت الروحانية إلى مولاها سقط حينئذ التكليف (٢).

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذه الدعوى وإبطالها على مجموعة من الأمور :

الأول : أن الحق سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن أخبر بوجوب الفرائض على جميع الخلق ولم يذكر في آية واحدة منها بسقوطها عن الواصلين فضلا عن المبتدئين من ذلك : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣).

وعن هذه الآية يقول الغزالي : " إنه ﷺ لما بلغ هذه الآية فهم الصحابة

---

(١) التعرف : ص ٧٤ ، وآداب المريدين : ص ٢٥ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٣٢٨ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٣ .

وأهل الإجماع وجوب الصيام على العموم من غير استثناء [١] .

الثاني : أن الله سبحانه وتعالى نادى بعدم الأمن من مكره فقال تعالى : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [٢] .

والقول بسقوط التكاليف يخالف ذلك [٣] .

الثالث : أن الله سبحانه وتعالى أخبر في القرآن بأن مجرد مخالفة واحدة من إبليس ، وآدم عليه السلام كانت سببا في طرد إبليس مما كان فيه ، وطرد آدم عليه السلام من الجنة فكيف بمن ينادي بسقوط التكاليف كلية ؟

الرابع : أنه ﷺ وهو أكمل البشر وأقرب الناس وصولا إلى الله لم يسقط الفرائض عن نفسه بل ظل يلازم الحدود ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه [٤]

وروي أنه ﷺ كان يصلي حتى ورمت قدماه فقيل له يا رسول الله أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا " [٥] [٦]

وعليه وكما يقول الإمام الغزالي فإن من يقول بسقوط التكاليف عنه فإنه يعلي من شأنه على شأن رسول الله ﷺ وهذا كاف في إبطال هذه الدعوى [٧] .

الخامس : أن الصحابة رضوان الله عليهم باتفاق المسلمين وباعتراف

---

(١) فتوى للإمام الغزالي ضمن كتاب قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٤١ .

(٢) سورة الأعراف آية ٩٩ .

(٣) فتوى للإمام الغزالي : ص ١٤٤ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٤٦ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ١ ص ١٩٨ كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه عن عائشة ، وابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٤٤٩ كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في كثرة السجود حديث رقم ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، عن المغيرة ، وأبي هريرة .

(٦) اللمع للطوسي : ص ٥٣٢ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٣٢ .

(٧) فتوى الإمام الغزالي : ص ١٤٦ .

الصوفية أرقى الناس درجة ومع ذلك لم يدع واحد منهم رضي الله عنهم سقوط التكاليف عنه بل الثابت عنهم رضي الله عنهم أنهم كانوا يستقلون أعمالهم ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر : قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله فقال : أنتم الذي قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني (١) (٢) .

السادس : ما ذكره الإمام الشعراني من أنه لم يقل بذلك من أهل السنة والجماعة أحد ، ولا بلغه عن أحد من أولياء الله أنه أمر الناس بترك الوضوء أو صلاة أو صوم أو غيرها ، بل إن أقوالهم طافحة بالأمر بالتقيد بالكتاب والسنة (٣)

السابع : ما ذكره الإمام الشعراني أيضا من أنه لو ادعي كل واحد أنه وصل وسقطت عنه التكاليف لأدى ذلك إلى ارتفاعها عن آحاد الناس جميعا (٤)

إلى غير ذلك من الأدلة التي ساقها الصوفية وتفيد بطلان هذه الدعوى لمخالفتها الكتاب والسنة ولإجماع الأمة .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ٢٣٧ كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح .

(٢) معتقد ابن خفيف : ص ٨٢ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٤٠

(٣) اليواقيت والجواهر جـ ١ ص ١٥٠ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، وميزان العمل للغزالي : ص ١٧١ – ١٧٤ ، وعوارف المعارف : ص ٧١ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٤٠ .

[٢] تحديد الأسباب :

من بين الجهود التي بذلها الصوفية في مواجهة دعوى سقوط التكاليف قيامهم بتحديد الأسباب التي أدت إلى القول بذلك ومن أهمها :

الأول : قلة فهم هؤلاء الأدعياء وتضييعهم لأصول الدين ، وظنهم أن اسم الحرية أتم من اسم العبودية للمتعارف بين الخلق أن الأحرار أعلى مرتبة وأسنى درجة في أحوال الدنيا من العبيد ، فقاسوا على ذلك فضلوا ، وتوهموا أن العبد ما دام بينه وبين الله تعبد فهو مسمى باسم العبودية ، فإذا وصل إلى الله فقد صار حراً ، وإذا صار حراً سقطت عنه العبودية [١] .

ويبين الطوسي خطأ هؤلاء فيذكر أنهم " خفيت عليهم أن العبد لا يكون في الحقيقة عبداً حتى يكون قلبه حراً من جميع ما سوى الله ﷻ فعند ذلك يكون في الحقيقة عبداً لله " [٢] ، ويضيف ذاكراً أن اسم العبودية أحسن الأسماء ، فقد سمى الله بها " المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ [٣] ، وسمى بها ملائكته فقال : ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [٤] ، ثم سمى بها أنبيائه ورسله عليهم السلام فقال : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا ﴾ [٥] ، وقال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ [٦] ، وقال لحبيبه ﷺ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [٧] .

فلو كان بين الخلق والله تعالى درجة أعلى من درجة العبودية لم يفت ذلك

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٣١ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٦ .

(٥) سورة ص آية ٤٥ .

(٦) سورة ص آية ٤١ .

(٧) سورة الحجر آية ٩٩ .

رسول الله ﷺ والله جل وعلا كان يعطيه ذلك ⁽١⁾ .

الثاني : تصورهم الخاطئ بأن الاشتغال بالتكاليف يشغل عن القربة التي نالوها والكمال الذي بلغوه ⁽٢⁾ .

ويبين الإمام الغزالي خطأ ذلك فيقول : " أما ما ذكروه فهو كذب صريح ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسمان : أمر ونهي :

فأما المنهيات مثل : الزنا ، والسرقة ، والقتل .... ، والقذف ، فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ؟ والكمال كيف يكون موقوفا على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فالزكاة والصوم والصلاة ، فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ما له فقد دفع السوء عن نفسه ؟ ولو صام جميع دهره فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار في شهر واحد هو رمضان ؟

وأما الصلاة فتقسم إلى أفعال وأذكار وأفعالها : قيام وركوع وسجود ، ولا شك في أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل فيكون إما قائما أو مضطجعا ، وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ما هو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ⁽٣⁾ ، ومن عشق ملكا ذا جمال فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه استكانة له وجد في قلبه مزيج روح وراحة قرب ، ولذلك قال ﷺ : وجعلت قرت عيني في الصلاة " ⁽٤⁾ ، فاستدامة حال القربة واستزادتها في السجود أيسر منه في الاضطجاع والقعود .

---

(١) اللمع للطوسي : ص ٥٣١ – ٥٣٢ .

(٢) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٣) سورة العلق آية ١٩ .

(٤) الحديث سبق تخريجه .

ومهما أُلقي في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجا عن حال إبليس حيث أُلقي في نفسه أن السجود بحكم الأمر سبب زوال قربه وكماله ، فكل ولي أسعد بالترقي إلى درجة القرب قيل له ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١) ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ ... " (٢) .

الثالث : زعم البعض أن الله مستغن عن عمله فلم يتعب نفسه ، وأن الله قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وهو تكليف بما لا يطاق ، وأن أعمال الجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها " (٣) .

ويبين الإمام الغزالي أيضا خطأ هؤلاء فيقول : " لا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع " (٤) .

الرابع : ومن الأسباب أيضا ولعله أقواها هو أن هؤلاء الأدعياء ادعوا ذلك ليستبيحوا المحرمات ويسقطوا عن أنفسهم اللائمة ، ويجعلوا لأنفسهم على من سواهم الفضيلة والمزية (٥)

[٣] سقوط الكلفة لا التكاليف .

أشار الصوفية في هذا المجال إشارة ذوقية " مفادها أن السقوط يكون على

---

(١) سورة العلق آية ١٩ .

(٢) فتوى الإمام الغزالي : ص ١٤٨ .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) الوجود الحق : ص ٢٥٠ ، وقضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٢٧ .

الحقيقة لمؤونة التكاليف الشرعية وليس لهذه التكاليف ذاتها "[١] .

وقد أشار إلى ذلك الإمام الغزالي ، وأبو نجيب السهروردي ، والإمام الشعراني

فالإمام الغزالي يقول : " معنى ارتفاع التكليف عن الولي أن العبادة تصير قرة عينه وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه فلا يكون عليه كلفة فيه [٢] .

ويقول أبو نجيب السهروردي : " إن الأمر والنهي وأحكام العبودية لازمة ما دام عاقلا ، غير أنه إذا صفا قلبه مع الله تسقط عنه كلفة التكاليف لا نفسها "[٣]

[٤] التبرؤ من القائلين بسقوط التكاليف .

ويضاف إلى ما سبق تبرؤ أهل التصوف الحق في القديم والحديث من هؤلاء الأدعياء وإعلانهم بأن القول بسقوط التكاليف بدعة " وضلالة لا يقول بها إلا الملاحدة [٤] ، وأنها زندقة " ومروق من الدين بالكلية ولا يعد صاحبه من المسلمين فضلا أن يعد من الصوفية [٥] .

وهو ما أكده ابن خفيف حين قال : " من زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية بإسقاط العبودية ... فهو كافر لا محالة "[٦] .

ويري الشيخ النابلسي أن كفر هؤلاء أشد من كفر اليهود والنصارى وذلك لأن اليهود والنصارى آمنوا بالشرائع والأحكام الإلهية ، وأن الله يأمر وينهى

---

(١) الطريق الصوفي : ص ١٣٣ .

(٢) فتوى الإمام الغزالي : ص ١٥٠ .

(٣) آداب المريدين : ص ٢٥ ، واليواقيت والجواهر : جـ ١ ص ١٥٠ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ٢ ص ٤٥٣ .

(٥) نشر المحاسن الغالية : ص ٣٦٨ ، وعوارف المعارف : ص ٧١ ، والكوكب الشاهق : ص ٤٢ ، قضية التصوف المنقذ من الضلال : ص ١٥١ .

(٦) معتقد ابن خفيف : ص ٨٠ .

المكلفين ولم ينكروا أنهم مكلفون بشريعة موسى وعيسى عليهما السلام بخلاف هؤلاء الزنادقة والملحدين الذين أخرجوا أنفسهم العاقلة البالغة عن ربقة التكاليف ، وأدخلوها في زعمهم الباطل في مقام التشريف " (١) .

وقد شهد ابن تيمية لمشايخ الصوفية فذكر أن أئمة الدين ومنهم الصوفية اتفقوا على كفر من قال بسقوط التكاليف (٢) .

وفي النهاية فقد نادى أبو الحسين النوري ٢٩٥ هـ بالبعد عن هؤلاء ، وكذلك الشيخ أفضل الدين فقال : " إياكم أن تصحبوا مثل هذا وتعتقدوه ، فإن أنفاسه سم قاتل لقلوب المريدين " (٣) .

ونختم كلامنا في هذه القضية بقول أبي على الروذباري حين سئل عمن يسمع الملاهي ويقول هي حلال لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال " فقال : نعم قد وصلت ولكن إلى سقر " (٤) .

---

(١) التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس : ص ٨٥ – ٨٦ ، والوجود الحق : ص ٢٥٠ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١١ ص ٤٢٠ .

(٣) الكوكب الشاهق : ص ٤٢ ، ونشر المحاسن الغالية : ص ٣٣٦ .

(٤) الرسالة القشيرية : ص ٤٣٠ .

الباب الرابع

جهود التقويم للعملية التربوية

التمهيد

الباب الرابع

جهود التقويم للعملية التربوية

تمهيد :

التربية في الطريق الصوفي من الأهمية بمكان ، وقد اعتنى بها الصوفية عناية خاصة ، ومع هذه العناية الشديدة بالعملية التربوية فقد وقعت بعض الأخطاء فيما يتعلق بمجال التربية الأمر الذي أدى إلى قيام أهل التصوف الحق :

١ – بوضع القواعد والآداب التي تضمن للعملية التربوية أن تؤدي الغاية المنشودة منها .

٢ – محاربة الانحرافات والأخطاء التي وقع فيها البعض والتي تعوق العملية التربوية من أن تؤدي دورها وهدفها التي تسعي إليه ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الباب ، وسوف يقوم الباحث بداية بالحديث عن :

١ – مفهوم التربية في اللغة والاصطلاح .

٢ – مفهوم المربي ....

٣ – مفهوم المريد ....

٤ – طرق وأهداف التربية في الطريق الصوفي .

التربية في اللغة :

التربية في اللغة مصدر الفعل " ربّ " و " ربب " وتعنى الإصلاح ، وحسن القيام بالرعاية ، والملك ، فيقال : " ربّ الشيء إذا أصلحه ... ورب ولده والصبي يربه ربّا وربّبه تربيبا وتربية بمعنى رباه وأحسن القيام عليه ووليه وتعهده حتى يفارق الطفولة " (١)

---

(١) لسان العرب : جـ ١ ص ٣٩٠ ، والقاموس المحيط : جـ ١ ص ٧٣ ، والمعجم الوسيط : جـ ١ ص ٣٤٥ .

ويقال : " ربّ الشيء بمعنى ملكه وجمعه : ومنها الرب وهو الله ﷻ وهو رب كل شيء أي مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الأرباب ومالك الملك ، ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة فيقال رب الدابة ورب الدار " (١) .

وتأتي التربية مصدرا من الفعل ربا ، وربا الشيء بمعنى زاد ونما وأربيته نميته (٢)

التربية في الاصطلاح الصوفي :

حاول بعض الصوفية تعريف التربية (٣) من هؤلاء الإمام الغزالي فقد عرفها بأنها قيام المربي بتأديب المريد وتنميته وإخراج الأخلاق السيئة منه ، وجعل مكانها أخلاقا حسنة وإرشاده إلى الله تعالى (٤) .

---

(١) لسان العرب : جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٩٠ ، ومختار الصحاح : ص ٢٢٨ ، والمعجم الوسيط : جـ ١ ص ٣٤٥ .

(٣) ذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن العلماء اختلفوا حول إمكانية وضع تعريف اصطلاحي للتربية واتجهوا في ذلك إلى اتجاهين :

الاتجاه الأول : ذهب أصحابه إلى إمكانية وضع تعريف للتربية ومع ذلك فإنهم كانوا يرون أن التعريفات لا تنطبق تماما على المراد من التربية .

الاتجاه الثاني : ذهب أصحابه إلى أن وضع تعريف محدد للتربية من الصعوبة بمكان ، ويرى أستاذنا أن الصوفية كانوا من الذين يؤثرون عدم التعريف لصعوبته من ناحية ، ولعدم جدواه من ناحية أخري ، ولذا لم تؤثر لهم تعريفات تذكر للفظة تربية .

انظر التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٨ – ٣١ ، وانظر التربية العقلية : د / على عبد الحليم محمود : ص ١٦ ، دار التوزيع والنشر ط ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م ، التربية الإسلامية بين العقيدة والأخلاق : ص ١٧٦ بدون دار طبع ، والفكر التربوي عند المتكلمين المسلمين : د / أحمد عرفات القاضي : ص ٨٥ – ١٠١ .

(٤) رسالة أيها الولد للغزالي : ص ١٠٨ ، وخلاصة التصانيف في التصوف : ص ١١٢ ضمن مجموعة رسائل الغزالي .

وعرفها الشيخ عبد العزيز الدباغ فقال : " المقصود من التربية هو تصفية الذات من رعوناتها حتى تطيق حمل السر وليس ذلك إلا بإزالة الظلام وقطع علائق الباطن عن وجهتها " (١) .

ويعرفها أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي فيقول : " التربية عندهم ... تعنى تهذيب وتسليك المريدين بالقصد وتهيئة المناخ لذلك على يد عارف مجرب بغية إيصال السائرين بربهم وتوصليهم إليه بعد تخليصهم من شرور أنفسهم وأهوائهم ودنياهم " (٢) .

ويعرفها أيضا فيقول : " التربية الصوفية ... نوع من التعليم الخاص والتربية ذات الأهداف المحددة ... يقصد من ورائها توطين فكرة ما في نفوس المنتسبين والمنضمين إليها ، أو هي نوع من الدراسات الخاصة المتعمقة التي تسخر من أجلها كثيرا من الميادين لخدمة غرضها السامي وغايتها النبيلة " (٣) .

وبعد فهذه محاولات لبعض الصوفية لتقريب دور وعمل المربي في الطريق الصوفي لا وضع تعريف اصطلاحي للتربية ، وذلك لأن هذه المحاولات أغفلت جوانب متعددة للتربية منها الطريق الوهبي ، ومنها التربية عن طريق الصحبة ، ومنها تربية الذات بالذات ، ومع هذا فإننا نقول إن هذه التعريفات بينت أن التربية في الطريق تقوم في الأغلب على علاقة بين طرفين المربي والمريد وفيها يتولى المربي تربية المريد بغية الوصول به إلى مجموعة من الأهداف السامية .

وسوف يحاول الباحث في الصفحات التالية التعريف بالمربي والمريد ، وبطرق التربية وأهدافها في الطريق الصوفي .

---

(١) الإبريز : ص ٣٥٦ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣١ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

المربي في اللغة :

المربي في اللغة اسم فاعل من الفعل ربّ وربب : وهو الذي يتولى تربية غيره وتهذيبه وإصلاحه ، فيقال : " ربّ ولده وتربيه ... أي رباه ، " و " مَرَبّي " أيضا من التربية " (١) .

المربي في الاصطلاح :

يطلق المربي في الاصطلاح الصوفي ويراد به المرشد الروحي الذي سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يضره (٢) .

قال الكاشاني : " الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكميل فيها لعلمه بآفات النفس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها (٣) .

وجاء في المعجم الصوفي : " الشيخ أو المربي هو الدليل في سفر الصوفي إلى معرفة الحق ، وهو مربي يشذب شطحات النفس ، وهو مؤدب يعد المريد للوقوف بين يدي الحضرة الإلهية بآدابها " (٤) .

المريد في اللغة :

المريد في اللغة اسم فاعل مشتق من الإرادة وهي ترك ما عليه العادة ، والتي هي في الغالب التعريج في أوطان الغفلة والركون إلى اتباع الشهوات

---

(١) مختار الصحاح : ص ٢٢٨ ، ولسان العرب : جـ ١ ص ٣٨٤ ، ومعجم مقاييس اللغة جـ ٢ ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون : جـ ١ ص ١٠٥٠ ، والطريق الصوفي : ص ٤٤ .

(٣) اصطلاحات الصوفية للكاشاني : ص ١٦٢ .

(٤) المعجم الصوفي : ص ٦٧٠ – ٦٧١ .

والإخلاد إلى ما دعت إليه المنيّة ، ومفارقة حظوظ النفس ، وحقيقتها : نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالى ، ولهذا يقال : إنها لوعة تهون كل روعة (١)

المريد في الاصطلاح .

المريد في الاصطلاح الصوفي يطلق ويراد به : السالك المبتدئ الذي تهيئا للدخول في حرم الشيخ المربي واتجه بإرادته إلي صحبته " فترك ما جرت عليه العادة ... ونهض في طلب الحق وترك ما سواه " (٢) .

يقول التهانوي : " المريد اسم فاعل من الإرادة :

ويأتي عند أهل التصوف بمعنيين :

أحدهما : بمعنى المحب أي السالك المجذوب .

والثاني : بمعني المقتدي ، والمقتدي هو الذي نور الله عين بصيرته بنور الهداية حتى ينظر دائما إلى نقصه فيسعى دائما إلى طلب الكمال ولا يقر له قرار حتى يصل إلى مراده وهو القرب من الحق سبحانه وتعالى ...

والمريد الصادق : هو المتجه بكلّه وجملته إلى الله وقلبه دائما معلق بالشيخ بسبب إرادته الكاملة – أو هو – الذي أعرض عما سوى الله . وقيل من يحفظ مراد الله " (٣) .

المريد والمراد :

اختلف الصوفية حول المريد والمراد واتجهوا في ذلك إلى اتجاهين :

---

(١) الرسالة : ص ٢٠١ – ٢٠٢ ، والمعجم الصوفي : ص ٧٢٣ ، والطريق الصوفي : ص ٤٤ .

(٢) الغنية : جـ ٢ ص ٤٢٩ ، والفتوحات الإلهية : ص ٩٠ .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون : جـ ٢ ص ١٥١٤ – ١٥١٥ ، ومعراج التشوف : ص ٣١ ، والمعجم الصوفي : ص ٧٢٣ .

الاتجاه الأول : ذهب أصحابه وهو قوم من متقدمي الصوفية إلى أن المريد والمراد واحد ، إذ لو لم يكن مراداً لله ﷻ بأن يريده لم يكن مريدا ، ولا يكون إلا ما أراد ، لأنه إذا أراده الحق بالخصوصية وفقه بالإرادة (١) .

الاتجاه الثاني : ذهب أصحابه إلى أن هناك فرق بين المريد والمراد ، فالمريد هو المبتدئ ، والذي نصب بعين التعب وألقى في مقاساة المشاق ، أما المراد : فهو المنتهي ، والذي كفي بالأمر من غير مشقة ، فالمريد متعب ، والمراد مرفوق به (٢) .

يقول الكلاباذي : " المريد : هو الذي سبق اجتهاده كشوفه ، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده . والمراد هو الذي يجذبه الحق جذبة ويكاشفه بالأحوال (٣)

وقد حاول الإمام الجيلاني أن يقرب الفرق بين المريد والمراد إلى الأفهام وذلك بضرب المثل فقال : " وينكشف ذلك بموسى ونبينا ﷺ : كان موسى عليه السلام مريدا ، ونبينا ﷺ مراد ، انتهى سير موسى عليه السلام إلى جبل طور سيناء ، وطار طيران نبينا ﷺ إلى العرش واللوح المحفوظ ، فالمريد طالب ، والمراد مطلوب . عبادة المريد مجاهدة ، وعبادة المراد موهبة " (٤) .

طرق التربية والتلقي في الطريق الصوفي .

للتربية في الطريق الصوفي طريقان أساسيان هما الطريق الوهبى ، والطريق الكسبي ، وكل منها يتفرع إلى طرق أخر فرعية .

فالطريق الوهبي يدخل فيه الاجتباء والاصطفاء المحض والذي فيه يبادئ

---

(١) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣١ .

(٢) الرسالة : ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٣) التعرف : ص ١٦٥ .

(٤) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣١ ، والمعجم الصوفي : ص ٧٢٤ .

الحق المراد " بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه " [١] ، ويدخل فيه الأخذ عن رسول الله ﷺ بالتتلمذ على يديه مناما ويقظة [٢] .

أما الطريق الكسبي وهو طريق المريدين فإنه يتضمن التعلم على يد شيخ وهو الطريق التربوي الذي " غلب على المريدين واشتهرت به العملية التربوية الصوفية ، ويقوم على وجود شيخ ومريدين في مكان مناسب له ظروفه الخاصة ونظامه المحدد وإدارته المتميزة ، تدور العملية فيه بين جو مهيئ للتهذيب والترويض ويتنفس فيه المريد بين صحبة يعين بعضهم بعضا ، وللعملية منهجها وبرنامجها الدقيق والمراحل التي يتلقي فيها المريد ، وتتنقلاته خلالها مرسومة مقررة ، وكل واحد من المريدين يقدم عليها بقصد ونية ويسلك سلوكا إراديا [٣]

ويدخل فيه أيضا التربية عن طريق الصحبة وذلك بأن يطلب " صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة [٤] " فينبهه عليها .

ويدخل فيه أيضا تربية الذات بالذات وذلك بالتعلم المباشر من الشريعة كما تركها رسول ﷺ ، أو أن يستفيد " معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه " ومخالطة الناس [٥] .

ومع اتفاق العلماء مع الصوفية على جواز هذه الطرق فإن بعضا من العلماء رفضوا التلقي عن النبي ﷺ في اليقظة وذهبوا إلى أنه يترتب عليها بعض

---

(١) عوارف المعارف : ص ٦٠ ، والإحياء : جـ ٣ ص ٩٤ ، والغنية : جـ ٢ ص ٤٣٩ ، واصطلاحات الصوفية للكاشاني : ص ٦٠ .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٣٧٩ ، ٤٧٩ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٧٠ .

(٤) الإحياء : جـ ٣ ص ١٠٤ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٠٥ ، وعوارف المعارف : ص ٦٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٦٨ .

المحالات منها :

١ – أن يخرج النبي ﷺ ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبونه .

٢ – أن يخلو قبره ﷺ من جسده فلا يبقى من قبره فيه شيء .

٣ – ويلزم منه الحكم على من رآه بالصحبة وبقائها إلى يوم القيامة (١) .

وقد أجاب الصوفية على هذه الاعتراضات وذهبوا إلى ما يلي .

١ – أنه ﷺ أخبر بنصوص صحيحة يفيد ظاهرها جوازها من ذلك ما رواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من رآني في المنام فسيراني يقظة ، ولا يتمثل الشيطان بي (٢) زاد مسلم : " أو فكأنما رآني في اليقظة (٣) هكذا بالشك .... ووقع عند ابن ماجة من حديث أبي جحيفة " فكأنما رآني في اليقظة " (٤) (٥) .

٢ – تصريح كثير من العلماء بجوازها ووقوعها فأبو بكر بن عربي كان يقول : " وأما رؤيته ﷺ في اليقظة فإنها ممكنة " (٦) .

٣ – أنه لا يلزم إطلاق الصحبة على من وقعت له لأن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به في عصر الرسالة ومات على الإسلام (٧) .

---

(١) فتح الباري : جـ ١٢ ص ٤٠١ – ٤٠٢ كتاب التعبير باب من رأي النبي ﷺ في المنام

(٢) صحيح البخاري : جـ ٤ ص ٢١١ كتاب التعبير باب من رأى النبي ﷺ في المنام .

(٣) صحيح مسلم : جـ ٢ ص ٣٠٧ كتاب الرؤيا باب قول النبي ﷺ من رآني في المنام فقد رآني .

(٤) سنن ابن ماجة : جـ ٢ ص ٤٦١ كتاب تعبير الرؤيا باب رؤية النبي ﷺ في المنام ، حديث رقم [٣٩٠] .

(٥) الكواكب الزاهرة : ص ٣٤ .

(٦) المرجع السابق : ص ٤٠ .

(٧) المرجع السابق : ص ٤٣ – ٤٤ .

٤ – أنه لا يلزم من حدوث الرؤية خروج النبي ﷺ ومشيه في الأسواق وإنما يمكن أن يمد للرائي بصره ويكشف له عن النبي ﷺ في داخل قبره وتقرب بينهما المسافات كما حدث بين عمر ﷺ وسارية ، أو تكون على غرار ما وقع للنبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء والمعراج فليست الرؤية إلا من باب خرق العادات

٥ – وقد يقال للمنكر دعواك الاستحالة إن عنيت بها الاستحالة العقلية فباطل ، أو الشرعية فمن أين لك بدليل أو قاعدة تعينك على الاستحالة أو حتى مجرد افتراضها ؟ لا يوجد دليل شرعي ، والعقل لا يحيل وقوعها فليس بعد ذلك سند بصحيح المنع [١] .

ويضاف إلى ما سبق تصريح كثير من الصوفية بوقوعها لهم واستفادتهم من هذه الرؤية فوائد معنوية كا " لتمتع الروحي بلقيا النبي ﷺ " [٢] ، وفوائد حسية كتلك التي حصل عليها الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي عندما رأى النبي ﷺ فتفل رسول الله ﷺ في فمه فقال : " يا رسول الله ما فائدة هذا التفل ، فقال : لا تتفل بعدها على مريض إلا ويبرأ " [٣] ، ومنها الاستفادة العلمية وهي المقصود الأسمى التي يتطلع إليها الراؤون من رؤيته ﷺ من ذلك ما ذكره الشيخ أبو المواهب الشاذلي فقال : " رأيت رسول الله ﷺ فقال لي يا محمد ما هذه الغفلة وما هذه الرقدة وما هذا الإعراض ، مالك تركت تلاوة القرآن ... لا تفعل ذلك أصلا ، بل أتل كل يوم ولو حزبين لا أقل من ذلك كل يوم " [٤] .

وعليه ومن خلال ما سبق فالطريق الصوفي يحتوي على خمسة طرق

---

(١) تنوير الحلك في رؤية النبي والملك للسيوطي ضمن المجد الثاني من كتاب الحاوي في الفتاوي : ص ٢٦٤ – ٢٦٥ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٤٨٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٦٧ .

فرعية هي :

١ – الاجتباء والاصطفاء المحض " الجذب " .

٢ – التلقي عن النبي ﷺ .　　　٣ – التعلم على يد شيخ .

٤ – الصديق .　　　٥ – تربية الذات بالذات .

أهداف التربية .

يهدف الصوفية من العملية التربوية في الطريق الصوفي مجموعة من الأهداف السامية منها :

١ – تعريف المريد بالله والوصول به إلى توحيده توحيداً وجدانيا يكون فيه " مع الله بلا علاقة " [١] ويجلس معه بلا هم [٢] .

٢ – طبع المريد على التمسك بالشريعة والاستقامة عليها والمحافظة على الآداب كلها [٣].

٣ – تهذيب النفس بتخليتها عن الأخلاق الذميمة وتحليتها بالأخلاق الحميدة وتهيئتها لتلقي المنح الإلهية الناتجة عن طريق التقرب إلى الله تعالى والذي أشار الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي والذي يقول فيه : " لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده ، فبي يسمع وبي يبصر ، وبي ينطق ، وبي يعقل ، وبي يبطش [٤] [٥]

---

(١) الرسالة : ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٨١ ، والغنية : جـ ٢ : ص ٤٣٧ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٨٢ .

(٣) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٤) الحديث سبق تخريجه .

(٥) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣٠ ، وكشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٣٢ – ٢٣٨ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١٨٢ – ١٨٩ .

وحتى تحقق التربية الصوفية هذه الأهداف قام الصوفية بأمرين :

الأمر الأول : وضع الصوفية آدابا وقواعد وشروطا لكل من المربي والمريد وطالبوا بالسير عليها .

الأمر الثاني : قيام الصوفية بمحاربة الانحرافات التي وقع فيها كل من المربي والمريد والتي تتعلق بهذه الآداب والقواعد والشروط ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في الصفحات التالية – بصورة موجزة فيما يتعلق بالآداب والقواعد والشروط مع التركيز على محاربة الانحرافات لأنها الهدف من هذا البحث .

الفصل الأول

التوجيهات الخاصة بالمربيين

الفصل الأول

التوجيهات الخاصة بالمربيين

تمهيد :

الشيخ أو المربي في الطريق الصوفي من الأهمية بمكان ، وتأتي أهميته من الدور الذي يقوم به ، فالشيخ أو المربي هو الذي يدل المريد على الطريق " ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق الحميدة " (١) ، وهو الذي يدله على الجمع على الله والفرار إليه ، ويساير المريد في طريقه حتى يصل إلى الله تعالى ، ويوقفه على إساءة نفسه ويعرفه بإحسان الله إليه ، فتفيده معرفة نفسه الهروب منها ، وعدم الركون إليها ، ويفيده العلم بإحسان الله إليه الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه والدوام على ممر الساعات بين يديه (٢) .

وتكمن أهمية المربي أيضا في أنه يريح السالك من التعب ويختصر له الطريق (٣) ، ولعظم الدور الذي يقوم به الشيخ أو المربي أعلن أهل التصوف أن المريد إذا لم تتداركه العناية الإلهية بالجذب بداية فلابد له من شيخ يسلك الطريق على يديه ، وأعلنوا أن السالك إذا لم يلزم شيخا يهديه الطريق تأخر وصوله في الطريق بل ربما لا يصل مطلقا وهوى في مهاويه ، فقد قال الشيخ على الخواص :

لا تسلكن طريقا لست تعرفهـــا .

بلا دليل فتهوى في مهاويها (٤) .

وحتى يحقق المربي دوره المنوط به اشترط الصوفية في الشيخ المربي

---

(١) خلاصة التصانيف في التصوف : ص ١١٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٩٨ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٨١ .

(٤) المرجع السابق : ص ٤٢ ، ولواقح الأنوار القدسية للشعراني : ص ٣٥ .

مجموعة من الشروط ، ووضعوا له مجموعة من الآداب وخاصة فيما يتعلق بعلاقته بمريديه استمدوها من الكتاب والسنة ولم يبتدعوها من عند أنفسهم .

كما قام الصوفية بمحاربة الانحرافات التي وقعت في الطريق والتي تتعلق بالشروط ، وبعلاقة المربي بالمريدين ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الفصل إن شاء الله تعالى من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول

مشروعية اتخاذ الشيخ المربي

يحرص الصوفية دائما أن تكون أعمالهم شرعية وعلى وفق ما جاء به الشرع ، ومن ثم وجدناهم يدللون على مشروعية اتخاذ الشيخ المربي بالأدلة الشرعية وأضافوا إليها الاستدلال العقلي المهتدي بنصوص الشرع .

أولا : القرآن الكريم .

استدل الصوفية على مشروعية اتخاذ الشيخ في الطريق بكثير من الآيات التي يدعو فيها الحق سبحانه وتعالى بالاهتداء والاقتداء بالصالحين السابقين واتخاذهم القدوة الصالحة من ذلك : قوله تعالى : ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (١) .

وعن هذه الآية يقول السهروردي : " قال عبد الله بن بشر صاحب رسول الله ﷺ : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب الله ﷻ فقد خطر الأمر ، فعلى المشايخ وقار الله ﷻ وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطنا قال الله تعالى : ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٢) . فالمشايخ لما اهتدوا وأهلوا للاقتداء بهم جعلوا أئمة للمتقين " (٣).

---

(١) سورة الأنعام : آية ٩٠ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٠ .

(٣) عوارف المعارف : ص ٧٣ .

واستدل الصوفية أيضا على ذلك بالآيات التي يدعو فيها الحق سبحانه وتعالى إلى سؤال أهل الذكر والخبرة من ذلك : قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [١] ، أي إذا لم تكن تعرف الرحمن فاسأل عنه خبيرا به أي يعرفه ، ليعرفك من الرحمن ، وفي هذا دلالة على الاحتياج إلى المرشد [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [٣] .

ومن الأدلة أيضا بل ومن أهمها في التدليل على مشروعية اتخاذ الشيخ المعلم المربي ما ذكره الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف من تتلمذ سيدنا موسى عليه السلام علي يد الخضر عليه السلام فقد قال الله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٤] . فما ذكره الحق سبحانه وتعالى في هاتين الآتين يدل على أن موسى عليه السلام طلب العبد الصالح ليتعلم منه الرشد [٥] .

ومن الآيات التي يستدل بها الصوفية على مشروعية اتخاذ الشيخ المربي قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [٦] .

وعن هاتين الآيتين يقول الإمام الجيلاني : " إن الله ﷻ أجرى العادة بأن

---

(١) سورة الفرقان آية : ٥٩ .

(٢) مهندس عبد العزيز منصور : خصائص التصوف الإسلامي بين مؤيديه ومعارضيه سلسلة بحوث في التصوف ، ط ١٩٩٧ م – ١٤١٧ هـ ، وقواعد التصوف للشيخ زروق : ص ٣٩ ، وأصول الوصول جـ ١ ص ٥٩ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٧ .

(٤) سورة الكهف آية ٦٥ – ٦٦ .

(٥) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٨٣ ، وحقائق عن التصوف : ص ٦٣ .

(٦) سورة البقرة آية ٣١ – ٣٢ .

يكون في الأرض شيخ ومريد ، وصاحب ومصحوب ، وتابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، ألا ترى إلى آدم ﷺ لما خلقه الله تعالى علمه الأسماء كلها وافتتح الأمر به فجعله كالتلميذ مع الأستاذ ، والمريد مع الشيخ ، وقال له : يا آدم هذا فرس وهذا بغل ... ثم لما فرغ من تعليمه وتهذيبه جعله أستاذا معلما شيخا حكيما ... وأقام الملائكة حوله صفوفا فقال : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ (١) ، بعد أن ظهر عجزهم وعدم علمهم بذلك ؟

وقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (٢) ؟ فصارت الملائكة تلاميذ لآدم وآدم شيخهم فأنبأهم بأسماء الأشياء كلها على ما شهد به القرآن فظهر فضله ﷺ عليهم فصار أفضلهم وأشرفهم عند الله وعندهم ، فصار متبوعهم وهم تابعون مقتدون صلوات الله عليهم ، فلما جرى ما جرى من أكل الشجرة والخروج من الجنة احتاج إلى معلم ومرشد وأستاذ ومؤدب ومنبه فبعث الله تعالى جبريل ﷺ فآنسه وعرفه ما أشكل عليه ... فصار آدم ﷺ تلميذاً لجبريل وجبريل ﷺ أستاذه وشيخه .... ثم هلم جرا تعلم شيث بن آدم من أبيه ... ثم أولاده ، وكذلك نوح النبي ﷺ علم أولاده ... ، وكذلك موسى وهارون عليهما السلام علما أولادهما وبني إسرائيل ، وعيسى ﷺ علم الحواريين ، ثم إن جبريل ﷺ علم نبينا ﷺ .. ثم تعلمت الصحابة رضي الله عنهم منه ﷺ ، ثم التابعون منهم ... وما زالت الأولياء والصديقون ... كذلك من بين أستاذ وتلميذ " (٣) .

وبالرغم من طول هذا النص فإنني آثرت الآتيان به كاملا لأنه يبين أن سنة الله جرت في أن يكون هناك معلم وتلميذ من آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٢ .

(٣) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣٨ – ٤٣٩ .

ثانيا : السنة النبوية .

يستدل الصوفية على مشروعية اتخاذ الشيخ المربي بالسنة القولية والفعلية

أما السنة القولية فيستدلون بما جاء عن النبي ﷺ ، وفيه يدعوا إلى الاقتداء والاهتداء بالسابقين من الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين من ذلك قوله ﷺ : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ (١) (٢) .

كما يستدلون على ذلك أيضا بدعوته ﷺ إلى الاستعانة على كل صنعة بصالح أهلها من ذلك قوله ﷺ : " استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها (٣) (٤)

أما السنة الفعلية فالصوفية يقتفون أثر النبي ﷺ وفعله مع أصحابه حيث علمهم ﷺ كل شيء وتلقى الصحابة منه ﷺ العلوم والآداب (٥) .

ثالثاً : الأدلة العقلية :

استدل الصوفية على مشروعية اتخاذ الشيخ المربي بأدلة عقلية استنبطوها من النصوص السابقة بل تكاد تكون تلخيصا لها منها :

١ – تعلم آدم عليه السلام من الخالق جل وعلا .

٢ – طلب موسى عليه السلام الشيخ المعلم وسعيه إليه وتتلمذه على يديه .

٣ – مصاحبة النبي ﷺ لجبريل عليه السلام وفي هذه الصحبة معنى اتخاذ المرشد الهادي والدليل المعلم وإلا فربما كان يكفي النور الإلهي في القلب المحمدي والأخذ عنه .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٤ ص ١٢٦ – ١٢٧ عن العرباض بن سارية ، وابن ماجة في سننه : جـ ١ ص ٢٨ – ٢٩ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، حديث رقم ٤٢ .

(٢) خصائص التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ١١ .

(٣) الحديث ذكره العجلوني في كشف الخفا : جـ ١ ص ١٢٢ حديث رقم ٣٤٠ .

(٤) الفتح الرباني : ص ١١٩ – ١٢٠ .

(٥) عوارف المعارف : ص ٧٨ .

٤ – تعلم القرآن والعلم : فالقرآن بالرغم من وجوده في المصحف فلابد لمن أراد أن يتعلمه من معلم ، كذلك العلم فبالرغم من وجوده في الكتب فلابد من معلم يعلمه أصول القراءة والكتابة والبحث كذلك الشأن في جميع الصناعات أيضا والفنون ، وكذلك الشأن في الطريق الصوفي لابد من شيخ يأخذ بأيد المريدين على الطريق الصحيح ويوضح لهم عقبات الطريق وكيفية التغلب عليها [١] .

---

(١) خصائص التصوف الإسلامي : جـ ١ ص ١١ ، وأصول الوصول : جـ ١ ص ٦٠ ، وقواعد التصوف : ص ٣٩ القاعدة ٦٥ .

المبحث الثاني

شروط الشيخ المربي

لكي يؤدي الشيخ دوره المنوط به وهو الأخذ بأيدي المريدين في الطريق والوصول بهم إلى الله اشترط الصوفية أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط من أهمها :

١ – أن يكون جامعا بين الجذب والسلوك وبين الحقيقة والشريعة فيكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم به مالا بد منه في الرسوم وما يبني عليه وظائف سلوكه من أحكام الطهارة والصلاة والصوم والزكاة وأحكام المعاملات وأن يكون متبحرا في العلم الباطن إذ المقصود بالذات في الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم ، لأن المريد إنما يطلب الشيخ الذي يسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة (١)

٢ – أن يكون على علم بالله وبصفاته وبما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه إجمالا وتفصيلا ، وبما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسل ، وأن يدين بسائر أركان الإيمان كما دان بها السلف الصالح ، وأن يتحقق بالعقيدة عملا وذوقا (٢)

٣ – أن يتخلق بمكارم الأخلاق ، والتي تمثلها أخلاق النبي ﷺ (٣)

٤ – أن يكون قد سلك الطريق على يد شيخ مربي سلك هو الآخر علي يد شيخ ومرشد " وهلم حتى تنتهي السلسلة إلي النبي ﷺ (٤) .

---

(١) الفتوحات الإلهية : ص ٩٥ – ٩٧ ، والإبريز : ص ٤٠٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٤٥ – ٢٥٧ .

(٢) حقائق عن التصوف : ص ٧٠ .

(٣) رسالة أيها الولد للغزالي : ص ١٠٩ ، وكشاف اصطلاحات الفنون جـ ١ ص ١٠٥٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٢٥٨ .

(٤) حقائق عن التصوف : ص ٧٠ .

ويعللون اشتراطهم هذا الشرط بمجموعة من العلل منها :

أ - أن سلوكه الطريق يعرفه بمنافعه ودسائسه فيسير غيره كما سار هو [(١)]

ب - كما أن سلوكه يعرفه بسهل الطريقة وصعبها وهذا يجعله بصيرا بأحوال المريدين وبما يصلح لهم فمن كان قويا حمله على الصعبة ليطوي عنه مسافة البعد ، ومن كان ضعيفا حمله على السهلة حتى لا ينفره فيرجع من حيث جاء [(٢)]

ج - كما أن سلوكه يجعله يخبر مراتب النفس وأمراضها ووساوسها ، وعرف أساليب الشيطان ومداخله ، وآفات كل مرحلة من مراحل السير وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه [(٣)] .

٥ - أن يكون زاهداً في الدنيا ، ذا همة عالية ، وأن تكون له القدرة على جذب المريدين ، وأن لا يغفل عن تهذيب نفسه بتهذيب نفوس المريدين [(٤)]

٦ - أن لا يتصدر للمشيخة من تلقاء نفسه بل ينتظر الإذن له من الشيخ : " فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدعيه لا يحق أن يتصدر فيه [(٥)]

وبعد فهذه بعض الشروط التي اشترطها الصوفية في الشيخ المربي وهي تدل على مجموعة من الأمور منها :

أ - شمولها لجميع الجوانب المتعلقة بالشخص المربي العقدية والشرعية والأخلاقية ، كما أنها شملت الجوانب التحققية العرفانية الباطنية .

ب - إعلان الصوفية أن هذه الشروط إذا توفرت في شخص من الأشخاص

---

(١) رسالة أيها الولد : ص ١٠٩ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٩٢ .

(٣) حقائق عن التصوف : ص ٧٠ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٢٠٤ ، والإبريز : ص ٤٠١ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) حقائق عن التصوف : ص ٧١ ، وعوارف المعارف : ص ٢٠٥ ، والفتوحات الإلهية : ص ٩٧ .

أهل للمشيخة وأمكن الاقتداء به واستطاع أن يفيد تلاميذه بما يريدونه منه .

ج – يضاف إلى ما سبق رفض الصوفية مشيخة كل من لم تتوفر فيه الشروط السابقة وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في مبحث محاربة الانحرافات .

المبحث الثالث

آداب الشيـــخ مـــع المـــريد

لكي تتم العملية التربوية في الطريق الصوفي بنجاح وضع الصوفية آدابا وواجبات طالبوا الشيخ بمراعاتها أثناء تعامله مع المريد ، وهذه الآداب كما يذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي تنقسم إلى قسمين آداب عامة ، وآداب خاصة [١]

أما الآداب العامة فمنها :

١ – حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب [٢] .

٢ – النزول إلى حال المريدين والرفق بهم [٣] .

٣ – إيثار الشيخ مريديه على نفسه وولده [٤] .

٤ – أن يواسي المربي الفقراء والمريدين من حوله بالمال إذا كان يملك المال وإلا واساهم شعوريا ووجدانيا [٥] .

٥ – التنزه عن مال المريد بأن يجعل نفعه وإرشاده خالصا لوجه الله [٦]

٦ – التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض [٧]

٧ – أن يتجنب المواقف والعادات التي تسقط حرمته بين مريديه فلا ينام معهم ولا يأكل بينهم ، إلى غير ذلك من المناسبات التي تجعل المريد ينظر إلى الشيخ نظرة عادية ، بل لابد أن يحافظ الشيخ على حرمته في نفس مريديه بلا

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠٥ .

(٤) اللمع للطوسي : ص ٢٧٣ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٥) عوارف المعارف : ص ٢٠٥ .

(٦) الغنية : جـ ٢ ص ٤٤٢ .

(٧) عوارف المعارف : ص ٢٠٥ .

استعلاء ولا استكبار وبلا ترفع لطلب نفس أو علو منزلة أو ازدراء لحال المريد ومنظره فإن ذلك لا يدخل تحت الحرمة بل يجعل المريد ساخطا على شيخه لنفوره منه [١].

<u>أما الآداب الخاصة :</u> فهي الآداب التي تستعمل " في عملية التربية وحدها ولا تكون إلا عندما يكون هناك شيخ وتلميذ ... وهي ليست مباحة يمكن أن يقوم الشيخ بها أو لا يقوم بها ، بل هي ضرورية عليه [٢] لحاجة العملية التربوية إليها ومن أهمها :

١ – أن يقبل المريد لله تعالى لا لنفسه ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألا يحمله مالا طاقة له به ، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم .

٢ – أن لا يتهاون معه إذا علم فيه صدق المجاهدة بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضات الله دون النظر إلى عائد . .

٣ – أن يثبته على الطريق وألا يعمل ما من شأنه تنفيره عنه .

٤ – أن يعلم المريد كيفية الرجوع إلى الله تعالى ، ويدله على طريق يسهل عليه سلوكه ، وأن يعلمه شرائع الإسلام ، وأن يأمره بقضاء ما عليه من فرائض وبرد المظالم ، وأن يعرفه بنفسه وبكيفية تأديبها حتى يفطم نفسه عن مألوفاتها .

٥ – أن يحفظ سر المريدين فلا يطلع غيرهم على ما يحصل لهم من الإشراف على أحوالهم لأنه أمانة عنده ، وقد قيل : صدور الأحرار قبول الأسرار

٦ – أن يراقب سلوك المريدين فإذا رأى من أحدهم شيئا مما يكره في الشرع وعظه في السر وأدبه ، ونهاه عن المعاودة إلى ذلك إذا كان في الأصول

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢٧٤ .

أو الفروع أو ادعاء حالة ليست له أو إعجاب بعلمه ورؤيته ، فيصونه عن محل الإعجاب ويصغر في عينه أحواله وأعماله لئلا يهلك .

٧ – أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق ، لأنه محل القدوة والرحمة (١) .

وبالجملة فالشيخ يجب عليه تجاه مريديه أن يرعاهم رعاية كاملة ويعلمهم كل ما يؤدي بهم إلى الرقي في الطريق ويصل بهم إلى الله تعالى الذي هو أسمى ما يطلبه السالكون من سلوكهم .

---

(١) الغنية : جـ ٢ ص ٤٤٢ – ٤٤٣ ، عوارف المعارف : ص ٢٠٤ – ٢٠٥ ، والرسالة : ص ٣٨٢ ، ولكوكب الشاهق : ص ٤٧ – ٥٠ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٧٣ – ٢٨٠ ، والشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية للدكتور / سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني : ص ٥٣٢ – ٥٣٣ ، مؤسسة الجريسي للتوزيع ، الرياض ، ط ١ ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

المبحث الرابع

محاربـــة الانحـــرافات

بعد أن تحدثنا في المباحث السابقة عن الشروط والآداب التي يجب أن تتوفر في الشيخ المربي نتحدث في هذا المبحث عن محاربة الصوفية للانحرافات التي حدثت في الطريق الصوفي سواء ما كان منها يتصل بالشروط أو يتصل بالآداب .

أولاً : الشيخ المجذوب .

ذكرنا من قبل أثناء الحديث عن الشروط الواجب توفرها في الشيخ المربي أن الصوفية اشترطوا أن يكون الشيخ جامعا بين السلوك والجذب ، ومع اشتراط الصوفية هذا الشرط فإن بعضا من المريدين حاولوا التسليم " لأهل الجذب الذين أفناهم الحب عن سوى المحبوب ... معتقدين أنهم مرشدون وتركوا أهل العلم بالله والمعرفة (١) ، الأمر الذي رفضه أهل التصوف الحق فأعلنوا أنه لا يصلح " للتربية سالك محض ، ولا مجذوب محض وإنما يصلح من تقدمه سلوك ، ثم تداركه الجذب أو تقدمه جذب ، ثم رجع للسلوك ، والأول أكمل وقيل الثاني أكمل وكلاهما يصلحان للتربية دون ما قبلهما " (٢) .

كما نادوا بعدم الاقتداء به فأنشدوا يقولون :

لا تقتدي بمن زالت شـــريعته

ولو جاء بالأنباء عن الله (٣) .

وترجع مناداة الصوفية بعدم صلاحية المجذوب للتربية والاقتداء لعدة أمور:

---

(١) الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٤ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ٩٠ ، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ١٢٩ ، وعوارف المعارف : ص ٧٥ .

(٣) الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٤ .

١ – لفقده شرطا من الشروط الواجب توفرها في الشيخ المربي وهو الجمع بين الجذب والسلوك .

٢ – ولأن الشيخ المجذوب يكون مشغولا بحاله عن حال غيره ، كما أنه في بعض الأحايين يكون غير متنبه إلى نفسه فكيف يتنبه إلى غيره فيتوجه إليه بالتوجيه والتربية ؟ [١] .

٣ – ولأن الاقتداء به يؤدي إلى مفاسد كثيرة كترك الصلاة وغيرها من التكاليف اقتداء بالشيخ المجذوب إن تركها ، وإن ذكر الصوفية أن المجذوبين يحفظهم الله من ذلك فإنه سبحانه ضمن لهم أن يعيد إليهم عقولهم وقت أداء التكاليف [٢] .

٤ – ذكر حاجي خليفة أن الشيخ المجذوب لا يصلح للتربية لأنه وإن ذاق المقصود لكنه لم يذق الطريق إلى الله تعالى [٣] .

وعليه فقد كان الصوفية أوفياء للشروط التي وضعوها فيمن يتولي التربية برفضهم الشيخ المجذوب ، وكانوا مؤدبين معهم حين طالبوا بحسن معاملتهم إكراما لله ولرسوله ، فقد قال الشيخ ماضي أبو العزائم : " وإني يسرني أن المسلم يعامل هؤلاء معاملة الأطفال الرضع فيرحمهم ويشفق عليهم إكراما لله ورسوله ، ولا يقتدي بهم [٤]

ثانيا : أدعياء المشيخة وموقف الصوفية منهم :

ادعى المشيخة وتصدى لها كثير من الذين لم تتوفر فيهم شروطها ، وقد

---

(١) الفتوحات الإلهية : ص ٩٠ – ٩١ ، والإبريز : ص ٤٠١ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٧٥ ، والإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٤ – ١٥٥ .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون : جـ ١ ص ١٠٥٠ .

(٤) ماضي أبو العزائم : مذكرة المرشدين ص ٦٤ ، دار المدينة المنورة ، ط بدون تاريخ ، والإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٥ .

وجد هؤلاء في الطريق منذ وقت مبكر وما يزال يبتلي بهم إلى الآن .

وقد أدي ظهورهم وغلبتهم في بعض الأحيان إلى اختفاء المشايخ والمرشدين الحقيقيين وقصدهم " من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وأفتن " (١) .

وكذلك أدى ظهورهم إلى إعلان بعض الصوفية من الغيورين على الطريق ارتفاع التربية بالمفهوم الاصطلاحي لها في الطريق الصوفي كلية (٢) .

وقد تصدى أهل التصوف الحق لهؤلاء الأدعياء متى وجدوا وقاموا بجهود تصحيحية عدة تمثلت فيما يلي :

١ – رفض من لم تتوفر فيه الشروط .

أعلن أهل التصوف – وبصورة مجملة – عدم صلاحية من لم تتوفر فيه الشروط السابقة جميعها للتصدر للمشيخة وقد جاء ذلك على لسان كثير منهم وفي أوقات مختلفة ، فقد أعلن ذلك الغزالي في القرن الخامس ، والشعراني في القرن العاشر ، وابن عجيبة في القرن الثالث عشر ، وأعلنه أيضا شيخنا الجليل د / عبد الحليم محمود في القرن العشرين (٣) .

والملفت للنظر أن الصوفية أعلنوا أن من سقط منه ولو شرطا واحدا لا يصلح للمشيخة ويدل على ذلك :

ما جاء عن أبي يزيد البسطامي حين قصد رجلا كان قد اشتهر بالولاية في عصره فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمي ببصاقة تجاه القبلة ،

---

(١) عوارف المعارف : ص ٢٠٤ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٥ – ٣٦ .

(٢) قواعد التصوف : ص ١٣٧ .

(٣) خلاصة التصانيف في التصوف : ص ١١٢ – ١١٣ ، والكوكب الشاهق : ص ٤٧ ، والأنوار القدسية : ص ٢١٠ – ٢١١ ، وإيقاظ الهمم : ص ١٢٩ ، وأبو البركات سيدي أحمد الدردير : ص ٩٣ ، وأبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٦٠ – ١٦١ .

فانصرف عنه ولم يسلم عليه وقال : " إنه غير مؤتمن على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟ (١) .

ويدل على ذلك أيضا رفض الإمام الجيلاني الشيخ إذا أفشي سر مريديه بل طالبه إذا فعل ذلك أن يعزل نفسه عن هذا المنصب وينفرد عن مريديه ويعود إلى مجاهدة نفسه ، وذلك بأن يطلب شيخا يؤدبه ويقومه لأنه لا يصلح أن يكون شيخا مع هذه الدواهي (٢) .

كذلك رفض ابن عجيبة الشيخ إذا ادعي المشيخة ولم يكن قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، وهو ما أكده بعضهم حين أنشد يقول :

إذا لم يكـن علـم لديـه بظاهـر
ولا باطن فاضرب به لجج البحر (٣)

٢ – المناداة بعدم اتباعهم :

نادى الصوفية ومنهم الجيلاني والسهروردي والشعراني والشيخ زروق وغيرهم في القديم والحديث إلى عدم مصاحبة من يدعى المشيخة ، كما نادوا بأن يأخذ المريد حذره من هؤلاء لأن مصاحبة مثل هؤلاء لا تعود على المريد بفائدة بل ربما أفضت به إلى مكر الله واستدراجه :

ويدل على ذلك قول الإمام الشعراني لأحد مريديه محذرا إياه " إياك أن تصحب أحدا من المدعين للطريق بلبس الزي أو تدعهم يأخذون عليك العهد فإنهم أكثر أذى من الثعبان وذلك لأنك تشهد الأذى من الثعبان فتأخذ منه حذرك ، ولا هكذا من تظاهر بالصلاح وهو في الباطن شيطان في زي إنسان " (٤) .

(١) الرسالة : ص ٣٩٦ .

(٢) الغنية : جـ ٢ ص ٤٣٣ .

(٣) الفتوحات الإلهية : ص ٩٥ ، والإبريز : ص ٤٠٠

(٤) الكوكب الشاهق : ص ٣٨ .

ويدل عليه أيضا تحذير الشيخ الدباغ من صحبة من يجمع الناس من أجل الطعام لا من أجل الله تعالى قائلا لا تتبع الشيخ ... إن كان يجمع الناس لأكل طعامه ... ولا تصحبه يا مريد أبدا .... وذلك لأنه لو كان يجمع الناس لأكل طعامه ولا أثر له فيهم بفتح فإن هذا يصير الاجتماع عليه لأجل طعامه ، لا لأجل الله عز وجل أما إذا كان يجمع الناس ليجمعهم على الله وله مع ذلك طعام فلا بأس بصحبة هذا واتباعه " (١) .

٣ – التبرؤ من الأدعياء .

لم يكتف الصوفية برفض هؤلاء الأدعياء والتحذير من صحبتهم بل تبرؤوا منهم أيضا ويدل على ذلك حكم الإمام الغزالي والجيلاني وابن عجيبة عليهم بأنهم أدعياء ولصقاء ، وبأنهم جهلاء منافقون ، وبأنهم أشرار وقطاع طرق " لادعائهم المراتب العالية وهم في الدركات السفلية " (٢) .

ثالثا : وراثة المشيخة وموقف الصوفية منها .

ظهرت في الطريق دعوى وراثة المشيخة ، وهي من الدعاوى التي عاني منها الطريق الصوفي في القديم ويقاسي منها في العصر الحاضر ، وقد تصدى أهل التصوف لهذه الدعوى وقاموا بجهود عدة في تصحيحها تمثلت فيما يلي :

١ – تحديد الأسباب :

من الجهود التي بذلها أهل التصوف في مواجهة هذه الظاهرة تحديدهم الأسباب التي أدت إلى ظهورها والتي منها .

الأول : اعتقاد أبناء المشايخ أنهم بمجرد كونهم أبناء المشايخ لابد وأن يكونوا مشايخ أيضا .

---

(١) الإبريز : ص ٤٠١ .

(٢) أبو البركات سيدي أحمد الدردير : ص ٩٣ ، وخلاصة التصانيف في التصوف : ص ١١٢ – ١١٣ ، والفتح الرباني : ص ١٤٨ – ١٤٩ ، والفتوحات الإلهية : ص ٩٥ .

الثاني : رفض أبناء المشايخ أن يكون الواحد منهم تابعا لمن كان تلميذا لوالده [١] .

الثالث : اعتقاد بعض أهل الطريق أن ولد الشيخ شيخ بالخاصية ، فإذا مات الشيخ المأذون سلموا لأحد أولاده أو أقاربه لاختلاط أمر الوراثة الإلهية بالوراثة الشرعية عندهم " فجعلوا الابن الصلب ، وهو الذي تورثه الشريعة ما خلفه الأب من مقتضيات الدنيا هو الذي يرث الأحوال الوهبية والعلوم اللدنية [٢]

٢ – الوراثة بين القبول والرفض .

ابن الشيخ إما أن تتوفر فيه الشروط التي اشترطها الصوفية في الشيخ المربي أو لا تتوفر : فأما إذا توفرت فيه فقد أعلن أهل التصوف أنه ليس هناك ما يمنع من وراثة المشيخة لتوفر الدليل على صحة ذلك الفعل فقد قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [٣] ، وقال تعالى على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [٤] [٥] .

أما إذا كان الابن لا تتوفر فيه الشروط الواجب توفرها فقد أعلن أهل التصوف رفض وراثة هذا الابن للمشيخة بدلا عن أبيه ، ولم يكتف الصوفية بذلك بل نادوا مثل هؤلاء بأن يطلبوا مشايخ يتربون على أيديهم ، وذلك لأن " الولاية والمشيخة المعروفة ما هي بالآباء والجدود ، وإنما هي موهبة من الله على [illegible] [٦] .

---

(١) الكواكب الشاهق : ص ٤٤ – ٤٥ .

(٢) الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٦ – ١٥٧ ، ومذكرة المرشدين : ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) سورة النمل آية ١٦ .

(٤) سورة مريم آية ٥ ، ٦ .

(٥) خصائص التصوف الإسلامي : ص ٢٤ .

(٦) الكوكب الشاهق : ص ٤٣ – ٤٤ .

ويذهب الشيخ ماضي أبو العزائم إلى أن التسليم لأبناء المشايخ بالمشيخة يعرضهم للهلاك والاغترار بالنفس والتكبر على العلم واحتقار العلماء ، كما يعد مثل هذا الصنيع إساءةً من التلاميذ لشيخهم لأنه جملهم بالعلم والعمل والحال ، وهم لم يحسنوا إليه في أولاده وأهله ، وكان الواجب عليهم أن يجتهدوا في تربية ابن الأستاذ أو من يكون من أهله تربية حقيقية ، علما وتهذيبا وعملا حتى يكون لسان صدق لوالده ووارثا لعلومه وأحواله [١] .

وقد طبق الصوفية عمليا ما أعلنوه نظريا فالشيخ منصور البطائحي [٢] رفض إعطاء المشيخة لابنه وأعطاها لابن أخته السيد أحمد الرفاعى [٣] ، وكذلك سلم الإمام أبو الحسن الشاذلي مع كثرة ولده الراية من بعده لأبي العباس المرسى ، وسلمها أبو العباس من بعده لياقوت العرش [٤] .

وعليه فقد أعلن الصوفية أن المرشد يخلفه خير أبنائه الروحانيين حالا وعملا وعلما ومعرفة ، وإذا توفرت تلك الخصوصيات في الابن الصلب فهو خير الخيرين لأنه جمع بين النسبين [٥] .

رابعاً : صحبة الأحداث وموقف الصوفية منها .

من الأخطاء التي اعترف أهل التصوف الحقّ بوقوع بعض مشايخ الطريق

---

(١) مذكرة المرشدين : ص ٦٥ .

(٢) منصور البطائحي خال السيد أحمد الرفاعي ، مات بالبطائح ، وانظر الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٢٩ ، وقلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر للعلامة السيد أبي الهدى محمد بن حسن الرفاعي الخالد الصيادي : ص ٤٤ ، خرج آياته وأحاديثه : الشيخ عبد الوارث محمد على ، منشورات محمد على بيضون دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

(٤) ياقوت العرش ولد في الحبشة وأخذ عن الشيخ أبي العباس المرسى وتوفي بالإسكندرية سنة ٧٠٧هـ ، انظر الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٣٩١ .

(٥) الإمام أبو العزائم المجدد الصوفي : ص ١٥٨ .

فيها صحبة الأحداث .

والحدث في اللغة هو الصغير أو الشاب الذي لا نبات له فيقال : " رجل حدث أي شاب ... وهؤلاء غلمان حُدثان أي أحداث وكل فتى من الناس والدواب والإبل حدث والأنثى حدثه والحديث الجديد من الأشياء " (١) .

والحدث يطلق ويراد به أيضا في الطريق الصوفي الصغير الذي لم يميز حقائق الأمور ، أو القريب عهد بالطريق ولو كان كهلا (٢) .

وصحبة الأحداث الأصل فيها كما صرح الصوفية وقبلهم جميع المسلمين الجواز ويدل عليه " خدمة أنس بن مالك ﷺ رسول الله ﷺ (٣) فهو ﷺ وإن كان معصوما فالأصل فيما يفعله الاقتداء حتى يرد ما يخصصه على حد تعبير ابن عجيبة ومع اعتراف الصوفية بجواز صحبة الأحداث فإن الصوفية حذروا منها (٤) ، وأعلنوا أنها من أصعب الآفات في هذا الطريق ، وأنها من النفوس والشياطين وأن من ابتلاه الله بشيء من هذا فإنه عبد أهانه الله ﷻ وخذله وعن نفسه شغله (٥)

ولم يكتف الصوفية بمجرد التحذير بل تعدى الأمر في بعض الأحيان إلى إعلان كفر من يجيز ذلك (٦) .

ولعله قد يفهم من هذا أن الصوفية يرفضون بدعوتهم هذا ما جاء الشرع بصحته ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك تماما فالصوفية حين رفضوا هذا الفعل إنما

---

(١) لسان العرب : جـ ٢ : ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية : ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٩ .

(٤) يستثني الصوفية حلق الذكر والدرس فإنهم يبيحون صحبة الأحداث فيها وبخاصة عند حضرة الإخوان . انظر الكواكب الشاهق : ص ٧٠ .

(٥) الرسالة : ص ٣٦٢ ، والأنوار القدسية : ص ٥٠ .

(٦) كشف المحجوب : جـ ٢ : ص ٦٦٥ .

رفضوه لمجموعة من الأسباب نصوا عليها من أهمها :

١ - أن صحبة الأحداث أدت إلى اعتقاد البعض حلول الحق سبحانه وتعالى فيهم وخاصة المرد منهم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (١) .

٢ - خوف الصوفية من أن تؤدى صحبة هؤلاء الأحداث إلى انشغال قلوب السالكين بهم عن الله تعالى (٢) .

٣ - خوفهم من أن تؤدي مصاحبتهم إلى سوء ظن الناس بهم ، ويعتمدون في ذلك على تحريم الإسلام وضع الإنسان نفسه في مواضع التهم (٣) .

وعليه فالصوفية ما رفضوا ذلك اعتراضا منهم على ما جاء الشرع بصحته ، وإنما رفضوه لما ترتب عليه من أضرار ، ولخوفهم من أن تؤدى صحبتهم إلى الانشغال عن الله بهم ، وإلى سوء ظن الناس بهم .

خامساً : صحبة النساء وموقف الصوفية منها :

من الآفات التي وقعت في الطريق الصوفي صحبة النساء والاختلاء بهن ، وهذه الآفة ظهرت في الطريق منذ وقت مبكر ، فقد أشار إليها أبو يعقوب يوسف ابن حسين الرازي ٣٠٤هـ ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آباذي ٣٦٦هـ . (٤)

وقد استمر ظهور هذه الآفة وخاصة في القرن التاسع ، فقد ذكر الشيخ محمد الغمري أن فرقة الأحمدية (٥) كانوا يأخذون العهد على النسوان ويصير أحدهم يختلي بهن في غيبة أزواجهن وتقول له يا أبي ، ويقول لها يا بنتي (٦).

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) الرسالة : ص ٣٦٢ ، والأنوار القدسية : ص ٥٠ ، والفتوحات الإلهية : ص ١٦٩ .

(٣) الكوكب الشاهق : ص ٧٠ ، والطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٥٦ ، ٢١٠ ، والأنوار القدسية : ص ٥١ .

(٥) الأحمدية فرقة تنسب إلى شيخها السيد أحمد البدوي ، ويطلق عليها البدوية أيضا . انظر الطرق الصوفية في مصر : ص ١٦٧ ، وهامش الكوكب الشاهق : هامش : ص ٣٩ .

(٦) الأنوار القدسية : ص ٥١ ، ولطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٣٩٧ .

أما في العصر الحديث فقد زادت هذه الآفة وبصورة بشعة في الطريق الصوفي ، فما نراه في الموالد من اختلاط واختلاء بالنساء الأجنبيات أمر يندى له الجبين ولا يرضى عنه الله ولا رسوله ولا يرضاه أهل التصوف الحق لا في القديم ولا في الحديث .

وقد تصدي أهل التصوف الحق لهذه الآفة فأعلنوا أنها لا تتصل بالتصوف لا من قريب ولا من بعيد ، وكذا أعلنوا تحريمهم لها ، بل وألفوا في ذلك كتباً منها " العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان " الذي ألفه الشيخ محمد الغمري وفيه حط على فرقة الأحمدية السابقة ذكرها لإباحتهم ذلك (١) .

وقد اعتمد الصوفية في رفض هذه الآفة وفي تحريمهم لها على ما جاء في القرآن الكريم من آيات كثيرة وفيها يحذر الحق سبحانه وتعالى من الاختلاط بالأجنبيات فضلا عن الاختلاء بهن من ذلك : قوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (٢) وعن هذه الآية يقول الإمام الشعراني : " خاطب الحق سبحانه وتعالى الصحابة رضي الله عنهم بقوله تعالى لهم في حق زوجات رسول الله ﷺ اللاتي هن أمهات المؤمنين : " إذا سألتموهن متاعا ... الآية فإذا كان هذا في حق خيار الناس من الأمة ، فكيف يدعي أحمق أن رؤية الأجانب من نساء مريديه مثلا لا تضره ، وهذه من رقة الدين (٣) .

وكذلك اعتمدوا على ما جاء عن النبي ﷺ من أحاديث يحذر فيها عن ذلك ومنها : قوله ﷺ : " لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم (٤) ، وقوله ﷺ :

---

(١) الأنوار القدسية : ص ٥١ ، وأصول الوصول جـ ١ ص ١٨١ – ١٨٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٣٩٨ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه : جـ ٣ ص ٢٦٦ كتاب النكاح باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم .

" إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرأيت الحمو (١) قال الحمو الموت " (٢) ، وقوله ﷺ : " ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما (٣) (٤) .

وهكذا وقف الصوفية يرفضون هذه الآفة ويحذرون من الوقوع فيها لرفض الشرع لها وتحذيره منها .

---

(١) الحمو : قيل هو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه ، وقيل أبو الزوج . انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٤ ص ١٤٢ كتاب السلام باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها .

(٢) صحيح البخاري : جـ ٣ ص ٢٦٦ كتاب النكاح باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ١ ص ٢٦ عن عمر بن الخطاب ، وأخرجه الحاكم في المستدرك : جـ ١ ص ١١٤ كتاب العلم عن عمر بن الخطاب بلفظ " لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان " ، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى : جـ ٧ ص ٩١ كتاب النكاح باب لا يخلون رجل بامرأة أجنبية عن عمر بن الخطاب .

(٤) لطائف المنن والأخلاق : ص ٣٩٧ .

الفصل الثاني

لفت الأنظار إلى تقويم المريدين

الفصل الثاني

لفت الأنظار إلى تقويم المريدين

تمهيد :

بعد أن تحدث الباحث في الفصل السابق عن جهود الصوفية التصحيحية في مجال تربية المربي ، يتحدث في هذا الفصل عن جهودهم في مجال تربية المريد ، ونقول بداية إن الاتجاه التصحيحي في مجال تربية المريد سار الصوفية فيه في اتجاهين اثنين :

الأول : يقوم على وضع طريقة للسلوك تضمن للمريد إذا التزم بها الوصول إلى غايته وأهدافه .

الثاني : يقوم على محاربة الأخطاء والانحرافات الناتجة عن عدم التزام المريد بما وضعه القوم من قواعد وآداب ، وهو ما سوف يحاول الباحث إيضاحه في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

المبحث الأول

طريقة القوم في تربية المريد

وضع الصوفية طريقة في تربية المريد اقتفوا فيها أثر الشرع كأساس لعملية التربية ، وهذه الطريقة تتم على مراحل بحيث لا يحق للمريد الانتقال من مرحلة إلى أخرى " قبل أن يجتاز بقوة المرحلة السابقة وقبل أن يقطع بنجاح المهام التي أوكلت إليه فيها " (١) . وهي على الترتيب التالي :

[أ] مرحلة الانتباه واليقظة :

الانتباه : وهو خروج العبد من حد الغفلة أول مقام بين يدي الله في

(١) د / عبد الله الشاذلي : قواعد السلوك جـ ١ ص ٣٠ ، ط ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م . بدون دار طبع .

عباداته (١) وهو يحدث في الغالب نتيجة حدوث موقف طارئ شديد يؤثر في نفس إنسان ما وفي كل كيانه ويقابله بالقبول والاستسلام وتحت قوته يعدل سيره ويبدأ فصلا جديدا من حياته " (٢) وذلك كالذي حدث لداود الطائي فقد روي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر تقول :

مقيـم إلى أن يبعـث الله خلقـه
لقاؤك لا يرجـى وأنت قـريب
تريـد تلاقـي كل يـوم وليلـة
وتبلى كما تبلى وأنت حبيب (٣)

فأثر كلامها في قلب داود رحمه الله فاعتزل وتعبد .

وتأتي أهمية هذه اليقظة في أنها يترتب عليها حالتان لهما أثر كبير في التوجه إلى سلوك الطريق هما الغيرة على الوقت الذي فات والحزن على التفريط في الخدمة " وعلى وقت لم يعمره بالعبادة أو الآداب فيندفع أكثر لتعويض ما فاته (٤) ، وهنا يتوجه بقلبه قاصدا تدارك ما فاته،وهنا تأتي مرحلة أخرى هي النية .

٢ – مرحلة النية .

النية هي المرحلة التالية لمرحلة الانتباه واليقظة وهي في اللغة تأتي بمعنى القصد والعزم ، وبمعنى التحول " من مكان إلى آخر " (٥) ، وبمعنى البعد ، وبمعنى الجد في طلب شيء ما (٦) .

---

(١) آداب المريدين : ص ٤٣ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٤٣ .

(٣) طبقات الأولياء لابن الملقن : ص ١٦٠ – ١٦١ ، وطبقات المناوي جـ ١ ص ١٩٢ .

(٤) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٤٦ ، ومنازل السائرين : ص١١ – ١٢ ، ص ٩٠ – ٩١ .

(٥) القاموس المحيط : جـ ٢ ص ١٠٠٦ .

(٦) المرجع السابق نفسه ، ومختار الصحاح : ص ٦٨٧ .

أما النية كمرحلة من مراحل السلوك فتطلق ويراد بها التوجه القلبي لسلوك الطريق الصوفي وذلك بانخلاع السالك عن المألوفات والعادات فضلا عن الإثم والغفلات (١) .

ويذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن جماع النية مع القصد " يكمن في التخلي عن غير المأمون ، والتجرد ومجانبة الأغراض والعلل ، وقطع الأسباب والحوائل وتلافي التفريط ، والبعد عن ذل الإكراه بل يدخل برضا وحب في كل بر وطاعة بلا فتور ، هذا كله مع توجه القصد للقلب والاجتهاد في الارتياض والاستسلام لمقتضى العلم بلا منازعة في أمره ونهيه ، وإجابة دواعي حكمه حسب نوعه وأن يتدارك الفائت ، ويعمر ما خرب ويبرم العزم (٢) ، على سلوك الطريق وهنا تبدأ مرحلة أخرى هي الإرادة .

٣ – مرحلة الإرادة :

الإرادة في اللغة تطلق ويراد بها الذهاب في طلب شيء والبحث عنه ، وتأتي بمعنى التفقد ، وبمعنى الحب والميل ، وبمعنى طلب الفعل ، وتأتي أيضا بمعنى الرجوع والانقياد (٣) .

أما الإرادة كمرحلة من مراحل السلوك في الطريق الصوفي فتطلق ويراد بها " نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وتعالى " (٤) بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل .

ويذكر الإمام القشيري أن هذه الإرادة تؤدى بصاحبها إلى كثرة المجاهدة وتحمل المصاعب ، كما تؤدي به إلى الرجوع إلى الله تعالى بالإنابة إليه والتوبة

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٤٩ ، ومنازل السائرين : ص ٦٥ .

(٣) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ٤٠٥ .

(٤) الرسالة : ص ٢٠٢ ، والتعريفات للجرجاني : ص ٢٦ .

من الذنوب وهي المرحلة التالية للإرادة [١] .

٤ – مرحلة التوبة :

التوبة في اللغة الرجوع عن الذنب [٢] .

والتوبة كمرحلة من مراحل السلوك تعنى " الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع ، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات عن الله ﷻ وعن جنته،وتركها مقرب إلى الله ﷻ وجنته [٣] .

وللتوبة شروط نص الشارع عليها هي :

أ – ترك الذنوب امتثالا لأمر الله تعالى .

ب – الندم على ما عمل من المخالفات .

ج – العزم والتصميم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي

د – رد المظالم إلى أصحابها أو التحلل منها [٤] .

وتأتي أهمية التوبة في بداية السلوك في أنها تخلص صاحبها من الذنوب وتقود النفس إلى الطاعة بخطام الرغبة وتردها عن المعاصي بزمام الرهبة [٥]

٥ – مرحلة البحث عن الشيخ المربي :

بعد التنبه واليقظة وبعد العزم والقصد وإرادة سلوك الطريق وبعد التوبة من الذنوب والمعاصي تأتي مرحلة البحث عن الشيخ المربي الذي تتوفر فيه الشروط السابق ذكرها ، والبحث عن الشيخ المربي يكون بداية في البلد الذي يعيش

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٢٠٢ .

(٢) المعجم الوسيط : جـ ١ ص ١١٠ ، ومختار الصحاح : ص ٨٠ .

(٣) الغنية : جـ ١ ص ١٤٧ – ١٤٨ .

(٤) حياة القلوب : ص ١٢٢ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٨٨ .

فيها فإذا وجده فبها ونعمت وإلا فعليه " أن يهاجر من بلده إلى من هو منصوب لإرشاد المريدين في ذلك الزمان ولو كان بينه وبينه مسيرة سنة وأكثر " (١) .

وقد ذكر الصوفية أن المريد إذا وجد الشيخ المربي ألقى بنفسه إليه ، وهنا تبدأ مرحلة جديدة يقوم فيها الشيخ بالارتقاء بذوق المريد والأخذ بيده نحو الحق وليؤهله لتلقي المواهب والمنح والمعارف والكشوف وتمتاز هذه المرحلة بأنها مضبوطة ومحددة بما يجب على الشيخ عمله وبما يجب على المريد فعله .

أما ما يجب على الشيخ :

فقد ذكر الصوفية أن المريد إذا ألقى بنفسه إلى الشيخ المربي فإنه " يلزم الشيخ أن يعرف المريد كيفية الرجوع (٢) إلى الله والتوبة إليه .

وهذه التوبة تختلف عن التوبة الأولى والتي تسبق مرحلة البحث عن الشيخ المربي ، فالأولى من الذنوب والثانية لسلوك الطريق وبعد المطالبة بالتوبة تأتي مرحلة المطالبة بتصحيح العقيدة ، فقد ذكروا أن الشيخ يجب عليه أن يطالب المريد بتصحيح عقيدته ، والتصحيح كما يرى الصوفية يكون على طريقة السلف الصالح لأنه " أحسن المذاهب في الاعتقاد " (٣) .

وبعد تصحيح المريد عقيدته يطالبه الشيخ بتعلم العلوم الشرعية التي تمكنه من " تأديته فرضه ونفله (٤) ، وقد نص الصوفية على أن تعلم العلوم الشرعية ليس أمراً اختياريا " بل هو واجب يفرضه السلوك على المريدين (٥) .

---

(١) الأنوار القدسية : ص ٤٧ ، والرسالة : ص ٣٨٠ ، وآداب المريدين : ص ٥٢ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٥ ، ٤٦ .

(٢) آداب المريدين : ص ٥٢ .

(٣) الفتوحات الإلهية : ص ٨٣ ، والتعرف : ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٨٢ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٣ – ٣٤ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ١١٢ .

وبالرغم من تبحر القوم في العلوم الشرعية فإنهم لم يزاحموا رجال التربية الشرعية فيها ، ويدل على ذلك توصيتهم المريدين " أن يذهبوا إلى المتخصصين في تلك العلوم [١] ، ويوضح ذلك الإمام الجيلاني حين يقول : " الشيوخ اثنان : شيخ الحكم وشيخ العلم . شيخ من الخلق يدلك على باب قرب الحق ﷻ ، بابان لابد لك من الدخول فيهما ، باب الخلق وباب الحق باب الدنيا وباب الآخرة ، أحدهما تبع للآخر ، باب الخلق أولا ، وباب الحق ﷻ ثانيا ، ما ترى الباب الأخير حتى تجوز من الباب الأول ، أخرج بقلبك من الدنيا حتى تدخل إلى الأخرى ، اخدم شيخ الحكم حتى يدخل بك إلى شيخ العلم ، اخرج من الخلق حتى تعرف الحق ﷻ ، وهي درجات درجة بعد درجة [٢] .

وبعد أن يتلقى المريد العلوم الشرعية يأخذ المربي بيد المريد إلى طريق المجاهدة والرياضة لنفي " الخصال الذميمة وتبديلها بالأفعال والأحوال الحميدة [٣]

وتبدأ المجاهدة بفطم النفس عن مألوف العادات ومُخالفتها برفض ما تهواه وإلزامها بما يشق عليها ومحاسبتها على جميع حركاتها وسكناتها [٤] ولومها على التقصير ، ومعاقبتها بحرمانها مما كان سببا في وقوعها في المعصية وإلزامها بما يؤدي إلى منعها من الوقوع فيها تارة أخرى [٥] .

وأما رياضة النفس فيهدف الصوفية منها " التحكم في النفس والسيطرة عليها [٦] ، ولرياضة النفس أصول : هي الجوع ، والسهر والصمت والخلوة ،

---

(١) المرجع السابق : جـ ٤ ص ١١٤ .

(٢) الفتح الرباني : ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٣) الرسالة : ص ٧٣ .

(٤) الإحياء : جـ ٤ ص ٦٢٠ .

(٥) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٦٢٢ .

(٦) المعجم الصوفي : ص ٧٢٤ .

والسياحة ، والسفر ، ودوام الذكر والالتزام بالأوراد ، والالتزام بالمقامات والأحوال ، والخدمة ، والشيخ المرشد ، وقد تحدثنا عن هذه الأمور وعن أهميتها في تزكية النفس في الفصول السابقة فلا داعي للتكرار .

المبحث الثاني

آداب المــريد مع الشــيخ

بعد أن تحدث الباحث في المبحث السابق عن مراحل التربية في الطريق الصوفي ، يتحدث في هذا المبحث وبصورة موجزة عن الآداب التي طالب الصوفية المريد بالالتزام بها تجاه شيخه لكي تنظم العلاقة بينهما وتؤتي العملية التربوية ثمارها المرجوة منها .

وبداية نقول إن الصوفية يستقون هذه الآداب من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل الصحابة مع رسول الله ﷺ ويعتمدون في ذلك على ما جاء في بداية سورة الحجرات وغيرها من السور الأخرى ، وعلى ما جاء في السنة النبوية من دعوته ﷺ إلى احترام العلماء وإجلالهم ، وعلى ما جاء عن الصحابة وفيه يبينون ما كانوا يفعلونه معه ﷺ (١).

ونقول أيضا : إن هذه الآداب كثيرة جدا ويدل على ذلك أن الإمام الشعراني ذكرها في مؤلفين له هما :" الأنوار القدسية " ، والكوكب الشاهق "

ولكننا سوف نكتفي بذكر أهم هذه الآداب والتي منها .

١ – التعرف على الشيخ بمعنى أن يتفحص المريد منزلته وما إذا كان واسع الفقه والعلم أم لا ؟ ، وذلك لأن الشيخ إذا كان واسع العلم والفقه وكان مستنير البصيرة استطاع أن يكشف لمريده بنور قلبه وخبرته أمراضه وأدواءه ويصف له علاجها (٢)

٢ – أن يعتقد أنه لا أحق منه بتربيته في زمنه ، وذلك لأنه كلما أيقين

---

(١) يدل على ما ذكرناه ما قام به السهروردي في عوارف المعارف فقد استقى هذه الآداب من خلال أوائل سورة الحجرات فليرجع إليه . عوارف المعارف : ص ١٩٨ – ٢٠٣ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٩٦ .

تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته وعلى قدر المحبة تكون سراية الحال (١) ، كما أن المريد " إذا دخل في صحبة شيخ وهو يرى أن هناك من هو أفضل منه فإنه لا ينتفع لا بالأول ولا بالثاني " (٢) .

٣ - أن لا يدخل على شيخه إلا وهو متخليا عن كل ما يشغله عن قواعد التربية وضرورات السلوك ، وعن كل ما يشوش قلبه أو يلهيه عن التعمق الباطني في نفسه ، وأن يكون متخليا عن كل الحظوظ والشهوات البهيمية ، وأن يأتي بنية الاهتداء والتربية لا لشيء آخر من أكل وشرب ووظيفة ونحو ذلك ، فإنه إذا دخل المريد في صحبة الشيخ من أجل هذه العلل فإنه لا يفلح أبدا (٣)

ويذكر الإمام الشعراني أن الشيخ إذا تفرس من المريد أنه أشرك في صحبته علة من العلل وجب عليه أن يخرجه عن ذلك ، ذلك لأن تربية اليقين للمريد مقدمة على الاشتغال مع الجماعة بالذكر وغيره (٤) .

٤ - ومن الآداب أيضا أن لا يبالغ المريد في كمال شيخه ، وأن لا يعتقد فيه العصمة (٥) ، وهذا الأدب يعتبر ردا على الذين يتهمون الصوفية بأنهم يعتقدون جميعاً العصمة لمشايخهم ، ويعتبر في الوقت ذاته تصدي للمنحرفين الذين دانوا بالعصمة للمشايخ والأئمة .

وترجع مناداة الصوفية بذلك لأمرين :

الأول : أن العصمة كما ذكر أهل السنة والجماعة وشاركهم فيها أهل التصوف الحق لا تجب إلا للأنبياء فلا عصمة إلا لنبي .

---

(١) عوارف المعارف : ص ٢٠٢

(٢) الإبريز : ص ٤٠٢ .

(٣) الأنوار القدسية : ص ١٥١ - ١٦١ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٦١ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٢٩٧

(٥) الرسالة : ص ٣٦١ ، والأنوار القدسية : ص ١٢٧ .

الثاني : أن المريد إذا اعتقد في شيخه العصمة ثم رأى منه ما يخالف ذلك وقع في الاعتراض والاضطراب اللذين يسببان له القطيعة والحرمان (١) .

ومع أن الصوفية قد نادوا بعدم المبالغة في كمال المشايخ ، وبعدم الاعتقاد بعصمتهم فإنهم نادوا في الوقت ذاته بأن لا يضع المريد " بين عينيه دائما احتمال خطأ شيخه في كل أمر من أوامره أو توجيه من توجيهاته لأنه بذلك يمنع نفسه الاستفادة " (٢) .

٥ – الخضوع برضا والاستسلام للشيخ والالتزام بما يأمر به ، وعدم التصرف في النفس والمال إلا بمراجعته (٣) .

ويجب أن يعلم أن هذا الخضوع أو هذا الاستسلام " ليس من باب الانقياد الأعمى الذي يهمل فيه المرء عقله ويتخلى عن شخصيته ، ولكن من باب التسليم لذي الاختصاص والخبرة بعد الإيمان الجازم بمقدمات فكرية أساسية منها التصديق الراسخ بإذنه وأهليته واختصاصه وحكمته ورحمته ، وأنه جمع بين الشريعة والحقيقة ... الخ ، وأنه يشبه تماما استسلام المريض لطبيبه استسلاما كليا في جميع معالجاته وتوصياته ولا يعد المريض في هذا الحال مهملا لعقله متخليا عن كيانه وشخصيته ، بل يعتبر منصفا عاقلا لأنه أسلم نفسه لذي الاختصاص ، وكان صادقا في طلب الشفاء (٤) .

٦ – أن لا يعترض على شيخه في طريق تربية مريديه لأنه مجتهد في هذا الباب عن علم واختصاص وخبرة ، كما لا ينبغي أن يفتح على نفسه باب النقد لكل تصرف من تصرفات شيخه فهذا من شأنه أن يضعف ثقته به ويحجب

(١) حقائق عن التصوف : ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) عوارف المعارف : ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٤) حقائق عن التصوف : ص ٨٣ – ٨٤ .

عنه خيرا كثيرا ويقطع الصلة القلبية والمدد الروحي بينه وبين شيخه (١) .

ويذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن الصوفية في الدعوة إلى هذا الأدب وضعوا أنفسهم أمام حقيقيتين :

الأولي : أنهم وضعوا أمام أعينهم حال المريد في بدايته ، وأنه مليء بالعلل والآفات وأنه طالب ومتوجه إلى الله ليكون معه في صلة نقية ، وليلقاه في طاعته وعبادته بقلب سليم ، والنفس في بداية السلوك والمجاهدة شديدة النفور ، عنيدة الانصياع والشيخ طبيب يداوي هذه العلل والآفات فعلى المريد أن يستمع لنصح طبيبه في هذا المضمار .

الثانية : وهي التي أشار إليها أبو بكر الترمذي في قوله " من لم ترضه أوامر المشايخ وتأديبهم فإنه لا يتأدب بكتاب ولا سنة " (٢) .

وهذا يعنى أن المشايخ كانوا يؤدبون المريدين نفسيا وخلقيا ليستقيم حالهم ، ويستطيعون العمل بآداب الكتاب والسنة على وجه صحيح وبلا عوارض وعقبات من داخلهم أوخارجهم وكأنهم ينظفون الطريق أمام المريدين ليعملوا عملا مستقيما في ظاهره نقيا مخلصا في باطنه ، ومن فعل ذلك وجب على كل سالك أن يستجيب له لأن مقدمات العمل ضرورية إذ لا يتم إلا بها (٣) .

٧ – أن يلزم السكوت بحضرة الشيخ إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة في ذلك ، وذلك لأن تطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه وذلك جناية المريد (٤) .

٨ – أن لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه

---

(١) حقائق عن التصوف : ص ٨٤ ، والأنوار القدسية : ص ١٤٢ .

(٢) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ ٤ ص ٣٠١ ، وطبقات الصوفية للسلمي ص ٦٧

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٩٩ .

الشيخ ، وذلك لأن رفع الصوت تنحية جلباب الوقار [١] .

٩ – أن يؤول أفعال شيخه التي ربما يفهم أحد من مظاهرها الفساد على أحسن الوجوه ، فإن لم يجد تأويلا فليسلم للشيخ لأنه ربما أطلع مريده على أمور لا حقيقة لها ، ولا يطلع الشيخ المريد على شيء مما يخالف الظاهر إلا لحكمة كما في قصة موسى والخضر عليهما السلام [٢] .

١٠ – أن يسأل شيخه عن كل ما استشكل أو أبهم عليه ، وذلك لأن المريد إذا سكت تشوش قلبه بالأمر المستغلق أو شغل بالمبهم فينصرف بذلك عن مقصوده في التربية فالأولى له أن يسأل ليستريح ويطمئن ، ويأخذ فيما هو فيه [٣] .

١١ – أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحي من كشفه يذكره إيماءً وتعريضا [٤] .

وللمصارحة والمكاشفة فوائد منها :

[أ] أن المريد متي انطوى ضميره على شيء لا يكشفه يصير على باطنه منه عقدة في الطريق وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول .

[ب] أن الشيخ بما أعطاه الله تعالى من علم يمكنه أن يعرفه إن كانت الواقعة من الله تعالى بإمضائه لها ، أو يعرفه ما فيها من شبه حتى تزول .

[ج] اكتساب المريد بالمصارحة علما بصحة الوقائع والكشوف [٥] .

---

(١) المرجع السابق نفسه ، وتحفة الإخوان : ص ٧ ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ص ١٧٥ .

(٢) عوارف المعارف : ص ٢٠١ ، الأنوار القدسية : ص ١٦٩ .

(٣) عوارف المعارف : ص ٢٠٢ ، وحقائق عن التصوف : ص ٨٤ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣٠٦ .

(٤) عوارف المعارف : ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٠٣ ، والأنوار القدسية : ص ١٢٤ .

ويذكر أستاذنا أ . د / عبد الله الشاذلي أن الصوفية في الدعوة إلى المصارحة إنما يقتدون في ذلك بصحابة رسول الله ﷺ عندما كانوا يشكون حالهم إلى الرسول ﷺ (١) .

١٢ – أن يحترم شيخه وأن يجله ويقدره ، " وأن يحفظ للشيخ غيبته حاضرا وغائبا ، قريبا أو بعيدا ، وأن ينظر إليه بعين الإكبار والإعجاب في علمه وسمته وخلقه وبركته " (٢) ، وأن " يراعي خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها " (٣) ، وأن يعمل على إرضاء الشيخ ولا يسخطه ، ومن شأنه أنه إذا قابله الشيخ بالجفاء وعدم الاحتفال بأمره صبر ، فربما فعل الشيخ معه ذلك ليريه عزة الطريق ليدخل إليها بالتعظيم ولا يستهين بها (٤) .

والصوفية في الدعوة إلى احترام الشيخ وتقديره إنما يقتدون في ذلك بالنبي ﷺ حين دعا إلى تقدير من يعلمنا الخير ، فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " (٥) (٦) .

كما اقتدوا في ذلك بما كان يفعله الصحابة مع رسول الله ﷺ ، فقد روي أن عبد الله بن مسعود كان صاحب الوسادة والسواك والنعلين والطهور لرسول الله ﷺ في السفر ، وكان يلبس الرسول ﷺ النعلين ويمشي أمامه بالعصي ، وكذلك اقتدوا بما كان يفعله التلاميذ مع أساتذتهم في كل عصر ومصر من احترام وتقدير

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣٠٩ ، والرسالة : ص ٣٨٣ ، وتحفة الإخوان : ص ٨ .

(٣) عوارف المعارف : ص ٢٠٣ .

(٤) الأنوار القدسية : ص ١٢٥ ، والرسالة : ص ٣٦٣ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : جـ ٢ ص ١٨٥ عن عبد الله بن عمر ، والحاكم في المستدرك : جـ ١ ص : ١٢٢ كتاب العلم عن عبادة بن الصامت .

(٦) عوارف المعارف : ص ٢٠٣ .

وتعظيم وحب (١) .

وبعد فهذه بعض الآداب التي ينبغي على المريد مراعاتها والتحلي بها في التعامل مع شيخه حتى تتم العملية التربوية في جو هادئ ، وحتى تثمر ثمرتها المرجوة منها ، وهي في مجملها فضائل وأخلاق تدعو لتكريم الشيخ وطاعته لأنه معلم ، ومن حق المعلم أن يقدر ويحترم ، غير أن تلك الطاعة يجب أن تكون في حدود دائرة المعروف فإذا أملى الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته ، أما إذا أملي أو علّم ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولأنه ليس أحد معصوما إلا رسول الله ﷺ .

---

(١) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣١٠ ، وصفوة التصوف : جـ ١ ص ١٦٧ – ١٦٨ ، والشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الكلامية : جـ ٢ ص ٥٣١ .

المبحث الثالث

تصحيـح الأخطـاء

بعد أن تحدث الباحث عن مراحل التربية في الطريق الصوفي ، وعن الآداب التي يلزم المريد الالتزام بها تجاه شيخه ، يتحدث في هذا المبحث عن الأخطاء التي وقع فيها بعض الصوفية وتتعلق بهذه القواعد والآداب وعن تصحيح الصوفية لها .

أولا : ترك التوبة :

التوبة كما قلنا من أولى مراحل السلوك في الطريق الصوفي فقد أجمع الصوفية على أن المريد إذا أراد سلوك الطريق وجب عليه أن يتوب إلى الله تعالى من كل زلة ولكن الإمام الشعراني يذكر أن هذا الباب قد أغفله غالب الناس في عصره فصاروا يأخذون العهد على المريد وعليه الذنوب الظاهرة والباطنة فضلا عن حقوق العباد في المال والعرض " (١) .

وهو الأمر الذي رفضه ونادى المشايخ أن لا يعطوا العهد للمريدين قبل التوبة مبينا أن من يدخل في الطريق بلا توبة لا يقدر أن يسير فيه خطوة ولو كان شيخه من أكابر الأولياء (٢) .

ثانيا : المجاهدة قبل العلم .

ذكرنا أن تحصيل العلوم الشرعية كمرحلة من مراحل السلوك تسبق مرحلة المجاهدة ، ولكن بعض الصوفية في القديم والحديث يقبلون على المجاهدة قبل تحصيل العلم الشرعي ، وهو الأمر الذي تنبه له الصوفية منذ وقت مبكر فرفضوه وحذروا منه ، وأعلنوا أنه لا يفعل ذلك إلا " المتصوفة الجاهلون " (٣)

---

(١) الأنوار القدسية : ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٤٠ .

، وبأن من يسلك قبل العلم " يشكل عليه طريق الحق والباطل ".(١) ، وبأن العمل لا يكون عملا إلا حين يكون موصولا بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجها لثواب الحق ، مثال ذلك الصلاة ، فإنه ما لم يكن العلم أولا بأركان الطهارة ، ومعرفة الماء والقبلة وكيفية النية وأركان الصلاة ، فالصلاة لا تكون صلاة " (٢) .

ومما يدل على ذلك أيضا ربط الإمام الغزالي ومن بعده الشعراني بين تقديم المجاهدة على العلم وبين الوقوع في الخطأ وعدم الانتفاع بالمجاهدة ، بل إن الشعراني يذكر أن تقديم البعض للمجاهدة أدى بهم إلى التزندق وأكل الحرام والشبهات (٣)

ولم يكتف الصوفية بإعلان رفض تقديم المجاهدة على العلم بل حذروا أيضا من مصاحبة مثل هؤلاء ، فيحيى بن معاذ الرازي يقول : " اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس العلماء الغافلون والقراء المداهنون والمتصوفة الجاهلون الذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض دينهم " (٤) .

ومما يؤكد ذلك أيضا ما جاء عن أبي الحسن الشاذلي من أنه كان يقول : " من لم يتبحر في علوم الشريعة حتى يصير يقاطع أكابر العلماء بالحجج الواضحة في مجلس المناظرة فلا يطلب صحبتنا (٥) .

ثالثا : المطالبة بنبذ العلم :

إن بعضا ممن ينتمون إلى هذا الطريق كما يذكر الهجويري نادوا بنبذ العلم كلية وقالوا : " إن علمنا لا يصح بشيء ، فترك العلم أتم لنا من إثباته " (٦)

---

(١) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٣) الإحياء : جـ ٣ ص ٦٢٨ ، والكوكب الشاهق : ص ٣٤ – ٣٥ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ١٤٠ .

(٥) الكوكب الشاهق : ص ٣٤ .

(٦) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢٠٩ .

وما أشار إليه الهجويري في القرن الخامس الهجري أشار إليه بعد ذلك ابن الجوزي في تلبيس إبليس مما يؤكد أن الصوفية كانوا سباقين إلى التصحيح على غيرهم (١) .

وقد تصدى الإمام الهجويري لهذه الدعوى وبين زيفها فذكر :

أولا : أن هذه الدعوى ليست جديدة وإنما سبق السوفسطائيون (٢) هؤلاء الأدعياء في الدعوة إليها .

ثانيا : أن هذه الدعوى من حمق هؤلاء وضلالهم وجهلهم لتناقضها مع العقل وذلك لأن ترك العلم لا يخرج عن اثنين : إما أن يكون بعلم أو بجهل والعلم لا ينفي العلم ولا يكون ضده ، وترك العلم بالعلم محال .

ويبقي هنا الجهل ، فإذا صح نفي العلم يكون جهلا ، وأن تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكفر ، فإن قولهم هذا يكون باطلا .

٣ – أن هذه الدعوى تتناقض مع دعوة القرآن والسنة لطلب العلم ومدحهما العلماء من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ (٣) وقوله ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (٤) .

٤ – أن هذه الدعوى تخالف ما جاء عن مشايخ الصوفية من الدعوة إلى طلب العلم من ذلك :

قول أبي على الثقفي ٣٢٨ هـ " العلم حياة القلب من الجهل ونور العين

---

(١) تلبيس إبليس : ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

(٢) السوفسطائيون : طائفة من المعلمين كانوا متفرقين في بلاد اليونان اتخذوا التدريس حرفة فكانوا يرحلون من بلد إلى بلد يلقون المحاضرات والمقياس الذي قامت عليه فلسفتهم هو أن الإنسان مقياس كل شيء . انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم : ص ٤٥ – ٤٩ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٤) الحديث سبق تخريجه .

من الظلمة " (١) .

وقول أبي بكر الوراق : " من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تفنن في هذه الأمور كلها تخلص " (٢) .

وقول جعفر بن محمد بن نصير الخواص ٣٤٨ هـ : " لا يكره العلم إلا منقوص " (٣) .

ونختم كلامنا بهذا النص للإمام الهجويري وفيه يبين احترام أهل التصوف الحق للعلم قائلا : " من لا يتعلم ويصر على الجهل يكون مشركا " (٤) .

رابعا : المبالغة في تعظيم المشايخ .

ذكرنا أن الصوفية نادوا بعدم المبالغة في تعظيم المشايخ ، ومع ذلك فقد بالغ البعض في ذلك ونظروا إليهم على أنهم وجه الحق ، أو مظهر روح الأنبياء أو النظر إليهم على أنهم أرواح مقدسون ، وأنهم إذا تحدثوا فالذي يتحدث هو الحق من خلال أصواتهم ، وأنهم إذا دعوا فإن دعاءهم لا يكون كدعائنا لأن كلامهم وقولهم قول الحق (٥) .

كما غالى البعض في النظر إلى العلاقة بين المريد والشيخ فذكروا أنها ليست علاقة بين مرشد وطالب ولا بين معلم ومتعلم ، وإنما هي علاقة بين سر ربوي وبين مخلوق بشري يقترب من هذا السر ليستفيد منه ويستضيء بهديه

---

(١) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢١١ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٤) كشف المحجوب : جـ ١ ص ٢١٣ .

(٥) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٤١١ – ٤١٢ .

ونوره ، واعتبارهم تلك العلاقة معبرا لا يمكن تجاوزه لمن يحاول الوصول إلى الله وأنه لن يغترف من عذوبة السيل حتى يذوق من قطراته التي سكبها على رأسه (١) .

وقد تصدي أهل التصوف الحق لمثل هذه المبالغات فرفضوها رفضا تاما ومما يدل على ذلك أن أهل التصوف نادوا كما قلنا بأن لا يبالغ المريد في النظر إلى شيخه ، بل ضرب الصوفية المثل على ذلك فقد كانوا يكرهون كل فعل يدل على تعظيمهم ككراهيتهم " تقبيل الناس لأيديهم ، وكراهية نزول الناس عن دوابهم إذا رأوهم ونحو ذلك " (٢) ، بل كان الأمر يصل في بعض الأحيان إلى مقت من يفعل ذلك ، بل وتوجيه اللوم على كل من ظنوا رضاه بتعظيم الناس له ، فقد روي أن أبا يزيد كان إذا خرج إلى السوق يتزاحم الناس عليه فلامه بعض أصحابه فقال : " إنهم لا يتبركون بأبي يزيد وإنما يتبركون بخعلة الله على " (٣)

ومما يدل على ذلك أيضا مناداة الصوفية الشيخ إذا رأى جماعته " يبالغون في تعظيمه أن يزجرهم وإلا خيف عليه النفي والإخراج (٤) .

وقد أعلن أهل التصوف عن أسباب رفضهم هذا الأمر وحصروها في :

١ – كراهيتهم مزاحمة الحق تعالى في مشاركة الخلق له في مسمى التعظيم ، فهم يحبون أن يكون التعظيم كله لله تعالى لا لعباده (٥) .

٢ – خوفهم من أن يجر ذلك التعظيم إلى أن يبقي عند الناس حزازة أو إنكاراً عليهم أو على مشايخهم ، أو يؤدى ذلك إلى السخرية منهم ومن مشايخهم

(١) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٣١٢ – ٣١٣ ، والطبقات الكبرى للشعراني : جـ ٢ ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، جـ ٢ ص ٤١٣ – ٤١٤ .

(٢) الكوكب الشاهق : ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٥) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤١٠ .

وعن هذا الأمر يقول الشعراني : " وقد وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته ، فاحتاج إلى طراحة ولحاف وليس معه مال ، فأتي التاجر بكيس فيه من شعر رأس شيخه رهنا على الثمن ، فسخر به التاجر ، وقال لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بجديد ، فمكث أهل السوق يضحكون على ذلك مدة ويسخرون منه طويلا [١] .

٣ – خوفهم من أن يجر ذلك التعظيم إلى أن يخلع المريد على شيخه مالا يصح .

ويستدل الإمام الشعراني على ذلك بما فعلته الشيعة مع الإمام على فيقول : " وقد بالغ الشيعة في تعظيم الإمام علي بن أبي طالب ﷺ فأحرقهم بالنار ، فصاروا يصيحون في النار الآن تحققنا أنك إله لأنه لا يحرق بالنار إلا الله ، فقال الإمام : اللهم اشهد أني زجرتهم جهدي " [٢] .

٤ – مخالفة ذلك لما جاء عن النبي ﷺ ولما جاء عن صحابته رضوان الله عليهم [٣] ، فالرسول ﷺ لم يطالب صحابته بالمبالغة في تعظيمه ، بل على العكس من ذلك تماما فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله " [٤] .

ونختم كلامنا بهذا النص للإمام الشعراني وفيه يدعو المشايخ في عصره وفي كل عصر بعدم التسامح مع من يبالغون في تعظيمهم فيقول : " إياك يا أخي من مسامحة أصحابك في المبالغة في تعظيمك ، فإن في ذلك مفاسد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك [٥] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٠٩ – ٤١٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤١٠ .

(٣) التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة : جـ ٤ ص ٣١٧ .

(٤) صحيح البخاري : جـ ٢ ص ٢٥٦ كتاب الأنبياء ، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها .

(٥) لطائف المنن والأخلاق للشعراني : ص ٤١٠ .

الفهـــارس

الموضــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	أ
أسباب اختيار الموضوع	ب
منهج البحث	ج
خطة البحث	ج
التمهيد	١
التعريف بكلمة جهود في اللغة والاصطلاح	١
مدلول كلمة فكرية	٢
مفهوم كلمة التصحيح	٣
معنى الطريق في اللغة والاصطلاح	٤
التعريف بالتصوف والصوفية	٦
اشتقاق كلمة التصوف	٦
الفريق الأول : القائلون بالاشتقاق	٦
اشتقاق الكلمة من الصف	٦
اشتقاق الكلمة من الصفاء	٧
اشتقاق الكلمة من الصفة	٨
اشتقاق الكلمة من (سوفيا) اليونانية	٩
اشتقاق الكلمة من صوفه (الغوث بن مر)	١٠
اشتقاق الكلمة من الصوف	١١
الجمع بين الآراء	١٤
الفريق الثاني : القائلون بعدم الاشتقاق	١٦
تعريف التصوف	١٨
الاتجاه الأول : التصوف والزهد	١٨

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الاتجاه الثاني : الاتجاه النفسي	١٩
الاتجاه الثالث : التصوف والعبادة	٢٠
الاتجاه الرابع : التصوف والأخلاق	٢١
الاتجاه الخامس : التصوف والكرامة	٢٢
الاتجاه السادس : تعريفات متعددة الجوانب	٢٣
التعريف الصحيح للتصوف	٢٤
الباب الأول : ســـمات التصحيـــح	
الفصل الأول : عوامل التصحيح	٢٧
تمهيد	٢٧
١ – قلة أهل الحق وتواريهم	٢٧
٢ – كثرة الأدعياء	٢٩
٣ – قصر التصوف على الرسوم والمظاهر	٣٠
٤ – الانحراف في المجال العقدي	٣٣
الانحراف في المجال التشريعي	٣٤
٦ – الانحراف في المجال الأخلاقي	٣٥
٧ – ظهور فرق ضلت وألفاظ شطحت	٣٦
٨ – قيام الفقهاء بالدعوة إلى نبذ التصوف والصوفية	٣٨
أ – بداية الهجوم واستمراره	٣٩
ب – أسباب هجوم الفقهاء على التصوف والصوفية	٤٠
الأسباب العامة	٤١
الأسباب الخاصة بأهل التصوف	٤١
الأسباب الخاصة بالفقهاء	٤٣
ما ترتب على هجوم الفقهاء	٤٥

رقم الصفحة	الموضـــــــــــوع
٤٧	٩ – تسرب الفلسفة على التصوف
٥٢	الفصل الثاني : مصادر التقويم
٥٢	تمهيد
٥٢	أولا : مصدرية الكتاب والسنة
٥٣	أ – الصلة بين المصدرين وعلم القوم
٥٤	ب – الملازمة الدائمة
٥٦	ج – ارتباط السلوك والثمار بالملازمة
٥٩	د – التبرؤ من المخالفين
٦١	التطبيق العملي
٦٢	ثانيا : أقوال السلف الصالح
٦٥	ثالثا : أقوال مشايخ الصوفية
٦٧	رابعا : العقل
٧٤	الفصل الثالث : خصائص التصحيح
٧٤	تمهيد
٧٤	الذاتية
٧٨	الأسبقية
٧٩	التعدد والتنوع
٨٠	التخصيص وعدم التعميم
٨٣	الغيرة دافع على النقد
٨٥	البعد عن الهوى والغرض
٨٨	حسن الظن بالمخطئ
٩١	عدم التسرع في التهمة
٩٥	إعادة الثقة بالطريق الصوفي

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
زاد الناقد الخارجي	٩٦
الباب الثاني : جهود تصحيح العقيدة	٩٨
الفصل الأول : تنقية العقيدة في مجال الإلهيات	٩٨
تمهيد	٩٨
المبحث الأول : الدعوة إلى التمسك بالعقيدة الصحيحة	١٠٠
المبحث الثاني : الاتجاه العقدي لدى الصوفية	١٠٠
الأول : الاتجاه السلفي	١٠٢
الثاني : الاتجاه السني	١٠٣
الثالث : الاتجاه الفلسفي	١٠٣
الاتفاق على السلفية	١٠٦
المبحث الثالث : موقف الصوفية من مسائل الإلهيات	١٠٦
الذات الإلهية	١٠٨
الصفات وموقف الصوفية منها	١٠٩
الصفات الخبرية موقف الصوفية منها	١١١
كلام الله ونظرة الصوفية منه	١١١
خلق القرآن وموقف الصوفية منه	١١٢
رؤية الله	١١٤
أفعال العباد وموقف الصوفية منها	١١٦
الصلاح والأصلح وموقف الصوفية منهما	١١٧
الوعد والوعيد وموقف الصوفية منهما	١١٩
الحسن والقبيح وموقف الصوفية منهما	١٢١
المبحث الرابع : التوحيد بين التعقل والتذوق	١٢٣
الطريق إلى ذوق لذة التوحيد والوجداني	١٢٦

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
مراحل التحقق بالتوحيد الوجداني	١٢٨
مميزات التوحيد الوجداني	١٣٠
المبحث الخامس ك تصحيح الأخطاء	١٣٠
أولا : الحلول وموقف الصوفية منه	١٣٠
الحلول في اللغة	١٣١
الحلول في الاصطلاح	١٣١
أقسام الحلول	١٣١
الأول : الحلول الذاتي	١٣٢
الثاني : الحلول الصفاتي	١٣٣
نشأة الحلول الذاتي الخاص	١٣٣
جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى الحلول	١٣٧
١ – رفض الحلول	١٣٧
٢ – موقف الصوفية من البسطامي والحلاج	١٤٢
أولا : موقف الصوفية من البسطامي	١٤٣
ثانيا : موقف الصوفية من الحلاج	١٤٨
٣ – التبرؤ من القائلين بالحلول	١٥٩
ثانيا : الاتحاد وموقف الصوفية منه	١٦٠
الاتحاد في اللغة	١٦٠
الاتحاد في الاصطلاح	١٦٠
الأول : الاتحاد الحقيقي	١٦٠
الثاني : الاتحاد المجازي	١٦٠
الاتحاد في المفهوم الصوفي	١٦١
نشأة الاتحاد	١٦٢

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
انتقال الاتحاد إلى الوسط الصوفي	١٦٢
جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى الاتحاد	١٦٧
١ – بيان الأسباب	١٦٧
٢ – رفض الاتحاد	١٦٨
٣ – موقف الصوفية من ابن الفارض	١٧٢
٤ – التبرؤ من القائلين بالاتحاد	١٨١
ثالثا : وحدة الوجود وموقف الصوفية منها	١٨٢
مفهوم الوحدة في اللغة	١٨٢
مفهوم الوحدة في الاصطلاح	١٨٢
صور وحدة الوجود	١٨٣
الأولى : وحدة الوجود المادية	١٨٣
الثانية : وحدة الوجود الروحية	١٨٣
وحدة الوجود في المفهوم الصوفي	١٨٣
نشأة وحدة الوجود	١٨٥
انتقال النظرية إلى الفكر الإسلامي	١٨٧
ابن عربي والقول بوحدة الوجود	١٨٩
جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بوحدة الوجود	١٩٢
١ – الفصل التام بين الخالق والمخلوق	١٩٢
٢ – رفض القول بوحدة الوجود	١٩٣
٣ – موقف الصوفية من ابن عربي	١٩٨
٤ – التبرؤ من أهل الوحدة	٢١٢
رابعا : رؤية الله بالأبصار في الدنيا وموقف الصوفية منها	٢١٤
جهود الصوفية في مواجهة دعوى الرؤية في الدنيا	٢١٤

الموضوع	رقم الصفحة
١ – تحديد الأسباب	٢١٥
٢ – الإجماع على الرفض	٢١٧
٣ – التبرؤ من القائلين بالرؤية البصرية في الدنيا	٢٢٠
خامسا : القول بالجبر وموقف الصوفية منه	٢٢١
جهود الصوفية التصحيحية في مواجهة دعوى الجبر	٢٢٣
١ – تحديد الأسباب	٢٢٣
٢ – رفض القول بالجبر	٢٢٣
٣ – موقف الصوفية من دعوى الجبر عند البسطامي والحلاج	٢٢٤
٤ – التبرؤ من القائلين بالجبر	٢٢٦
[illegible]	٢٢٧
تمهيد	٢٢٧
المبحث الأول : موقف الصوفية من مسائل النبوات	٢٢٧
المبحث الثاني : محاربة الانحرافات	٢٣٢
أولا : القول باكتساب النبوة	٢٣٢
جهود الصوفية التصحيحية فيما يتعلق بدعوى اكتساب النبوة	٢٣٥
١ – رفض الدعوى	٢٣٦
٢ – موقف الصوفية من السهروردي المقتول	٢٣٧
٣ – التبرؤ من القائلين بكسب النبوة	٢٣٨
ثانيا : دعوى عدم ختم النبوة	٢٤٠
جهود الصوفية في مواجهة دعوى ختم النبوة	٢٤٤
١ – رفض الدعوى	٢٤٤
٢ – موقف الصوفية من القائلين بعدم ختم النبوة	٢٤٦
٣ – التبرؤ من القائلين بعدم ختم النبوة	٢٥١

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
ثالثا : دعوى تفضيل الولاية على النبوة	٢٥٢
شبه القائلين بالتفضيل	٢٥٢
الأولى : دعواهم أن المرسل إليه أفضل من الرسول	٢٥٢
الثانية : التصور الخاطئ لقصة موسى منع الخضر عليهما السلام	٢٥٢
الثالثة : دعواهم أن التلقي عند الأولياء أفضل منه عند الأنبياء	٢٥٣
مواجهة الصوفية للفكرة	٢٥٤
١ – رد الشبه	٢٥٤
٢ – رفض الدعوى	٢٥٦
٣ – توجيه النصوص التي يوهم ظاهرها تفضيل الولاية على النبوة	٢٥٨
٤ – تعقب من نسب إليهم	٢٦٠
٥ – التبرؤ من القائلين بتفضيل الولاية على النبوة	٢٦٣
رابعا : ختم الولاية وأبرز القائلين بها	٢٦٤
الحكيم الترمذي	٢٦٤
ابن عربي	٢٦٥
أ – موقف الصوفية من عكرة ختم الولاية	٢٧١
ب – موقف الصوفية من دعوى تفضيل أحد على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .	٢٧٢
١ – إعلانهم أن مقام الصحبة أعلى المقامات	٢٧٢
٢ – إعلان الصوفية أن أبا بكر أفضل الأولياء المحمدين	٢٧٥
موقفنا موقفنا من دعوى الحكيم الترمذي	٢٧٧
محاولة دفاع هشه	٢٧٨
ج – موقف الصوفية من نصوص ابن عربي الموهمة بتفضيل الخاتم على الأنبياء والرسل	٢٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
خامسا : دعوى عصمة الأولياء	٢٨٥
جهود الصوفية التصحيحية	٢٨٥
١ – العصمة لا تكون إلا لنبي	٢٨٥
٢ – الحفظ للأولياء	٢٨٦
٣ – التفريق بن العصمة والحفظ	٢٨٨
٤ – توجيه بعض النصوص التي يوهك ظاهرها عصمة الأولياء	٢٨٩
المبحث الثالث : موقف الصوفية من مسائل السمعيات	٢٩٣
المبحث الرابع : القوم بقدم الروح وموقف الصوفية منه	٢٩٥
جهود الصوفية التصحيحية	٢٩٥
١ – رفض الدعوى	٢٩٦
٢ – التبرؤ من القائلين بقدم الروح	٢٩٨
الباب الثالث : جهودهم التصحيحية في المجال النفسي	٢٩٩
الفصل الأول : طريقة القوم في توجيه النفس	٢٩٩
تمهيد	٢٩٩
المبحث الأول : التعريف بالنفس	٣٠٠
أولا : النفس في اللغة	٣٠٠
ثانيا : النفس عند الفلاسفة	٣٠١
ثالثا : النفس عند المتكلمين	٣٠٢
رابعا : النفس في المنظور الصوفي	٣٠٤
المبحث الثاني : المجاهدة وسائلها والانحرافات المتعلقة بها وجهود الصوفية في مقاومتها	٣٠٦
تمهيد	٣٠٦
المجاهدة في اللغة	٣٠٧

الموضوع	رقم الصفحة
المجاهدة في الاصطلاح الصوفي	٣٠٧
وسائل المجاهدة	٣٠٨
١ – فطم النفس عن المألوفات	٣٠٨
٢ – مخالفة النفس	٣٠٩
٣ – المراقبة	٣١٠
٤ – المحاسبة	٣١١
٥ – اللوم والمعاتبة	٣١٢
المبالغة في لوم النفس موقف الصوفية منه	٣١٣
٦ – المعاقبة	٣١٧
المبالغة في المعاقبة وموقف الصوفية منها (الامتناع عن النكاح)	٣١٨
المبحث الثالث : الرياضة أصولها والانحرافات	٣٢٤
الرياضة في اللغة	٣٢٤
الرياضة في الاصطلاح الصوفي	٣٢٤
أصول الرياضة	٣٢٥
الأصل الأول : الجوع	٣٢٥
الغلو والإفراط في الجوع وموقف الصوفية منه	٣٢٧
١ – رفض الغلو	٣٢٧
٢ – الغاية من التقليل الترويض	٣٣٠
الأصل الثاني : السهر	٣٣٢
أخطاء السهر وتصحيح الصوفية لها	٣٣٤
الأصل الثالث : الصمت	٣٣٥
الأصل الرابع : الخلوة	٣٣٧
إشكال ورد	٣٣٩

الموضــــــــــــــــوع	رقم الصفحة
أخطاء الخلوة وتصحيح الصوفية لها	٣٤١
الأصل الخامس : الذكر	٣٤٤
شبه وأخطاء الذكر وتصحيح الصوفية لها	٣٤٧
أولا : شبه الذكر وتفنيد الصوفية لها	٣٤٧
الشبهة الأولى : دعوى بدعية الذكر بالاسم المفرد	٣٤٧
دفع الشبهة	٣٤٧
الشبهة الثانية : دهوى بدعية الحركة في الذكر	٣٥١
دفع الشبهة	٣٥١
الشبهة الثالثة : دعوى بدعية الاجتماع في الذكر وموقف الصوفية منها	٣٥٤
ثانيا : أخطاء الذكر ومحاربة الصوفية لها	٣٥٥
١ – تشويه حلقات الذكر بالرقص وآلات الطرب	٣٥٥
جهود الصوفية في مواجهة ذلك	٣٥٦
التفريق بين التمايل والحركة الاضطرارية والرقص المتعمد	٣٥٦
الأول : الرقص الحرام	٣٥٦
تحريم مشيخة الطرق الصوفية ذلك الرقص	٣٥٨
الثاني : الرقص المباح	٣٥٨
الثالث : الرقص المطلوب (الحركة يمينا وشمالا)	٣٥٩
٢ – تحريف أسماء الله أثناء الذكر	٣٦١
أ – ضبط الأذكار	٣٦١
ضبط الذكر بـــ " لا إله إلا الله "	٣٦١
ضبط الذكر بلفظ الجلالة " الله "	٣٦١
ب – التحذير من اللحن في الذكر	٣٦٢

الموضــــــوع	رقم الصفحة
ج – اللحن في الذكر بدعة محرمة	٣٦٣
الأصل السادس : التزام الأوراد	٣٦٣
أخطاء الأوراد وتصحيح الصوفية لها	٣٦٧
الأصل السابع : السفر	٣٦٩
أخطاء السفر وتصحيح الصوفية لها	٣٧١
الأصل الثامن : لزوم الشيخ المربي	٣٧٢
الأصل التاسع : الخدمة	٣٧٢
شبه حول الرياضة تفنيد الصوفية لها	٣٧٤
١ – الادعاء بأن الرياضة تحريم لما أحله الله	٣٧٤
٢ – الادعاء بتأثر الصوفية في الرياضة بالبوذية والبراهمية والنصرانية	٣٧٥
المبحث الرابع : مشاعر النفس الوجدانية وموقف الصوفية منها	٣٧٦
تمهيد	٣٧٦
أولا : ادعاء الوجد والتواجد وموقف الصوفية منهما	٣٧٦
الوَجْد في اللغة	٣٧٦
والوجد في الاصطلاح الصوفي	٣٧٦
١ – رفض ادعاء الوَجْد والتواجد	٣٧٩
٢ – العمل على كتم الوجد	٣٨١
٣ – رفض المخالفات الشرعية	٣٨١
ثانيا : شبه وأخطاء السماع وموقف الصوفية منها	٣٨٢
الشبهة الأولى : عدم شرعية السماع	٣٨٣
موقف الصوفية من دعوى عدم شرعية السماع	٣٨٣
أولا : سماع القرآن والأحاديث	٣٨٣

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
ثانيا : سماع الشعر	٣٨٤
ثالثا : سماع الشعر بالألحان	٣٨٦
تحريم السماع	٣٩٠
الشبهة الثانية : تفضيل الصوفية السماع على القرآن	٣٩٢
موقف الصوفية من هذه الشبهة	٣٩٣
أولا : اختلاف الصوفية حول السماع وتفضيل كثير منهم سماع القرآن على كل سماع	٣٩٣
ثانيا : اختيار البعض سماع القصائد على سماع القرآن	٣٩٥
إباحة السماع مطلقا وموقف الصوفية منه	٣٩٨
ثالثا : الشطح وموقف الصوفية منه	٣٩٩
١ – رفض الظاهر	٤٠٠
٢ – أهل الشطح أهل نقص وبداية لا أهل كما ونهاية	٤٠٢
٣ – عدم صلاحية أهل الشطح للقدوة والتربية	٤٠٣
٤ – التماس العذر للشاطحين	٤٠٣
٥ – تأويل العبارات الشاطحة	٤٠٧
٦ – نماذج من العبارات الشاطحة وتأويل الصوفية لها	٤٠٩
النموذج الأول :	٤٠٩
النموذج الثاني :	٤١٠
النموذج الثالث :	٤١٠
الفصل الثاني : تركيز التصحيح على الاستقامة ظاهرا وباطنا	٤١٢
تمهيد	٤١٢
الظاهر والباطن في اللغة	٤١٢
الظاهر والباطن في الاصطلاح الصوفي	٤١٣

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
أنواع الظاهر والباطن	٤١٤
النوع الأول : ظاهر الإنسان وباطنه	٤١٤
النوع الثاني : الشريعة والحقيقة	٤١٥
المبحث الأول : المشاكلة بين الظاهر والباطن	٤١٦
أولا : إصلاح الظاهر	٤١٦
١ – إصلاح الظاهر باجتناب النواهي	٤١٧
٢ – إصلاح الظاهر بامتثال الأوامر	٤١٨
ثانيا : إصلاح الباطن	٤١٩
المرحلة الأولى : مرحلة التخلية	٤١٩
المرحلة الثانية : مرحلة التحلية	٤٢١
المبحث الثاني : التلازم بين الحقيقة والشريعة	٤٢٥
١ – الدعوة إلى تعلم العلوم الشرعية	٤٢٦
٢ – التبحر في العلم شرط المشيخة	٤٢٨
٣ – الشريعة طريق الحقيقة	٤٢٨
٤ – التبرؤ من المنادين بالفصل	٤٢٩
المبحث الثالث : محاربة الانحرافات	٤٣١
أولا : المبالغة في الاهتمام بالظاهر	٤٣١
جهود الصوفية التصحيحية	٤٣١
١ – المبالغة رياء	٤٣٢
٢ – الصوفية قصاد حقيقة لا رسوم	٤٣٣
ثانيا : الاستغناء بالحقيقة عن الشريعة	٤٣٥
جهود الصوفية التصحيحية	٤٣٦
١ – رفض وإبطال الدعوى	٤٣٦

الموضوع	رقم الصفحة
٢ – تحديد الأسباب	٤٣٩
٣ – سقوط الكلفة لا التكاليف	٤٤١
٤ – التبرؤ من القائلين بسقوط التكاليف	٤٤٢
الباب الرابع : جهود التقويم للعملية التربوية	٤٤٤
التمهيد	٤٤٤
التربية في اللغة	٤٤٤
التربية في الاصطلاح الصوفي	٤٤٥
المربي في اللغة	٤٤٧
المربي في الاصطلاح	٤٤٧
المريد في اللغة	٤٤٧
المريد في الاصطلاح	٤٤٨
طرق التربية والتلقي في الطريق الصوفي	٤٤٩
أهداف التربية	٤٥٣
الفصل الأول : التوجيهات الخاصة بالمربين	٤٥٥
تمهيد	٤٥٥
المبحث الأول : مشروعية اتخاذ الشيخ المربي	٤٥٦
المبحث الثاني : شروط الشيخ المربي	٤٦١
المبحث الثالث : آداب الشيخ مع المريد	٤٦٤
المبحث الرابع : محاربة الانحرافات	٤٦٧
أولا : الشيخ المجذوب	٤٦٧
ثانيا : أدعياء المشيخة وموقف الصوفية منهم	٤٦٨
ثالثا : وراثة المشيخة وموقف الصوفية منها	٤٧١
رابعا : صحبة الأحداث وموقف الصوفية منها	٤٧٣

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
خامسا : صحبة النساء وموقف الصوفية منها	٤٧٥
الفصل الثاني : لفت الأنظار إلى تقويم المريدين	٤٧٨
تمهيد	٤٧٨
المبحث الأول : طريقة القوم في تربية المريد	٤٧٨
مراحل الطريق	٤٧٨
١ – مرحلة الانتباه واليقظة	٤٧٨
٢ – مرحلة النية	٤٧٩
٣ – مرحلة الإرادة	٤٨٠
٤ – مرحلة التوبة	٤٨١
٥ – مرحلة البحث عن الشيخ المربي	٤٨١
المبحث الثاني : آداب المريد مع الشيخ	٤٨٥
المبحث الثالث : تصحيح الأخطاء	٤٩٢
أولا : ترك التوبة	٤٩٢
ثانيا : المجاهدة قبل العلم	٤٩٢
ثالثا : المطالبة بنبذ العلم	٤٩٣
رابعا : المبالغة في تعظيم المشايخ	٤٩٥
الخاتمة	٤٩٨
المراجع	٥٠١
الفهارس	٥٣٢